شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث



١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس LE ٢٠٤٢٧ SCS
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والعشرون وهي الرازيّة

حَدّثَ الحارث بن همّامٍ قال: عُنيتُ مُذْ أَحْكَمْتُ تَدْبيري، وعَرَفْتُ قَبيلي مِنْ دَبيري، بأن أُصْغِيَ إلى الْعِظاتِ، وأُلْغِيَ الْكَلِمَ الْمُحْفِظَاتِ، لِأَتحَلّى بمحاسنِ الْأَخْلاقِ، وأَتخَلّى مِمّا يَسِمُ بالإخْلاقِ. وَمَا زِلْتُ آخُذُ نَفْسِي بِهَذَا الْأَدَبِ، وَأُخْمِدُ بهِ جَمْرَةَ الْغَضَبِ؛ حتى صارَ التّطَبّعُ فِيهِ طِبَاعاً، والتّكَلُّفُ لَهُ هَوًى مُطَاعاً.

عُنيت، أي شغلت. أحكمت: أتقنت. قَبيلي من دَبيري، أي ما أُقْبِلُ عليه من أمري وما أدبر عنه. ابن الأنباري: مايعرف قبيلاً من دَبيرٍ، أي مايعرف الإقبال من الأدبار، أي مايعرف ما أقبل به من القبَل إلى الصدر مما أدبر عنه. وقيل: معناه: مايعرف الشاة المقابلة من المدابرة، والمقابلة التي شُقّ أذنُها إلى قُدّام، والمُدابرة التي شق أذنها من مؤخّرها، وترك ماقطع معلقاً إلى خلف لا يَبين.

أُصغِي: أميل. العظات: هي المواعظ. أُلغي: أترك. الكَلِم: جمع كلمة. المحفِظات: المُغْضِبات. أتحلّى: أتزيّن وأتصف. وأتخلى: أزول وأتفرغ، وتخليت من كذا: تركته. يسم: يُجعل سِمة. الإخلاق: العيوب وتمزيق العِرْض وأصله في الثوب. أخمد: أسكن.

[الطبــع والتطبّع]

والتطّبع له فى الطبيعة أثر ،وإن لم تذهب الطبيعة بالجملة ، لأنه اتفقت العرب والعجم على قولهم : الطبع أملَك . وكان ملك من ملوك الفرس ، له وزير مجرّب حازم ، فكان يَعرف اليُمْن فى مشورته ، فهلك وقام ابنه بعده، فلم يرفع به رأساً، فذُكر له مكانته من أبيه، فقال : كان أبى يغلط فيه ، وسأريكم ذلك . فأحضره ، وقال له : أيُّهما أغلب على الرجلُ ؟ الأدب أو الطبيعة ؟ فقال : الطبيعة لأنها أصل والأدب فرع ،وكلّ فرع يرجع إلى أصله . فدعا الملك بسُفْرةٍ فوضعت، وأقبلت سنانير بأيديها الشمع، فوقفت حول السفرة، فقال له : اعتبر خطأك وضعف مذهبك ، متى كان أبو هذه السنانير شمّاعاً ؟ فقال له : أمهلنى فى الجواب إلى الليلة المقبلة ، فقال : لك ذلك . فخرج الوزير ، وأمر غلامه أن يسوق له فأرة فساقها حيّةً فربطها بخيط وعقدها فى سينيّة . فلما راح إلى الملك وضعها فى كمّه ، ودخل فأحضر السفرة والسنانير ألقى لها الوزير الفأرة ، فاستبّقت السنانير إليها، وتطاير الشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً . فقال للملك : كيف رأيت غلبه الطبع للأدب ! قال : صدقت ورجع له ما كان عليه أبوه . وقال ذو الإصبع :

كلّ امرىء راجع يوما لشيمتِه وأن تخلَّق أخلاقاً إلى حين(١)

وقال المتنبى :

أَبِى خلق الدنيا حبيباً تُديمه فماطابى منها حبيبا تردّه (٢) ؟
وأيسر مفعول فعلت تغيُّرا تـكلُّف شىء فى طباعك ضدّه

وقال العرجىّ :

يأيّها المتحلّى غـــير شيمته ومن شمائله التبديل والمَلَقُ (٣)

---

(١) من مفضيلته ٣١ ص ١٦٣ ، وفيه : « صائر » . (٢) ديوانه ٢ : ١٩ .
(٣) ديوانه ٣٣ ، وفيه : « ومن شمائله الإقتصار » .

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه[١] إنّ التخلّق يأتي دونه الخُلُقُ

وقال المتنبي أيضاً :

يراد من القلب نسيانكمْ وتأبى الطباع على الناقلِ[٢]

وقال الشريف :

هيهات لاتتكلفنّ لِيَ الهوى فضَح التَطَبُّعُ شيمةَ المطبوعِ[٣]

وقال ابن طاهر الأندلسي :

نَقْل الطباع من الإنسان ممتنعٌ صعب إذا رامه من ليس من أَرَبهْ
يريد شيئاً وتأباه طبائعه والطّبْع أملك للإنسان من أدبهْ

فيريد أنه راض نفسه على اتباع الخير بعد الشرّ ، حتى انقادت له إلى ما يريد، والتطبُّع استعمال غير ما في طبعك ، والتكلّف استعمال ما لا تقدر عليه إلا بمشقة .

* * *

فَلَمَّا حَلَلْتُ بالرَّيّ ، وَقَدْ حَلَلْتُ حِبَا الْغَيّ ، وَعَرَفْتُ الحَيَّ من اللَّيّ ، رَأَيْتُ بها ذَاتَ بُكْرَة ، زُمْرَة فِي إثْرِ زُمْرَةٍ ، وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ انتشارَ الجَرَادِ ، وَمُسْتَنُّونَ استِنانَ الجِيادِ ، وَمُتَوَاصِفُونَ وَاعِظاً يَقْصِدُونه ، وَيُحِلُّونَ ابْنَ سَمْعُونَ دُونَهُ .

[الرّيّ]

قوله : « فلما حللت بالريّ » :

الريّ : أرض على جادّة خُراسان ، واسم مدينة الريّ المهديّة ، سمّيت

---

(١) في الديوان : « ارجع إلى الحق إما كنت فاعله » .
(٣) ديوانه ٣ : ٢٢ .
(٣) ديوانه ١ : ٤٩٦ .

بهذا الاسم ، لأنّ المهدى تولاّها فى خلافة المنصور لما توجّه إلى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدىّ ، وبها ولد الرشيد ، والمهدىّ أقام بها عدة سنين ، فشيَّد بناءها وأتقنه، وأرضع نساء الوجوه من أهلها الرشيد . وأهلُ الرىّ أخلاط من العرب ، والعجم قليل فيها. وافتتحها قرظ بن كعب الأنصارىّ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويشرب أهلها من عيون كثيرة وأودية عظيمة ، وبها وادٍ عظيم يأتى من بلاد الديلم يقال له نهر عيسى ، ولكثرة مياه البلد كثرت ثماره وجنّاته وأشجاره ، وله رساتيق [١] وأقاليم . ونسب إليها الرازىّ ، وهو من شاذّ النسب .

وكتب الحجّاج إلى قتيبة بن مسلم : مايقيمك بأرض الفراعنة والجبابرة ! سر إلى خراسان ، أرض الفِضّة والعقيان ، والجوارى الحسان .

* * *

وتقدَّم الحبا . والغىّ : الضلال ، والعرب تقول : مايعرف الحىّ من اللىّ ، والحوّ من اللوّ، تقوله لمن تستجهله وتنفى عنه الفِطْنة ، وتصريفها أنّ الحىّ مصدر حويت الشىء حزته وجمعته ، ولويت الرجل : مطلته ومنعته حقّه لوًّا وليًّا وليانا، فالحىّ مدح واللىّ ذم ، فكأنه إذا قال : عرفت الحىّ من اللىّ إنما قال : عرفت الخير من الشرّ،وما يضرّ مما ينفع ، وعرفت الحىّ من اللىّ . وقبيلى من دَبيرى ، إنما يستعملان فى النفى . وتجوّز أبو محمد فى استعمالهما فى الإيجاب حيث كان أصلا للنفى .

الزّمرة : الجماعة ، وتقول : فلان إثْرَ فلان أى خلفه وقريباً منه ، كأنه يتبع أثره إذا رفع هذا قدمه وضع الآخر قدمه فى الموضع. منتشرون : متفرقون. مستنّون : جارون . متواصفون : يصفه بعضهم لبعض .

* * *

---

(١) الرساتيق : القرى ، واحده رستان ، معرب

[ابن سمعون]

ابن سمعون : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن[١] عيسى بن إسماعيل المعروف بابن سمعون، الواعظ . وكان وحيدَ عصره وفريدَ دهره فى الإخبار عمّا هجس فى الأفكار ، وليًّا من الأولياء الأخيار ، كلامه فى الوعظ نافع ، ونصحه فى القلوب ناجع ، ومجاله فى تصاريف الكلام على الخواطر رَحْب واسع . وكان يقال : له الشيخ المنطَق[٢] بالحكمة .

وحدّث أبو الطاهر محمد بن علىّ العلاف قال : حضرت ابنَ سمعون يومًا وهو فى مجلس الوعظ على كرسيّه ، وكان أبو الفتح القوّاس جالسًا إلى جنب الكرسىّ ، فغشيَه النعاس فنام ، فأمسك أبو الحسن عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له : رأيتَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نومك ؟ فقال نعم ، فقال أبو الحسن : لذلك أمسكت عن الكلام خوفًا أن تنزعج وتَنقطع عن الكلام الذى كنتَ فيه[٣] .

وذكر أبو علىّ الهاشمىّ ، قال : حكى لى مولى[٤] الطائع لله تعالى ، قال: أمرنى الطائع أن أوجّه إلى ابن سمعون فأحضِره دار الخلافة ، ورأيت الطائع على صفة من الغضب ـ وكان يُتقّى فى تلك الحال، لأنّه كان ذا حدّة ـ فبعثت إلى ابن سمعون وأنا مشغول القلب لأجله ، فلما حضر ، أعلمت الطائع حضورَه ـ فجلس مجلسه ، وأذن له فى الدخول فسلّم عليه[٥] بالخلافة ، ثم أخذ فى وعظه فأوّل ما ابتدأ به أن قال : روِى عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ... وذكر خبرًا، ولم يزل يجرى فى ميدان الوعظ حتى بكَى الطائع وسمِع شهيقه ، وابتلّ منديله بين يديه بدموعه ، فأمسك ابن سمعون حينئذ، ودفع إلىَّ دُرْجًا فيه طيب

---

(١) المنتظم : « ابن عنبس » .

(٢) المنتظم : « الناطق بالحكمة » .

(٣) المنتظم ٧ : ١٩٩ .

(٤) المنتظم : « دجى مولى الطائع » .

(٥) المنتظم : « فدخل وسلم بالخلافة » .

وغيره ، فدفعته إليه وانصرف. وعدت إلى الطائع ، وقلت : يامولاى ، رأيتك على صفة من الغضب على ابن سمعون، ثم انتقلتَ عنها عند حضوره ، فما السبب ؟ فقال: رُفِـع إلىّ أنه ينتقّص عليًّا رضى الله عنه ، وأحببت أن أتيقّن ذلك ، فإن صح منه قلتُه ، فلمّـا حضر بين يدىّ افتتح كلامه بذكره[١] والصلاة عليه ، وأعاد فى ذلك وأبدى ، وقد كان له مندوحة فى الرواية عن غيره وترك الابتداء به، فعلمت أنه وُفِّق[٢] لماتزول به عنه الظِّنّة ، وتبرأ ساحته عندى ، ولعله كوشف[٣] بذلك .

وله كتاب المجالس وهو كلّه أحاديث متصلة الأسانيد .

ومن كلامه أنَّ القلب بمنزلة المرأة فإذا أصابتها لطْخة عولجت بالزّيت ، فإذا زادت زيد فيها من حتات الآجرّ ، فإذا زادت جُلِيَت بالحديد ، فإذا زادت على ذلك حتى ركبها الصدأ لم يكن لها بُدٌّ من عرضها عَلَى النار حتى يتم جلاؤها .

توفِّىَ ابن سمعون فى ذى القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، ودفن بداره بشارع العباسى ، فلم يزل هناك حتى نقل يوم الخميس الحادى عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ودفن بباب حرب ببغداد . وقيل: إن أكفانه لم تكن بليتْ بعد .

* * *

فـلم يتـكاءدْنى لاستماعِ المواعظ ، واخْتِبارِ الْوَاعِظ ؛ أنْ أقاصِىَ اللَّاغِطَ ، وأحْتَمِلَ الضَّاغِط . فأصْحَبْتُ إصحـابَ الْمِطْواعَة ، وَانْخَرَطْتُ فى سِلْكِ الجمـاعةِ ؛ حَتَّى أَفْضَيْنَا إلى نادٍ جَمَـعَ الْأَميرَ والمأمور ، وَحَشَدَ النَّبيهَ والمغمورَ ، وفى وَسَطِ هَالَتِهِ ، وَوَسْطِ أهِلَّتِهِ ، شَيْخٌ قَدْ تَقَـــوّسَ واقْعَنْسَسَ ،

(١) المنتظم : « يذكر على » .
(٢) المنتظم : « وقف » .
(٣) الخبر فى المنتظم : ٧ : ١٩٩ ، وانظر بقية أخباره هناك .

وَتَقَلْنَسَ وتَطَلَّسَ ؛ وَهُـوَ يَصْدَعُ بوعْظ يَشْفِي الصُّدُورَ ،
وَيُلِينُ الصُّخورَ ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُول ، وَقَدِ افْتَتَنتْ بِهِ الْعُقُول :

* * *

قوله: يتكاءدنى ، أى يشقّ على . أقاصى : أباعد . اللاغط : الصائح بكلام لا يُفهم، والضاغط : الذى إذا زاحمك ضغطك لحائط أو غيره حتى ينقطع نَفَسُك، يريد أنه لم يمنعه ما أصابه من السبّ والصياح به والضغط واللكز من مزاحمة الناس حتى قرب من الواعظ .

ويبين هذا قوله فى الحسين: «ولم أزل أتنقل فى المراكز، وأغضى للاّكز والواكز» .

أصحبت : انقدت . المِطْواعة : المنقادين المطاوعين . والانخراط : دخول الإنسان فى الأمر بغير علم . وتقدّم السلك .

أفضينا : وصلنا، وأراد أنّ هذا المجلس جمع العامة والأمير، ومَنْ له ذكر رفيع وشهرة . ومَنْ هو مجهول مخمول . وأراد بالهالة حلْقة الناس ، وبالأهلّة أشراف الناس والعلماء . وحرّك السين من «وسَط» ، مع الهَالة لأنها دارة وساحة، العرب تقول: فلان جلس وسَط الدار واحتجم وسَط الرأس بالتحريك ، وسكّن مع الأهلة لأنه أراد معنى بيْن ، والعرب تقول : جلس وسْط القوم ، فحملوه على بَيْن، لمّا حلّ محلّها وكان فى معناها، ولا يجوز جلس بين الدار، فلهذا لا يقال جلس وسْطها بالتسكين.

تقوّس : انحنى. اقعنسس : تقبّض واحدودب. والقَعَس : دخول الظهر وخروج الصدر ، والحَدَب ضدّه وبيّنه الراجز بقوله .

* أقعس يمشى مشية التقاعس *

تقلْنَس : لبس القلنسوة . تطلّس : لبس الطيلسان وهو كساء أخضر يلبسه الخواص . يصدع : يشقّ .

* * *

ابن آدمَ ، ما أغْرَاكَ بما يَغُرّكَ ، وأضْرَاكَ بما يَضُرّكَ ، وَأَلْهَجَكَ بما يُطْغِيكَ ، وَأَبْهَجَكَ بمَنْ يُطْرِيكَ . تُعنى بما يُعَنِّيكَ ، وَتُهْمِلُ ما يَعْنِيكَ ، وَتَنزِعُ في قَوْسِ تَعَدِّيكَ ، وَتَرْتَدِي الحِرْصَ الَّذِي يُرْدِيكَ ؛ لا بالكَفَافِ تَقْتَنِع ، وَلاَ من الحرامِ تَمْتَنِع ، ولا لِلْعِظَاتِ تَسْتَمِعُ ، وَلاَ بالوعيد تَرْتَدِع . دَأْبُكَ أَنْ تَتَقَلَّبَ مَعَ الأهواء ، وَتَخْبِطَ خَبْطَ الْعَشْوَاء ، وَهَمُّكَ أن تدأبَ في الاحْتِرَاثِ ، وَتَجْمَعَ التُّرَاث للوُرَّاث ؛ يُعْجِبكَ التَّكَاثُرُ بما لَدَيْكَ ؛ وَلاَ تَذْكُرُ ما بين يَدَيْكَ ، وَتَسْعَى أبداً لِغَارَيْكَ ، وَلاَ تبالي أَلَكَ أم عَلَيْكَ . أتظنّ أن سَتُتْرَكَ سَدًى ، وَألاَّ تحاسبَ غداً ؛ أم تَحْسَبُ أَنّ المَوْتَ يقبلُ الرُّشا ، أو يُميِّزُ بين الأَسَدِ والرَّشَا . كلاَّ واللهِ لَنْ يَدْفعَ المنون ، مالٌ ولا بَنُون ؛ وَلاَ يَنفَعُ أهلَ الْقبُور ؛ سِوَى الْعَمِلِ المَبْرور . فطوبَى لِمَنْ سَمِعَ وَوَعَى ؛ وَحَقَّقَ ما ادَّعَى ؛ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، وَعَلِمَ أَنّ الفائز مَنِ ارْعَوَى ، وَأنْ لَيْسَ للانسانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأن سَعْيَه سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ أنشدَ إنشادَ وَجِلٍ ، بصَوْتٍ زَجِلٍ :

• • •

قوله: «ماأغراك» ماأكثر لصوقك . يغرّك: يدلّك على الغرر . أضراك : أشدّ ملازمتك . ألهجك : أشدّ حبك .

يطغيك : يردك طاغياً متجاوزاً قدرك . أبهجك: أشدّ سرورك . يُطريك :

يمدحك فى وجهك، والنفس ميالة كثيرة الانخداع بمَنْ يعظّم شأنها ويثنى عليها، فرّارة ممن يحقرها ويذمها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «احثُوا التراب فى وجوه المداحين» تذليلالهم بذلك حيث أكسبوا غيرهم عزة النفس والكبر. قال الشاعر:

وخدعته بخديعة لمّا أبَى والحُرّ يُخْدَعُ بالكلام الطيّبِ

تعنى: تشتغل. يعنّيك: يتعبك. تنزع: ترمى. تعدّيك: ظلمك الحرص: أسوأ الطمع. يرديك: يهلكك.

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

كعب بن مالك قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم: «ماذئبان جائعان أُرْسِلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشّرف لدينه».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقتربت الساعة ولا يَزْدادالناس إلا حرصاً على الدنيا ولا تزداد منهم إلا بعداً».

وقال محمود الوراق:

كم إلى كم أنت للحرْصِ وللآمال عبدُ
ليس يجدى الحرْص والسعىُ إذا لم يكُ جِدّ
ما لما قدره الإله من الأمر مَرَدّ

وفى كتاب للهند: لا ينبغى للملتمس من عيشه إلا الكفاف الذى يدفع به الحاجة عن نفسه، وماسوى ذلك فإنما هو زيادة فى غمّه.

وقالت الحكماء : أقل الدنيا يكفى ، وأكثرها لا يكفى .

وقال أبو ذؤيب :

والنَّفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنع [١]

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه : يا بُنىّ ، إذا طلبتَ الغنى فاطلبه بالقناعة ، فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطّمع فإنما هو فقر حاضر . وعليك باليأس فإنك لم تيأس من شىء قطّ إلا أغناك الله عنه .

وقال : الغنىّ من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس .

قال ابن أبى حازم رحمه الله تعالى :

استغن باللهِ لاتَضْرَعْ إلى النَّاسِ واقنع بيأسٍ فإن العزَّ فى الياسِ
واستغن عن كلّ ذى قربى وذى رَحِمٍ إنّ الغنىّ مَن استغنى عن الناس

ومن دعاء عمر رضى الله عنه : اللهم ، لا تكثر لى من الدنيا فأطغَى ، ولا تقلِّل لى منها فأنسى ، فإنّه ما قلّ وكفى ، خير ممّا كثُر وألهى .

وقالوا : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة الحرص التعب .

وقالوا : لاغنى إلا غنى النفس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عندك ما يكفيك وأنت تطلب مايطغيك ! لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع . يا بن آدم ، إذا أصبحت آمناً فى سربك معافًى فى بدنك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » .

وقيل لأبى حازم : ماما لُك ؟ فقال : مالان : الغنَى بما فى أيدى ، واليأس مما فى أيدى الناس

وقيل لآخر : ما مالُك ؟ فقال : التجمّل فى الظاهر والقصد فى الباطن .

ومما قيل من الشعر فى معنى ما تقدّم ، قال محمود الورّاق :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٣

يا عائب الفقر ألا تزدجرْ عيبُ الغنى أكبرُ لو تعتبرْ
من شرف الفقرِ ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنكَ تعصى الله تبغى الغِنَى وليس تعصى الله كى تفتقرْ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ومن سرَّه أنَّ لا يرى ما يسوءه فلا يتَّخذ شيئاً يخاف له فَقْدَا
فإنّ صلاح المرء يرجع كلُّه فساداً إذا الإنسان جاز به الحدَّا

وقال البحترى :

إذا ما كان عندى قوت يومٍ طرحتُ الهمّ عنى يا سعيدُ
ولم تخطر هموم غدٍ ببالى لأن غداً له رزق جديدُ

وقال ابن طباطبا:

إنّ فى نيل المُنَى وَشْكُ الرّدَى وقياس القصد ضدّ السّرفِ
كسراج دُهْنه غَمْرٌ له فإذا غرّقتَهُ فيه طُفِى

وقال آخر :

وإذا نبا بىَ منزل جاوزْتُه واعتضت منه غيره لىَ منزلا
وإذا غلا شىء علىّ تركته فيكون أرْخَصَ ما يكون إذا غلا

* * *

قوله : « ولا بالوعيد ترتدع » أى لا تكفّ عن غيّك ولا ضلالك بما تخوّف به من أهوال الآخرة . دأبكَ ، أى عادتك . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبّه النفس وتميل إليه . تخبط : تمشى على عماية . العَشْواء : الناقة التى لا تبصر . تدأب : تداوم . الاحتراث : الكسب . التراث : المال الموروث .

[نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا]

وفى معناه أنه وجد على حائط مكتوبا : ابنَ آدم غافص [١] الفرصة عند إمكانها ، وكل الأمور إلى وليّها ، ولا تحمّل فى قلبك همّ يوم لم يأت إن يكن من أجلك ، يأتك الله برزقك فيه ، ولا تجعل سعيَك فى طلب المال أسوة المغرورين ، فربّ جامع لبعْل حليلته . واعلم أن تقتير المرء على نفسه توفيرٌ منه على غيره ، فالسعيد من اتّعظ بهذه الكلمات . قال بديع الزمان :

أيا جامعَ المال من حلّهْ يَبيت ويُصْبح فى ظِلّهْ
سيؤخذ منك غداً كلّه وتُسْألُ من بعد عن كلّهْ

وله أيضاً :

يا حريصاً على الغنى قاعداً بالمراصِدْ
لستَ فى سعيك الّذى خضت فيه بقاصدْ
إن دنياك هذه لستَ فيها بخالدْ
بعد هذا فإنما أنت ساعٍ لقاعدْ

وقال سابق البربرى :

لحتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنْ
وتجمع مالاً تأكل الدهر دائباً كأنك فى الدنيا لغيرك خازنْ

وقال رجال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن فلاناً جمع مالا ، قال : فهل جمع له أياما ! أخذه الشاعر فقال :

ارفه يعيش فتًى يغدو على ثقةٍ إنّ الذى قَسَمَ الأرزاق يرزقُهُ
فالعِرْض منه مصونٌ لا يدنّسُهُ والوجه منه جديد ليس يخلقُهُ
جمعت مالاً ففكّر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفرّقُهْ
المال عندك مخزون لوارثِهِ ما المال مالك إلا حين تنفقُهُ

(١) فى اللسان : غافص الرجل مغافصة ، أخذه على غرة

قوله :« التـكاثر » أى كثرة المـال، تقول : تـكاثر المال تـكاثراً : جاز الحدَّ فى الـكثرة ٠

أبو سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أمسى وأصبح وهمّه الدينار والدرهم تـكاثراً حشِر مع اليهود والنصارى ، والذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلـكنا إلا الدهر »٠

تسعى لغارَيك : تجهد فى كسبك لتدرك شهوة بطنك وفرجك ، وهما الغاران ، قيل : هما الفرج والفم ٠ وقيل : الحنـكان : الأعلى والأسفل ؛ وأخذ اللفظ من قول الشاعر :

ألم تر أنّ الدهر يومٌ وليلة وأن الفتى يسعى لغَاريْه دائبا

قوله سدًى ، أى مهمل مسيّب ٠ الرُّشا بالضم : جمع رِشوة وهى العطية تَدفع بها مضرَّةَ من يتمدر عليكَ . الرّشا ، بالفتح : الغزال ٠ كلاّ : زجر ٠ المنون : هى المنّية ، المبرور. المتقبّل . وَعَى : حفظ الوصية ٠ ما ادعى ، أى ما ادعاه من أنه قبِل الوصية ٠ وحققه : داوم عليه بعمله ٠ ارعوى : رجع وتاب . ما سعى ، أى ما عمل وتعب فيه . الفائز : الظافر بحاجته ٠ وَجِل : خائف . زجل : شديد ، وزجل الصوت زجلا : ارتفع وأيضاً طرّب٠

وقال أبو العتاهية فيما تقدّم من ذكر الموت :

بين عينِى كلّ حين علَم الموت يلوحُ
كلنا فى غفلة والـموتُ يغدو ويروحُ

وقال البديع :

إنما الدُّنيا غرور ولمن أصغى نصيحُ

ولسان الدهر بالوعْـــظ لواعيـه فصيحُ
نحن لا هون وآجا لُ المنـايا لا تريحُ

***

لَعَمْرُكَ ما تُغْنِي الْمَغانى وَلاَ الْغِنَى
إذَا سَكنَ الْمُثْرِى الثرى وثَوَى بِهِ
فَجُدْ فِي مَرَاضِي اللهِ بالمالِ راضياً
بما تَقْتَنِي مِنْ أجْـــرِه وثوابِهِ
وبادِرْ به صَرْفَ الزَّمـــــانِ فإِنَّهُ
بمخلَبِهِ الأشفَى يَغُـــولُ ونابِهِ
وَلاَ تأمَنِ الدَّهرَ الخئونَ ومكرَهُ
فَكَمْ خاملٍ أخْنَى عليــــــه ونَابَه
وعاصِ هَوَى النَّفْسِ الَّذى ما أطاعَهُ
أخُو ضَلَّة إلاَّ هَوَى من عِقـابِهِ
وحافِظْ عَلَى تقْوى الإلَهِ وَخَوْفِهِ
لتَنْجُوَ مِمَّا يُتَّقَى مِنْ عِقـــابِهِ
ولا تَلْهَ عَنْ تذكارِ ذَنْبكَ وابْكِهِ
بِدَمْعٍ يُضَاهِي الْمُزْنَ حالَ مَصَابِه
وَمَثِّلْ لعنيْكَ الْحِمـــامَ ووقْعَهُ
وَرَوْعَهَ مَلْقاهُ وَمَطْعَمَ صـــابِهِ

وإنّ قصارى مَنْزِلِ الحىِّ حُفْرَةٌ
سَيَنْزِلُهَا مُسْتَنْزَلاً عَنْ قبابِهِ
فواهاً لِعَبْدٍ ساءَهُ سوءُ فِعلِهِ
وأَبْدَى التَّلاَفِى قبل إغلاق بَابِهِ

* * *

قوله : لعمرك ، العَمر البقاء، فأقسم به كأنه قال : وحق بقائك الكريم علىّ المحبَّب إلىّ .

المغانى : المنازل الشريفة . المثرى : الكثير المال . الثّرَى : التراب الندىّ ، وأثرى صار له كثير من المال كالثرى فى كثرته . ثوى : أقام . جُدْ : تكرّم بمالك . تقتنى : تكتسب ، أى لاتنفع المنازل الرفعية البناء ولا المال الكثير إذا آل الحال إلى الموت . بادر : سابق . صَرَف : تقلّب .

الأشغى : المعوجّ. يغُول : يهلك . نابه : ضرسه . الخئون : الكثير الخيانة . النابه والنبيه ، من النباهة وهى الجلالة والرفعة ، والخامل ضدّه ، وأخنى علىّ : أخذ مالى . ضُلّة ، أى ضلالة ، وهوى: سقط . عقابه الأول جباله، والثانى عذابه . تلهُ : تشتغل . يضاهى : يشابه . الوبْل : أكثر المطر . حال مَصابه ، أى حال وقوعه، والمَصاب: مصدر صاب يصوب صوباً ومَصاباً . الحِمام : الموت . روعة : فزع صاحبه حين يلقاه . صابه : مرّه ، والصاب شجر مرّ . وقصارى : آخرونهاية، كأنه قصر عندها أى جلس فلم يجاوزها . واهاً : عجباً . التلافى: التدارك لمافات . إغلاق بابه ، أى موته .

[ملك الموت]

وفى روعة ملقاه يُحكى أنّ إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت : هل تستطيع

أن تُرِيَنى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ، قال : لاتستطيع ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعِرْض عنى ، ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومن منخريه لهيب النار والدخان . فغُشِىَ على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد إلى صورته : فقال إبراهيم : لولم يكن للفاجر عند موته إلا صورتك لـكان حسبه .

وفى مطعم صابه، يحكى أنّ إبراهيم عليه السلام قال له الله تعالى: كيف وجدت الموت ياخليلى ؟ قال : كسفوّد جُعل فى صوف رطب ، قال: أما إنّا هونّا عليك. وقال لموسى عليه السلام : كيف وجدت الموت ؟ قال كعصفور يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح ، ولا يطير فينجو . وفى رواية : كشاة تُسْلخ من جلدها وهى حية .

وقال كعب الأحبار لعمر رضى الله عنهما ، وقد سأله أن يحدّثه عن الموت ، قال : الموت يا أمير المؤمنين كغصن كثير الشّوْك ، أدخل جوف رجل، فأخذَت كلّ شوكة بعرْق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ الغصن ما أخذ ، وأبقى ما أبقى .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند موته يقول : «إن للموت لَسَكَرات، اللهم هوّن علىّ سَكَرات الموت »

وقالت عائشة رضى الله عنها: « لاأغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذى رأيته من موته صلى الله عليه وسلم» .

فهذه حال أحبابه فـكيف بمن غمر فى بحار المعاصى ! اللهم عفوك

وشعر المقامة مزدوج القوافى ، وعارضه الزاهد بن عمران فقال :

مالى وللدنيـا وعلمى بهـا   غرّارة خــدّاعة مالى

تغرنى حتّى إذا مُكّنتْ تعَبثُ فى نفسى وفى مالِى
هِمْتُ بها حبا فقد أفسدت ما كان من صالح أعمالِى
أعمى الهوى قلبى وُحبِّى، لها رأس خطاياى وأعمالِى
تبكى على الفائت من حظِّها عينى بتسكاب وإهمالِى
يارَبّ زهّدنِى فى حبها ولا تؤاخذنى بإهمالى

وله فى مثله :

ارغب عن الدنيا وأوصافِهاَ مشوبة جاءتك أوصافيَهْ
قتل أولى الألباب من فعلها فاصغ إلى نصحى وأوصافيَهْ
ما بالغنى يغـترّ ذو فطنةٍ كلاَّ ولا يغترّ بالعافيَهْ
كم من غِنىّ قد عاد فقرًا وكم عافية قد أصبحت عافيَهْ

وله أيضاً :

ما الزهد يا قوم ـ فلا تجهلُوا ـ بلبس أسمالٍ وأخلاقِ
لكنه لُبْس ثياب التقى فى حسن آداب وأخلاقِ

وله أيضاً :

خليلىّ لايغُرْرْك مِنّىَ ظاهرى ومهما سألت الله فاسألْهُ لِى صَفْحَاَ
فلو كنت ذا علمٍ كعلمى بباطنى لأضربت عن ذكرى أيادى النهى صفحا
ولكن أرى الله الجميل بفضِله فلم يفش لى سرّاً ولم يُبْدِ لى صفحا

وقال بعض الزهاد لصاحبه : إنى أحبك فى الله ، فقال له : لو علمت منى ما أعلم من نفسى لأبغضتَنى فى الله .

وله أيضاً :

تحفظ بدينك لا تبتذلْهُ ولاتلفِ عرضَك عِرْضًا كليًا

وعدِّ عن الذنب لاتأتِه وبادر بإصلاح مامنك لِيما
فأنت ابن عمران موسى المسيء ولستَ ابن عمران موسَى الكليما

وقال غيره :

لا تأمن الدهر الخئو ن وخَف بوادر بَغْتَتِهْ
فالموت سهم مرسلٌ والعمر قَدْر مَسَافتِهْ

* * *

قال : فظلّ القومُ بَيْنَ عَبْرَةٍ يَذْرونَها ، وتَوْبةٍ يُظْهِرُونَها ؛ حَتَّى كادَتِ الشَّمْس تَزُولُ ، والفريضَةُ تَعُول . فلمّا خشعتِ الأصوات ، والتأمَ الإنصاتُ ، واستكنَّتِ العَبراتُ والعِبارَات ؛ استصرخ مستصرخٌ بالأمير الحاضِر ، وَجَعَل يجأَرُ إليه من عامِلِهِ الجائِرِ ، والأميرُ صاغٍ إلى خَصْمِهِ ، لاهٍ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِهِ .

فلما يَئِسَ مِن رَوْحِهِ ، استنهض الواعِظَ لنصحه ؛ فنَهض نَهْضَةَ الشِّمِّير ، وأنشد مُعَرِّضاً بالأمير .

* * *

قوله: «عبرةيذرونها»، أي دمعة يصبّونها . وتَعُول، تزيد وتضيق، يريد يضيق وقتها ، ويدخل عليها وقت غيرها فترجع صلاتين. خشَعت : ذلَّت. التأم الإنصات: اتّصل السكوت . استكنّت العبَرات والعِبارات ، أى سكن البكاء والكلام . استصرخ مستصرخ، أي استغاث مستغيث . يجأر: يصيح. يريد أنّ رجلا تشكّى للأمير من عامل له ولاّه عليهم، فجار، فمال الأمير مع الوالى ، وترك المشتكى . وقوله : صاغ،أى مائل . ولاهٍ ، أى تارك ومشتغل. يئس : قطع رجاءه . رَوْحه:

نصرته وعدله الذى يريح المشتكى ، والرّوْح الفرح والسرور . استنهض : سأله النهوض لينصح الأمير .

عائشة رضى الله عنها : قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان ذا وصلة لأخيه المسلم إلى السلطان فى مبلغ برّ، وتيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط : يوم دحض الأقدام » .

الشمّير : الماضى فى أموره : معرّضا : من التعريض وهو أن تخاطب غيره وأنت تريده .

* * *

عجباً لِرَاجٍ أن ينالَ وِلايَةً ... حتَّى إذا ما نَالَ بُغيَتَهُ بَغَى

يُسْدِى ويُلْحِمُ فى المظالم والغَا ... فى وِرْدِها طَوْراً وطوراً مُولِغا

ما إن يبالِى حِينَ يتّبع الهوى ... فيها أأَصْلَحَ دينَهُ أم أوتغا

يا ويحَهُ لو كان يُوقِنُ أنَّهُ ... ما حالةٌ ألاَّ تحولُ ، لَمَا طَغَى

أوْ لَوْ تبيَّنَ ما ندامَةُ مَنْ صَغَا ... سَمْعًا إلى إفْكِ الوشاة لَمَا صَغَا

فانْقُدْ لمن أضحى الزمام بكَفِّهِ ... وتغاضَ إن ألغى الرّعايَةَ أوْ لَغَا

وارْعَ الذِّرارَ إذا دَعَاكَ لِرَعْيِهِ ... وَرِدِ الأُجاجَ إذا حماكَ السَّيِّغَا

واحمل أذاه ولو أمضك مَسُّه ... وأسَالَ غَرْبَ الدَّمْعِ مِنْكَ وأَفْرَغا

فلَيُضحِكَنْكَ الدَّهْرُ منه إذا نبا ... عَنْهُ وشبَّ لِكَيْدِه نارَ الْوَغَى

وليَنزِلَنَّ به الشَّمَاتُ إذا بدا ... مُتخلِّيًا مِنْ شُغْلِهِ مُتَفَرِّغا

وَلَتَأْوِيَنَّ له إذا ما خَدُّه ... أضحى على تُرْبِ الهوانِ مُمَرَّغا

نال بغيته ، أى أدرك ماطلب . بغى : جار وظلم . يُسدى ويلحم ، أى يتصرّف فى المظالم طولا وعرضاً ، ومقبلا ومدبراً . والسّدى: خيوط الثوب طولا ،

واللحمة خيوطه عرضا : والغاً : شاربا . وردها : ماؤها . مولغاً : مسقياً غيره ، ويريد أنه يباشر الظلم بنفسه تارة ،ويوليه غيره أخرى . أوتغ : أفسد وأهلك .

ياويحه ، قال الأزهرى رحمه الله تعالى: ويْح كلمة رحمة، وويل كلمة عذاب، والفرق بين ويح وويل أنّ ويح تقال لمن وقع فى بليّة، يُرحَم ويدْعى له بالتخلص منها . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويحكِ» ، فجزعت فقال لى: «ياحميراء ، إن ويح كلمة رحمة فلا تجزعى منها ولكن اجزعى من الويل» .

يوقن : يحقق . تحول تتغيّر . طَغَى : ارتفع وجاز الحدّ فى الجوْر . صغى : مال . إفك . كذب . الوشاة : جمع واشٍ، وقد تقدم . انقد : أطع ، يقول : من أصبح حاكمك فاتبعه وأطع له . تغاضَ : تغافل : ألغى : ترك . الرعاية : المحافظة للحقوق . لغا : أخطا وقال قبيحا ، ثم قال : إن حَمَلك على الذل فاحتمله ، وكنّى برعى المُرار عنه . رِدِ الأجاج : اشرب الماء المـرّ والملح . حماك السَّيِّغا : منعك العذب السهل للشرب . أمضّك : أحرقك وصيّرك مهموماً ، والمضّ التوجع من قول أو جرح . مسّه : وقعه بجسمك . والغرْب : فيض الدمع ، والغرْب : الدلو .

* * *

هذا أَهُ ولَسَوْفَ يُوقَفُ موقفاً	فيه يُرَى ربُّ الفصاحة أَلْثَغَا
ولَيُحشرَنَّ أذلَّ مِنْ فقعِ الفَلاَ	ويحاسَبنَّ على النّقيصةِ والشّغا
ويؤاخذَنَّ بما اجتنَى ومن اجتبَى	وَيُطَالَبَنَّ بما احتَسَى وبما ارتَغَى
ويناقشَنَّ على الدقائق مثل ما	قد كان يصنع بالورَى بلْ أبْلَغَا
حَتَّى يَعَضَّ على الولايةَ كَفَّهُ	ويودُّ لو لم يبْغِ مِنْهَا ما بَغَى

* * *

هذا له ، إشارة إلى ذل العزل . الألثغ : الأخرس المحبوس اللسان ، وهو أيضاً الذى يُبْدِل الباء والراء غيناً . وربّها : صاحبها . والفقع ضرب من الكمأة مَنْ وطئه كسره لضعفه ، وهو الفُقّاع ، وبه يضرب المثل ، فيقال : أذلّ من فقع بقرقر .

الشّفا : الزيادة . اجتنى : جمع أموال الناس وضبطها لنفسه . اجتَبى : اختار، يريد أنه يطالب بما أخذ من الدنيا ويحاسب على الوالى الذى اختاره وولاّه .

احتسى : شرب الحسوة من اللبن بعد الحسوة . ارتغى : شرب الرّغوة ، أى يؤاخذ بالقليل والكثير والظاهر والباطن . يناقش : يبحث عليه ويخرج ماعنده . أبلغ : أزيد . يبغ : يدرك ويطلب .

[ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة]

ونذكر هنا فصلا من الآداب يحتوى على الولاية والعزل والتشّكى من الولاة،حسبما تضمّن هذا الموضع فى المقامة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستحرصون على الإمارة ، وتكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة » .

أراد عمر رضى الله عنه أن يستعمل رجلا فبدر الرجل يطلب العمل فقال : قد كنّا أردنا لذلك ، ولكن مَنْ طلب هذا العمل لَمْ يُعَنْ عليه .

ولقىَ عمر رضى الله عنه أبا هريرة رضى الله عنه فقال : ألا تعمل ؟ فقال : ما أريد العمل، قال: قدطلبه مَنْ هو خير منك، يوسف الصديق عليه السلام قال: ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

قال المغيرة بن شعبة : أحِبّ الإمرة لثلاث : لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ولسترخاص الأشياء .وأكرهها لثلاث:لروعة البريد،وذلّ العَزْل،وشماتة الأعداء

وقال أمير لأعرابىّ : قل الحق وإلاّ أوجعتُك ضرباً، قال : وأنت فاعمل به، فوالله لمَاَ وعدكَ الله على تركه أعظم مما توعَّدتَنى به .

وذُكِر أهل السلطان عند أعرابىّ ، فقال أماوالله إن اعتزّوا فى الدنيا بالجوْر لقد ذلوا فى الآخرة بالعدل ، ولقد رضوا بقليل ، فإن عوضاً من كثير باقٍ ، وإنما تزلّ القدم حيث لاينفع الندم .

تظلّم رجل للمأمون من عاملٍ له ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، ماتركَ لنا فضة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا ماشية إلا مشى بها ، ولاَ غلَّة إلا غلَّها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا عِلقْا إلا علقه ، ولا عِرْضاً إلا عرَض له ، ولا جليلا إلا أجاهَّ ، ولا دقيقاً إلا دقه . فعجب المأمون من فصاحته ، وقضى حاجته .

قحطبة بن حميد : إنى لواقف[1] على رأس المأمون يوماً ، وقد جلس للمظالم، فكان آخر من دخل عليه وتقدم إليه امرأة وقد همّ بالقيام، عليها أُهبَة السفر وثياب رثّة . فوقفت بين يديه، وقالت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم ، فقال يحيى : وعليك السلام ياأمَة الله ، تكلمى فى حاجتك ، فقالت :

ياخير منتصفٍ يُرجَى له الرّشَدُ ويا إماماً بهِ قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ الملكِ أرملةٌ عَدَا عليها فلم يُترك لها سَبَدُ[2]
وابتزّ منى ضياعى بعد منعتِها ظلماً وفرّق منّى الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه فقال :

فى دون ماقلتِ زال الصّبْرُ والجلدُ عنّى وأقرح منّى القلبُ والكَبِدُ
هذا أوان صلاة العصر فانصرفِى واحضرى الخصم فى الوقت الذى أعِدُ
والمجلس السبت أن يقضَ الجلوس لنا نُنْصِفْكِ منه وإلا المجلسُ الأحدُ

(١) الخبر فى العقد ١ : ٣٣ ، نهاية الأرب ٦ : ٢٧٦

(٢) السبد فى الأصل : الشعر ، يكنى به عن الغنم ، ويكنى بالغنم عن الشيىء القليل .

فجلس يوم الأحد ، فكانت أوّل من تقدم إليه ، فقالت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال : وعليك السّلام ، أين الخصم؟ فقالت: واقف على رأسك ، وأشارت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد بن أبى خالد، خذ بيده فأجلسه معها للخصومة . ففعل. فجلس، فجعل كلامُها يعلو كلامَه فقال لها : أحمد ياأمة الله، أنت بين يدى أمير المؤمنين وتكلّمين الأمير، فاخفضى من صوتك ، فقال له المأمون: دعها ياأحمد فالحقّ أنطقها والباطل أخرسه . ثم قضى لها بردّ ضياعها وظلَم العباس[١] . وأمر لها بنفقة وبكتاب إلى عامل بلدها أن يحسن معاونتها .

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فرخان شاه يتيه علىّ فى وزارته ، فلما صُرِف رهبنى ، فلما لقيَنى سلّم علىَّ فدنوت منه وقلت له : والله لقد كنتُ أقنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، والحمد لله على ما آلت إليه حالتك ، فلئن أخطأتْ فيك النعمة فلقد أصابتْ فيك النقمة ، وإن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزّهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأتَ حَمْل النِّعم، وما شكرت حَقّ المنعم . فقيل له: ياأبا عبد الله ، لقد أبلغَت فى السّب، فما كان الذنب ؟ فقال : سألته حاجة أقلّ من قيمته ، فردّنى عنها بأقبح من صورته .

وقال ابن الرومىّ فى أبى الصقر ، وكان قد مدحه فلم يرفع به رأساً :

فلئن نُكِبتَ لطالما نُكِبَتْ ... بك همة لجأت إلى سَنَدِكْ

لو تسجد الأيام ماسجدت ... إلا ليوم فتّ فى عَضُدِكْ

يا نعمة ولّت غضارتُها ... ما كان أقبح حسنَها بيدِكْ

فلقد غدت بَرْداً على كبدى ... لما غدت حَرًّا على كبدكْ

وقال فيه :

خفّض أبا الصقر فكم طائرٍ ... خرّ صريعاً بعد تحليقِ

(١) فى العقد : « فظلم العباس اظلمه لها » .

زُوِّجَتَ نعمى لم تكن كفؤها فصانها الله بتطليقِ
لا قدّستْ نعمى تسَرْبلتَها كم حُجّةٍ فيها لزنديقِ

وقال فيه قبل النكبة:

غدا يعلو الجيادَ وكان يعلو إذا ما استفره السبت الطِّراقا
أعنّتها الشّسوع فإن عراها حفاءُ الكدّ أنعلها طراقَا
فزُوِّج بعد فقر منه نُعْمَى أرانى الله صُبْحتَها طلاقا

ومن غرائب التكاتب فى العزل، ما كتب به أحمد بنِ مهران إلى معزول:
بلغنى أعزك الله انصرافُك عن عملك، فسررت بذلك، ولم أستفظعه لعلمى بأن قدرَك أجلُّ وأعلى من أن يرفعَك عمل تتولاه، أو يضعك عزل عنه، والله لو لم تختر الانصراف، وترد الانعزال، لكان فى لطف تدبيرك، وثقوب رويّتك، وحسن تأتِّيك، ماتزيل به السبب الداعى إلى عزْلك والباعث على صرفك، ونحن إلى أن نهنّئَك بهذا الحال، أولى بنا من أن نعزّيك؛ إذْ أردت الصرفَ فأوتيته، وأحببت الاعتزال فأعطيته، فبارك الله لك فى منقلبك وهنّأك النعم بدوامها، ورزقك الشكر الموجب المَزيد لك فيها.

كان[1] أبو شراعة لا يسأل ابن المدبّر حاجة إلا قضاها، ولا يشفع لأحد إلا شفّعه، فلما عُزل إبراهيم بن المدبر عن البَصرة شيَّعه الناس، فردَّهم حتى لم يبق إلا أبو شراعة، فقال يا أباشراعة، غاية كلّ مودّع الفراق. فانصرف راشدا مكلوءًا من غير قِلًى والله ولا ملل. وأمر له بعشرة آلاف درهم. فعانقه أبو شراعة وبكى وأطال، ثم قال وهو أحسن ماقيل فى التهنئة بالعَزل:

يا أبا إسحق سِرْ فى دَعَةٍ وامض مكلوءًا فما منك خَلَفْ
ليت شعرى أىّ أرض أجدَبتْ فأريحتْ بك من جهد العَجَفْ
نزل اللطف من الله بهمْ وحُرمناكَ بذنب قد سَلَفْ

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٩ : ١٢٤ ـ ساسى

إنمـا انت ربيع باكرٌ حيثما صرّفه الله انصرفْ

ومن ملح هذا الباب أنّ بعض الوزراء قلّد ابن حجاج عملاً ، فخرج إليه يوم الخميس ، وتبعه كتاب عزْله يوم الأحد ، فقال فيه :

يامن إذا نظر الهلا لُ إلى محاسنِه سَجَدْ
وإذا رأته الشمس كا دتأن تموتمن الحسدْ
يوم الخميس بعثْتَنِي وصرفتني يوم الأحَدْ
والناس قد غنوا عـــلىّ لمـّاخرجتمن البلدْ
ما قام عمرو فى الولا ية قائماً حتى قعدْ

* * *

ثم قال : أيّها المتوشِّحُ بالوِلاَية ، المترشِّحُ للرِّعايةِ ؛ دَعِ الإدلال بدَوْلَتِـك ، والاغترارَ بصَوْلَتِك ؛ فإنّ الدّولة ريح قُلّب ، والإمْرَةَ بَرْقٌ خُلّب . وإن أسْعَدَ الرّعاة ، مَنْ سَعِدَتْ بهِ رعيّتُه ، وأشقاهُمْ فى الدّارَيْنِ مَنْ سَاءَت رعايتُه ؛ فلاَ تَكُ ممّنْ يَذَرُ الآخرةَ وَيُلْغيها ، وَيُحِبُّ الْعَاجِلَةَ وَيبْتَغيها ، وَيَظْلِمُ الرَّعِيّةَ وَيُؤْذِيَها ؛ وإذا تَوَلَّى سَعَىفىالأرْض لِيُفْسِدَ فيها؛ فو الله ما يَغْفُلُ الدّيان ،وَلاَ تُهْمَلُ ياإنسان ، ولا تُلْغَىالإساءةُ ولا الإحْسَان ؛ بل سَيُوضَعُ لَكَ الميزانُ ، وكَمَا تَدِينُ تُدَانُ .

قال : فوجَمَ الوالِي لما سَمِع ، وامتُقِعَ لونُه وانْتُقِعَ ، وجعل يتأفَّفُ من الإمْرَة ، ويُرْدف الزَّفرَةَ .

[مما قيل في اللثغ من الشعر]

وذكر اللثغ، وللشعراء في اللثغ مايستحسن، قال ابن شهيد :

مرضِ الجفون ولثغةٌ في المنطق شيآن جرّا عِشْق من لَم يَعْشَقِ [1]
يَنبي فينبو في الـكلام لسانهُ فـكأنه من خمر عينيهِ سُقِي
لايُنعش الألفاظَ من عثراتِها ولو اُنها كُتِبت له في مهرَقِ [2]

وأحسن مافي وصفه قول الرماديّ :

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا الهجر يجمعنا فنحن سواء
فإذا خلوت كتبتها في راحتِي فبـكيت منتحباً أنا والراء

اخذه أبو القاسم بن العريف، فقال :

أيها الألثغ الذي شفّ قلبي جُدْ بحرف ولو نطقت بسبِّ
هجرك الراء مثل هجرِي سواء فـكلانا معذّب دون ذنبِ
فإذا شئت أن أرى لي مثالا في غرامي خططتُ راءَ بجنبي

* * *

قوله: «المتوشّح» اي المحتزم. والمترشح: المهيّء للرعاية اي لحفظ الناس. الاغترار الانخداع، صوْلتك: عزّك وقهرك، يقال: صال الرجل على قِرْنه، والفحْل على إبله، أي قهر وعلا، والفحل أيضاً عض، وربما همز فعل الفعل. قُلّب، أي متقلّب. خلّب: خادع لاماءفيه، يريد أنّ الولاية تنقل من إنسان إلى آخر. تلغى: تهمل. العاجلة الدنيا لأن خيرها معجّل. تولّى: صار والياً. سعى: مشى مسرعا.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن ولِيَ من أمر أمتي شيئاً فحسنتْ سريرتُه رُزِق الهيبة في قلوبهم، وإذا بسطت يده لهم بالمعروف

---

(١) ديوانه ١٣٢، وفيه: «سببان»،
(٢) المهرق: الصحيفة

رزق المحبة منهم ، وإذا أنصف الضعيف من القوىّ قوّى الله سلطانه وإذا عدل مدّ فى عمره»: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . «آفة الدين ولاة السوء، وأيما والٍ وَلِىَ شيئاً من أمور المسلمين فلم ينصح لهم ، ولم يجتهد كنصيحته وجهده لنفسه، كبّه الله تعالى على وجهه يوم القيامة» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن مَنْ أخذ من هذه وهذه »

الديان : المجازى وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه يجزى العباد على أعمالهم .

وقال الألبيرىّ :

كل امرئٍ فيما يدين يدانُ	سبحان من لم يخل منه مكانُ (١)
ياعامرَ الدنيا ليسلكنَها وما	هىَ بالتى يبقى بها سكانُ
تفنى وتبقى الأرض بعدك مثل ما	يبقى المناخ وترحَلُ الركبانُ
أأسرّ فى الدنيا بكلّ زيادة	وزيادتى فيها هى النقصانُ

تهمل تترك هملاً . وجَم : سكت غاضباً وامتُقع وانتُقع : تغيّر وذهب الدم من وجهه ، ويقال فى معناهما : انتقع واهتقع .

يتأفف : يقول: أُف أُف، وذلك فعل النادم المهموم . الزفرة : النفخة من الهمّ.

* * *

ثم عَمَدَ إلَى الشَّاكى فَأَشْكَاهُ ، وإلى المشكوّ مِنْه فَأَشْجَاهُ ، وألطفَ الواعظَ وحبَاه ، واستَدْعَى منه أن يَنْشاهُ ، فانقلب عنه المظلومُ منصوراً ، والظّالم مَحْصُورا ، وبرَزَ الواعظ يتهادَى بَيْنَ

(١) ديوانه ١٧٧ .

رُفقَتِه، ويَتَباَهَى بفوزِ صَفْقتِه · واعتقبتُه أخْطُو متقاصرا ، وأريه لَمْحًا باصِراً . فلمَّا استشفّ ما أُخفيه ، وفطِن لتقلُّبِ طَرْفِي فيه ، قال : خيرُ دَليلَيْكَ مَنْ أرشد ، ثم اقترب منّي وأنشد :

أنا الذى تعرفُه يا حـــارثُ حِدْثُ ملوكٍ فكِهٌ منافثُ
أُطرب مالا تُطرِب المثالثُ طوراً أخو جِدٍّ ، وطوراً عابثُ
ما غيّرتْنِي بَعْدَكَ الْحَوادِثُ ولا التحى عودِىَ خَطْبٌ كارثُ
ولا فَرَى حدِّىَ نابٌ فارثُ بل مِخْلَبِي بكل صيد ضابِثُ
وكل سَرْح فيه ذئبي عائثُ حتَّى كأنى للأنامِ وارِثُ

* سامهمُ وحامهمْ ويافثُ *

* * *

أشكاه : أنصفه ورفع عنه شكواه ، وفى الحديث : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّ الرمضاء فلم يُشْكِنا. أى لم يزل شكوانا، أى شكوْا إليه ما يصيب أقدامَهم من شدّة الحر فى صلاة الظهر ، وسألوه تأخيرها إلى الإبراد ، فلم يجبهم إلى ذلك، وأنشد يعقوب :

* ونشتكى لو أنها تُشكينا *

* * *

والمشكو إليه الوالى الذى اشتكى إليه · أشجاه : آذاه وأبكاه . ألطف : برّه وأكرمه · حباه : أعطاه الحِباء . يغشاه : يزوره . محصوراً . محبوساً · يتهادى : يمشى متثاقلا مشى الوقار · يتباهى : يتعاظم . بفوزِ صفقته ، بظفر قصته مع الوالى، وفاز فوزًا : ظفر بخير دنياه وأخراه، وأصل الصفقة فى البيع هو أن تضربَ بيدك على يد مبايعك · اعتقبته :مشيت خلفه، كأنك تطأ بصدور قدميك مواطئ عقبيه: أخطو متقاصراً ، أى أمشى مستخفياً متشبّهاً بالقصار . لمحاباصراً ،أى نظراً شديداً.

استشفّ : استقصى . فطن : تنبّه وشعر . أرشد : دلّ، يقول: إذا كان لك دليلان، نخيرهما مَنْ هداك الطريق ، فلما رآه ينظر وتشكاك فيه . قال : خير دليليك من دلّك عليّ . اقترب : قرب .

حِدْث ملوك ، أي يحدّثهم بما يطربون . فـكه : طيب الحديث ، والفـكه المزّاح الحسن الخلق، وفـكه فـكها وفـكاهة: طابت نفسه و كثر ضحكه ،قال الشاعر :

فـكهٌ إلى جنب الخوان إذا غدت   نـكباء تقطع ثابت الأطنابِ[١]

أبو عبيدة : رجل فـكه : يأكل الفاكهة، وفاكه: عنده فاكهة .

وقال الشاعر أيضاً :

فـكه العشيّ إذا تأوّب رحلُه   صيف الشتاء مسامح بالميسر

أي يأكل الفاكهة وقرىء « فاكهين وفـكهين » : قال الفراء رحمه الله تعالى : معناهما واحد أي معجبين بما آتاهم ربهم ، كطمع وطامع ، وفـكه وتفكه إذا تعجّب ومنه: ﴿فظلتم تفـكّهون[٢]﴾ ، وقيل: معناه تندمون .

قوله : منافث ، أي محادث . المثالث : من أوتار العود . طوراً : حيناً . عابث : لاعب . الحوادث : ما يحدثه الدهر من خير أو شر . التحى : قشر . خطب كارث : أمر ثقيل صعب . فرَى : قطع . نابى : ضرسى . فارث : مفتّت للـكبد ، قال الشاعر :

هَوَى من صخرة صلْدٍ   ففرث تحتهـا كبـده

وفرثت الـكرِش : أخرجت مافيها من الزبل . ضابث : قابض عليه . السرح: المواشى تغدو راعية فى المسرح وتروح منه . عائث : مفسد آكل لها .

* * *

(١) اللسان ـفـكه ، من غير نسبة

(٢) سورة الواقعة ٦٥ .

[ذكر سام وحام ويافث]

وسام وحام ويافث ، أولاد نوح عليه الصلاة والسلام، وفيهم نزلت: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هم الباقين﴾[(١)] . وبذلك جاءت الأخبار، وهم لأمٍّ واحدة. وأصاب حام امرأته فى السفينة . فدعا نوح عليه السلام أن يغيّر الله نطفته ، فجاءت بالسودان .

وذكر أهل التوراة أنّ نوحاً عليه السلام شرب وانتشى وتعرّى ، فأبصر حامٌ عورتَه ، فاطّلع عليه أخواه ، فأخذا رداءه فألقياه على عواتقهما ، ومشيا على أعقابهما ، فوارياه ، فعلم نوح عليه السلام بذلك ، فقال: ملعون كنعان بن حام ، عبد العبيد يكون لأخويه ، ومبارك سام ، ويكثر الله يافث[(٢)]

وفى تفسير النّقاش أن نوحاً لما أهبط من السفينة، نام فبدت عورتُه فنظر إليها حام فضحك ، ولم يغيّرعليه يافث ونظر ذلك سام ، فزجره وغطّى عورة أبيه، فلما استيقظ أخبره ، فدعا نوح ابنه حاماً فقال: يابنىّ غيّر الله ماءصلبك، فلا تلد إلا السودان . وقال ليافث : جعل الله ذريتك عبيداً لأولاد سام ، وقال لسام : جعل الله منك الأنبياء والصالحين والملوك . فكان سام القيّم بعد أبيه فى الأرض ، ونزل وسطها ، نزل الحرم إلى اليمن إلى الشام . ومن ولده الأنبياء كلهم عربيها وعجميها. ومن ولده عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ويعرب وجرهم ، وهم العرب العاربة، لأن العربيّة لسانهم التى جبلوا عليها، ويقولون لبنى إسمعيل العرب المتعرّبة ، لأنهم إنما تكلموا بها حين سكنوا بين أظهرهم ، ومن العماليق الجبابرة بالشأم والفراعنة بمصر .

سعيد بن المسيّب : سام ولده العرب وفارس والروم وفى كلٍّ خير ، وأما يافث فمن ولده الصقالبة وبرجان والأسبان والترك والخزر ويأجوج ومأجوج .

ابن المسيب : وليس فى واحد من هؤلاء خير .

---

(١) سورة الصافات آية ٧٧ .

(٢) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

وأما حام فمن ولده السند والهند وأجناس السودان كلّها مثل كوش والزَّنْج والزغاوة والحبشة والزطّ والقِبْط بن كنعان بن حام ، والخلاف كثير .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له : تالله إنك لأبو زيد ، ولقد قمتَ لِلّهِ ولا عَمْرو بنَ عُبيد . فهشّ هشاشة الكريم إذا أُمَّ ، وقال : اسْمَعْ يا بْنَ أُمّ ؛ ثم أنشأ يقول :

عليك بالصّدْق ولو أنَّهُ أحرقك الصّدق بنارِ الوعيدْ
وابْغِ رضا الله ، فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضَى العبيدْ

ثم إنه وَدَّعَ أخدانه ، وانطلق يسحبُ أرْدَانه . فطلبناه من بَعْدُ بالرّيّ ، واستنشرنا خبره مِنْ مَدَارج الطيّ ؛ فما فينا مَنْ عَرَفَ قَرَارَهُ ، ولا دَرَى أيُّ الجراد عَارَهُ .

* * *

[أخبار عمرو بن عُبَيد الزاهد]

قوله:«ولا عمرو بن عبيد» ، هو الزاهد الذى كان يسكن بالبصرة ويجالس الحسن البصرى ؛ حتى حفظ عنه شيئاً كثيراً من علومه ، واشتهر فضله بصحبته ، وكان له سمت وإظهار زهد .

ورآه الحسن يوماً فقال: هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدّث . ثم أعتزله ونهى عنه ، فقال بالعزل ودعا إليه ، وترك مذهب أهل السنة ، واعتزل الحسن البصريّ ، ونُسِبت إليه المعتزلة .

فأماقيامه الذى ذكره فهو دخوله على المنصور فى جماعة من أهل العلم ، فاستشارهم فى أمرٍ ، فكلهم أشار عليه بمراده إلا عمراً فإنه لم يَصْحَبْهُمْ ونصحه ، فقال: ياأمير المؤمنين

إنّ هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك لما وصلك ، ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذاتِ العماد﴾ ، قال: فبكى المنصور حتى بلّ ثوبه ، فقال الربيع : يا عمرو ، غممتَ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا ـ يعني الربيع ـ صحبك عشرين سنة، ما نصحك يوماً واحداً ، وما عمل وزراؤك بشيء من كتاب الله تعالى . فقال له المنصور : فماذا أصنع ؟ هذا خاتمي في يدك ، نخذه أنت وأصحابك ، فاكفوني . فقال عمرو : ادعُنا بعَدْلِكَ تسمح أنفسنا بعوْنك ، ببابك ألف مظلمة ، اردد منها واحدة حتى نعلم أنك صادق .

ويروى أنه قال له المنصور : أعنّي بأصحابك ، فقال : ارفع عَلَمَ الحقّ يتبعك أهله . ثم قال له المنصور : ما حاجتك يا أبا عثمان ؟ فقال له : تأمر برفع هذا الطيلسان عني ، فرُفع . وكان أمر المنصور أن يطرْح عليه عند دخوله . فقال له : لا تدعْ إتياننا ، قال : نعم ، لا يضمّني وإياك بلد إلا أتيتُك ، وإن بدتْ لي حاجة إليك سألتك ، ولكن لا تعطِني حتى أسألك ، ولا تدْعُني حتى آتيَك ، قال : إذا لا تأتينا أبدا ، فلما وَلّوْا للخروج ، أتبعهم المنصور بصره ، ثم قال:

كلّكم يمشي رُوَيْدْ كُلّكم حابِل صَيْدْ

* غير عمرو بن عُبَيْدْ *

وكان جدُّه باب من سبي فارس، وكان أبوه عبيد بن باب نسّاجا ، ثم تحوّل فصار للحجّاج شُرطيًا بالبصرة . وكان فظّاً غليظاً خسيسًا ، وبلغه أن الناس إذا رأوا ابنه قالوا : هذا خير الناس ، ابن شرّ الناس، فقال : صدقوا ، أنا كآزر وابني كإبراهيم .

وقال إسحاق بن الفضل : بينما أنا واقف إلى جنب عُمارة بن حمزة بباب المنصور ، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل ونحّى البساط برجله ، وجلس دونه ، فقال لي عمارة : لا تزال بصرتُكم ترمينا بأحمق ، فما فصَل كلامه

من فيه حتى خرج الربيع ، وهو يقول : أين أبو عثمان عمرو بن عبيد ؟ فوالله ما دلّ على نفسه حتى أرشِد إليه . فأتكاه يده ، ثم قال : أجب أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ! فمرّ متوكئاً عليه ، فقلت لعمارة الذى استحمقه : قد دُعِىَ وتركنا ، فقال : كثيراً ما يكون مثل هذا ، فأطال اللّبْث ، ثم خرج الربيع ، وعمرو متوكىء عليه ، وهو يقول : يا غلام ، حمار أبى عثمان . فما برح حتى أقرّه على سرجه وضمّ إليه ثوبه ، واستودعه الله عز وجل . فأقبل عمارة على الربيع ، فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل فعلا لو فعلتموه بولىّ عهدكم لكنتم قد قضيتم حقه . قال : فما غاب والله عنك مما فعله أمير المؤمنين أكثر وأعجب . قال : فإن اتّسع لك الحديث فحدّثنا ، فقال : ما هو إلا أن سمع أمير المؤمنين بمكانه ، فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودا ، ثم انتقل هو والمهدىّ إليه ، وعلى المهدىّ سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلّم بالخلافة ، فرد عليه ، وما زال يدنيه حتى أتكاه فخذه وتحفّى ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله ؛ يسمّيهم رجلا رجلا وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان عِظْنِى ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسرِ * هل فى ذلك قسم لذى حِجْر ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر ، فبكى المنصور رحمه الله تعالى بكاء شديداً ، وكأنه لم يسمع تلك الآية الشريفة إلا تلك الساعة ، فقال : زدنى ، قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدّنيا بأسرها فاشْترِ نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد مَنْ كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإنى أحذّرك ليلة تتمخّض صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشدّ من بكائه الأوّل حتى رجف جنباه ، فقال له سليمان بن مالك : رفقاً بأمير المؤمنين لقد أتعبتَه فى هذا اليوم ، فقال له عمرو : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أبالك ! وماذا خفتَ على أمير المؤمنين أنْ بكى

من خشية الله تعالى . قال : فأنت والله الصادق البرّ ، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك ، فقال : لا حاجة لى بها ، قال : والله لتأخذنّها ، قال : والله لا آخذها ، فقال له المهدىّ : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فأقبل على المنصور فقال : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابنى محمد ، وهو ولىّ عهد المؤمنين ، فقال : والله لقد سمّيتَه اسماً ما استحقّه عملُه ، وألبستَه لبوسة ما هو من لبوس الأبرار ، ولقد ملّكته أمراً ، أمْتَعُ ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدىّ وقال : يا بن أخى ، إذا حلف أبوك حلف عمك ، لأن أباك أقدر على الكفّارة من عمك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ما هى ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك ، قال : إذاً لا نلتقى . قال : عن حاجتى سألتنى ، ثم استحفظه الله عز وجل وودّعه ، وانصرف . فلما ولّى أتبعه المنصور بصره وهو يقول :

* كلكم يمشى رُوَيْدْ * الأبيات

وقال إسماعيل بن مسلمة أخو القعنبىّ : رأيت الحسين بن أبى جعفر بعبّادان فى المنام ، فقال لى : يعقوب ويونس بن أبى عبيد فى الجنّة ، فقلت : فعمرو بن عبيد ، فقال : فى النار ، ثم رأيته فى الليلة الثانية والثالثة كذلك ، فقلت له فى الليلة الثالثة : فعمرو بن عبيد ؟ فقال : فى النار ، كم أقول لك !

* * *

قوله : « هش » أى فرح . أمّ : قَصِد . الوعيد : التهديد . أغبى الورى : أجهل الناس به ، قال المنصور : والله ما عزّ ذو باطل ، ولو طلع فى جبينه القمر ، ولا ذلّ ذو حق ولو أصفق العالم عليه .

وفى معنى قوله : « وابغ رضا الله ... » البيت . أنّ ابنَ هبيرة شاور الحسن

البصرىّ ، فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول فى كتب تأتينا من عند يزيد بن عبدالملك ، فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتُها خفت سخط الله ، وإن لم أنفذها خفت على دمى .
فقال الحسن : يا بنَ هبيرة ، خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، فإن الله مانعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله . يا بنَ هبيرة ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فاعرض كتاب يزيد على كتاب الله سبحانه وتعالى ، فما وافقه فنفّذه ، وما خالفه فلا تنفذه . فقال : صدقتَنى ورب الكعبة .

وشاور معاوية الأحنف فى استخلاف يزيد ، فسكت ، فقال: مالك لا تقول ؟ فقال : إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبناك أسخطنا الله عز وجل ، فسخطك أهون علينا من سخط الله تعالى . قال : صدقت .

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنه مَنْ يلتمس رضا الله بِسخَط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومَنْ يلتمس رضا الناس بسخط الله وَكَله الله إلى الناس .

وكتبت إليه عائشة رضى الله تعالى عنها : أما بعد فإنه من يعمل بسخط الله تعالى يصير حامدُه من الناس ذامّاً له . والسلام .

قوله: « أخدانه » أصحابه . ويسحب أردانه : يجرّ أذياله . استنشرنا : طلبنا أن ينشر لنا . والمدرجة : الورقة تكتب فيها الرسالة ، ويدرج فيها الكتاب ، وأضافها إلى الطىّ لأنّها تطوَى على ما فيها من الكتاب ، فكأنه قال مما أدرِج فى الورق من الكتاب وطُوِىَ عليه ، يريد أنه أرسل فيه الرسائل إلى البلاد ، فلم يعرف له موضع قرّ فيه وثبت . عاره : ذهب به وأتلفه .

ويكنون بالجراد عن الناس ، فكأنه قال : ما يدرى أىّ الناس ذهب به . ويقال: عارت عينه ، صارت عوراء ، ووعرتها أنا: فقأتها؛ فكأنه ذهب كما تذهب العين وهذا بضعف . والله أعلم بالصواب .

المقامة الثانية والعشرون وهى الفراتية

حكى الحارث بن همام قال : أَوَيْتُ فِي بعض الفَتَرات ، إلى سِقْيِ الفُراتِ ، فلقيتُ بِهَا كُتَّاباً أَبْرَعَ من بنى الْفُرات ، وأعذب أخلاقاً من الماء الفُرَات . فأَطفتُ بِهِمْ لِتَهَذُّبِهِمْ ، لا لِذَهَبِهِم ، وكاثرتُهم لأدَبِهِمْ ، لا لمـآدبهم . فجالَسْتُ مِنهمْ أَضْرَابَ قَعْقاعِ بن شَوْرٍ ، ووَصَلْتُ بِهِمْ إلى الكَوْرِ بعد الحَوْر ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ أَشْرَكُونِي فى الْمَرْبَعِ وَالْمَرْتَعِ ، وأَحَلُّونى محلَّ الأُنْمُلَةِ مِنَ الإصبع . واتخذونى ابنَ أُنْسِهِمْ عِنْدَ الْوِلَايَةِ والْعَزْل ، وخازنَ سِرِّهِمْ فى الجِدِّ والهزل .

• • •

أويت ، أى ملت وانضممت . الفترات : جمع فَتْرة ، وهى الهدنة والسكون ؛ فكأنه قال : مشيت فى بعض السنين الآمنة . والفترة أيضا : ضعف الأعضاء ، والفترة أيضاً ما بين نبىّ ونبىّ .

* * *

[سِقِى الفرات]

وسقى الفرات بلاد يسقيها الفرات ، والفرات نهر يشقّ بلاد الروم وبلاد العراق ، ويقع فى البحر الحبشىّ ، وجريانه خمسمائة فرسخ .

وقال الرّشاطىّ : ابتداء الفرات وفوّهته من قاليقَلا من بلاد إرمينيّة ،

ثم يسير إلى منبج من كور قنّسرين إلى سُميساط ، ثم إلى مَلَطْية ، ثم إلى كيسوم من أرض الرّقة، ثم إلى الرّقة وقرقيسيا والرحبة وكور الفرات ، ثم إلى الأنبار ، ثم إلى الكوفة ، ويلتقى مع الدّجلة ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابها إلى البحر ، وجريانهما من الشمال إلى الجنوب .

وقال شيخنا ابن جبير : هذا[١] النهر كاسمه فرات ، وهو من أعذب المياه وأخفّها ، وهو نهـر كبير زخّار ، تصعد فيه السفن وتنحـدر . وأما سِقيه فى أحواز بغداد فنبين لك قدره . فذكر أنه عاينه فى طريقه من الكوفة إلى بغداد ، وأنه رحل مع أمير الحاجّ من الكوفة يوم السبت .

قال : ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات ، ورحلنا من ذلك الموقع ، وبتنا ليلة الأحد سَلْخ محرّم بقرية من الحِلّة ، ثم جئناها يوم الأحد . وهى مدينة عتيقة الموضع ، مستطيلة متّصلة بالفرات من جانبها الشرقى ، وهى على شاطئه ، ويمتد بطولها. ولها أسواق حَفيلة جامعة للمرافق، قوية العمارة وديارها بين حدائق النخيل ، وألفيْنَا بها جسراً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشطّ إلى الشطّ، أمر الأمير[٢] بعقدها اهتماما بالحاجّ، فعبرناها، ونزلنا على الفرات على فرسخ من البلد ، والطريق من الحِلّة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها فى بسائط وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق هذه البسائط أغصان من [ماء][٣] الفرات تسقيها ، فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد انبساط وانفساح .

ومن مدينة الحِلّة يتسلسل الحاجّ أرسالاً وأفواجا ، لا يعرج المتأخر على المتقدم ، فحيثما شاءوا نزلوا، ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة فى طريقهم إلى بغداد لا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطرة على نهر متفرّع عن

---

(١) رحلة ابن جبير ١٩٢ ومابعدها بتصرف (٢) ابن جبير : « الخليفة » .

الفرات ، فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعةً، لترا كموا وقوعا بعضاً على بعض .

فرحلنا من الحِلّة ضحوة يوم الاثنين أوّل يوم من صفر ، ونزلنا بعصره بقرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخِصْب ، كبيرة المساحه ، متدفقة فيها جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفوا كه ، من أحسن القرى وأجملها ، بها قنطرة محدودة تصعد إليها وتنحدر عنها على فرع من فروع الفرات ، فعُرِفت القرية بها .

ثم رحلنا عنها بسحَر الثلاثاء ، ونزلنا ضحوة بالفراش ؛ قرية كثيرة العمارة يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر ، والقرى من الحِلّة إلى بغداد على صفة الفراش فى الحسن والاتساع .

ثم رحلنا منها ونزلنا عشيّ النهار بزَريران[1] ، وهى قرية من أجمل قرى الأرض وأحسنها منظراً ، وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطا ، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق من نخيل ، ولها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من شرفها أن دجلة تسقى شرقيّها والفرات يسقى غربيّها ، وهى كالعروس بينهما .

ومن شرفها أن بإزائها إيوان كسرى ، وهو بناء عالٍ فى الهواء على مقدار الميل منها وأمامها بيسير مدائنه . واجتزنا سحراً على المدائن ، فعاينّا من طولها واتساعها مرأى عجيبا .

ونزلنا قافلين بصرصر ، وهى أخت زَرِيران حسنا ، يمرّ بجانبها القبلى نهر متفرع من الفرات وهى من القرى التى تملأ النفوس حسنا وجمالا ، لها أسواق حفيلة ، وجامع وجسر معقود على مراكب من الشطّ إلى الشطّ وهى من بغداد على ثلاثة فراسخ ، ورحلنا منها قبل الظهر ؛ وجئنا بغداد قبل العصر ، على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها ، فمن أراد أن يعرف قدر سِقْى الفرات فليقف على هذا الفصل الذى ذكرناه .

---

(١) فى الأصول : « زريدان » ، وصوابه من ابن جبير ومعجم البلدان

وقوله : « كتابا أبرع من بنى الفرات » ، أى أحذق وأزيد فضيلة .

[ذكر بنى الفرات]

والفرات رجل من عجْل كان له أبناء مشاهير بالكتابة والحذاقة والبراعة ، وتقلّد الوزارة ،قال فى بعضهم صالح بن موسى رحمه الله :

آل الفرات نداهمْ على الفرات يزيدُ
وأنت فضلك فيهم وعليك منه شهودُ

وقال ابن المعتز فى علىّ بن محمد بن الفرات :

أبا حسنٍ ثبَّتّ فى الأمر وطأتى وأدركتنى فى المعضلات الهزاهزِ (١)
وألبستَنى درعا علىّ حصينـةً فناديت صرف الدهر: هل من مبارزِ!

وقال علىّ بن بسام :

وقفت شهوراً للوزير أعـدّها فلم تثنه نحْوى الحقـوق السوالفُ
فـلا هـو يرعانى رعاية مثـلِه ولا أنا أستحيى الوقوف وآنفُ

وكان موسى بن الفرات عاملا لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر بن المتوكل، واستوزر المقتدر أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات ثلاث مرات، يعزله ثم يردُّه. وقُتِل المقتدر وأبو الفتح الفضل بن جعفر (٢) بن الفـرات وزيره .

وتولّى بعض دواوين المقتدر أبو طالب بن جعفر بن الفرات والحسن بن أبى الحسين بن الفرات . فكان محل آل الفرات ، الوزارة والكتابة والبراعة والحذاقة .

وحُكِىَ أن بعض الأدباء جوّز بحضرة الوزر ر أبى الحسن بن الفرات أنّ

---

(١) ديوانه ١١٩
(٢) فى الفخرى ٢٤٣ : « أبو الفضل جعفر الفرات » .

السين تقام مقام الصاد فى كلّ موضع فقال له الوزير : أتقرأ: ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم﴾ ، أو« ومن سلح ؟ » فخجل الرجل وانقطع .

ومثل هذا النادرة أن النضر بن شميل مرض، فدخل عليه قوم يعودونه، فقال له رجل منهم : يكنى أباصالح: مسح الله مابك، فقال له : لاتقل مسح بالسين ولكن بالصاد بمعنى أذهب، وهو كلام العرب . فقال أبو صالح إن السين تبدل من الصاد كالصراط والسراط وصقر وسقر، فقال له النضر : فأنت إذا أبو سالح! فخجل الرجل .

قوله : « أعذب من الماء الفرات » أى أحلى ، والماء الفرات: العذب الحلو . أطفت : أى ألمت ونزلت . لتهذّبهم : لظرفهم وتخلصهم من عيوب الجفاء . كاثرتهم : صاحبتهم فكثّرت عددهم بى . مآدبهم : طعامهم . أضراب : أمثال .

* * *

[القعقاع بن شور]

القعقاع بن شور ، قال المبرّد : هو رجل سيد من عبد الله بن دارم ، وكان إذا جالسه جليس فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيبا فى ماله ، وأعانه على عدوّه ، وشفع له فى حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له ؛ حتى شهر بذلك .

قال الفنجديهىّ : هو القعقاع بن شور بن عمرو بن ذهل بن ثعلبه بن عكابة ابن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل الشيبانى ، وهو من الأجواد والأسخياء ، يضرب به المثل فى حسن المجالسة والمعاشرة وإتيان الجليس بالشىء النفيس .

قال أبوعبيد: وكان من جلساء معاوية، فأهدى إلى معاوية هدايا يوم المهرجان فيها جامات ذهب وفضة، فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام ذهب ، وفى القوم أعرابىّ إلى جنب القعقاع، فدفع إليه الجام فأخذه الأعرابى ونهض ينشد :

وكنت جليس قعقاع بن شورٍ ولا يشقى بقعقاع جليسُ[1]
ضحوكُ السن إن نطقوا بخيرٍ وعند الشرّ مطراق عبوسُ

[أشعار فى وصف الجليس]

ومما يستحسن فى البر بالجليس قول صاعد اللغوىّ :

لى من سرّ بنى العباس خلّ وجليسُ
شهد المجد عليه أنه العِلْق النفيسُ
فإذا جالسته لم تدر مَنْ منّا الجليس

وقال كشاجم :

جليس لى أخو ثقةٍ كأنّ حديثه حبره[2]
يسرك حسن ظاهره وتحمد منه مختبره
ويستر عيبَ صاحبه ويستر أنه ستره

وقال آخر :

جليس لى له أدب رعاية مثله تجبُ
لو انتُقدت خلائقه تبهرج عندها الذهب

وقال آخر :

لى صديق غلطت بل لىَ مولىً مَنْ لمثلى بأن يكون صديقى
نتلاقَى التقاءَ روحٍ بروحٍ بضروب التقبيل والتعنيق
ليس فى الأرض من يميز منا عاشقاً فى اللقاء من معشوقِ

أين ما وصف به القعقاع من قول والبة المشهور :

قلت لنَدمانى على خلوة أدنِ كذا رأسك من راسِياَ[3]

---

(١) الكامل للمبرد ١ : ١٧٧ ، ثمار القلوب ١٢٨
(٢) ديوانه ٧١
(٣) مختار الأغاني ٨ : ٣١٠

ونم على وجهك لى ساعة إنى امرؤ أنكح جُلّاسيا

والبةبن الحباب شيخ الحسن بن هانى أدّبه صغيراً، فتخلّق بخلقه. وقال الحسن:

وجليس كانّ فى وجنتيه كلُّ شىء تسمو إليه النفوسُ[1]

قد أصبنا منه فتستغفرِ الله كثيرا وقد يصاب الجليسُ

[الحوْر والكور]

قوله : الكَوْر والحَوْر ، أى الزيادة والنقصان، وكلام العرب : نعوذ بالله من الحوْر بعد الكَوْر ، أى من النقصان بعد الزيادة ، فقلب اللفظ على مراده، وهو من كَوْر العمامة ، وهو استعارة من نقض الأمر ، كنقض العمامة بعد كَوْرها وهو شدّها ، وكار عمامته : شدّها على رأسه وجمعها وحاربها فنقضها وأفسدها .

وأمر الحجاج رجلا على جيش ، ثم بعثه مرة أخرى تحت لواء أمير آخر ، فقال: هذا الحوْر بعد الكَوْر، فقال له الحجاج : وما الحوْر بعد الكوْر؟ قال : النقصان بعد الزيادة، فعلَى هذا أكثر أهل اللغة .

وقيل معناها : نعوذ بالله من الخروج عن الجماعة بعد كوننا فى الكوْر، وهو الاجتماع ، من كار عمامته جمَعها فى رأسه . وحارها : أفسدها .

ويُروى « بعد الكَوْن» ، من قولهم : حار بعد ما كان، أى كان على حالة جميلة فرجع عنها . وقيل : معناه نعوذ بك من خروجنا عن الجماعة بعد الكوْن على الاستقامة ، فحُذف للعلم به .

* * *

فى المرتع والمربع ، يعنى المأكل والمنزل، والمرتع الاتساع فى الأكل الكثير والشرب ، والمربع : المنزل فى الربيع ، من ربعت فى الموضع أقمت فيه . الأنملة .

---

(١) ديوان أبى نواس ١٩٦ وفيه : « كل حسن » .

طرف الأصبع أي عظموه ورفعوه فوق رءوسهم .

ابن أنسهم ، أي الذي يأنسون به . عند الولاية والعزل ، أي زمن العمل والعطل . خازن : كاتم وحابس .

* * *

فاتَّفَقَ أنْ نُدِبوا في بعضِ الأوقاتِ ، لاستقراء مَزَارِعِ الرُّزْدَاقاتِ ، فاختاروا مِنَ الجوارِي المنشآت، جاريةً حالـكةَ الشِّياتِ، تَحْسَبُها جاريةً وَهِيَ تمرّ مرّ السّحَاب ، وتنسابُ في الحَبَاب كالحُباب . ثمّ دَعَوْني إلى المرافقة ، فلبَّيتُ بلسان الموافقة .

* * *

نُدبوا ، أي دعوا . استقراء ، أي تتبع . الرزداقات : العمالات والأنظار ، وأراد أنهم خرجوا عمالا على الزرع ، وكل موضع أو قرية انفصل عن المدينة بعمله فهو رزداق ورستاق ومخلاف وكورة ، فالرزداق بخراسان وهو فارسيّ عربيّ ،والمخلاف لليمن ، والـكورة لغيرهما من الأرضين .

الجواري : السفن . المنشآت : المصنوعات . حالـكة الشيات : مسودّة اللون ،والشية في الفرس لون يخالف لونه كالغرّة والتحجيل وغيرذلك ، فأراد أن موضع البياض في غير السفينة هو منها أسود فهي كلها سوداء جامدة : ساكنة.

[في وصف السفن]

وركب السَّلاميّ دجلة في زورق ، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال :

وميدانٍ تجول به خيـولٌ تقود لدَّاعين ولا تقادُ[1]

(1) يتيمة الدهر . ٢ : ٣٦٥ .

ركبت به إلى اللذات طِرفاً ... له جسمٌ وليس له فؤادُ
جرى فحسبت أن الأرض وجهٌ ... ودِجْلة ناظر وهو السَّوَادُ

وقال القاضى التنوخىّ يصف دِجْلة فى الظلام : والقمر يلمع عليها ، وينتظم فى سِلْك أبيات السَّلاَمىّ رحمه الله تعالى :

أحسِنْ بدجله والدّجى متصوّبُ ... والبدر فى أفق السماء مغرّبُ [١]
فكأنها فيه بساطٌ أزرقُ ... وكأنه فيها طراز مُذَهَبُ

وقال منصور بن كيغلغ :

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرَها ... من فوق دِجْلةقبل أن يتغيَّبا [٢]
والبدر يجنح للأفول [٣] كأنه ... قد سلّ فوق الماء سيفامُذْهَبا

وتسميته للسفينة جارية ، لجريانها على الماء ، قال تعالى فى السفن العظام : ﴿ ومن آياته الجوارِ فى البحر كالأعلام ﴾ [٤] .

ولبعضهم :

يا من تأهّبَ مزمعاً لِروَاح ... متيّماً بغدادَ غير ملاح
فى بطن جاريةٍ كفتْك بسيرها ... رَقّلان كل شَناحة وشَنَاح
فكأنها والماء ينطح صَدْرَها ... والخيزرانة فى يد الملاَّحِ
جَوْنٌ من العِقبان يبتدر الدّجَى ... يهوى بصوت واصطفاقِ جَنَاحِ

الشَّناح : الجمل التامّ الخلق .

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأصطول :

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧٥
(٢) يتيمة الدهر ١ : ٧٥
(٣) فى اليتيمة : « للغروب » .
(٤) سورة الشورى ٣٢

يا حسنَها يوماً شهدتُ زِفافهـا ... بنت الفضاء إلى الخليج الأزْرَقِ [(١)]
من كلّ لابسة الشباب مُلاءةً ... حسب اقتدار الصّانع المتأنّق
ومجاذفٍ تحكى أراقمَ رَبْوةٍ ... نزلت لتكرع فى غدير مُتْأقِ
والماء فى شَكْلِ الهواء فلاَ ترَى ... فى شَكْلِهَا إلاّ جوارحَ تلتقى

ولابن حريق :

وكأنما سكن الأراقمُ جوفها ... من عهد نوح صاحب الطوفانِ [(٢)]
فإذا رأين الماء يطفح نضنضتْ ... من كلّ خَرْقٍ حَيّةٌ بلسان

* * *

قوله : ينساب ، أى تمشى بسلاسة . الحَباب : طرائق الماء . والحُباب ، بالضم : الحيّة . وتشبيهه المشى السهل بحباب الماء أفشى وأعرف من تشبيهه بمشى الحية ، وتشبيهه بمشى الحية قد استعمل ، وهو متمكن فى المعنى ، وبه وقع التشبيه هنا فى المقامة ، وقال امرؤ القيس فى تشبيهه بحَباب الماء :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سُمَوّ حَباب الماء حالاً على حالِ [(٣)]

وقال ابن الرومى:

فصغت ذلك من قولى إلى قمرٍ ... يلهو بمكتحلٍ طوراً ومُختَضِبِ
جرت تُدافع من وَشْيٍ لها حسن ... تدافُعَ الماء فى وشىٍ من الحَبَبِ

وقال عمر بن أبى ربيعة فى مشى الحية :

فلمّا فقدت الصوت منهم وأطفِئَتْ ... مصابيحُ شُبّتْ بالعشاء وأنوُرُ [(٤)]
وغاب قُميْرٌ كنت أرجو غيوبَهُ ... وَروّح رُعْيَانٌ وهـوّمَ سُمّرُ
وخُفّضَ عنى الصوت أقبلت مشية الـ ... حُباب وركنى خيفة القوم أزْوَرُ

(١) نفح الطيب ٤ : ٦٠

(٢) نفح الطيب ٤ : ٥٧ ، وفيه : « خشبة الطوفان » .

(٣) ديوانه ٢١ (٤) ديوانه ٦٦

ثبت فى الكتب الصحاح ضم الحاء وقول الإعرابىّ :

من المتصدّيات لغير سوء   تسيل إذا مشت سَيْلَ الحُبابِ

يروى بالفتح والضم . وابن الإفليلى يأبَى إلا الضم .

وقال أبو القاسم بن هانئ لجمع بين التشبيهين :

قامت تميسُ كما تدافع جَدْوَلُ   وانساب أيمٌ فى نقاً يتهيَّلُ[1]
وأتت تُزَجِّى ردفها بقوامها   فتأطّر الأعلى وماج الأسفلُ

وقال آخر ورفع الاحتمال :

لما دنا الليل بأرواقه   ولاحت الجوزاء والمِرْزَمُ
أقبلت والوطء خفيف كما   ينساب فى مكمنِه الأرقمُ

وما أحسن قول ابن شهيد فى معناه[2] :

ولمّا تمكن[3] من سُكْرِهِ   ونام ونامت عيون الْعَسَس
دنوتُ إليه على رِقْبَةٍ   دنوّ محبٍّ دَرَى ما التمسْ
أدِبّ إليه دبيب الكرى   وأسمو إليه سموّ النَّفَسْ
أقبِّل منه بياضَ الطُّلى   وأرشف منه اللَّمَى واللَّعَسْ

* * *

فلمّا تورّكنا على المطيَّة الدهماء ، وتبطنَّا الوليّة الماشية على الماء ، ألْفَيْنَا بها شيخاً عليه سَحْقُ سِرْبال ، وسِبٌّ بال ، فعافت الجماعة محضرَه ، وعَنَّفتْ مَنْ أحضره ، وَهَمّتْ بإبرازِه

---

(١) ديوانه ١١٠

(٢) ديوانه ١٢٠ ، نفح الطيب ٣ : ١٩٠ ، الذخيرة قسم ١ مجلد ١ : ٢٤٥

(٣) الذخيرة والنفح .

من السّفينةِ ، لولاَ ما ثابَ إليها من السَّكِينة ؛ فلمّا لَمَحَ منّا استثقالَ ظِلّهِ ، واستْبرادَ طَلّهِ ، تعرّضَ للمنافثة فصُمِّت ، وحَمْدَلَ بعد أن عَطِسَ فمَا شُمِّت .

* * *

قوله : المطية الدهماء ، هى السفينة السوداء . وتورَّ كناها : قعدنا عليها متكئين . وتبطّنا : دخلنا بطنها . الولّية : المطيعة . وأوهم إتمول الناس: فلان ولىّ يمشى على الماء ، فلما كانت مطيعة لخدامها ماشية على المـاء سماها ولِيّة . ألفينا : وجدنا . سحق سربال ، أى قميص خَلَق . والسِّب : الخمار . فيريد أنّ عليه مئزرا أو خماراً بالياً، والمئزر كالخمار للمرأة . عافت : كرهت . عنّفت : لامت وأغلظت له القول ، والعنف ضدّ الرفق . ثاب : رجع .

قال الفرّاء رحمه الله تعالى : معنى السكينة الطمأنينة .

أبو عبيدة : هى فعيلة من السّكون . وتشبه حالة أبى زيد هنا فى إهانته أوّلا وإكرامه آخراً حالة مَعْبَد فى دخول السفينة ، وقد تقدّمت فى الثامنة عشرة .

لمح : رأى . والظّل ، يوصف بالثمل مبالغة فى ثقل صاحبه ، يقال للمستثقَل : ظلك علىّ ثقيل ، أى أخف ما يمكن أن يوجد منك الظّل السريع الانتقال يثقل علينا ، فيُصوّر شخصك أى منزلته من الثقل ، وإنما يتصور ثقل الظل حقيقة إذا أخذ عليك إنسان عين الشمس فى زمن البرد أو ضوءها وأنت تنظر ما يدفىء .

[ذكر الثقلاء]

ومما قيل فى ثقيل :

أنت يا هـذا ثقيلٌ وثقيـــلٌ وثقيـلُ
أنت فى المنظر إنسا نٌ وفى المخبر فيـلُ

لو تعرضت لظــلٍّ فسَد الظــلّ الظليلُ

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيل يُنشد :

فما الفيل تحمله ميّتاً بأثقلَ من بعض جلاّسِيَا

وذكر ثقيلا كان يجلس إلى جانبه ، فقال : والله إنى لأبغض شِقّى الذى يليه منّى .

وكان حماد بن سلمة إذا أرى مَنْ يستثقله قرأ : ﴿ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون﴾ (١).

عائشة رضى الله عنها : نزلت آية فى الثّقلاء : ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾(٢) .

الشعبى : من فاتته ركعتا الفجر فليعلن الثقلاء .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى ثقيلا قال : اللهمّ اغفر له وأرِحْنا منه .

قيل لجالينوس : لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل ؟ قال : لأن ثقله على القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه .

وقال طبيب للحجاج : إياك ومجالسة الثقلاء ، فإنا نجد فى الطبّ أن مجالستهم حُمّى الروح .

وقال حكيم لآخر : لا تصحبنّ ثقيلا ، فمن يصحبه فإنما يعذّب روحه .

وقيل : سخنة العين النظر إلى الثقلاء .

وكان بعضهم إذا رأى ثقيلا غُشِيَ عليه . وكان آخر إذا رأى ثقيلا غمّض عينيه .

وكان بعض الظرفاء إذا رأى ثقيلا قال : قد جاءكم الجبل ، فإن جلس عندهم قال : قد وقع عليكم .

---

(١) سورة الدخان ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

وسمع الأعمش كلام ثقيل فقال : مَنْ هذا الذى يتكلّم وقلبى يتألم .

قال رجل لخالد بن صفوان : أتستثقل فلانا ؟ قال : أوّه كدتَ والله أن تصدع قلبى بذكره ، والله لهو أثقل من شراب الترنجبيل بماء التين فى أيام الحكاك بعقب التخمة وأوان الحجامة .

سلَّم ثقيل على بعض الظرفاء فقال : وعليك السّلام شهراً .

قعد ثقيل عند ظريف ، فسئِل عن ذلك ، فقال : كانت نفسى قد شمخت علىّ فأردت أن أهينها بذلك .

وقال رجل لغلام هاشمى : يابغيض ، فشكاه إلى أبيه ، فقال : قد علمتُ أنك بغيض ، فكرهت أن أقوله لك حتى يكون بغضك بإسنادك .

وسئل إنسان له ثلاث بنين ثقلاء : أىّ بنيك أثقل ؟ فقال: ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط .

كان أبو العتاهية يقول لابنه محمد : أنت والله يا محمد ثقيل الظلّ ، مظلم الهواء ، جامد النسيم ، بارد حامض منتن .

قال سهل بن هارون : مَنْ ثقَّل عليك نفسَه ، وغمك سؤاله ، فأعِرْه أذناً صماء، وعيناً عمياء .

وأنشدوا :

مشتملٌ بالبُغْضِ لا تَنثنى ... إليه لحظًا مقلةُ الرامقِ (١)
يظلّ فى مجلسنا قاعدًا ... أثقل من واشٍ على عاشقِ

وقال بعضهم :

يا مَنْ تبرّمت الدنيا بطلعتهِ ... كما تبرّمت الأجفان بالسّهُدِ (٢)
إنى لأذكره حيناً فأحسبُه ... من ثقله جالساً منى على كِبِدِى

(١) زهر الآداب ٢ : ٤٤٢ ، وورد البيت محرفا فى الأصول والصواب ما أثبته من زهر الآداب .
(٢) المحاسن والمساوى ٢ : ٤٢٧

ولبعضهم :

نظر العين نحوه ـ علم الله ـ يُمرضُ
فإذا ما أردتُمُ أن تروه فغمّضُوا
لا تصبكم ملمّـة والملمّات تعرِضُ

وقال بعضهم :

شخصك فى مقلة النّديمِ أوحش من نحسَة النجومِ
يا رجلا وجهـه علينـا أثقل من مِنّـةِ اللئيمِ
إنى لأرجو بمـا أقاسى منك خلاصى من الجحيمِ

وقال بعضهم أيضاً :

ولى خلّتـان على هامتى جلوسُهما مثلُ حدّ الوتِدْ
ثقيـلان لم يعرِفَا خِـفَّةً فهذا الصُّدَاع وذاك الرمدْ

والأشعار فى الثقلاء كثيرة وفى كتب الآداب مشهورة ، فلنقتصر على هذه النبذة .

[ما جاء فى البارد]

قوله : استبراد طّله . الطّل : أضعف المطر ، وهو الرذاذ ، وأكثر نزوله ساكناً بغير ريح ، ولا بَرَد فى الغالب يكون معه ، فكنَى هنا بالطّل عن كلامه القليل ، وإنه عندهم بارد الحديث ، وإن كان ما جاء منه ثقيل مؤذٍ .

وقد جاء فى ذلك :

ولو مازج النار فى حرّها حديثك أطفأ منها اللهبْ

وقال آخر فى شعر الصولى :

دارى بلا خيش ولكنّنى عقدت من خيشىَ طاقينِ

دارٌ متى ما اشتد بى حرّها　　أنشدت للصّولىّ بيتينِ

وكلامه :

ويوم كتنور الطهاة سجرتُه　　على أنه منه أحرّ وأوقدُ

ظللتُ به عند المبرّد جالساً　　فمازلت فى ألفاظه أتبرّدُ

لقى برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد فى يوم ثلج بالجسر ، فقال له : أنت المبرّد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ؛ اعبُر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا .

وقال كشاجم رحمه الله تعالى :

غناء مديح بأرض الحجاز　　يطيب وأما بحمصٍ فلا

لبرد الغنـاء وبرد الهواء　　فإن جمعا خفت أن يقتـلا

قوله : تعرّض ، أى تهيأ . المنافثة : الـكلام معهم . صُمّت : سُـكِّت .

ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موقع حديث الرجل من القوم كموقعه من قلوبهم » .

حمدل : قال الحمد لله. ماشُمّت : ما أدخل عليه السرور بقولهم : يرحمك الله تعالى .

ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دُفع بها عنه سبعون داء أهْونها الجذام » .

[ماجاء فى تشميت العاطس]

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا عطس أحدكم فليقُل الحمد لله ، والذى يشمّت : يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله ، ويصلح بالـكم » .

ومما يستظرف من حديث العطاس أن صوفيًا فى بلدنا كان حافظًا للشعر ، فلا يعرض فى مجلسه معنى إلا وينشد عليه شعراً ، فاتفق أن عطس رجل بحضره ، فشمّته الحاضرون ، فدعا لهم ، فرأى الصوفىّ أن تشميته قطع إنشاده بمالا يشاكله

من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً فى البر . فأصبح للطلبة راغباً أن ينظم له هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن محمد :

يا عاطساً يرحمك الله إنْ أعلنتَ بالحمد على عَطْسَتِكْ
ادع لنا ربّك يغفر لنا وأخلِص النية فى دعوتِك
وقل له يا سيّدى رغبتى حضورهذا الجمع فى حضْرَتِكْ
وأنت يارب النداء والندى بارِكْ ربّ الناس فى ليلتك
فإن يكن منك لنا دعوة فأنت محمود على عوْدَتِكْ

وهذا الوزير الشريف إنما يصرف شعره فى أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان .

وكتب إلىّ يستهدينى كتاب العقد :

أيا مَنْ غدا سلكا بجيد معارفه ومَنْ لفظُه زهر أنيق لقاطِفِه
محبُّك أضحى عاطلَ الجيد فلتجُدْ بعقد على لبّـاته وسوالِفِهْ

وتوعّك فى بعض الأعياد فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما همّوا بالانصراف أنشدهم ارتجالا :

لله درّ عصابة أمجادِ شَرُفَ النداء بقصدهم والنّادِى
لما أشاروا بالسّلام وأرْبَعُوا أنشدتهم وصدقت فى الإنشادِ
فى العيد عدتم وهو يوم عرُوبة يا فرْحَتِى بثلاثة الأعْيادِ

* * *

فأخْرَدَ ينظُرُ فيما آلتْ حالُه إليه ، وينتظِرُ نُصْرَةَ المبغىِّ عليه . وجُلنا نحْنُ فى شُجُونٍ ، من جدٍّ ومُجُونٍ ؛ إلى أن اعترضَ ذِكرُ الكتابتَيْن وفضلِهما ، وتبيانِ أفْضَلِهما ، فقال قائل : إن كتبةَ

الإنشاء أَنبلُ الـكُتّاب ؛ ومالَ مائلٌ إلى تفضيل الحسَّاب . واحتدَّ الحِجاج ، وامتدّ اللَّجاج ؛ حتّى إذا لم يَبْقَ للْجِدَال مَطْرَحٌ ، ولا لِلمراء مَسْرَحٌ ؛ قال الشيخ : لَقَدْ أكثرتُمْ ياقومُ اللَّغط ، وأَثَرْتُمْ الصّوَاب والغلط ، وإنّ جَلِيَّةَ الحُـكْمِ عندى ، فارتضوا بِنَقْدِى ، ولا تَسْتَفْتُوا أحداً بَعْدِى .

* * *

قوله : أخرد، أى سكت ذلاً، ويروى : خرد ، أى سكت حياء واستتر ، تقول: أخردت وخَردت من حرّ الشمس . أى استترت ، وأقْرد من لفظ القرد أو القراد ، وأخرد من لفظ الخريدة . آلت : رجعت . المبغىّ عليه ، أى المظلوم، وأراد أن ينظر النُّصرة على أعدائه، من قوله تعالى: ﴿ثم بَغَى عليه لينصرنَّه الله﴾ جُلنا : تصرّفنا . شجون : ضروب من الـكلام ، ومنه : الحديث شجون ، أى فنون ، ومشتبك بعضه ببعض . وفى الحديث : « الرحم شجنة من الله » ، معناه القرابة مشتبك بعضها ببعض ، كاشتباك العروق . اعترض : تصلّب وظهر . الإنشاء : الـكتابة . وكَتَبة الإنشاء هم كتبة بين يدى السلطان وهم المترسّلون . أنبل : أعظم قدرا . والحُسّاب : كتبة الزمام

احتدّ : اشتدّ والحجاج : المحاجّة[1] واللجاج : ركوب الرجل على الباطل ، مطرح : موضع يطرح فيه . المراء ، قد تقدّم . أثرتم : فضلتم . جليّة : بيان . نقدى : تمييزى .

* * *

(١) ط : جمع حجة ، والوجه ما فى ا .

اعْلمُوا أنّ صناعَةَ الإنشاء أَرْفَع ، وصناعة الحِسَابِ أنفَع ، وقَلَم الكاتبةِ خاطب ، وقَلَمَ المحاسبِهِ حاطِب ، وأساطِيرَ البلاغة تُنْسَخُ لِتُدْرَس ، ودَسَاتيرَ الحُسْبانات تُنْسَخُ وتُدْرَس . والمنشِئ جُهَيْنَةُ الأخبار ، وحَقيبةُ الأسرار ، ونجيُّ العُظماء ، وكبيرُ النّدماء ، وقلمُه لِسَانُ الدّوْلَة ، وفارسُ الجَوْلة ، ولقْمَانُ الحِكْمَةِ ، وتَرْجُمان الهِمّة . وهُوَ البشيرُ والنّذِيرُ ، والشَّفيعُ والسَّفِيرُ . به تُسْتَخْلَصُ الصَّياصِي ، وتُمْلَكُ النَّواصي ، ويُقْتَادُ العاصِي ، ويُسْتَدْنَى القاصِي ، وصاحِبُه بَرِئ مِنَ التّبعاتِ ، آمِنٌ كَيْدَ السُّعاة ، مُقَرّظٌ بَيْنَ الجماعَاتِ ، غيرُ مُعَرّضٍ لِنَظْمِ الجماعات .

* * *

قوله : خاطب ، أي جامع للكلام . حاطب : جامع للحطب ، يريد أنّ المنشىء كالخطيب يختار من الكلام النفيس فيسرقه ، ولا يبالي كاتب الحساب بما كتب ، ويكون حاطب بمعنى مجمع المال . أساطير : أحاديث ، وهي جمع أسطار ، وأسطار : جمع سطر . وقيل : الأساطير : جمع أسطورة وإسطارة . دساتير : أزِمّة . تدرس : تمّحى أو تُترك حتى تتغيّر .

[أصل المثل : عند جهينة الخبر اليقين]

جهينة الأخبار ، أي العارف بها . واختلفوا في المثل ، قال الأصمعي رحمه الله تعالى : جُفَينة بالجيم والفاء .

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : حُفَينة ، بحاء غير معجمة .

وقال ابن الكلبي : جُهينة بالجيم والهاء ، وهو الصحيح.

وأصله أنَّ حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خَرَج يطلب فُرصة فاجتمع برجل من جُهينة يقال له الأخنس بن كعب، فنزلا فى بعض منازلهما. وتعاقدا ألاّ يلقيا أحداً إلا سلباه، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه، فلقيا رجلا، فسلباه كلَّ ما معه فقال لهما: هل لكما أن تردّا علىّ بعض ما أخذتما منّى وأدلّكما على مغنم؟ فقالا: نعم، قال: هذا رجل لخمىّ قدم من بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلفى فى موضع كذا، فردّا عليه بعضَ ماله، وطلبا اللخمىَّ، فوجداه نازلا فى ظل شجرة وقدّامه طعامه وشرابه، فحيّاه وحيّاهما، وعرض عليهما الطعام، فنزلا وأكلا، وشربا مع اللخمىّ. ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فلما رجع أبصر سيف صاحبه مسلولاً، واللخمىّ يتشحّط فى دمه، فسلّ سيفه، وقال: ويحك! قتلتَ رجلا قد تحرّمنا بطعامه وشرابه! فقال: اقعد يا أخا جهينة، فلهذا وشبهه خرجنا. ثم إنّ الجهنى شغلَ صاحبه بشىء، ثم وثب عليه فقتله، وأخذ متاعه ومتاع اللخمىّ. ثم انصرف إلى قومه راجعاً بماله، وكانت لحصين أخت تسمَّى صخرة، فكانت تبكيه فى المواسم وتسأل عنه فلا تجد مَنْ يخبرها بخبره، فقال الأخنس حين أبصرهَا:

وكم من فارس لا تزدريه ... إذا شَخَصَتْ لرؤيته العيونُ[1]

علوتُ بياض مفرقه بعَضبٍ ... فأضحى فى الفلاة له سكون

يذلّ له العزيز وكلّ ليثٍ ... من العِقبان مسكنُه العرينُ

فأضحت عرسه ولها عليه ... بُعَيْدَ هدوء رقْدتها أنينُ

كصخرة إذ تسائل فى مراحٍ ... وفى[2] جرم وعلمُهما ظنونُ

تسائل عن حصينٍ كلّ ركب ... وعند جُهينة الخبر اليقينُ

فمن يك سائلا عنه فعندى ... لسائله الحديث المستبينُ

مراح وجَرْم: قبيلتان.

---

(١) قبله فى الميدانى ٢ : ٤

وكم مِنْ ضيغمٍ وردٍ هموسٍ ... أبى شِبْلين مَسْكَنُهُ العَرِينُ

(٢) الميدانى: «وأنمار».

حقيبة : وعاء . نجىّ : متكلم . النّـدماء : الجلساء على الخمر ، يريد أن أصحابه أعيان وأشراف . النذير : المخوّف . السفـير : الرسـول بين القوم . تستخاص : تملك وتحصل . الصّياصى : الحصون . النواصى : الرءوس ، وأصل الناصية شعر مقدّم الرأس . القاصى : البعيد . التّبعات : المطالبات . السّعـاة : جمع ساعٍ ، وهو جابى الصدقة . مقرّظ : ممـدوح . نظم الجماعات : تجميا الحساب ، والجماع : الأخلاط وضروب من الناس ، والجماع : كل شىء انض بعضُه إلى بعض وتجمّع؛أراد أنّ كاتب التراسيل قدأمن من مكر عمّال الزّكواد الذين يسرقون مال الرعيّةوالسلطان ولا يعرّض لأن يؤلف ماافترق من الخراج حتى يصير جماعات .

* * *

فلمَّا انْتَهى فى الفَصْـلِ ، إلَى هَذَا الْفَصْلِ ، لَحَظَ من لمَحاتِ الْقَوْمِ أنَّهُ ازدَرَع حُبًّا وبُغْضاً ، وأرْضَى بعضاً وأحْفَظَ بعضاً . فعقَّبَ كلامه بأن قَالَ : إلاَّ أنَّ صِناعَةَالحِسَاب مَوْضُوعَةٌ على التّحقيق، وصِناعَةَ الإنشاءِ مبنيّةٌ عَلَى التّلفيقِ ، وقَلَمَ الحاسِبِ ضَابط ، وقَلَمَ المنشئ خَابِط . وبين إتاوةِ تَوْظِيف المعاملاتِ ، وتِلاَوةِ طوَامير السِّجلاّت ، بَوْنٌ لا يُدْرِكُهُ قياس ، ولا يَعْتَوِره الْتِباس ، إذ الإتَاوةُ تَملأُ الأكياس ، والتِّلاَوةُ تفرِّغُ الرَّاسَ ، وخراجُ الأوَارِجِ ، يُغْنِى النّاظِرَ ، واستخراجُ المدارج يُعَنّى النّاظر .

* * *

الفصل ، أى القضاء والحُـكْم ، وأرادأنه فصل فى القضاء بين الصنفين من الـكتاب . إلىهذا الفصل ، أى إلى هذا الحدّ . والفرق،فالأول من فصل الحاكم بين الخصمين فصلا: قضى، والثانى من فصلت بين الشيئين فَصْلا وفصولا: فرقت ، يريد أنه فصل بين الـكلام المتقدّم والـكلام المستأنف ، وأراد أنه ازدرع فى

قلوب كَتَبة الإنشاء حبّه لمدحه لهم ، وفى قلوب كتبة الحساب بغضه لمّا قصّر بهم ، فأخذ يستأنف مدحهم .

أحفظ : أغضب . عقّب : أتبع ، وأراد بالتحقيق أن صنعة الحساب برهانية محققة . والتلفيق : ضمّ شيء لطيف إلى مثله ، ولفقت الشيء تلفيقاً ضممتَ بعض أجزائه إلى بعض . ضابط : محقق ، والضبط الأخذ بشدة ، ورجل ضابط للشيء ، إذاقوىَ عليه فلم يُفلت منه . خابط : مغرّر ، وخبط : مشى على غير هداية .

الإتاوة : الخراج والجباية إلى بيت المال . توظيف : تقسيط . ووظّف على الناس الغرم : قسّطه عليهم ، والوظيفة : نصيبك الذى تغرمه . المعاملات : أنواع من علم الحساب ، وأصلها مصدر عاملت الرجل معاملة إذا وافقته على بيع أو كراء أو إجازة أو غير ذلك مما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . تلاوة : قراءة . طوامير السجلات: بطائق الترسيل ، والطّومار: الكتاب. بون : بعد . يعتوره: يتداوله ويقصده . التباس : شك . الأكياس : أوعية الدراهم . والإتاوة : رشوة العمّال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال رشوة. تفرّغ الرأس :تهوّسه بكثرة الدروس والسهر . الأوارج : أزمّة الخراج. وقيل: صِنْف من الخراج. الناظر: العامل فيها، وأورجها، إذا تولى عملها والقيام بها . المدراج : الرسائل، سمِّيت بذلك لأنها تُدْرَج ، أى تطوى على مافيها ، واستخراجها : تتبع معانيها بجودة النظر ودرس ألفاظها . يعنّى : يتعب . الناظر : سواد العين ، يريد أنّ كاتب الزمام فى راحة وهو يملى على أكياسه بالدراهم . وكاتب الرسالة متعوب قليل المال .

* * *

ثمّ إن الحسبَة حَفَظَةُ الأموال ، وحَمَلَةُ الأَثْقَال ، والنَّقلة الأَثْبَاتُ ، والسَّفَرةُ الثِّقَات ، وأَعَلاَمُ الإنصاف والانتِصاف ، والشُّهُود الْمَقَانِع فى الإخلاف ، ومنهم المستوفِى الذى هُوَ يَدُ السُّلْطَان ، وقُطب الدِّيوان ، وقِسْطَاسُ الأعمال ، والمُهَيْمِنُ عَلَى العُمَّال،

وإليه المـآبُ فى السِّلم والْهَرْج ، وعليه المدارُ فى الدّخْلِ والْخَرْج ، وبه مناطُ الضّرِّ والنّفع ، وفِى يدِه رِباطُ الإعطاء والمنْع .

ولولا قلم الحسَّاب ، لأودت ثمَرَةُ الاكتِسَاب ، ولاتَّصَلَ التَّغَابُن إلى يوم الْحِسَاب . ولَكَانَ نِظامُ المعاملاتِ مَحْلولاً ، وجُرْحُ الظُّلاَماتِ مَطْلُولاً ، وجِيدُ التَّنَاصُفِ مغلولاً ، وسَيْفُ التَّظالُمِ مَسْلُولا . على أنَّ يَراعَ الإنشاءِ متقوِّل ، ويراعَ الْحِساَبِ متأوّل . والمحاسِبِ مُنَاقِش ، والمنشِئُ أبو بَرَاقش ، ولكِليهما حُمَةٌ حِينَ يَرْقَى ، إلى أن يُلْقَى ويُرْقَى ، وإعنَاتٌ فِيما يُنشَا ، حتَّى يُغْشَى وَيُرْشَى ؛ إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُمْ .

* * *

النَّقلة : الأثبات ، أى هم على يقين وثبات فيما ينقلون . السَّفرة . الكتبة . الثّقات : الأمناء . أعلام الإنصاف ، يريد المشاهير بإنصاف السلطان من الناس والناس منه ، وتقول : أنصفت الرجل : أعطيتَه حقّه ، وانتصفت منه : أخذت حقك . والمقانع : الذين يُقنع بفعلهم ، أى يرضى . والإخلاف : جودة الزرع ، تقول : أخلف الزرع؛ إذا طاب؛ وردّ على أصحابه أضعاف ما أنفق عليه .المستوفى: رأس المشارب . قطب : أصل . وقُطْب القوم سيّدهم الذى يدبر أمرهم ويدورون على رأيه ، بمنزلة قطب الرحى الذى تدور عليه . الديون : دار كتاب الخراج ، وهو فارسىّ معرّب . قسطاس : ميزان ؛ يريد أنه ميزان العمل الذى يعتدل به . المهيمن : الشاهد . المـآب : الرجوع . السِّلْم والهرْج : الصلح والحرب . المدار : المعوّل، أى عليه أن يعول فى إدارة مايدخل على السلطان من المـال من رعيته ، وما يَخرج عنه من لوازم الأجناد وغيرهم ، وفلان كثير الدخل والخرْج ،

إذا كَثُر ما يدخل عليه من الفوائد وما يخرج عنه من الإنفاق .

مناط : تعلّق . أودت : هلكت . نظام : خيط . مطلولا ، هدراً أى باطلا لاحق فيه . التناصف : أخذ الحق وإعطاؤه ، واستعار له عنقاً ، وجعله مغلولا ؛ أى محبوسا بغلّ . التظالم : ضدّ التناصف . يراع : أقلام . متقوّل : منحول ما يقوله . متأوّل : مدبّر ؛ يريد أنّ الملك يلقى للكاتب مقصده ، فيحسن الكاتب الألفاظ ويرتّب الفِقَر ، فيزيد فى كتابته ألفاظاً على ما حدّ له بالضرورة ، فتلك الزيادات ضرب من التقوّل وهو أن يقول على الرجل ما لم يقل ، وكاتب الحساب لا يحتاج إلى تقوّل . مناقش : مباحث . أبو براقش ؛ أى يأتى بأنواع مختلفه ، وأبو براقش : طائر فيه ألوان شتّى ، مشتق من الْبَرْقَشَة ، وهى النقش والرقم ، يقال : برقَشت الثوب . وأنشد سيبويه وعزاه أبو عمرو بن العلاء لبعض بنى أسد :

إن يبخلوا أو يجبنوا   أو يغدروا لا يحفلوا

يغدوا عليك مرجّلين   كأنهم لم يفعلوا

كأبى براقش كل حين   لونه يتحيّلُ

وأبو براقش وأبو قلمون ، كنية للرجل الكثير التلوّن ، القليل الارتباط ، وأصل أبى قلمون كنية لثياب إبريسم تنسج بمصر والروم ، تتلوّن للعيون ألواناً شتى . وفى البديعية :

أنا أبو قلمون   فى كل لون أكون

حُمَة بالتخفيف: سمّ وشرّ. يَرْقَى: يصعد فى منزله ، ويرتفع فى أصابع الكاتب حين يكتب به. يُرْقَى: إشارة للرشوة لأنها تسكن شرّه ، كما تسكن الرقية الوجع،

إعنات : مشقّة . يُنْشَى : يكتب . يُغْشَى : يقْصَد ويدخل عليه .

[حائك الكلام]

هذه المقامة بناها أبو محمد على حكاية حائك الكلام المشهور، لأنهم حقروه أولا فى السفينة ثم عظموه آخرا بعد الاختبار .

[1] ونذكر الحكاية وإن طالت لموافقتها المقامة : حدّث عمرو بن مسعدة[2] أنّ المعتصم لمّا رجع من الثغر ، وصار بناحية الرّقة قال لى : ما زلتَ تسألنى فى الرخّجى[3] حتى ولّيته الأهواز، وقعدَ فى سُرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ، ولم يوجّه إلينا بدرهم واحدٍ ، اخرج إليه من ساعتك ، واحلف ألاّ تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً ، فحلفت له، وقلت فى نفسى: أبَعْدَ الوزارة أصير مستحثًّا لعامل خراج ! ولم أجد بدًّا من طاعته. فخرجت إلى بغداد، ففرش لى زورق، وغُشّىَ بالسّلخ[4]، فلما صرت عند دير هزْقل[5] ، وإذا رجل يصيح : يا ملاح ، رجلٌ منقطع ، فقلت للملاح : قرب إلى الشطّ، فقال: هذا شحاذ ، وإن قعد معك ، آذاك فأمرت الغلمان فأدخلوه فى كوثل[6] الزورق ، فلما حضر الغداء دعوتُه فأكل أكل جائع ، إلاّ أنه نظيف ، فلما رُفِع الطعام ، أردت أن يستعمل معى ما يستعمل العوامّ مع الخاصة ؛ أن يقوم فيغسل يده فى ناحية ، فلم يفعل ، فغمزه الغلمان فلم يفعل ، فقلت : يا هذا ، ما صناعتُك ؟ فقال : حائك ، فقلت فى نفسى : هذه شرٌّ من الأولى ، ثم قال لى : جُعِلت فداكَ ! سألتَنى عن صناعتى فأخبرتُك ، فما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أعظم، فكرهت ذكر الوزارة فقلت : كاتب.

---

(١) العقد ٤ : ١٧٥ .

(٢) كذا فى الأصول والمعروف أن عمر وبن مسعدة توفى سنة ٢١٧ فى حياة المأمون .

(٣) الرخجى . منسوب إلى رخج ، من نواحى كابل ، وهو عمر بن فرج . كان من أعيان الكتاب فى أيام المأمون .

(٤) السلخ الجلد .

(٥) دير هرقل : بين البصرة وعسكر مكرم (ياقوت) .

(٦) الكوثل . مؤخر السفينة أو سكانها .

فقال : الكاتب على خمسة أصناف : كاتب رسائل ويحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والتهانى والتعازى والصدور وجملاً من الإعراب . وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والتقسيط والحساب . وكاتب جند ، يحتاج إلى أن يعرف شِيَاتِ الخيل وحُلَى الناس . وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يَعْرِف الجراح والقصاص والدّيات ، وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يعرف الفقه والوثائق وما يتعلق بذلك ، فأيهم أنت أعزك الله تعالى ؟

قلت : كاتب رسائل ، قال : فأخبرنى ؛ إن كان لك صديق تكتب له فى المحبوب والمكروه[٢] ، فتزوّجتْ أمه ، كيف تكتب إليه؟ تهنيه أو تعزيه؟ قلت : والله لا أدرى ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزيه؟ قلت: والله لا أدرى، وهو بالتعزية أولى، قال:صدقت،فكيف تعزيه ؟ قلت:والله لا أدرى.

قال : فلستَ بكاتب رسائل : فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج ، قال : فما تقول وقد ولاّك السلطان عملاً ، فجاء قوم يتظلّمون من بعض عمالك ، فأردت أن تُنصِفهم ، وكنت تحب العدل وتؤثر حسن الأحدوثة، وكان لأحدهم قراح[١] فأردت مساحته ؟ قلت : أضرب العطوف فى العمود . قال : إذن تظلم الرجل ، قلت : فأمسح العمود على حدة ، والعطوف على حدة ، قال : إذن تظلم الناس ، قلتُ :والله فما أدرى؟ قال: فلستَ بكاتب خراج، فأيهم أنت؟قلت : كاتب جند .

فقال : فما تقول فى رجلين اسم كل واحد منهما أحمد، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع السفلى، كيف تكتب عليهما؟ قلت : أكتب أحمد الأعلم وأحمد الأعلم . قال : وكيف ورزق هذا مائة درهم ورزق الآخر ألف درهم، فيقبض هذا على دعوة هذا ، فتظلم صاحب الألف ، قلت : والله ما أدرى ! قال : فلستَ بكاتب جند ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب قاض .

قال : فما تقول فى رجل توفِّىَ وخلّف زوجة وسُرّية، وللزوجة بنت وللسُّرّية[٣]

---

(١) القراح : المزرعة ليس فيها بناء ولا شجر .

(٢) بعدها فى العقد : « وجميع الأسباب » . (٣) السرية: المملوكة يتسراها صاحبها .

ابن ، فتنازعتا فيه ، فقالت كلّ واحدة منهما هذا ابنى وقالت واحدة هذا ابنى ، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضى ! قلت : والله ما أدرى ؟ قال : فلستَ بكاتب قاض ، قال : فأيّهم أنت ؟ قلت : كاتب شرطة .

قال: فما تقول فى رجل وَثَب على رجل، فشجّه شجّةً[1] موضحة ، فوثب عليه المشجوج فشجَّه شجّةً مأمومة[2] ،فقلت : لاأعلم،وقد سألت ففسِّرْ لى ما ذكرت

قال : أما الرجل الذى تزوّجت أمه ، فتكتب إليه : أما بعد فإنّ أحكام الله تعالى تجرى بغير محابّ المخلوقين ، والله يختار للمخلوق ، فخار الله لك فى قبضها إليه ، فإن القبر أكرم لها ، والسلام .

قال : وأما القراح فتضرب واحداً فى واحد فى مساحة العظرف، فثمّ بابه .

قال : وأما المقطوع العليا فتكتب عليه أحمد الأعلم ، [illegible] المقطوع السفلى أحمد الأشرم ، وأما المرأتان فيوزن لبنهما ، فأيتهما [illegible] أخفّ فهى صاحبة البنت . وفى المُوضحة خمس من الإبل ، وفى المأمومة ثمانية وعشرون .

قلت : فما نزع بك إلى هنا ؟ قال : ابن عم لى كان عاملا على ناحية فخرجت إليه فلقيته معزولا ، فخرجت إلى بعض النواحى أضطرب فى المعاش ، قلت : أليس قد ذكرت أنك حائك ! قال : أنا أحوك الكلام ، ولستُ بحائك الثياب . فاما بلغنا الأهواز أمرتُ الحجام فأحفى من شعره ، وأدخل الحمام ، فكسوته من ثيابى ، وكلمت الرخّجى فيه فى الأهواز فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معى .

فقال لى المعتصم : ما كان من خبرك فى طريقك ؟ فأخبرته خبرى ، ثم خبر الرجل ، فقال: هذا لا يُستغنى عنه ، فلأىّ شىء يصلح ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالمساحة والهندسة ، فولاّه البناء ، فكنت ألقاه فى الموكب النّبيل فينزل عن دابّته فأمنعه ، فيقول : يا سبحان الله ! إنما هذه

(١) الموضحة من الشجاج : التى بلغت العظام .

(٢) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس

نعمتك ، وبك أفدتها .

ومثل إيهامه هنا أنه حائك إيهام أبي زيد في التاسعة أنه نظّام .

* * *

قال الحارث بن همام : فلمّا أمْتَعَ الأسْمَاعَ ، بما راقَ ورَاعَ ، استنسَبْنَاهُ فاسْتَرَاب ، وأبَى الانتِساَبَ ، ولو وَجَد منساباً لأنساب . فحصَلْتُ مِنْ لَبْسِهِ عَلَى غُمّة ؛ حتّى ادّكرتُ بَعْدَ أمَّة . فقلتُ : والّذِى سَخَّرَ الْفَلَكَ الدّوّار ، والْفُلْكَ السّيّار ، إنّى لأجِدُ ريحَ أبى زيْد ، وإن كنتُ أعْهَدُهُ ذَا رُواءٍ وأيْدٍ .

فتبسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِى ، وقَالَ : أنا هُو على اسْتِحالةِ حَالِى وحَوْلى ؛ فقلْتُ لأَصْحَابِى : هذا الَّذِى لا يُفْرَى فرِيُّهُ ، ولا يُبَارَى عبقرِيُّهُ . فخطبُوا منه الوُدّ ، ويَذلُوا لَهُ الْوُجْد ؛ فرغِبَ عن الأُلْفة ، ولم يرغبْ فى التّحفَة ، وقال : أمّا بَعْدَ أن سَحَقْتُمْ حقِّى ، لأجْلِ سَحْقِى وكَسَفْتُمْ بالِى ، لإخلاَقِ سِرْبالِى ، فَمَا أراكُمْ إلاَّ بالْعَيْنِ السّخِينةِ ، ولا لَكمْ مِنِّى إلا صُحْبَةَ السفينة .

* * *

قوله : « أمتع الأسماع » أى متّع الآذان ولذّذها ، ومنه يقال فى الكتابة : أبقاك الله وأمتع بك ، ومعناه : أطال الله عمره ، من الماتع وهو الطويل عند العرب ، ومنه متَع النهار ، أى علا ، وقال الأنصاريّ .

واهاً لأيام الصِّبا وزمانِه لو كان أمتَعَ بالمقام قليلا !

ونُبَلاء الكتاب يكتبون بها إلى الأتباع والأدنياء ، ولا يكتبون بها إلى الأكفاء والأعلون .

* * *

[طرف وملح بين الأدباء والشعراء]

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر كتابا فى صدره : وأمتع بك ، فكتب إليه ابن طاهر : (١)

أَحُلْتَ عما عهدت من أدبكْ   أم نلتَ ماكنا فتِهتَ فى كتبكْ
أم قد ترى أنَّ فى ملاطفة الـ   إخوان نقصًا عليكَ فى أدبكْ
إنّ جفا كتاب ذى مقةٍ   يكون فى صدره : وأمتع بكْ
أتعبتَ كفَّيْك فى مخاطبتى   حسبك ممّا اتميت من تعبكْ

فأجابه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أملِي   وكلّ شيء أنال من سَببكْ
إن يك جهل أتاك من قِبلِي   فعدْ بفضلٍ علىّ من حسبكْ
أنكرتَ شيئاً ولستَ فاعله   ولن تراه يُخَطُّ فى كتبكْ
فاعف فدتك النفوس عن رجلٍ   يعيش حتى المماتِ فى أدبكْ

ومن ملح أجوبة ابن الزيات أن الحسن بن وهب مرض فلم يعده ، ولا تعرفّ خبره ، فكتب إليه الحسن :

أيّهذا الوزير أيدك الله   وأبقاك لى زماناً طويلاَ
أجميلا تراه يا أكرم النا   س لكيما أراه أيضا جميلا
إننى قد أقمت عشراً عليلاً   ما ترى مرسلا إلىّ رسولا
إن يكن يوجب التعهد فى الصحـ   ـبة منّا علىّ منك طويلا
فهو أولى ياسيّد الناس برًّا   وافتقاداً لمن يكون عليلا

---

(١) العقد ٤ : ١٨٢ ، أدب الكتاب ١٦٢ .

فأجابه ابن الزيات :

دفع الله عنك نائبة الدّهْـ ـرِ وحاشاك أن تكون عليلاَ
أشهد الله ما علمت وماذا لكَ من العذر جائزًا مقبولاَ
ولعمرى أن لو علمت فلا رُمْـ ـتُكَ حَوْلاً لكان عندى قليلا
فاجعلن لى وإلى التعلّق بالعذْ رِ سبيلاً إن لم أجد لى سبيلا
فقديماً ما جاد بالصّفح والعفـ ـو وما سامح الخليل خليلا

وكتب بعض الكتاب إلى صديق له يعاتبه على ترك عيادته :

ياجافياً ترك السؤال بعبده نفسى فداؤك من ملولٍ قاطعِ
اعتلّ عبدك من تشكّى رأسه ستًّا وأردفها بيوم سابعِ
فحبستَ رسلك عن تعهد عاتّى وقطعتَ من سبب الوصالِ مطامعى
وعلمتُ منك تمادياً فى جفوتى فرجعتُ فى عفوى كأحسن راجعِ

فأجابه الآخر :

لا والّذى قسّم الجمال بفضله فحباك منه بالضّياء اللامع
ما إن علمتُ بعلّةٍ لك سيدى إلا بخطّك فى القريضِ البارعِ
وإذا أتتك رسالتى فقرأتها فأقبل فديتك من مُقرٍّ خاضعِ

وكان(١) الحسن بن وهب يتعشّق غلاماً لأبى تمام روميًّا، وكان أبو تمام يتعشق غلاماً للحسن خَزَريًّا ، فرآه أبو تمام يعبث بغلامه ، فقال : والله لئن أعنقت فى الرّوم لأركضنّ إلى الخزر ، وما أشبّهك إلاّ بداود وأشبّه(٢) نفسى بخصْمه، فقال الحسن : لو كان هذا منظوما خفناه ، والمنثور عارض لاحقيقة له ، فقال أبو تمام:

(١) الخبر والشعر فى كتاب أخبار أبى تمام للصولى ١٩٤ .
(٢) أخبار أبى تمام : « وأشبهنى ».

أبا عليّ لصرف الدهر والغِيَرِ ... وللحوادث والأيام والعِبَرِ
أذكرتني أمر داودٍ وكنتُ فتًى ... مصرّف القلب فى الأهواء والذِّكَرِ
أعندك الشمس لم يَحْظَ المغيب بها ... وأنت مضطرب الأحشاء بالقمرِ
إن أنت لم تترك السير الحثيثِ إلى ... جآذر الروم أعنقنا إلى الخزر

(١) وكان الحسن يكتب لابن الزيات ، فلما وقف على ما بينهما من أمر الغلامين، تقدّم إلى بعض ولده، وكانوا يجلسون عند ابن وهب أن يُعلموه ما يدور بينهما، فعزم غلام أبى تمام على الحجامة ، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك ، ويسأله توجيه نبيذ مطبوخ فوجّه إليه مائة دنٍّ ومائة دينار وخلعة وبخورا وكتب إليه :

ليتَ شعرى يا أمْلَحَ النّاس عندى ... هل تداويتَ بالحجامة بَعْدِى ! (٢)
دفع الله عنك لى كلَّ سوء ... باكرٍ رائح وإن خنت عهدى
قد كتمتُ الهوى بمبلغ جهدِى ... فبدا منه غير ما كنتُ أبدى
وخلعتُ العِذار فليعلم النا ... س بأنّى إليك أصفِى بودّى
وليقولوا بما أحبوا إذا كنـ ... ـت وَصُولاً ولم تَرُعْنِى بصدّ
مَنْ عذيرى من مقلتيك ومن إشـ ... ـراق وجهٍ(٣) من تحت حمرة خَدٍّ

ووضع الرقعة تحت مصلاّه ، وأعلم ابن الزيات خبرها ، فأرسل فى الحين ، وشغله بشىء ، ووجّهَ مَنْ جاءه بها . فلما قرأها كتب فيها على لسان أبى تمام :

ليتَ شعرى عن ليتَ شعرك هذا ... أبهزلٍ تقوله أم بجِدّ
فلئن كنتَ فى المقال محقًّا ... يابن وهب لقد تطرّفت بعدِى
وتشبّهت بى وكنت أرى أنّى أنا العاشق المتيّم وحدى
إن مولاى عبد غيرى ولولا ... شؤم جدّى لكان مولاىَ عبدِى

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٦٨ ، وأخبار أبى تمام للصولى ١٩٦ ، ١٩٧
(٢) الصولى : « ثغر » .

ثم قال : ضعوا الرقعة مكانَها ، فلما قرأها الحسن قال : إنا لله إفتضحنا عند الوزير . وأعلم أبا تمام ، فتلقّياه فقالا : إنا جعلنا هذين الغلامين سبباً لتكاتبنا بالأشعار ، فقال لهما : ومَن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله عليهما أشدّ .

محمد بن إسحق : قلت لأبى تمام : غلامُك أطوع للحسن من غلامه لك ، قال : إنى أعطى غلامه قيلا وقالا ، ويعطى غلامى ثياباً ومالا ، وقال أبو تمام فى غلامه :

ياعمرو قل للقَمَرِ الطالع   اتّسع الخرق على الراقع

ياطول فكرى فيك من حاملٍ   لرقعة مفكوكة الطابع

ما أنتَ إلا رشا جؤذرٌ   حلّ بمغْنَى أسدٍ جائِع

قوله : راق ، أى أعجب . راع : أفزع لأفراط حسنه . استنسبناه : سألناه عن نفسه ، وهذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا جاء الرجلُ الرجل ، فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ، فإن ذلك أوصل للمودة » . استراب : دخلته الريبة . منسابا : موضعاً يدخل فيه . لبسه : تخليطه . وغمة القلب : ما يعطيه من الشك أو الهمّ ، فأراد أنّه لبّس عليه فلم يعرفه .

ادّكرت ، أى ذكرت . أمّة : حين . الفلَك : مدار النجوم . والفُلْك السيّار ، أى السفينة السريعة . والفُلْك لفظ يقع للواحد والجمع . أعهده : أعرفه . رواء : فتوّة وحسن هيئة . أيد : قوّة . استحالة : تغير . الحول : القوة ، وأيضا الحيلة . ولو خاطبه ابن همام بشعر لكان للشريف الرضى فى جوابه للصابى ، وقد شكا إليه الهرم والجلوس فى المحفّة وامتناعه من التصرف ، فقال :

لَئِنْ رام قَبْضاً من بنانك حادثٌ   لقد عاضنا منك انبساطِ جنانِ [1]

---

(١) ديوان الشريف الرضى ٩٤٤ .

وإن أقعدتْك النائبات فطالما سَرَى موقَراً من مجدك الملوَانِ
وإن هدّمتْ منك الخطوب بمرّها فثَمَّ لسان للمناقِب بانِ

قوله: « لا يُفرى فَريَّه » ، أى لا يقطع قَطْعَه ولا يعمل عمله ، قال الحوافزان :

وما ارتعشت كفّى ولا طاش ضَرْبُها إذا طرحوا بالفارس المتهلِّل
ولكنها إذْ ذاكَ تفرِى فريَّها وتقرع رأس الفارس المتقتِّلِ

يُبَارى عبقريَّه : يجارى جنيَّه ، ولفظ الحريرى كله منتزع من الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فيما يرى النائم كأنى على بئر وأرى جميع الناس ، فجاء أبو بكر فنزل ذَنُوبا أو ذنوبين . وفيه ضعف ، والله يغفر له . ثم جاء عمر رضى الله عنه فاستحالت بيده غرباً ، فلم أر عبقرياً من الرجال يفرى فريّه ، حتى ضرب الناس بأعطانهم » . يقال رجل عبقرىّ ، أى كامل قوىّ ، والعبقرىّ أيضاً الحسَن من كل شىء . الوَجْد : المال . رغِب عن الألفة ، أى تباعد عن الصحبة . ولم يرغب فى التحفة ، أى لم يطمع فى العطيّة ، أى لم يقبل عطيَّتَهم ولا صحبتهم . سَحَقْتُم : نقضتم وغيّرتم . سحقى : ثوبى البالى . وكسفتم بالى : تنقّصتم حالى وغيرتموها . سربالى : قميصى . السخينة : الساخطة الحارة الدمع .

* * *

ثم أنشد :

اسمَعْ أُخىَّ وصيّةً مِنْ ناصحٍ ماشابَ محضَ النُّصْحِ مِنْهُ بِغِشّهِ
لاتعْجلَنْ بقضيّـــةٍ مبتُوتَةٍ فى مَدْحِ مَنْ لم تَبْلُهُ أو خَدْشِهِ
وقفِ القضيّةَ فيه حتّى تجْتَلِى وَصْفَيْهِ فى حالَىْ رضاه وبطشه
ويبينَ خُلّبُ بَرْقِهِ مِنْ صِدقهِ للشائمينَ ، ووبْلُهُ مِنْ طَشّهِ
فهناكَ إن تَرَ مايشينُ فوارِهِ كرَمًا وإن تَرَ ما يَزِينُ فأفْشِهِ

وَمَن استحقَّ الإرتقاءَ فرقِّهِ ... ومن استَحَطَّ فحُطَّهُ فِي حَشِّهِ

واعلمْ بأنَّ التِّبْرَ فى عِرْق الثَّرَى ... خافٍ إلى أنْ يُستَثارَ بنبْشِهِ

وفضيلةُ الدينار يَظْهَرُ سِرُّها ... مِنْ حَكِّهِ لامِنْ ملاحَةِ نقشه

ومن الغباوةِ أن تُعَظِّم جاهلاً ... لِصقَال ملبسِه ورونق رقْشِهِ

أو أن تُهِينَ مهذَّبًا فى نفسِه ... لدروسِ بِزَّتِهِ ورَثَّةِ فُرشِهِ

ولكم أخِي طِمْرَيْنِ هِينَ لفضله ... ومفوّف البُرْدَيْنِ عِيبَ لفحشه

وإذا الفتَى لم يَغْشَ عارًا لم تكُنْ ... أسمالُه إلاَّ مراقِيَ عرشِهِ

ما إن يضرّ العضبَ كونُ قِرابِهِ ... خَلَقًا ولاَ البازى حقارةُ عُشِّه

* * *

شاب : أى خاط ، ومَحْضه : خالصه . وغشه : عيبه وفساده .

وللزاهد بن عمران فى النصيحة :

اسمع أُخيّ نصيحتى ... والنُّصْح من أصل الديانَهْ

لا تعرضنّ إلى الشها ... دة والوساطة والأمانَهْ

تسلم من اُن تُعْزَى لزو ... رٍ أو فضولٍ أو خِيَانَهْ

وقال آخر فيمن لا يقبل النصيحة :

إذا ما هُديت امرأ مخطئا ... أضلّ السبيلَ إلى قصدِهِ

ولم تُلفِه سامعاً قابلا ... فحسِّن له المشى فى ضِدِّه

وقوله : « لا تعجلن » ، وما بعده من قول الشاعر :

لا تمدحن امرأ حتى تجرّبه ... ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

ولابن عمران أيضاً :

تحرّ سبيل القصد فى الناس ولتكنْ   على حذر منهم ولا تُسِئْ الظَّنَّا
ولا تمدحنَّ مَنْ لم تجرّب ولا تَقل   على غير علم ذاك من ذا كُمْ أسْنَى
فما كلّ مَنْ يرضيك ظاهر حاله   لدى الخبر محموداً وقد يُحمَدُ الأدْنَى

القضية : الحكم . مبتوتة : مقطوعة . تَبْلُه : تجرّبه خدشه : عيبه وإذايته، تجتلى : تنظر . بطشه : صولته عند الغضب ، يقول : لا تحكم بشىء على أحدٍ حتى تجرّبه فى الشدة والرخاء . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن فلانا لرجُلُ صدقٍ ، قال : أسافرت معه ؟قال لا ،قال: فهل كانت بينك وبينه خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنتَه على شىء؟قال لا . قال : فأنت الذى لاعلم لك به ، وإنما أراك رأيتَه يرفعُ رأسه ويَخْفضه فى المسجد . يبَين :يظهر . خُلّب كاذب . الشائمين : الناظرين إلى البرق . وبله : مطره الكثير . طشه : مطره القليل . يشين : يعيب . وارِه : استره . كرماً ، أى تكرّماً منك عليه .أفشه : حدّث به وانشره . الارتقاء : الترفيع . رقّه : ارفعه . استحطّ : اتّضع . حُشّه : كنيفه وهو المستراح . التّبر : الذهب قبل السّبْك . يستثار : يستخرج . النّبش : البحث عليه . الغباوة : الجهالة . رونق رقشِه : حسن زينته . مهذّباً : مخلصاً . دروس : إخلاق . بزّته : لُبْسته . رثّة : ضعف . طمرين : ثوبين خَلَقين . هِيبَ : خِيف . منوّف : مزين . لفحشه : لقبح كلامه . يَغْشَ عاراً : يدخله . أسماله : ثيابه البالية . مراقى : سلالم ومدارج . عرشه :سريره ومنزلته .العضب: السيف . قرابه : جفنه .

ومما ينتظم فى هذا السلك أن النجّاد العدَوِىّ دخل على معاوية فى عباءة فاحتقره ، فقال : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلّمك ، إنّما يكلمك مَنْ فيها ، ثم تكلّم فملأ سمعه بياناً، ثم خرج ولم يسأله شيئاً، فقال معاوية: ما رأيتُ رجلاً أحقر أوّلاً ، ولا أجلّ آخراً منه .

وقال بعضهم :

إنى وإنْ كنت أثوابى ملفّقة ليست بخزٍّ ولا من نسج كَتّانِ
فإن فى المجد همّاتى وفى لغتى فصاحةً ، ولسانى غيرُ لحّانِ

وقال آخر :

هل ينفعنْك بعد شيبك فى الهوى توقير مكتسبٍ ولُبْس ثياب
هيهات ما فخر المهنّد فى الوغى بحلى غمدٍ فوقه وقِرابِ

وقال الخابزرزى :

لاتنظرنّ إلى أثوابِ مغتربٍ نائى المحلّ بعيد الأهل والدّارِ
وانظر إليه إذا ماقام فى ملأٍ بمنطقٍ لذوى الألباب سَحّارِ

وقال المعرى :

وإن كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غِمْدُه والحمائلُ (١)

وقال أبو هِفّان :

لَعَمْرى لئن بيعت فى دار غربةٍ ثيابِىَ إن ضاقت علىّ المآكلُ
فما أنا إلا السيف أخلق جفنُه له حلية من نفسِه وهو عاطلُ

وقال لبيد :

أصبحت مثلَ السيف أخلق جَفْنُه تقادم عهد القين والسيفُ قاطعُ (٢)

وقال النّمَرى :

فإن تك أثوابى تمزّقن عن بلًى فإنى كنصل السّيْف فى خلق الْغَمْدِ

كان بالكوفة رجل يعرف بأبى ذؤيب ، وكان متصداً للشعراء ، فدخل مجلسه محمد بن حازم الباهلىّ ، وعليه ثياب رَثّة ، وهم يتكلمون فى معانى الشعر ، فسأله ابن حازم عن بيت للطِرّماح ، فردّ أبو ذؤيب جواباً محالاً ، وهو فى ذلك

(١) سقط الزند ٥٢٦ . والحمائل : جمع حمالة السيف .
(٢) ديوانه ١٧١ .

كالمزدرى لابن حازم ، فوثب مغضباً فقيل له : ماذا فتحتَ على نفسك الشرّ ؟ أتدرى من احتقرت ؟ قال : لا قيل: هو أخبث الناس لساناً، وأهجاهم ، هذا ابن حازم ، فوثب حافياً حتى لقيه وحاف أنه لم يعرفه واستقاله فأقاله ، وقال:

أخطا علىّ وردّ غيرَ جوابى ... وزرى علىّ وقال غير صوابِ
وسكتّ من عجبٍ لذاك فزادنى ... فيما كرهت بظنّه المرتابِ
وقضى علىّ بظاهرٍ من كُسْوةٍ ... لم يدرِ ما اشتملت عليه ثيابى
من عِفَّـــةٍ وتـكرّم وتجمّلٍ ... وتجلّدٍ لمصيبةٍ وعتـــابِ
لـكنه رجعت عليـــه ندامةٌ ... لمـــا يسبّ وحاف مضَّ عتابى
فأقلتُه لمّـــا أقرَّ بذنبـــه ... ليس الـكريم على الـكريم بنابِ

وكان ابن حازم ساقط الهمة ، يرضيه اليسير على انطباعه فى شعره .

وقال حماد بن يحيى : قال لى ابن حازم يوماً : مابقى علىّ شيء من اللذات إلاّ بيع السنانير : فقلت له : ويحك ! وأىّ فى ذلك من اللذة ؟ قال : يعجبنى أن تجيء العجوز الرّعناء تخاصمنى، وتقول:هذا سنّورى سرق، فأخاصمها ، فتشتمنى، فأشتِمُها وأغيظها ثم أنشد :

صِلْ خمرةً بخمّارِ ... وصِلْ خماراً بخمرِ
وخذ نصيبك من ذَا ... وذا إلى حيثُ تدرى

فقلت: إلى أين ويحك! فقال : إلى النار يا أحمق .

* * *

ثُمَّ ما عَتَّم أنِ اسْتَوْقفَ الملاّحَ ، وصَعِد من السّفِينَةِ وسَاحَ، فندم كلٌّ مِنَّـا عَلَى ما فرّط فى ذاتِهِ ، وأغْضَى جَفْنَهُ على قَذَاتِهِ ،

وتعاهَـدْنا على ألاَّ نحتقرَ شخْصاً لرثاثةِ بُرْدِه ، وألاَّ نزدَرِى سيفًا مخبوءًا فى غمدِهِ .

* * *

قوله «ما عتّم» ، أى ما أبطأ ولا تأخّر ، ويقال: عَتّم القِرَى، إذا تأخر، وأعتم حاجته: أخّرها ، ومنه صلاة العتَمة لتأخّر وقتها . استوقف الملاّح : أمر خادم السفينة بالوقوف . صعد : ارتقى وارتفع . ساح : ذهب فى الأرض . فى ذاته ، أى فى نفسه . أغضى جفنه : سدّ عينه . قذاته : عاره وعيبه الذى تلقى به السروجىّ عند الدخول فى السفينة . والقذاة : مايسقط فى العين فيوجعها . نزدرى : نحتقر . لرثاثة بُرْده : لإخلاق ثوبه . الله تعالى الموفق .

المقامة الثالثة والعشرون وهي الشّعريّة

حَكَى الحارثُ بن هَمّامٍ ، قال : نبَا بِى مَأْلفُ الْوَطنِ ، فى شَرْخِ الزَّمن ؛ لخِطبٍ خُشِى ، وَخَوْف غَشِى ؛ فأَرَقْتُ كأسَ الكَرَى ، ونَصَصْتُ رِكابَ السُّرَى ، وجُبْتُ فى سَيْرى وُعُورًا لَمْ تُدَمِّثْها الْخُطَا ، ولا اهتَدَتْ إِلَيْهاَ الْقطاَ ؛ حَتَّى وَرَدْتُ حِمَى الخِلاَفة ، والحَرَمَ الْعَاصِمَ من المخافَة ، فَسَرَوْتُ إيجاسَ الرَّوْعِ واسْتِشْعَارَهُ ، وتسَرْبَلتُ لِبَاس الأمْنِ وشِعَاره . وقصرت هَمّى على لذّةٍ أَجْتَنيها ، وَمُلْحَةٍ أَجْتَليهاَ . فبرزتُ يومًا إلى الْحَريم لأَرُوضَ طِرْفِى ، وأُجيلَ فى طُرُقِه طَرْفِى ؛ فإذا فُرْسَانٌ متتالون ، وَرجَالٌ مُنْثالونَ ، وشيخٌ طويلُ اللّسان ، قَصِيرُ الطَّيلَسان ، قَدْ لَبَّبَ فتًى جديد الشباب ، خَلَقَ الجِلْبَابِ ؛ فركَضْتُ فِى إِثْرِ النَّظارة ؛ حتّى وافيناَ بابَ الإمارة ، وهناك صاحبُ المعونةِ متربِّعًا فى دَسْتِهِ ، ومروِّعًا بِسَمْتِهِ .

* * *

قوله « نبابى » أى قَلِق ولم يوافقنى . الوطن : المنزل . ومألفه · موضع الاجتماع به والتأليف فيه .

شرْخ : أوّل ، أراد فى أول زمانه وشبابه · خطْب : أمر مخوّف . خُشِى : خِيفَ . وغَشِى : نزل وغطّى .

أرَقْت : هرقت ، وجعل للكرى وهو النوم كأساً مجازاً ، وكنى بهرقها عن

إزالة النوم عن عينه . نَصصْت : رفعت وحرّكت ركاب السرى : إبل السّير. جُبْت : قطعت. وعوراً : طُرقا صعبة . تدمّثها : تسهّلها وتليّنها . الخُطا هنا : الأقدام ، وقوائم الحيوان . والقطا : طائر وقد تقدم . وهدايتها : فيما زعموا أنها تترك فراخها بالصحراء ، وتذهب عند طلوع الشمس لطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة فما دونها، فيَرِدْنه ضحْوةَ يومهنّ فيحملن الماء لفراخهنّ فيهنّ ثم يرجعن بعد الزوال إلى تلك المسافة ، فيشربن ويأتين فراخهنّ في عشية يومهنّ فيسقينهن عللاً بعد نَهَل ، ولا يخطئن مواضع فراخهنّ ، فيقال لذلك : أهْدَى من القطا ، قال الشاعر[1] :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القَطَا ... ولو سلكتْ سُبُلَ المكارم ضَلّتِ
ولو أنّ بُرغوثا على ظهر قملة ... رأته تميمٌ يوم زحفٍ لولّتِ

وقال حميد بن ثور :

كما انصلتْ كدْراء تسقِي فراخها ... بِعَرْدَةَ رِفْهاً والمياه شُعوب[2]
فجاءت ومَسْقاها الذى وردتْ به ... إلى الصدر مشدود العِصَامِ كَتِيبُ[3]
تبادر أطفالاً مساكينَ دونها ... فَلاً لا تخطاه الرقابُ رغيبُ
وصفن لها غوثاً بأرض تنوفةٍ ... فما هى إلاّ نهلة وتؤوبُ

قوله : «حمى الخلافة» ، هى بغداد . الحرم : موضع الأمن . العاصم : المانع . سروت : أزلت . إيجاس الروع : إحساس الفزع والخوف . واستشعاره ، استفعال من شعرت بالشيء . تسربلت : لبست سِرْبالا . قصرت همى : حبست همتى وأرادتى . مُلَحةُ : طُرْفة وشيء عجب . أجتليها : أنظرها . الحريم : موضع متسع حول قصر الملك يجتمع فيه أجناده وغيرهم . أروض : أعلّم وأسوس . طِرْفى : فرسى . أجيل: أمشى . متتالون : متتابعون . منثالون : منصبون لكثرة

(١) هو الطرماح ، كما فى العقد : ١ ١١١ وعيون الأخبار ١ : ٣٩١ .
(٢) ديوانه ٥٣ وكدراء من صفة القطاة ، والقطا الكدرى : نوع من القطا غبر الألوان رقش الظهور . وعردة هضبة . والرفه : أقصر الوردو والشعوب : البعيدة .
(٣) شمرت ، مرت جادة ، وتنوب ؛ ترجع إلى الماء مرة بعد مرة .

جريهم . الطيلسان : ثوب خزّ أخضر . لبّبَ : جعل فى عنقه ثوباً وقاده به ، وأخذ بتلابيبه وهى أطوق ثوبه ، والتلابيب مأخوذة من اللبّة وهى وسط الصدر . جديد الشباب ، أى فتىّ السن ، وتقدم الجلباب .

ركضت فى أثر النظارة ، أى خلف الناظرين لما يفعل به ، ومن شأن الغوغاء والعامة إذا رأوا محبوساً أو مضروباً أن يتّبعوه ويتكاثروا عليه . ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم يتبعون رجلا مُريباً ، فقال : لامرحباً بهذه الوجوه التى لاتُرى إلاّ عند الشرّ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما اجتمعوا قطّ إلا ضَرُّوا ولا تفرقوا إلاّ نفعوا . قيل له : قد علمنا ضرّ اجتماعهم . فما نفع افتراقهم ؛ قال : يذهب الحجّام إلى دكانه ، والحدّاد إلى كِياره ، وكلّ صانع إلى صنعته . وقال دعبل :

ما أكثَرَ الناس لابلْ ما أقلّهمُ ... والله يعلم أنّى لم أقُلْ فَنَدا[١]
إنى لأفتح عينى حين أفتحُها ... على كثير ، ولكن لاأرى أحدا

ومرّ على بن الجهم بمبرسم ، والناس قد تجمّعوا حوله ، وحلّقوا به ، فلما رآهم المبرسم أخذ بعِنان فرسه وأنشأ يقول :

لاتحفلن بمعشر الهـــــمج الذين تراهمُ
فبحق مَنْ أبلى بهم ... نفسى ومن عافاهمُ
لو قيس مولاهم بهم ... كانوا إذا مولاهمُ

ثم نظر حوله ، فرأى غلاماً جميل الوجه ، حسن اللبسة ، فهجم عليه وشقّ ثيابه وهو يقول :

هذا السعيد لديهمُ ... قد صار بِى أشقاهمُ

---

(١) ديوانه ٦٣ .

وافينا : وصلنا . صاحب المعونة : والي الجنايات، وقال الرستمي : وَلِيَ فلان المعونة ، أي ولي العوْن، أي ولاَّه السلطانَ عوْنه على حفظ المدينة ولفظها مفعولة وهي بتأويل المصدر بمنزلة قولهم : ماله معقول ، أي عقل ولا مجلود أي جلد .

مروّعاً بسمته ، أي مفزعاً بهيئته ووقاره .

* * *

فقال لَهُ الشَّيْخُ : أعزَّ اللهُ الوالِي ، وجَعَلَ كَعْبَهُ العالي ، إنِّي كَفَلْتُ هَذا الْغُلامَ فَطِيماً ، وربَّيْتُهُ يتيماً ؛ ثمَّ لَمْ آلُهُ تعليماً . فلمَّا مَهَرَ وَبَهَرَ ، جَرَّدَ سَيْفَ الْعُدْوانِ وَشَهَرَ ، وَلَمْ أَخَلْهُ يَلْتَوِي عَلَيَّ ويتقِّح ، حِينَ يَرْتَوِي مِنِّي وَيَلْتَقِحُ . فقال له الفتى : عَلامَ عَثَرْتَ مِنِّي ؛ حتَّى تنشرَ هذا الخزْيَ عَنِّي ، فواللهِ ما سَتَرْتُ وَجْهَ بِرِّكَ ، وَلا هَتَكْتُ حِجابَ سِتْرِكَ ، وَلا شَقَقْتُ عَصاَ أمْرِكَ ، وَلاَ أَلْغيْتُ تِلاَوَةَ شُكْرِكَ .

فقالَ له الشيخُ : وَيْلَكَ وأيُّ رَيْبٍ أَخْزَى مِنْ رَيْبِكَ ، وهَلْ عَيْبٌ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ ، وقَدِ ادَّعَيْتَ سِحْرِي واستلْحقتَهُ ، وانْتَحلْتَ شِعْرِي واسْتَرَقْتَهُ ، واستراقُ الشِّعرِ عند الشعراء ، أفظعُ من سَرِقةِ البيضاءِ والصَّفراء ، وَغَيْرَتُهُمْ عَلَى بناتِ الأفكار ، كغيرتِهِمْ على البناتِ الأبكار . فقال الوالِي للشَّيخ : وهَلْ حِينَ سَرَقَ سَلَخ ، أم مَسَخ أم نسخ !

* * *

جعل كعبه العالى ، أى جعل أسفل شىء منه يعلو أرفع شىء فى غيره . كفلته : ضممته وقمت بمؤنته .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين — وهو يشير باصبعيه — وخير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرها يتيم يساء إليه » .

أبو أسامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله ، كانت له بكل شعرة مرّت عليها يده حسنة ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وإيّاه فى الجنة كهاتين ـ وفرّق بين إصبعيه» .

فطيما : أى صغيرا كما منع الرضاع . لم آله : أى لم أقصر فى تعليمه . مَهَر : ظهر وصار ماهراً أى حاذقاً . بَهَرَ : غلب أمثاله . العدْوان : الظلم . يلتوى : ينعطف ، لضرّى وهو من فعل الحيّة إذا أتبعها الرجل التوتْ عليه لتلسعه . يتّقح : يسقط حياؤه . يلتقح : يشرب لبن لقحتى ، واللقحة : الناقة ذات اللبن . عثرت : اطلعت . الخزى : العار والشرّ ، والخزى : الهوان . هتكتُ : خرقت . حجاب سترك ، أى ثوب طاعتك . ولا شققت عصا أمرك ، أى ماخالفت حكمك ، وشقّ فلان العصا : خرج عن الأمر مخالفاً . وشقّ عصا المسلمين : فرّق جماعتهم ، والأصل فى العصا الائتلاف والاجتماع ، ومنه قولهم للمطمئن : ألقى العصا ، وقيل شَقَّ العصا : صار منها فى شقّ وخرج عن الجماعة ، وفسر قوله تعالى : ﴿ شاقُّوا اللهَ ورسوله ﴾ بالمباينة ، لأنَّ من صار فى شق عن شق صاحبه فقد باينه ، وقيل : معنى شقّ العصا ذهب إلى شقّها أى كسرها ، فجىء بالشقّ الذى هو من صفة العصا ؛ وفى ضمنه المجاهرة بالخروج عن الجماعة قال الشماخ :

تصدّع شعب الحىّ وانشقّت العصا … كذاكَ النوى بين الخليط شقوق[١]

ألغيت : تركت . تلاوة : قراءة ، والريب : الريبة والتهمة : أخزى : أضرّ ،

(١) ديوانه ٢٤٢ .

وأكثر هواناً . أفحش : أقبح . ادّعيته : نسبته لنفسك وليس لك . سحرى : بديع كلامى . استاحقته : ألحقتَه بنفسك. انتحلت: ادّعيت . أفظع : أمرّ . البيضاء والصفراء : الفضة والذهب . بنات الأفكار ، هى الأشعار . ساخ : أخذ المعنى . مسخ : قلب الكلام وغيّره . نسخ : نقله بعينه .

والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه ، وهى النسخ والمسخ والرسخ والفسخ ؛ فالفسخ عندهم أن يحوّل الأدنى إلى الأعلى، والمسخ أن يحوّل الأعلى من الحيوان إلى الأدنى ، والرسخ رد الحيوان جماداً ، والفسخ أن يتلاشى فلا يكون شيئاً ، وقال شاعرهم :

تعــوّذْ بالإله من المسوخ وسله أن تكونُ من النُّسوخِ[(١)]
لقد خاب الذى أضحى وأمسى يُنقَّلُ فى فسوخٍ أو رسوخِ

وقال المعرى :

وقال بأحكام التناسخ معشرٌ غلَوْا فأجازوا الفسخ فى ذاك والرَّسْخا[(٢)]

[السرقات الشعرية وأنواعها]

وتقسيم الحريرىّ السرقة فى قوله : ساخ ومسخ ونسخ، يدخل تحت أحكام السرقات التى عدَّها أبو محمد الحسين بن على بن وكيع رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بالمنصف فى الدلالات على سرقات المتنبى، فإنه جعلها عشرين وجهاً عشرة أوجه يُغفر فى سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته .

الأول منها استيفاء اللفظ الطويل فى الموجز القصير ، كقول طَرَفة :

أَرَى قبر نحّامٍ بخيل بماله كقبر غوىٍّ فى البطالة مفسدِ[(٣)]

(١) من ثلاثة أبيات فى شرح اللزوميات ١ : ٢٢٤ من غير نسبة .
(٢) اللزوميات ٢٢٥ (٣) ديوانه ٥٢ والنحام : الحريص على المال

اختصره ابن الزِّبَعْرى ، فقال :

والعطيّات خِساس بينهم   وسواء قبر مثرٍ ومُقِلّ[١]

ففضل صدر بيته وجاء ببيت طرفة فى عجز بيت أقصر منه بمعنًى لائح ولفظ واضح .

الثانى : نقل اللفظ الرذل إلى الرشيق الجزل ، كقول العباس بن الأحنف :

زعموا لى أنها بانت تُحَمّ   ابتلى الله بهذا من زعم[٢]
اشتكت أكمل ما كانت كما   يُكْسَفُ البدر إذ ما قيل تَمّ

فهذا معنى لطيف أخذه ابن المعتز فقال :

طوى عارضُ الحمّى سَنَاهُ فحالاَ   وألبس ثوباً للسّقام هُزَالاَ
كذا البدرُ محتومٌ عليه إذا انتهى   إلى غايةٍ فى الحسنِ عاد هِلاَلاَ

الثالث : ماقبح مبناه دون معناه إلى ماحسن مبناه ومعناه ، كقول أبى نواس :

بُحّ صوتُ المال ممّا   منك يدعو أو يصيح[٣]
ما لهــذا آخـذٌ فوْ   قِ يديه مَنْ يصيح

معناه صحيح ولفظه قبيح ، أخذه مسلم فقال :

تظلّ المال والأعداء من يده   لازال للمال والأعداء ظَلاَّما[٤]

فجوّد الصنعة وجمع بين تظلمين كريمين ، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال والأعداء ، وكلّ ذلك مليح جزل نقل عن ضعيف المبنى .

الرابع : عكس مايصير بالعكس ثناء بعد ما كان هجاء ، كقول البلاذرى :

قد يرفع المرء اللئيم حجابُهُ   ضعةً ودون الرُفْ منه حجابُ

(١) المؤتلف والمختلف للامدى ١٣٣   (٢) ديوانه ٢٥٢ ، ديوان المعانى ٢ : ١٦٥
(٣) ديوانه ٧٠   (٤) ديوانه ٦٤

معكوسه :

ملكٌ أغرّ محجّبُ   معروفه لا يُحجبُ

الخامس : استخراج معنى من معنى احتذى عليه وإن فارق ما قصد إليه ، كقول أبى نواس فى الخمر :

لا ينزل الليل حيث حلّتْ   فدهرُ شُرّابِهَا نَهـارُ[1]

احتذاه البحترى وفارق مقصده ، فجعله فى محبوب ، فقال :

غاب دجاها وأىّ ليـل   يدجو علينا وأنت بدر

السادس : توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناهما متفق ، كقول أبى تمـام :

لأمرٍ عليْهم أن تَتِمّ صدورُه   وليس عليْهم أن تَتِمّ عواقبهْ[2]

أخذه من قول الأعرابىّ ، أنشده الأصمعىّ رحمه الله تعالى :

فـكانَ على الفتى الإقدامُ فيهـا   وليس عليه ما جَـنَتِ ٱلْمَنُونُ

فجرد لفظه مَنْ أخذ منه ، وهو فى معناه متفق معه ؛ وهذا من أدل الأقسام على فطنة الشاعر .

السابع، فى توليد معانٍ مستحسنات فى ألفاظ مختلفات ، وهذا من أشذّ باب وأقلّه وجودًا، وإنّما قلّ لأنّه من أحق ما استعمَل فيه الشاعر فطنته ؛ كقول أبى نُوَاس :

واسْقِنيهاَ من كُمَيْتٍ   تَدَعُ اللّيلَ نهارَا[3]

(١) ديوانه ٢٧٤
(٢) ديوانه ٤٤
(٣) ديوانه ٢٧٤

ثم قال أيضاً :

لا ينزل الليل حيث حَلّتْ فدهرُ شُرَّابها نهارُ[١]

ثم قال أيضاً :

قال ابغنى المصباح قُلت له اتَّئِد حسبي وحسبك ضوءها مصباحا[٢]

فكل هذه معان متقاربات وألفاظ متشابهات ، مولّد بعضها من بعض .

الثامن: مساواة الآخذ المأخوذ منه فى الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام ، وإن كانَ الأوّل أحقَّ به لأنه ابتدع ، والثانى اتّبع ،من ذلك قول العكوك فى فرس :

مطّرد يرتجّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريحٌ فاضْطَرَبْ

فذكر ارتجاجه ، ولم يذكر سكونه ، فأخذه ابن المعتز فقال :

فكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقتَه ، فإذا حبسَتَ جَمدْ

فجمع بين الصفتين .

التاسع : مماثلة السارق المسروق بزيادته فى المعنى ما هو من تمامه ؛ كقول أبى حيّة :

فألقت قناعاً دونه الشَّمْسُ واتَّقَتْ بأحسن موصولَيْن : كفٍّ ومِعْصَمِ

أخذه من قول النابغة :

سَقَطَ النَّصِيف ولم ترد إسقاطَهُ فتناولتْه واتّقتْنَا باليَدِ[٣]

فلم يزد النابغة على اتقائها باليد ، وزادعليه أبو حيَّة بقوله : « دونه الشمس» وخَبَّر عن المتَقَى بأحسن خبر فاستحقّه .

---

(١) ديوانه ٢٧٤ (٢) ديوانه ٢٥٦

(٣) ديوانه ٣٠

العاشر : رُجْحَانَ السَّارق على المسروق منه بزيادة لفظ على لفظ مَنْ أخذ عنه ، كقول حسان :

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرّ كلابُهُمْ لا يَسألون عن السَّوَادِ المقبلِ[1]

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

إلى بيت حانٍ لا تهرّ كلابُهُمْ عليّ ولا يخشون طول ثوائى

ولافرق بين المعنيين .

والسرقات المحمودة أكثر من أن تحصر .

[السرقات المذمومة]

ونريك وجه السرقات المذمومة ، وهى كالمحمودة عشرة أقسام :

الأول : نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير ، كقول سالم الخاسر :

أقبلْنَ فى رأد الضحى بنا يَسْتُرنَ وجْهَ الشَّمْسِ بالشَّمْسِ

أخذه الثانى فقال :

وإذا الغزالة فى السماء تعرَّضتْ وبدا النهـــار لوقته يترحَّلُ

أبدتْ لعينِ الشمس عيناً مثلْها تلقى السماء بمثل ما تستقبل

المعنى صحيح والكلام مليح؛غير أنه تطويلٌ تضييق ، والبيتان جميعاً نصف بيت سالم .

الثانى : نقل الرشيق الجزل إلى المستضعف الرذْل ، كقول القائل :

كأنّ ليلى صبير غادية أو دُمْيَةٌ زيِّنَتْ بها البِيَعُ

(١) ديوانه ٣٠٩

أخذه أبو العتاهية فقال :

كأنّ عتّابَةَ من حُسْنِها دُمْيَة قَسٍّ فتنت قَسَّهَا

فقصر لفظه عن الفصاحة ، ومعناه عن الرجاحة .

الثالث : نقل ماحَسُنَ معناه ومبناه إلى ما قبح مبناه ومعناه، كقول امرىء القيس :

ألَمْ تَرَيانى كُلَّمــــا جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإنْ لَمْ تطَيَّبِ (١)

فأتى بمالا يعلم وجوده فى البشر من وجود طيب ممّن لم يمسّ طيباً ، وجاء بيتٍ فى مراده ، حسن النظام مستوفىَ التمام ، أخذه كُثَيرٌ ، فقال :

فما رَوْضَةٌ بالحسن طيِّبةُ الثَّرىَ يمجّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُهَا(٢)
بأطيبَ من أرْدَانِ عزّة موهِناً إذا أوقِدَتْ بالمندل الرطب نارُهَا

فطوّل وحسّن ، وقصّر غاية التقصير ، وأخبر أنها إذا تطيّبت كالروضة فى طيبها ، وذلك مما لا يعدم فى أقل البشر تنظيفاً .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس هجاء بعد أن كان ثناء ، كقول أبى نواس رحمه الله تعالى :

فهو بالمال جـــوادٌ وهـو بالعِرْضِ شحيحُ(٣)

عكَسَه ابن الرومى فقال :

ما شئت من مال حمىً يأوِى إلى عِرْض مباحٍ

---

(١) ديوانه ١ (٢) الكامل للمبرد ٣: ١١٥
(٣) ديوانه ٧٠

الخامس : نقل ماحسنت أوزانه وقوافيه إلى ما قبح وثقل على لسان راويه، كقول مسلم رحمه الله تعالى :

أمّا الهِجاء فدقّ عرضُك دونهُ والمدْحُ عنك كما علمتَ جايلُ[1]
فاذهبْ فأنت طليق عِرْضِك إنّه عِرْضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

أخذه أبو تمام فقال :

قال لى النَّاصِحُونَ وهو مقالٌ ذمّ من كان جاهــلاً إطراء[2]
صدقوا فى الهِجاءِ رفعةَ أقوا م طغامٍ فليس عندى هِجَاء

فبين الكلامين فرق بعيد .

الثامن :[3] نقل العذب من القوافى إلى المستكره الجافى ، كقول أبى نواس :

فتمشّتْ فى مفـاصِلِهِمْ كتمشّى البرء فى السَّقَمِ[4]

فهذا الكلام أتم بهاء من قول مسلم :

تجرى محبّتُهـــا فى قلبِ عاشقها جَرْى المعافاة فى أعضاء منتكَسِ[5]

التاسع: نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد إلى تقصير وإفساد ، كقول القائل:

ولقد أروح إلى النجار مرجّلاً مدلى بمالى لينـــا أجيادى

وإنما له جِيد واحد ، وهذا وإن جاز عند بعض العرب ، فهو عند الآخرين غير حميد ولا سديد .

---

(١) ديوانه ٣٣٤ (٢) ديوانه ٤ : ٣٠١ (طبع المعارف)
(٣) قوله : « الثامن » ، سقط السادس والسابع من جميع الأصول .
(٤) الوساطة ٥٦ (٥) ملحق ديوانه ٤٢٥

العاشر : أخذ اللفظ والمعنى وهو أقبح السرقات وأدناها وأوضعها

وقد أكثر الشعراء ذم السرقة والسارق ، وأول من ذمَّ ذلك طَرَفة حين قال :

ولا أُغير على الأشعار أسرقها … عنها غنيتُ وشرّ الناس مَنْ سَرَقا [١]

وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوا … فِ بَعْدَ المشيبِ، كفى ذاك عارا [٢]

ومن سرقة اللفظ والمعنى ، ما يحكى عن أبى المعافى أنه لما مدح أبا العباس محمد ابن إبراهيم الإمام بقوله :

إليك بمدحتى يا خير أبنا … رسول الله مَنْ تَلِدُ النّساء
ستأتيك المدائح من رجالٍ … وما كفٌّ أصابعُها سواء

فأخذه آخر وغيّره بأن وضع الرجال موضع النساء ، وغيّر عجز البيت الآخر فقال :

* كما اختلفت إلى الغَرَضِ النِّبَالُ *

فاستعدى عليه أبا المعالى صالح بن إسماعيل، وهو على شُرْطة محمد بن إبراهيم بالمدينة ، فقال :

ما سارقُ الشعر فيه وَسْمُ صاحبه … إلاّ كسارق بيتٍ دونَه غَلَقُ
بَلْ سارق البيت أخفى حين يسرِقُه … والبيت يستره من ظلمةٍ غَسَقُ
من جيّد الشعر أن يخفى لسارقه … وجيّد الشعر قد سارت به الرفَقُ

فقال صالح : فما تحب أن أفعل به ؟ فقال : تحلّفه عند منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا ينشد هذا الشعر إلا لى .

(١) ديوانه ٢١٦ (٢) ديوانه ٥٣

وكان محمد بن زهير يشرب ، فإذا سكر لا يفيق إلا بإنشاد الشعر ، فأمر يوماً جبّار بن محمد الكاتب أن ينشده ، فأنشده أبياتاً لأبى نواس أُدعى أنه قائلها وهى :

صاحِ مالِى وللرسوم القفارِ ... ولِنَعْتِ المطىّ والأكوارِ
شغلتنى المدام والقصْف عنها ... وسماع الغناء والمزمارِ

ومضى فى الشعر ، وأبو نواس قاعد ، فوثب وتعلّق به قدّام محمد بن زهير ، وأنشأ يقول :

أعْدِنى يا محمد بن زهير ... يا عذاب اللّصوصٍ والدّعارِ
يسرق السارقون ليلاً وهذا ... يسرق الشعر جهرة بالنّهارِ
صار شعرى قطيعة لجبارٍ ... أفهذا لقالة الأشعار !
قل له فليُغِرْ على شعر حمّا ... د أخى الفتك أو عَلَى بشّارِ

وسرق محمد بن يزيد الأموى شعرًا لحبيب ، فقال حبيب :

مَنْ بنو مجدلٍ مَنِ ابنُ الحباب ... مَنْ بنو تغلبٍ غَدَاة الكُلابِ[1]
مَنْ طفيلٌ وعامر ومن الحـارث أو مَنْ عتيبة بن شهابِ
إنما الضيغم الهصور أبو الأشبـال جبّار كل جيش وغابِ
مَنْ عَدَتْ خيله على سرح شعرِى ... وهو للحين راتع فى كِتابى
غارة أسخنت عيونَ المعانى ... واستباحتْ محارمَ الآدابِ
لو ترى منطقى أسيراً ولاصـبحتَ أسيراً لِعَبْرةٍ وانتحابِ

---

(٢) ديوانه ٤ : ٣٠٨ (طبع دار المعارف) وفيه « من بنو عامر »

يا عذارَى الأشعار صرتنّ من بعـــدى سبايا تُبَعْنَ فى الأعرابِ
طال رهبى إليك يارب يارب و رغبى إليك فاحفظ ثيـــابى

وعارض أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة البحترىّ ، فاستعار من ألفاظها ومعانيها ما أوجب أن قال البحترى :

ما الدّهر مستنفدٌ ولا عجبُهْ تسومنـــا الخسفَ كلَّه نُوَبُهْ (١)
نال الرضا مادح وممتـدَحٌ فقـل لهـذا الأمير ما غضَبُهْ
أجلى لصوص البلاد يطردُهُمْ وظـلّ لصٌّ القريض ينتهبُهْ
اردُدْ علينا الذى استعرتَ وقل قولك يُعرفْ لغالبٍ غلبـــه

واستعدى ابن الرومى العلاء بن عيسى على البحترىّ ، فقال :

قل للعَلاَء بن عيسى والذى نصلت به الدواهى نصول الآل فى رجَبِ (٢)
أيسرقُ البحترىّ الناسَ شعرَهُمُ جهراً وأنت نكال اللّص ذى الرِّيبِ
وتارة يـــترِزُ الأرواحَ منطقُه فالقوم ما بين مقتول ومغتصبِ
نَـكِّلْهُ إنّ أناساً قبله ركبُوا بدون ما قد أتاه باسقَ الخشبِ
إذا أجاد فأوجِبْ قطع مِقْوَلِهِ فقد دها شعراء الناس بالحرَبِ
وإن أساء فأوجبْ قتله قوَداً بمن أمات إذا أبقى على السلبِ
يسىء عفًّا فإن أكْدتْ وسائله أجاد لصًّا شديد البأس والكلبِ
حىّ يغير على الموتى فيسلبُهُمْ حرَّ الكلام بجيش غير ذى لجبِ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٠٧
(٢) ديوانه ابن الرومى ٤١٤ (نشرة شريف سليم)مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

وقال فيه ابن الحاجب :

والفتى البحتريّ يسرق ما قا ... لابن أوسٍ في المدْحِ والتَّشْبيبِ
كلّ بيت له يجوّد معنا • فمعناه لابن أوسٍ حبيبِ

ولابن الحاجب أيضاً :

هل إلى محنة تخبر مَنْ فا ... ضلنا في القريض والمفضُولُ
محنة تفضح اللصوص وتقضي ... بالّذى فيهم قضَى التنزيلُ
سارق المال تقطع الكفُّ منه ... واللسان المسروق منها بديلُ
ليسود الذى يحق له السو ... دَ دُمنّا ويرذل المرذولُ

وبلغ الصاحبَ بن عبّاد أن بعضهم سرق شعره ، فقال أبلغوه عنى [(١)] :

سرقت شعرى وغيرى ... يُضَام فيه ويُخدَعْ
فسوف أجزيك صَفْعًا ... يَكلّ [(٢)] رأسًا وأخدعْ
فسارقُ المالِ يُقْطَع ... وسارق الشِّعر يُصْفعْ

فاتخذ السارق لذلك جملا وهرب من الرّىّ .

وبين السرىّ الموصلىّ والخالديين مستظرفات فى هذه السرقات ، اشتهرت فى كتب الآداب، فلنلمّ ببعض ماقال السرى فيهما وفيه . يقول الثعالبىّ : السرىّ وما أدراك ما السرىّ ، صاحب الشّعر الجامع بين عقود الدرّ ، والنافث فى عُقَدِ السِّحْر ؛ولله دره ! ما أعذب بحره ، وأصفى قطره ،وأعجب أمره! وقدأخرجت

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٧
(٢) اليتيمة « يكد »

من شعره ما يكتب على جبهة الدّهر ، ويعلّق فى كعبة الظرف [١] . وكتبت منه محاسن وملَحاً ، وبدائع وطرفاً ، كأنها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح .

قال يتظلَّم إلى سلامة بن فهد من الخالديين :

تحيّف شعرى يا بن فهدٍ مصالتٌ ... عليه فقد أعدمتُ منه وقد أثْرَى [٢]
وفى كل يوم للغبيَّيْن غارةٌ ... تروّع ألفاظى المحجّلة الغـرّا
إذا عنّ لى معنى تضاحك لفظه ... كما ضاحك النوّار فى روضه الغُدُرا
غريب كنشْر الرّوْض لمّا تبسمت ... مخائله للفكر أودعتــه سَطْرا
فوجه من الفتيان يمسح وجْهَه ... وصدرٌ من الأقوام يسكُنه الصَّدْرا
تناوله مثرٍ من الجهل معـــدمٌ ... من العلم معذور متى خلع العذرا
لأطفأتمـا تلك النجوم بأسْرِها ... وأدنستما تلك المطارف والأزْرَا
فويْحكما هـــلاَّ بشطرٍ قنعتما ... وأبقيتما لى فى محاسنه الشَّطْرَا [٣]

وقال يخاطب أبا الخطاب [٤] ، وقد سمع أن الخالديّين يرجعان إلى بغداد [٥] :

بكرتْ عليك معرَّة [٦] الأعراب ... فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب [٧]
وَردَ العراق ربيعةُ بن مكَدّمٍ ... وعُتَيْبة بن الحاث بن شهـاب

---

(١) اليتيمة : « الفـكر » .
(٢) اليتيمة ٢ : ١٢٥ — تحيف : اغتصب . والمصالت : اللص .
(٣) اليتيمة: « شطرا »
(٤) فى اليتيمة ٢ : ١٢٨ : «المفضل بن ثابت الضبى » .
(٥) بعده فى اليتيمة ، « وذلك فى أيام المهلبى الوزير»
(٦) اليتيمة « مغيرة »
(٧) اليتيمة ٢ ، ٢٨

أفعندنا شـــكّ بأنّهما هما … فى الفتك لا فى صحة الأنساب
جلبا إليك الشعر من أوطانه … جَلْب التّجّار طرائف الأجْلاَب
شنّا على الآداب أقبح غارةٍ … جرحت قلوب محاسن الآداب
فحذار من حركات صِلّ[1] غارة … وحذار من فتكات ليثٍ غاب
تركت غرائب منطقى فى غربة … مسبيّة لا تهتـــدى لإياب
أعزز علىّ بأن أرى أشلاءها … تدمى بظُفْر للعـــدوّ وناب
جرحى وما ضُربت بحدّ مهنّدٍ … أسرى وما حُملتْ على الأقتاب
إنْ عزّ موجود الكلام عليهما … فأنا الذى وقف الكلامُ ببابى
كم حاولا أمرى فطال عليهما … أن يدركا إلاّ المثـــارَ ترابى

والقصيدة[2] طويلة جمعتُ منها ما وافق الغرض ، وسنلمّ بشىء منهـا فى الثالثة والثلاثين بعون الله تعالى .

وقال يتظلم منهما لأبى البركات :

يا أكرمَ الناس إلا أن تعدّ أبا … فاتَ الكرام بآيات وآثارِ[3]
أشكو إليك حليفىْ غارة شهرَا … سيف العقوق على ديباج أشعارى[4]
ذئبين لو ظفرا بالشّعر فى حَرَمٍ … لمزّقاه بأنياب وأظفـــارِ
سـلّا عليه سُيُوفَ البغى مصلَتةً … فى جَحفلٍ من شَنِيع الظّلْم جرّارِ
وأرخصاه فظل العطر مُتَّهَماً[5] … لديهما يُشترى من غير عطّارِ

---

(١) اليتيمة « صلّىْ قفرةٍ »
(٢) انظرها كاملة فى اليتيمة ٢ ، ١٢٨
(٣) اليتيمة ٢ ، ١٢٦
(٤) اليتيمة ، « سيف الشقاق »
(٥) اليتيمة ، « ممتهناً »

إن قَلّداك بدرٍّ فهو من نخبى[١] أو ختّماك فياقوتى وأحجارى
كأنه جنة راقت حدائقهـا بين الغبيّين فى نار وإعصار
عارٍ من النسب الوضاح منتسب فى الخالديين بين الخزْى والعارِ

وشتّان بين قول السرىّ فى أبى بكر وأبى عثمان ابنى هشام الخالديين ، وبين قول الثعالبى فيهما[٢] حين قال : إنّ هذين لساحران ، يُغربان فيما يجلبان ، ويُبْدِعان فيما يصنعان ، وكان ما يجمعهما من أخوّة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوّة النسب ، وهما فى الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة ، ويشتركان فى قول الشعر وينفردان ، ولا يكادان فى السفر والحضر يفترقان ، وكانا فى التساوى ، كما قال أبو تمام :

رضيعىْ لِبانٍ شريكى عِنَانٍ عتيقى رهانٍ حليفْى صَفَاءِ

بل ، كما قال البحترى :

كالفرقـديْن إذا تأمّل ناظرٌ لم يَعْلُ موضع فَرْقَدٍ عن فَرْقَدِ

بل كما قال الصابى :

أرى الشاعريْن الخالديّين نَشَرا قصائد يفنى الدهر وهى تخلَّدُ
جواهر من أبكار لفظ وعُونِهِ يقصّر عنهـا راجِزٌ ومقصِّدُ
تنازع قوم فيهما وتناقضوا ومرّ جدال بينهم يـتردّد
فطائفة قالت سعيـد مقدّمٌ وطائفة قالت لهم بل محمـدُ

---

(١) اليتيمة « من لُجَجى »
(٢) اليتيمة ٢ : ١٦٥

وصاروا إلى حكمى فأصلحت بينهم … وما قلت إلاّ بالتى هى أرشَدُ
هما الاجتماع الفضلُ زوجٌ(١) مؤلف … ومعناهما من حيث ألفت مفردُ
كذا فرقدا الظلماء لمّا تشاكلا … عُلاً أشْـكَلاَ ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوْجهما ما مثـاله فى اتفاقه … وفردُهما بين الكواكب أسعد
فقاموا على صلْح وقال جميعهم … رضينا وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

وأفاضل الشأم والعراق ، بعضهم يفضل السرىّ عليهما ، وبعضهم يفضلهما .

فهذا كله فصل فى السرقات مستظرف ، احتوى على فوائد من علم الأدب ، وهى عشرون وجهاً والعشرون وجهاً فى السرقة جلبتها من كتاب الوكيعى على اختصار .

* * *

فقال : والذى جعل الشِّعْرَ ديوانَ العرب ، وَتُرْجُمَانَ الأدب ، ما أحدث سِوَى أنْ بَتَر شَمْل شَرْحِهِ ، وأغار على ثلثىْ سَرْحه . فقال له : أنشدْنا أبياتكَ بِرُمَّتِها ؛ لِيَتَّضِحَ ما اخْتَاره مِنْ جملتهـا ؛ فأنشد :

يا خاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيّةِ إنَّهَا … شَرَكُ الرّدَى وقَرارَةُ الأكدارِ
دارٌ مَتَى ما أضْحَكَتْ فِى يَوْمِهَا … أبْـكَتْ غداً بُعْداً لَهَا مِنْ دارِ
وإذا أظَلَّ سَحَابُها لَمْ يَنْتَفِعْ … مِنْـهُ صَدًى لِجَهَامِـه الغَرّارِ
غارَاتُهـا ما تنقَضِى وأَسِيرُها … لا يُفْتَدَى بجـلالَةِ الأخْطَارِ
كَمْ مُزْدَهٍ بغُرُورها حتَّى بدا … متمـرّدًا مُتَجـاوِزَ المقـدارِ

(١) كذا فى الأصول ، وما أثبته من اليتيمة .

قَذَبَتْ له ظَهْرَ المجَنِّ وأَوْلَغَتْ فيهِ المُدَى ونَزتْ لأخذِ الثّارِ

فَارْبأْ بِعُمْرِكَ أنْ يَمُرَّ مُضَيَّعاً فيهاَ سُدًى مِنْ غَيْرِ ما استِظْهَارِ

واقطَعْ عَلاَئقَ حُبِّهاَ وطِلاَبِهاَ تَلْقَ الهُدَى ورفاهَةَ الأسْرَارِ

وارقُبْ إذا ما سالَمَتْ من كَيْدِها حَرْبَ العِدَا وتَوَثُّبَ الْقَدَّارِ

واعْلَمْ بأنَّ خطُوبَهاَ تَفْجاَ ولَوْ طالَ الْمَدَى وَوَنَتْ سُرَى الأقْدَارِ

* * *

قوله: «والذى جعل الشعر ديوان العرب» ، أى كتاباً تدوّن فيه أخبارهم ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الشعر جَزْل من كلام العرب به يعطى السائل ويكْظَم الغيظ وبه يؤتى القوم فى ناديهم » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ من الشعر لحكمة» رواه ابن عمر رضى الله عنه قال: تعلَّموا الشعر فإن فيه محاسنَ تُبتغَى ومساوى تُتَّقَى . وحكمة للحكماء ويدلّ على مكارم الأخلاق .

قوله : « يا خاطب الدنيا الدنية » ، أى التى لا خير فيها . شرك : مصائد . الردى : الهلاك . قرارة : موضع يَستقِرّ فيه الماء . الأكدار : ما يتكدر به الماء الصافى .

أظلّ : دنا وقرب . ينتقع : يرتوى . صدى : عطش . جهامه : سحابه الذى لا ماء فيه. الغرّار: الخدّاع . تنقضى : تنقطع وتتم ، أراد أن الدنيا تُهلك مَنْ فيها ، فكنى بالأسير عن ذلك وأسير الموت لا يُفْدَى . الجلائل : جمع جليلة وهى الشىء الرفيع ، وتقدمت الأخطار . مزدهٍ : مُعجب . غرورها : خداعها . متمرداً : متجاوزاً الحد فى الفساد .

المجنّ : الترس . أولغت : جعلتها تلغ الدم . المدى ، جمع مُدْية : السكين . نزت : وثبت عليه . الثأر : طلب الدم ، وأراد أنها لما بسطت الأرزاق للإنسان فأعجب بها، وركب رأسه فى الفساد تحوّلت عليه ، وسقت سكّينها من دمه، والعرب تقول : قلبت له ظهر المَجنّ، أى غيّرت له حالى ، وهو مثل يضرب للمحاربة بعد المسالمة ، وأصله فى الحرب ، لأن الرجل إذا صالح صاحبه جعل بطن مِجَنّه مما يلى صاحبه المصالح ، فإذا حاربه قلب له ظهره للقتال . ومن جواب رسالة المهلب إلى الحجاج: وزعمت أنى إنْ لم ألْقَهُمْ فى موضع كذا أسرعت إلى صدر الرمح،فلو فعلتُ لقلبتُ إليك ظهر المجن ، ثم إذًا كانت الواقعة ، فهذا يبيّن ما ذكرناه .

ارْبأ بعمرك ، أى ارفع عنها نفسك واحتفظ فيها بعمرك، وتقول: ربأتُ القومَ أى صرت لهم ربيئة ، وهو الحارس لهم، والمربأ : الموضع المشرف الذى يقعد فيه الناظر ، فمعنى ارْبأ بنفسك : أى ارتفع بموضع ممتنع واحترس فيه لتنجو . سُدًى : مهملا . استظهار: استعداد، وقد استظهرت بالشىء فظهرت به وأظهرتُه إذا جعلته خلف ظهرك حماية ووقاية،والظهير المعاون . والعلائق : كلّ ما يعلق القلب بحب الدنيا . والرفاهة : الخفض والعيش الهنىء . الأسرار : البواطن ، يريد أنّ سرّ الإنسان وخاطره إذا قطع علائق الدنيا كان مترفّهاً خالىَ السر والبال . ارقب : احرس . سالمتْ : صالحت . كَيْدَها : مكرها . الغدار : الذى يؤمّنك فإذا أمنته خانك . وتوثبه : تهيُّؤه للوثب عليك . خُطوبها : أمورها ونوازلها . تفجأ : تأتى على غفلة . ونت : فترت : والسرى : مشى الليل . الأقدار : مايقدره الله على العبد من خير أو شر، فيقول : إذا أمنتْك الدنيا من مكرها ، فلا تأمنها فخطوبها تأتى على غفلة بعد أمد طويل ، وضمّن هذا الشعر وصايا فى التحذير من الدنيا .

* * *

[ذكر التحذير من الدنيا وغرورها]

ونسوق هنا من النظم والنثر ما ينتظم فى سلك ما نظم ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

وقال: « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ومن أخذها بغير حقها كان كالآكل الذى لا يشبع » .

وقيل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أوّلها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب ؛ من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حزن .

وقال ابنه محمد بن الحنفيّة : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

وقيل لبعض الحكماء : صف لنا الدنيا ، فقال : أملٌ بين يديك وأجل مطلّ عليك ، وشيطان فتّان ، وأمانىّ جرّارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتزجرها فتخيب .

وقيل لآخر : صف لنا الدنيا ، فقال : ناقضة للعزيمة ، مرتجعة للعطية ، كل مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى .

وقال هارون الرشيد : لو قيل للدنيا: صفى نفسك، ما وصفتْ نفسها بأكثر من قول أبى نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عن عدوٍ فى ثياب صديق(١)

وقال آخر :

ياخاطب الدنيا إلى نفسه ... تنحّ عن خطبتها تسلمِ(٢)

إن الذى تخطب غدّارة ... قريبة العرس من المأتمِ

وقال أبو العرب الصقلى :

ولا يغررك منها حسن بُرْدٍ ... له علَمان من علم الذَّهَابِ

فأوّله رجاءٌ من سَرابٍ ... وآخره رداء من ترابِ

---

(١) ديوانه ١٩٢

(٢) العقد ٣ : ١٧٤ من غير نسبة .

وقال أبو العتاهية ،

أصبحت الدنيا لنا فتنةً والحمد لله على ذَلِكَا[١]
قد أجمع الناس على ذَمِّها وما أرى منهمْ لها تاركًا

وله أيضاً :

هى الدنيا إذا كَمَلت وتمَّ سرورها خذلت[٢]
وتفعل فى الذين بَقُوا كما فيمنْ مضى فعلتْ

وقال المتنبى :

أبداً تستردّ ما تهب الدّنـ يا فيالَيْت جودَها كانَ بخْلاَ[٣]
وهى معشوقة على الغدر لا تحـ فظ عَهْدا وَلاَ تُتَمِّمُ وصْلاَ
كلّ دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنها تخلّى
شِيَم الغانيات فيها فلا أد رِى لذا أنَّث اسمَها الناسُ أم لا

وله أيضاً :

فذى الدار أخْوَن من مُومسٍ وأخدعُ من كِفّةِ الحابلِ[٤]
تَفانَى الرجال على حبِّها وما يحصُلون على طائلِ

وقال المعرى :

وجَدْنَا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جَنَى النحل أصنافُ الشقاء الذى نَجْنِى[٥]
على أم دَفرٍ غضْبة الله إنها لأجدر أنثى أن تخون وأن تُخْنِى[٦]

---

(١) ديوانه ١٨٦ .
(٢) العقد ٣ : ١٧٤
(٣) ديوانه ٣ : ١٣١ .
(٤) ديوانه ٣ : ٣٣ .
(٥) سقط الزند ٩١٩ . وجنى النحل ، هو العسل .
(٦) أم دفر ، كنية الدنيا . والدفر : النتن . وأخنى عليه الدهر : أهلكه .

كعاب دُجاها فرعُها ونهارها محيًّا لها قامت له الشَّمسُ بالُحسْنِ [(١)]
كأنّ بنيها يولدون ومالَها حَليلٌ فتخشى العار إن سمحت بإبْنِ [(٢)]

وقال ابن عبد ربه :

ألا إنّما الدّنيا غضارة أيكةٍ إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جَانِبُ [(٣)]
هى الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائبُ
فلا تكتحلْ عيناك فيها بعَبرةٍ على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهِبُ

وقال أبو العتاهية :

رضيت بذى الدنيا ككل مكاثرٍ ملحّ على الدنيا وكل مفاخرٍ [(٤)]
ألم ترها تَرْقِيه حتى إذا سما فَرَتْ حَلْقَهُ منها بشَفْرةِ جازرِ

وقال أبو بكر البلوىّ :

إنّ الذى أصبح لا والدٌ له على الأرض ولا والِدَهْ
قَدْ مات مِنْ قبلهما آدم فأىّ نفس بعده خالدَهْ
إن جئت أرضاً أهلها كلّهم عُورٌ فغمِّض عينك الواحدَهْ

وقال ابن عمران :

أفّ لدنيا قد شُغِفْنا بها جهلاً وعقل للهوى متبعْ
فتّانةٌ تخدع طُلاَّبها فلا تكن مِمّنْ بها يَنْخَدِعْ
أضغاث أحلام إذا حُصِّلت أو كوميض البرق منها لمعْ

---

(١) شبه الدنيا بالكعاب ؛ وهى الفتاة التى تكعب ثديها .
(٢) قال البطليوسى فى شرحهذا البيت : الوأد : وضع التراب على الميت وتركه ؛ شبه الدنيا فى إهلاكها لأبنائها بامرأة زانيه تخشى الفضيحة إذا ظهر لها ولد ، فهى تدفنه لتتطم أثره والحليل الزوج .
(٣) العقد لابن عبدربه ١ : ١٧٥ .
(٤) العقد ٣ : ١٧٤ :

وقال ابن قاضى ميلة :

لدنياك نورٌ ولكنه ظلام يَحَارُ بِهِ المبصِرُ
فإن عشت فيها على أنها كما قيل قنطرة تُعْبَرُ
فلا تعمرنّ بها منزلاً فإن الخراب لما تُعْمِرُ
ولا تذخرنّ خلاف التقى فتفنى ويبقى الذى تَذْخَرُ

ابن عمران : واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسه فى بعض طباعه ، وإن الدنيا جانست الإنسان فى بعض طبائعه فأحبّها بكله .

وقال :

نُراع لذكر الموت فى حال ذِكْرِهِ وتعترض الدنيا فنلهُو ونَلْعَبُ[1]
ونحن بنو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها وما كنت منه فهو شىء محبّبُ

وقال إبراهيم بن أدهم :

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ[2]
فطوبى لعبدٍ آثر الله ربه وجاد بدنياه لما يتوقع

وهذا مثل قول أعرابىّ وقد قيل له : كيف أنت فى دينك ؟ فقال : أخرِقه بالمعاصى ، ولا أرقّعه بالاستغفار .

وللأعمى التطيلىّ :

تنافس الناس فى الدّنيا وقد عَلِمُوا أن سوف تقتلهمْ لذاتهمْ بَدَدَا[3]
قل للمحدّث عن لقمان أو لِبَدٍ لم يترك الدهر لقماناً ولا لِبَدَا
وللذى همّه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر فى الثّرى أحدَا
ما لابن آدمَ لا تفنى مطالبُه يرجو غدا وعسى ألاَّ يعيش غَدَا

(١) العقد ٣ : ١٧٦ .
(٢) العقد ٣ : ١٧٦ .
(٣) ديوانه ٢٧ .

تأمل هذه المقاطع فإنها تضمت حكما وآدابا وكل قطعة منها ، لها تعلق بشعر الحريرى إما باللفظ أو بالمعنى .

* * *

فقال الوالي : ثمّ ماذا ، صنع هذا ؟ فقال : أقْدَمَ للأزمة فى الجْزَاء ، على أبياتِ السُّدَاسِيّةِ الأجزاء ، فحذف منها جُزْأيْنِ ، ونقصَ من أَوْزَانِها وَزْنَيْنِ ؛ حتَّى صارَ الرُّزْءُ فيها رُزْأيْنِ . فقال له : بَيّن ما أخذ ، ومن أيْنَ فَلَذ ؟ فقال : أرْعِنى سمعك ، وأخْلِ للتّفهّم عَنّى ذَرْعَك ؛ حتّى تتبيّن كيف أصْلَت علىّ ، وتقدِّرَ قدْر اجترامِهِ إلىّ ؛ ثم أنشد ، وأنفاسه تتصعّد :

ياخاطب الدنيا الدنيّــةِ إنَّها شَرَكُ الرَّدَى

دارٌ متَى ما أضحكتْ فى يومها أبكَتْ غدا

وإذا أطلَّ سَحَابُهَا لم يَنتفعْ منه صدَى

غارَاتُهــا ما تنقَضِى وأَسيرُها لا يُفْتَـدَى

كم مُزْدَهٍ بغُرورِها حتَّى بَدَا مُتمرِّدا

قَلبَتْ له ظهر المجَنِّ وأوْلَغَتْ فيه المُدَى

فارْبأ بِعُمْرِكَ أنْ يَمُرَّ مُضَيَّعاً فيهـا سُـدَى

واقْطَعْ علائق حُبِّهَا وطِلاَبِهَا تَلْقَ الهُدَى

وارقُبْ إذا ماسالَمَتْ من كَيْدِها حَرْبَ العِدَا

واعلم بأنَّ خطوبَهَا تفجا ولو طَالَ الْمَدَى

فالتفتَ الوالي إلي الغُلاَم وقال : تبًّا لَكَ مِنْ خِرِّيجٍ مارق ، وتلميذٍ سارِق ! فقال الْفَتى : برئت من الأدَب وبنيه ، ولحقتُ بِمَنْ يناويه ، ويقوّضُ مبانيه ؛ إن كانتْ أبياته نَمَتْ إلى عِلْمى ، قبل أن ألّفتُ نظمِى ؛ وإنما اتّفق تواردُ الخاطِر ، كما قَدْ يَقع الحافر على الحافر .

* * *

قوله : أقدم أى تقدم . لؤمه فى الجزاء ، يريد أنه جازاه على ما فعل معه من الخير مجازاةَ لئيمٍ ، فسرق شعره. السداسية الأجزاء ، لأن عروضها من الكامل ، وأجزاؤها متفاعلن ست مرات: الرّزء : المصاب . فَلَذ : قطع . أرِعْنى سمعك : أى اسمع منى . ذَرْعَك : بالك وقلبك . أصلَت: جرد سيفه . تتصعّد : تتطلع إلى فوق . الخِرِّيجُ : الذى خرّجه معلمه ، وفلان خِرّيجك ، أى الذى خرج بتهذيبك وتعليمك . مارق : خارج عن الطاعة . وتلميذ : طالب متعلم . برئتُ : زُلت وانفصلت . يناويه : يعاديه . يقوّض : يهْدِم . نَمَتْ : انصلت . ونميت الحديث أسندته . ألَّفت نظمى : جمعت شعرى .

توارد الخواطر : تواطؤ الأذهان ، أى وقع لذهن الفتى من الكلام ما وقع لذهن الشيخ ، مثل الحافر الذى وقع على الحافر .

وهذا الكلام يُعزَى لأبى الطيب المتنبى ، وسئل عن اتفاقات الخواطر ، فقال: الشعر مَيْدان ، والشعراء فرسان ، فربّما اتفق توارد الخواطر ، كما قد يقع الحافر على الحافر .

قال الأصمعى رحمه الله تعالى : قلت عمرو بن العلاء: أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ويتواردان فى اللفظ لم يلق أحدهما صاحبه ، ولا سمع شعره ؟ فقال لى : تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها .

[نبذ فى توارد الخواطر]

ومن مشهور ذلك ما وقع فى القصيدتين البائيتين لامرئ القيس وعلقمة ، وكذلك اتفاقه مع طرفة فى قوله :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسًى وتجلّدِ [١]

وقال امرؤ القيس [٢] : وتجمّل .

ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم .

لو أنها عرضت لأشمطَ راهبٍ عبَد الإله صَرورةٍ متبتّلِ

وقال النابغة [٣] : « صرورة متعبد » :

وقال :

لرنا لرؤيتها وحُسْنِ حديثها ولهمَّ من تاموره يتنزّل

وقال النابغة :

لرَنا لرؤيتها وحُسْن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يَرْشُدِ [٤]

تاموره : صومعته .

ومن ذلك ما حكىَ أبوعلىّ أنه خرج جرير والفرزدق مردَفيْن إلى هشام ابن عبد الملك ، فنزل جرير يبول ، فتلفّتَت الناقة فضربها الفرزدق وقال :

إلامَ تلفّتِين وأنت تحتِى وخيرُ النّاس كلّهُمُ أمامِى [٥]

---

(١) من المعلقة ؛ ديوانه ٣٠ .

(٢) من قوله فى ديوانه ص ٩ .

وقوفاً بهَا صَحْبِى عَلَىَّ مطيّهم يقُولونَ لا تهلك أسًى وتَجَمَّلِ

(٣) من قوله فى ديوانه ٣١ .

لو أنها عَرَضَتْ لأشمطَ راهِبٍ عبـد الإلٰه صَرُورَةٍ متَعبِّـدِ

وانظر الشعر والشعراء ١١٤ .

(٤) ديوانه ٣٢ .

(٥) الأغانى ٩ : ١٦٩ .

مَتَى تَردى الرَّصافة تستريحي من التّهجير والدَّبَرَ الدَّوامِي (١)

ثم قال : الآن يجيء جرير ، فأنشده البيتين فيردّ عليّ :

تَلفّتُ أنها تحت ابن قينٍ إلى الكيرين والفأس الكهام (٢)

متى تأت الرصافة تَخزَ فيها كَخِزْيك فى المواسِمِ كلّ عامِ

قال : فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : مايُضْحِكُكَ يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين ، فقال جرير : تلفت أنها البيتين .. كما قال الفرزدق سواء ، فقال: واللهِ لقد قلت هذين البيتين ، فقال جرير : أماعلمت أن شيطاننا واحد .

ومر (٣) رجل بالفرزدق بالمِرْبَد فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من اليمامة ، قال : فأيّ شيء أحدث ابن المراغة ؟ فأنشده :

* هاج الهوى لفؤادك المهتاج *

فقال الفرزدق :

* فانظر بتُوضح باكِرَ الأحداج *

فقال الرجل :

* هذا هوًى شغف الفؤاد مبرّحُ *

فقال الفرزدق :

* ونوًى تقاذف غير ذات خِلاج (٨) *

فقال الرجل :

* إنّ الغرابَ بما كرهتَ لمولعُ *

---

(١) التهجير : المشى فى الهاجرة . والدبر : قرحة فى الدابة .

(٢) ديوانه ٥٠٢

(٣) ديوانه ٨٩ ، بدائع البدائه ٦٣ ، والأحداج : جمع حدج ؛ وهو من مراكب النساء .

(٤) الخلاج : الشك .

فقال الفرزدق :

* بنوى الأحبّة دائم التسحاج *

فقال الرجل: هكذا والله قال : أفسمعتها من غيرى؟ قال : لا ولكن هكذا ينبغى أن يقال ، فقال : أما علمت أن شيطاننا واحد .

ودخل الفرزدق على امرأة من عُقَيل فحدثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تألفه ، فدخل فأقبلت عليه تحدّثه ، وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك ، وقال للفتى: أتصارعنى ؟ قال : ذلك إليك فقام الفرزدق فلم يلبث أن أخذه الفتى مثل الكرة فصرعَهُ ، وجلس على صدره ، فضرَط الفرزدق ، فوثب الفتى عنه وقال : هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردتُ ما جرى ، فقال : والله ما بى ذلك ، ولكن كأنى بابن المراغة جرير قد بلغه الخبر ، فقال :

جلستَ إلى ليلَى لتحظَى بقُرْبها　　فخانك دَهرٌ لا يزال خئون

فلو كنت ذا حزم شددتَ وكاءها　　كما شدَّ خرقا بالدلاص قيونُ

فلما بلغ الخبر جريراً قال البيتين .

وأمر (١) سليمان بن عبدالملك الفرزدق أن يضرب رقاب أسرى فاستعفاه فلم يفعل ، وأعطاه سيفاً لا يقطع ، فضرب به عنق رومىّ فنبا السيف ، فضحك سليمان ومَنْ حوله ، فجلس وهو يقول :

أيعجَبُ النّاسُ أنْ أضحكتُ سيِّدَهُمْ　　خليفةَ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ

لم ينبُ سَيْفِى عن رُعْبٍ ولا دهشٍ　　عن الأسير ولكنْ أخر القَدَرُ

ثم قال : ما إن يعاب فرس إذا كبا ، ولا يعاب صارم إذ نبا ، ثم جلس.

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ٦ : ٤٧٥ ، ٥٤٨ ، الأغانى ١٥ ، ٣٤٣ .

وهو يقول : كأنى بابن المراغة قد بلغه الخبر فقال :

بسيفِ أبِى رَغْوانَ سيفِ مجاشعٍ ضربتَ ولم تَضرِب بسيفِ ابن ظالِمِ
ضربت به عند الإماء فأرعِشَتْ يداك وقالوا محدث غيرُ صارم

ثم قال : كأنى ياأمير المؤمنين بابْن القَيْن قد أجابنى فقال :

ولا نقتلُ الأسْرَى ولكنْ نَفُكُّهُمْ إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ

فأخبر الفرزدق القصة ، فقال :

كَذَاكَ سيوفُ الهند تنبو ظُبَاتُها وتقطع أحيانا مناطَ التَّمائم
ولا نقتل الأسرى ولكنْ نفكّهمْ إذا أثقل الأعناق حملُ المغارِم
وهل ضَرْبَةُ الرومىّ جاعلةٌ لكم أباً عَنْ كليبٍ أو أبا مثل دارِمِ

فهذا إن صح من أعجب اتفاق الخواطر .

وقال الأقيشر :

جريتُ مع الهوى طَلْق العتيقِ وهان علىّ مأثور الفُسُوقِ (١)
وجدتُ ألذَّ عارية الليالى قِران النّغْم بالوترِ الخَفُوقِ
ومسمعةً إذا ما شئت غَنّتْ متى نزل الأحبّة بالعقيقِ
تمتّعْ من شباب ليس يَبْقَى وصل بِعُرَا الصَّبُوح عُرَا الغَبوقِ

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

جَرَيْتُ مع الهوى طلق الجموحِ وهانَ علىّ مأثورُ القبيحِ (٢)
وجدتُ ألذّ عارية الليالى قران النغم بالوتر الفصيح

---

(١) الوساطة ١٩١ ، ١٩٢ ، قال : وأنا أرتاب بأبيات الأقيشر ، فإنها لا تشبه شعره ، ولم أرها فى ديوانه . وانظر سرقات أبى نواس لمهلهل . بن يموت ٨٣ .

(٢) ديوانه ٢٥٧ .

ومسمعةً إذا ما شئت غنَّت ... متى كان الخيام بذِى طلوح
تمتَّع من شباب ليس يَبْقَى ... وصل بِعُرَا الغبوق عُرَا الصَّبُوح

ومن ذلك ما نَسب السرى للخالدى فيما قدَّمناه من سرقة شعره، قال السرى[1] :

وكأنّ كأس مدامها ... لما ارتدت بحَبَابها
توريد وجنتها إذا ... مالاح تحت نقابِها

وقال أبو بكر الخالدىّ :

فكأن الكأس لمّا ... ضحكت تحت الحَباب[2]
وَجْنَةٌ حمراء لاحت ... لك من تحت النقابِ

وقال السرى فى وصف جام فيه فالوذج :

بأحمرَ مبيضّ الزجاج كأنه ... رداء عروسٍ مشربٌ بخَلوق[3]
له فى الحشا برد الوصال وطيبه ... وإن كان تَلْقَاه بلون حريقِ
كأنّ بياض اللّوز فى جَنباته ... كواكبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقيقِ

وقال أبو بكر الخالدى :

مُداماً كأنّ الكفَّ من طيبِ نَشْرِها ... وصُفْرتِها قد خُلِّقَتْ بخَلُوق[4]

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ وقبله هناك :

إذا شِئتَ أن تَجْتَاح حقًّا بباطلٍ ... وتغرق خصما كان غير غريقِ
فسائل أبا بكرٍ تجدْ منه سالكا ... إلى ظلماتِ الظلم كل طريقِ
ولاطفه بالشّهد المخلّق وجهه ... وإن كان بالإلطاف غير حقيقِ

(٤) يتيمة الدهر ٢ ، ١٦٣ وقبله .

أَلاَ فاسقنِى والليل قد غاب نوره ... لغيبَةِ بدرٍ فى الغمام غريقِ
وقد فضَح الظلماءَ برق كأنه ... فؤاد مشوقٍ مولعٍ بخفوقِ

نُعاينها نَوْرا عــلاه تجسّدٌ ونشربها ناراً بغير حريق
كأنّ حبَاب المـاء فى جَنبَاتِهَا كواكبُ لاحتْ فى سماءِ دَقِيقِ

وقال السرى رحمه الله تعالى :

رأتْ شيباً يُصاحبنى فصدّت وكان جزاؤه منها العُبوسا[١]
وقالت إذْ رأت للمُشطِ فيه سواداً لايشا كله نفيسا
تلقّ العاج منه بمشط عاج ودع للآبنوس الآبنوسا

وقال أبو عثمان أيضاً :

وقفتنى ما بين هَجْرٍ وبُوسٍ وانثنت بعد ضِحْكَةٍ بعُبُوسِ[٢]
ورأتنى مشطت عاجا بعاج وهى الآبنوس بالآبنوس

وهذا إمّا توارد أو تسابق ،والتسابق أشبه بهم .

* * *

قال : فكأن الوالي جوّز صدق زعمه ، فندم على بادرة ذمّه ؛ فظلّ يفكر فيما يكشف لَهُ عن الحقائق ، ويميّز به الفائق مِن المائق ، فلم ير إلاّ أَخذهما بالمناضلة ، ولزّهما فى قرَن المُسَاجلة . فقال لَهُمَا : إنْ أردتما افتضاحَ العاطل ، واتضاح الحقّ من الباطل ، فتراسلا فى النَّظْمِ وتَبَارَيَا ، وتجاولاَ فى حَلْبَةِ الإجازة وَتَجارَيَا ؛ لَيَهْلِكَ مَنْ هلك عن بيّنة ، ويحيا مَنْ حىَّ عن بينة ؛ فقالا له بلسانٍ واحد ،وجوابا متوارد : قد رضينا بسبْرك ، فمرنا بأمْرك .

فقال : إنّى مولعٌ من أنواع البلاغة بالتجنيس،وأراهلها كالرئيس ؛

(١) ديوانه ١٥٥ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٨٢ .

فانْظِماَ الآن عشرة أبيات تُلحمانها بوَشيِه، وترصّعانها بحليِه، وضمّناها شرح حالى مع إلفٍ لي بديع الصّفة، ألمى الشّفه، مَليحَ التثنّى، كثير التّيِه والتجنّى، مُغْرًى بتناسِي العهد، وإطالةِ الصدّ، واختِلافِ الوعْد؛ وأنا له كالعبد.

* * *

قوله: زعمه، الزعم قول معه اعتقاد. بادرة: سابقة وهى الكلمة الرديئة تبدر من المتكلم. الفائق: الفاضل، وفاق الناس، فضَلهم وعلاهم بقول أو علم. المائق: الأحمق الضعيف التدبير. المناضلة: المراماة. لزّهما: ضمهما وشدّهما. قَرَن: حبل يقرن بين الشيئتين.

[المساجلة ومثل منها]

المساجلة: أن يستقى ساقيان فيخرج كلّ واحد منهما من الماء مثل مايخرج الآخر، فأيّهما نكل فقد غلب، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

مَنْ يُساجِلُنى يساجلْ ماجدا يملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَب[1]
وأنا الأخضر مَنْ يعرفنى أخضر الجلدة من بيت العرب

ومرّ الفرزدق بالفضل، وهو يستقى وينشد البيتين، فشمّر ثيابه عن نفسه، وقال: أنا أساجِلُك، ثقةً بنسبه، فقيل له: هذا الفضل بن العباس، فردّ ثيابه وقال: مايساجُله إلاّ مَنْ عَضّ أيرأبيه. ثم صارت المساجلة يقصد بهاقصد المفاخرة، وأراد هنا بالمناضلة والمساجلة، أن يقول هذا بيتا، وهذا بيتاً حتى يُعلم لمن الغلَب. وأكثرُ ماجرت به العادةفيها بأنصاف الأبيات كما شهر فى قصة امرىء القيس

(١) البيت الأول فى اللسان — سجل، ونسبه للفضل بن عباس بن عتبة.

والتوءم حين قال امرؤ القيس :

أحارِ ترى بُرَيقا هبّ وهنا

فقال التوءم :

* كنار مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعارًا *(1)

ثم مضيا على القطعة بالأنصاف حتى كملت ، وهى مشهورة .

قال أبو العيناء : وقف عليَّ غلام يسألنى ما أحسبه بلغ الحلم ولا قارَبه وخرج غلام لى أسود قد اغتسل ، وهو يرعد ، وكان خبيثاً ، فأومأتُ إلى الأسود فقلت :

* كأنه ذئب غضًى أزَلُّ *

فقال الغلام :

* باتَ النّدَى يضربُهُ والطَّلُّ *

فوصلته بدارهم وانصرف.

واجتاز ابن أبى الخصال مِنْ بلده شقورة بآبدة ، وهو صبىّ صغير يطلب الأدب ، فأضافه بها القاضى ابن مالك ، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطف لهم منها عنقوداً أسود ، فقال القاضى :

* انْظُرْ إليه فى الْعَصاَ *

فقال ابن أبى الخصال :

* كرأس زنجىٍّ عصا *

فعلموا أنه سيكون له شأن فى البيان .

ومثل ذلك ما حدّثنى به الشيخ الفقيه أبو الحسين بن زرقون عن أبيه أبى عبد الله أن أبا بكر بن المبجل وأبا بكر بن الملاح الشّبليين ، كانا متواخَيَيْن

(١) ديوان امرىء القيس ١٤٧ .

متصافِيَيْن ، وكان لهما ابنان قد برعا فى الطلب ، وحازا قصب السبق فى حلبة الأدب ، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء ، فركب ابن المبجل فى سَحَرٍ من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على هجاء ابن الملاح ، ويقول له : قطعت ما بينى وما بين صَفِيِّ أبى بكر بإقذاعك فى ابنه ، فقال له ابنُه: إنه بَدَأنى ، والبادىء أظلم ، وإنما يجب أن يُلْحَى مَنْ بالشرّ تقدّم ، فعذره أبوه ؛ فبينما هما على ذلك إذ أقبل على وادٍ تنقّ فيه ضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

* تَنِقّ ضفادع الوادى *

فقال ابنه :

* بصوتٍ غير معتاد *

فقال الشيخ :

* كأنّ نقيق مقولها *

فقال ابنه :

* بنو الملاح فى النادى *

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

* وتصمت مثل صَمْتِهِمُ *

فقال ابنه :

* إذا اجتمعوا على زادٍ *

فقال أبو بكر :

* ولا غَوْثَ للهوف *

فقال ابنه:

* ولا غيث لمرتاد *

والإجازة بالأبيات بكمالها كثيرة مشهورة .

وحكى الماوردىّ أنّ الناس تذاكروا حفظ السرّ بمجلس عبدالله بن طاهر، فقال عبد الله :

ومستودِعِى سِرًّا تضمّنْتُ ستْره ... فأودعته من مستقرِّ الحشى قبْرا [١]

فقال ابنه عبيد الله، وهو صبىٌّ :

وما السرّ فى قلبى كثاوٍ بحفرة ... لأنى أرى المدفون ينتظر الحشْرَا

ولكننى أخفيه حتى كأنه ... من الدهر يوماً ماأحطتُ به خُبْرَا

وحكى الفقيه أبو الحسن أنّ أباه حدثه أن الأديب أبا الطاهر بن أبى رَكْب [٢]، حضر عنده بَسْبَتة بقرية شنان فى عَقب شعبان لاستقبال رمضان ، فأكل مع مَنْ حضر ضروباً من الأطعمة والألوان ، فقال أبو الطاهر رحمه الله تعالى لأبى عبد الله بن زرقون أجِز :

حمدت لشعبان المبارك شبعةً ... تسهّلُ عنّى الجوع فى رمضانِ

فقال أبو عبد الله رحمه الله تعالى :

كما حَمِدَ الصبُّ المتيَّمُ زورةً ... أطاق لها الهجران طولَ زمانِ

فقال أبو الطاهر :

دَعَوْها بشعبانية فلو أنهم ... دَعَوْها بشبعانية لكفانى [٣]

وحدّثنى أيضاً أن أباه شيخنا الفقيه أبا عبد الله المذكور قعد مع صهره أبى الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر المجاز، وهو مضطرب الأمواج، فقال له أبو الحسن : أجز :

وملتطمِ الغوارب موجَتْه ... بوارحُ فى مناكبها غيومُ

(١) الشعر والخبر فى كتاب أدب الدنيا والدين ٢٨ برواية مخالفة .

(٢) كذا ضبط فى نفح الطيب ، بفتح الراء وسكون الكاف .

(٣) الخبر فى تحفة القادم ٣٣ ، ونفح الطيب ٤ : ٣٢٣ .

فقال أبو عبد الله :

تمنّــع لاتعوم به سفينٌ ولوحدَقت به الزهر النجومُ

* * *

قوله: «افتضاح العاطل» أى شهرة الفارغ من قول الشعر . تراسلا : تجاريا، والتَّراسل فى الغناء والنشيد، أنْ يتجاذب الصوتَ المغنِّيان، والتراسل فى الخيل، أن ترسل فرسين فى الطَّلَق (١) .

تباريا : تجاريا . وتجاولا : تصرّفا . والحلبة يأتى ذكرها فى المقامة ، وأراد تجاريا فى الشعر كما يتجارى خيل الحلبة فى الميدان ، بسبرك : قياسك وتجربتك لنا . متوارد : متسابق متتابع . والتجنيس : أن تكون الألفاظ متناسبة والمعانى متباينة . تلحمانها : تنسجانها . وشيه : رقمه . ترصّعانها : تزينانها ، وكلّ ماخرزته أو عقدته فهو مرصَّع . إلف : معشوق يؤلَف ويؤنس به . بديع :غريب . ألمَى: أسمر ، واللّمَى أن تتعتّق حمرة الشفة حتى تضرب إلى السواد . التثنّى: الانعطاف. التيه : الإعجاب والاحتقار بغيره . التجنِّى : ادعاء الجناية على عاشقه ، وذلك أن المعشوق يحسب كل مايفعله عاشقه ذنباً عليه وجناية ليتوصّل بذلك إلى هجره ، ثم سمّىَ الصدّ والإعراض تجنّياً . مغرًى : مولَع . والتناسى : استعمال النسيان. أراد أنه يعِد عاشقه بالزيارة وغيرها فإذا ذُكّر بها قال: نسيت. والصدّ:الإعراض .

* * *

قال: فبرز الشيخ مجلّيًا ، وتلاه الفَتى مُصَلِّيًا ؛ وتجاريا بيتا فبيتاً على هذا النَّسَق ، إلى أن كمل نظم الأبيات واتّسَقَ، وهى :

وأحوى حَوَى رِقّى برقّةِ ثغرِهِ وغادرنى إلْفَ السُّهادِ بغدْرِهِ

تصدّى لِقتلى بالصدود وإنني لَفِى أسْره مُذْ حازَ قَلْبِي بأسْرِهِ

(١) الطلق : الشوط فى جرى الخيل .

أُصَدِّقُ منه الزُّورَ خوفَ ازوراره — وأرضى اسْتِمَاعَ الهَجْرِ خشيةَ هَجْرِهِ
وأستعْذِبُ التّعذيبَ منه وكلّما — أَجَدَّ عذابِي جَدَّ بي حُبُّ بِرّه
تناسَى ذمامِي والتناسِي مذمّةٌ — وأحفَظَ قَلْبِي وهو حافظ سِرِّهِ
وأعجب ما فيه التَّباهِي بِعُجْبِهِ — وأُكْبِرُه عن أن أُفُوهَ بِكِبْرِهِ
له مِنِّيَ المدْحُ الّذِي طابَ نشْرُهُ — ولي منه طيُّ الودِّ من بعد نشْرِهِ
ولو كان عَدْلاً ماتجنّى وقد جنَى — عليّ وغيري يجتنِي رشْفَ ثغرِهِ
ولولا تثنّيه ثنيْتُ أعِنّتِي — بداراً إلى مَنْ أجْتَلِي نُور بَدْرِهِ
وإنّي على تصريف أمرِي وأمْرِهِ — أرى المرّ حُلْواً في انقيادِي لأمْرِهِ

* * *

على هذا النسق ، أي على هذا التتابع والانضمام . اتّسق : انضمّ واجتمع . ونسقت الشيء بالشيء ضممته إليه . أحوى : أسمر الشفة، والحُوّة: حمرة تضرب إلى السواد، يقال: شفة حوّاء حمراء . رِقّ ، أي ملكي ، والرّق الملك ، ورقّ الرجلُ رِقًّا : صار عبداً . برقّة لفظه : بحلاوة كلامه . غادرني إلفَ السهاد: تركني صاحب سهر . بغدره : بقلة وفائه . تصدّى : تعرّض . أسَره : حبسه . بأسره : بجملته . والزور : الكذب . ازوراره : انقباضه، والهُجْر : الفحش . أستعذب : أستطيب. أجدّ عذابي : جدّد عذابي . جدَّ : زاد واجتهد . برّه : إكرامه ، يريد متى زادَني عذاباً وهجراناً زدت فيه حبًّا وبرًّا . ذِمامي : عهدي . مذمّة : عيب . أحفظ : أغضب . التباهي : التفاخر . أكبره : أعظِمُه وأراه كبيراً . أفُوه : أنطق . نَشْره : تحرّك رائحته . رَشْف ثغره : تقبيلُ أسنانه . ثنيت : عطفت . أعنّتِي : جمع عنان . أجتلي : أنظر . نور بدره : حسن وجهه، يقول: لولا حسن تثنّيه لتركته وملت إلى غيره. ثم قال : وإني على مايلقاني به من الهجر والجفاء ،

وألقاه به من البر والصفاء ، ليرجع عندى المر من أفعاله حلواً فى اتباعى لما يحب ويأمر به . وقد أنشدوا فى ذلك :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة   لقد سرنى أنى خطرت ببالك[١]

وقال فى مثله :

وأهنتنى فأهنت نفسى صاغراً   ما من يهون عليك ممن يكرم[٢]

فهذا غاية الانقياد لمراعاة مراد الحبيب .

وقال الشاعر :

ولقد منحتكم المودة محضة   وكتمت ما اشتملت عليه ضلوعى
جازيتمونى بالوصال قطيعة   شتان بين صنيعكم وصنيعى
فإذا أتيتك زائراً متشوقاً   قصر الطريق وطال عند رجوعى

وفى معنى قوله : « له منى المدح » يقول ابن رشيق ، وزاد معنى مستظرفاً :

أراك اتهمت أخاك الثقه   وعندك مقت وعندى مقه[٣]
وأثنى عليك وقد سؤتنى   كما طيب العود من أحرقه

وقال ابن زيدون :

بنى جهور أحرقتم بجفائكم   جنانى فما بال المدائح تعبق[٤]
تعدوننى كالعنبر الند إنما   تطيب لكم أنفاسه حين يحرق

وهما وإن تواردا على هذا المعنى ، فإنما أخذاه من قول حبيب :

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح الرافعى ٢ : ١٠٦

(٢) العقد ٥ ، ٣٧٥ من أبيات نسبها لأبى الشيص .

(٣) نقله فى التنف ٥١

(٤) ديوانه ٥٩٠

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ما كان يُعرَف طيبُ عَرفِ العُودِ (١)

* * *

ونذكر هنا جملة من الشعر الرائق المستظرف الفائق ، تنسحب على أوصاف الغلام المذكور ، وتتعلق بشعر الحريرىّ من جهة التجنيس ، أو من جهة الانقياد للمحبوب وإن جفا وصدّ .

ونبدأ بذكر حكاية أبى إسحاق الُحصْرِى لتعلقها بما انبنت عليه المقامة من توارد الخواطر .

كان أبو إسحاق يختلف إلى بعض مشيخة القيروان ، وكان الشيخ كلفا بالمعذّرين وهو القائل :

ومعذَّرين كأنّ نبتَ خدودهمْ أقلامُ مسك تستمدّ خَلُوقَا
قرنوا البنفسج بالشقيق وَنَظَّمُوا تحت الزبرجد لؤلؤا وعقيقَا
فهـمُ الذين إذا الخليّ رآهمُ وجَد الهوى بهم إليه طريقا

وكان يختلف إليه غلام من أعيان أشراف القيروان ، وكان به كلِفًا ، فبينما هو عنده والُحصْرى قد أخذ فى الحديث إذ أقبل الغلام وهو يقول :

فى صورةٍ كَمَلَت فخلِت بأنَّهَا بدرُ السماء لِستةٍ وثمَانِ
يعشَى العيون ضياؤها فكأنَّها شمس الضحى تَعْشَى بها العينانِ

فقال الشيخ : ياحُصْرىّ ، ماتقول فيمن هام بهذا القدّ ، وصبا لهذا الخدّ ؟ فقال الُحصْرى : الهيمان والله بهذا غاية الظرف ، لا سيما إذا شام كافورة خدّه ذلك المسك الفتيت ، وهجم على صبحه ذلك الليل البهيم ، والله ما خلت سواده فى بياضه إلا بياض الإيمان فى سواد الكفر ، أوغيهبا فى ضوء الفجر . فقال للحُصْرى:

---

(١) ديوانه ٨٥

صِفْه ، فقال : مَنْ ملك رقّ القول حتى انقاد له صعابه،فذلّ له جموحه حتى سطع له شهابه ، أقعدُ منى فى ذلك،فقال : صِفْه ، فإنى معمل فى ذلك فكرى . فأطرق ساعة ، فقال الُحصرىّ :

أو رد قلبى الرَّدَى   لامُ عِـــذَارٍ بدا
أسود كالـكفرِ فى   أبيضَ مثل الُهدى

فقال له الشيخ : أراك اطَّلعت على ضميرى ، أو خضت بين جوانحى ، فقال له الحصرى : ولم ذاك ؟ قال : لأنى قلت :

حَرّك قلبى فطارْ   صولج لام العِذارْ
أسودُ كالليل فى   أبيضَ مثل النهارْ

فهذه غاية فى بابه .

وقال السّرِىّ :

بلانى الحبّ فيك بما بلاَنى   فشأنى أن تفيض غروبُ شانى [(١)]
أبيت الليل مرتقباً أناجى   بِصدْق الوجد كاذبة الأمانِى
ويشهد لى على الأرَق الثريّا   ويعلم ما أقاسى الفرقدانِ [(٢)]
ستصرف طاعتى عمَّن نهانى   دموع فيكَ تلْحَى مَنْ لحانى
ولم أجهل نصيحتَه ولـكن   جنونِ الحب أحْلَى فى جنانى
فيا ولع العواذِلِ خَلِّ عنى   ويا كفّ الغرامِ خذى عنانى

وهذا مما يأخذ بمجامع القلوب ، ويحتوى على النوعين من المعنى المطلوب .

(١) ديوانه ٢٦٨ ؛ من قصيدة يمدح بها أبا الهيجاء بن سعيد بن حمد الله ، ويعاتبه على جفوة لحقته منه ، وقد نالته علة وجراحات فى بعض أسفاره .
(٢) الديوان : « و يعلم — ما أجن »

وقال السّلامى :

ما ضنَّ عنك بموجود ولا بَخِـلا أعزُّ ما عنده النَّفْس التى بَذَلا[١]
يحكى المطايا حنيناً والهجير جوًى والمُزْن دمعاً وأطلال الديار بِلَى

وقال أيضاً :

مُنيت بمنْ إذا منيت أفضت منـاى إلى بنفسج عارضَيْهِ[٢]
وفاضت رحمـــة لى حين ولَّى مــــدامعُ كاتِبَىّ وكاتبيْه

وله فى غلام بدوىّ :

تعلَّقته بدوىّ اللّسانِ والوجه والزِّىّ ثَبْتَ الجَنَانِ[٣]
أعانق مَنْ قدّه صَعْدَةً ترى اللحظ منها مكان السِّنانِ
أدار اللثامَ على خـدِّه فأهدى الشقيقَ إلى الأقحوانِ
ومسك ذوائبه سائل على آس ديباجه الخسروانى
أحيِّيه بالورد والياسمـــين فيصبو إلى الشِّيح والأيْهُقَانِ[٤]

وله فى غلام غَزِّىّ رام :

قمرٌ من الأتراك تحسب أنه الـــخَوْد الحصان على أقبَّ حِصانِ[٥]
يرمى بِلَحْظَيْه القلوب وسهمُه فعجبت كيف تشابه السهمانِ
بطلٌ حمـائله كعارضه وحا جبُـه الأزجُّ كقوسه المِرْنانِ[٦]
حيَّيْتُهُ فدنا فأمطر راحتى قبـلا فأيت فمى مكان بنانِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١
(٤) الأيهقان : عشب يطول وله وردة حمراء وورقه عريض (٥) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٥
(٦) القوس المرنان ، سميت بذلك لرنين صوتها .

وللشريف الرضى :

ياصاحبَ القلبِ الصحيح أما اشتفِى ... ألم الهوى من قلبىَ المصْدُوع[1]
أأسأتَ بالمشتاق حين ملكتَه ... وجزيت فرطِ نزَاعه بنُزوع
وتركتنى ظمآن أرشف غُلّتِى ... أسفِى على ذاك اللَّمَى الممنوعِ
قلبى وطرفى منك هـذا فى حَمى ... قيظٍ وهـذا فى رياض ربيعِ
كم ليلة جرّعتـه فى طولهـــا ... مَضَض الملام ومؤلم التقريعِ
تفلِى أناملـه الــتراب تعلُّلاً ... وأناملى فى سنّىَ القُرْوعِ
أبـكى ويبسم والدّجَى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودمُوعى
قمرٌ إذا استعجلته[2] بعتابه ... لبس الغروب فلم يعد لطلوعِ
لو حيث يُستمع السِّرار وقفتما ... لعجبتما من عِزِّه وخُضُوعى
أعززعلىّ إذا امتلأتُ من الكرى ... أنّى أبيتُ بليلةِ الملسوع

وللوزير ابن المغربى :

دَنِفٌ بمصر وبالعراق طبيبُه ... يُضنيه طولُ بعـاده ويذيبُه
مانالهُ إلا الذى هو أهلُه ... إذ غاب عن بلد وفيه حبيبُه
لزم السّهادَ تحيّرا وتَلدُّدًا ... وتأسفاً إذ أوبقته ذنوبه
زعم الفراق دعا به فأجَابهُ ... ونعم دعاه فـــلا أراه يجيبُه

وله أيضاً :

ولقد أراه فى الغديـــر يشقّه من جانبيْه
والماء مثل السيف وهــــو فرنده فى صفحتيْه
صبغت بياض النيل حمـــرةُ وردةٍ فى وجْنتيْه

---

(١) ديوانه ١ : ٤٩٧

(٢) الديوان : « استخجلته » .

ولابن الزقاق :

تمنيتُ مَنْ أهوى به وهو قاتلِي ... وربّ مُنًى للمرء فيها مناياه(١)

قسا فرمانِى عن قسيّ حواجبٍ ... تنوبُ لها دأبا عن الرشق عيناهُ

أذلنا دماء فى هواه وأدمعاً ... وضنّ لنـــا ظلما بظَلْم ثناياهُ

فما برِحَ الشّوق المبرِّحُ ساميا ... لأحْوَى حَوَى كلَّ المحاسنِ مرآهُ

فمنظرُه والثّغر منه وعَرْفُهُ ... وقامته والرِّدْف منه وخدّاه

لشمْسِ الضحى والدّرّ والمِسْك نفحةً ... وغُصْنِ النقا والدّعص والورد أشباهُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

ومهفهفٍ نبت الشّقيق بخدِّهِ ... واهتزّ أملودُ النّقَا فِى بُرْدِهِ(٢)

ماء الشبيبة والجمال أرقّ مِنْ ... صَقْلِ الُحسَام المنتضَى وفرِنْدِه

يُحْيِي الأنام بلمحةٍ من وصْلِه ... من بعد ماوردوا الحمام بصدّه

إن كنتَ أهديتَ الفؤاد له فقلْ ... أىّ الجوى لجوانحى لم يُهْدِهِ

وقال أيضاً :

أرقّ نسيمَ الصَّبا عَرْفُهُ ... وراقَ قضيبَ النقا عِطْفُهُ(٣)

ومرّ بنا يتهادى وقد ... نضا سيفَ أجفانِه طَرْفُهُ

ومدّ لمبسمه راحةً ... فخلت الأقاح دنا قَطْفُهُ

أشار لتقبيلها فى السَّلاَم ... فقالَ فمى ليتنى كَفُّهُ

ولإدريس بن اليمانى :

وذى لَعَسٍ للأُقحوان ثناياهُ ... وللورد خدّاه وللآس صُدْغاهُ(٤)

وللسَّوسن الريّان صفحة خدّه ... وللظَّبى عَيْناهُ وللمِسْكِ ريّاهُ

(١) ديوانه ٢٨٣

(٢) ديوانه ٢٩٢

(٣) ديوانه ٢٠٢

(٤) اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

فريد جمالٍ تمّ لى توءم الهوى ... به ولكلّ العاشقينَ فِداهُ

ولبعض أصحابنا :

كُفّ عنى الملامَ يامَنْ يلومُ ... إنّ لوم الشجى فى الحبّ لُومُ
جلّ همى بأن أهيم حياتِ ... صغرت همّة امرئ لا يهيمُ
أبدا أطلبُ الغرام مجدًّا ... فكأنّى إلى الغرامِ غريمُ
إن ربمـا رمت برامة قلْبِى ... مُقْلتَاهُ حبّ لَهُ لا يريمُ
صحّ حبّى واعتلّ جسمى فحسبى ... أنّ كلّى إلى هواهُ سقيمُ

وكلّ ما تضمنت هذه الجملة مع قطعة الحريرى من التذلّل والخضوع إلى المحبوب،فهو حكم الباب، والمجمَع عليه عند ذوى الألباب ، إلا قوله : « وغيرى يجتنى رشف ثغره » ، فإن أكثر أهل هذا الشأن يأبوْن أن يكون المحبوب بين عاشقين،وينسبون محبّة إلى خساسة الهمة ، ويعتدونها على المحبوب من أكبر التهمة، قال امرؤ القيس :

إنى بحبْلِك واصلٌ حَبْلِى ... وبريش نَبْلِكِ رائشٌ نَبْلِى (١)
مالم أجدْك على هـدى أثرٍ ... يقرو مقصّك قائف قبلى (٢)

يقول : أنا أديم من مُواصلتك مالم أجِدْ غيرى يتبعك طمعاً فى مواصلتك .

وقال أبو ذؤيب :

تريدين كيما تجمعينى وخالداً ... وهل يُجمَع السّيْفان ويحك فى غمدِ (٣)

فهذا قد أبَى الشركة على التساوى ، فكيف الإقامة على الجور الذى

---

(١) ديوانه ٢٣٩
(٢) يقرو: يتبع ، والقائف : الذى يقفو الأثر.
(٣) ديوان الهذليين ١ : ١٥٩

ذكر الحريرى . وقد قدّمنا فى العاشرة للمولدين فنًّا غير هذا ،على أن المحبوبَ إذا كان حسنَ الخلُق حسن القبول زاد فى أبّهة جماله ، كما أنّ الجفاء فى المحبوب والخلق الذّميم يطمس نور حسنه وينقص من كماله ، وأنشدوا :

أيا حَسَناً أزرت قبائحُ فعلِه　　عليه كما أزْرَى الكسوفُ على البدرِ

وقال عبد الصمد المصرى :

فلو زُيّن الحسنُ من وجهه　　بهجر الصّدود ووصل الوصالِ
لتمّ ولكنّ ما إن أرى　　جميل المحيا جميل الفعالِ

وقال آخر :

صَحَا عن حبّك القلب المشوقُ　　فما يصبو إليكِ ولا يتوقُ
جفاؤك كان عنك لنا عزاءً　　وقد يُسْلِي عن الولد العقوقُ

فهذه جملة كافة .

[أنواع البلاغة فى صناعة الشعر]

ونرجع إلى ذكر أنواع البلاغة فى صناعة الشعر التى سمّاها المحدثون صنعة البديع ، والشعراء يتفاضلون فى سياقها والاقتدار عليها ، وهى فى أشعار العرب موجودة ، وفى الشعر المولّد أكثر . وأنا آتى منها بما للناظر فيه كفاية بعون الله سبحانه وتعالى ، ونبدأ منها بالتجنيس الذى أولع به الحاكم فى المقامة .

التجنيس

هو اتفاق اللفظ أو أكثره واختلاف الحكم ، قال أبو بكر حازم بن حازم: التجنيس أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر أو كلام،وهو من أضيق أنواع البديع ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾[١] ، ﴿وأقِمْ وجهك للدين القيّم ﴾[٢] .

---

(١) سورة النحل ٤٤　　(٢) الروم ٤٣

وفى الحديث «عُصَيّة عصت الله ورسوله، وغِفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله، والظلم ظلمات يوم القيامة» .

وقال خالد بن صفوان لرجل من بنى عبد الدار : هشمتك هاشم ، وأمّتك أمية ، وخَزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبوابَ إذا أقبلت ، وتغلقها إذا أدبرت .

والتجنيس أنواع ، فمنه تجنيس اللفظ وهو ماتقدّم ، ومنه تجنيس الخطّ وهو مايصح تصحيفه ، كقوله تعالى : ﴿ وهمْ يَحسبون أنَّهُمْ يحسنون صنعاً ﴾[١] .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص : لمّا أسلمت راغمتنى أمى ، فهى مرة تلقانى بالبِشْر ، ومرة تلقانى بالبُسْر .

البحترى : من سعادة جدّك ، وقوفك عند حدّك .

وفى رسالة: عاد إلى المسامحة والمحاسنة ، بعدالمشامخة والمخاشنة . وقال البحترىّ :

ولم يكنِ المغترّ بالله إذ سرَى ... لِيُعْجز والمعـتزّ بالله طـالبـه[٢]

وقال البحترىّ أيضا :

وحالاً كريش النَّسر مهما رأيته ... جناحاً لشهمٍ عاد ريشاً على سهمٍ[٣]

ومنه تجنيس السمع كقوله تعالى ﴿ وُجوهٌ يومئذ نَاضرة * إلى رَبِّها ناظرة ﴾[٤]

ومن رسالة : لم يكن لأمره مضيعاً ، ولا لسرّه مذيعا .

البستى: مَنْ لم يكن لك نسيباً، فلاترجُ منه نصيباً . ومَنْ لم يكن لك صدره بالحاجات فسيحاً ، فلا تسمع له بها لسانا فصيحا . وقال :

أبوك كـريم غير أنك سابقٌ ... مداه فلا ضيْمٌ عليك ولا ذمٌّ[٥]

---

(١) سورة الكهف ١٠٤ (٢) ديوانه ٢١٥
(٣) ديوانه ٢٦٥٩ ، نقلا عن الشريشى (٤) سورة القيامة ٢٢
(٥) ديوانه ٢٨٧

فلا يَعجبنّ الناس مما أقوله وأقضى به فالغيث يقدمه الغَيْمُ

وقال المعرّى رحمه الله تعالى :

أعوذُ بالله من قومٍ إذا سمعوا خيرًا أسرّوه أو شرًا أذاعوه (١)

وخالد بن سنان ليس ينقصُه من قدره الكون فى حىّ أضاعوه

ومنه تجنيس المضارعة ، فمنه من رسالة : أنابهِ بين احتفاء واحتفال ، وبين ذكر مطرٍ مطرب . وثناء مغرٍ مغرب .

وقال أبو تمام :

يمدّون من أيد عواصٍ عواصِمٍ تطول بأسياف قواضٍ قواضبِ (٢)

وقال المعرّى : من اتقى الله فهو السالم السارى .

وقال ابن عمار :

إذا ركبوا فانظره أوّل طاعنٍ وإن نزلوا فانظره آخرَ طاعم

وباب التجنيس فاق الناسَ فيه حبيب ، والنّاس له تبع ، كما انفرد بحسن القطع فى آخر قصائده ، فلا يكاد الشاعر الماهر يَزيد بيتا فى آخر قصائده فى الغالب . كما انفرد الحسَن بحسن الابتداء فله ابتداءات لا يجارى فيها ، كما انفرد ابن المعتز بجودة التشبيه يكاد على كثرته فى شعره ألا يسقط له تشبيه واحد ، كما انفرد المتنبى بلطف التخلص من التغزّل إلى المدح . ومن تجنيس حبيب قوله :

عداك حرّ الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحَصِبِ (٣)

السلسال العذب والحصب: الجارى على الحصباء؛ شبه الريق به ، ففى هذا

---

(١) لزوم مالا يلزم ٢ : ٣٩٨ ، ٣٩٩ (٢) ديوانه ٤٢ (٣) ديوانه ١٠

البيت من صنع البديع التجنيس والطباق والتتميم والترديد والتبليغ، وتأتى هذه الأنواع فى هذا الفصل ، وحبيب أكثر الناس استعمالا لصنع البديع،ومن شعره يتململ . وقال أيضا :

كم نيل تحت سناها من سَنَا قمرٍ وتحت عارضها من عَارِض شنبِ[١]

وقال أيضا :

يامن تدمّى عينه تلك الدمى فيـه ويقمر ليـــلة الإقمـار

أخذه البحترى فقال :

جافى المضاجع لا ينفكُّ فى لجبٍ يـكاد يُقْمِرُ من لألائه القمرُ[٢]

وأنشد أبو على الفارسى فى نوادره لأبى الغول الطهوى يصف سحابا :[٣]

وقرى كلّ قرية كان يقرو ها قرى لا يجفّ منـه القِرَىّ

وفى المقامات من التجنيس كثير، وفى هذا الشرح منه ما يُستظرف ويستبدع ، فمما يستحسن منه قول السرىّ يمدح سيف الدولة :

أغرّتُك الشّهـاب أم النهارُ وراحتُك السحاب أم البحارُ[٤]

خلقت منيّة ومُنًى فأضحَتْ تمـور بك البسيطة أو تمارُ

تحـلِّى الدينَ أو تحمى حماه فأنت عليه سُور أو سوارُ

سيوفك من شكاة الثغر برءٌ ولـكن للعِـدى فيهـا بوارُ

وكفّاك الغمام الجود يسرِى وفى أحشـائه ماء ونارُ

---

(١) ديوانه ١١ (٢) ديوانه ٩٥٨

(٣) مع آخر فى الصناعتين ٣٣٥ (الأولى — حلبى) منسوبان لأبي غمر (٤) ديوانه ١٠٥

فيمنَى من سجيتها المنايا ويُسْرَى منَ عِطّيتها اليسار

ومن الشعر الذى جمع إلى التجنيس حسن التقسيم والطباق جواب الصابى أبا أحمد الشيرازى ، من شعر يشتكى له نقرساً أصابه وأوله :

إلى الله أشكو ضَنًى شفَّنى وكم قبله من ضَنًى قد شفانى

فأجابه الصابى :

عَنانى من الهم ما قَدْ عنانى فأعطيتُ صَرْف الليالى عِنانى[1]
أَلِفْتُ الدموع وعفت الهجوعَ فعيناى عينــان نَضَّاختانِ
لسقم أَلَحّ على سيِّدٍ به قـد غفرتُ ذنوبَ الزَّمانِ
وكيف سطا بهما واستطا لَ وأرض بساطهما النّيران
وهــلاَّ تجاوزه قاصــدًا إلى عصبة عُصِبَتْ بالهوانِ
إذا ماسعى لطـلاب العـلا فكلّ أوانٍ همّ فى توان
أتتنى بالأمس أبيــــاته تعلّل روحى برَوْح الجنانِ
كبُرْد الشباب وبَرْد الشرا بِ وظَلّ الأمان ونَيْل الأمانى
وعهد الصِّبا ونسيم الصّبا وصَفو الزمان ورجع القيانِ
أجبت عن الشِّعر مسترسلاً بطبع شجاع وقَلْبٍ جَبَانِ
ولولا سكونى إلى فضله قبضت بنانى بقبض اللِّسانِ

وقال أبو الفتح البستى :

إنّ أسيافنا العضاب الدوامِى صيَّرت ملكنا قرينَ الدَّوامِ[2]
باقتسام الأموال من وقت سامٍ واقتحام الأموال من وقت حام

---

(١) اليتيمة ٢ : ٣٠٣، ونسبها إلى الصاحب

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٣٨ منسوبة إلى الحسن بن المؤمل .

التشبيه

وقد أوردنا فى هذا الكتاب منه كل غريب . والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به لوناً ، ومنها تشبيهه به صوتاً ، ومنها تشبيهه به حركة وسرعة ، فالأوّل كقوله :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً   لدَى وكْرِها العُنّابُ والحشَفُ البالِى[١]

أجمع أهل العلم بالشعر كأبى عمرو بن العلاء والأصمعى ، أن أحسن التشبيه مايقابل به تشبيهان فى بيت واحد ، وأن أحداً لم يقل ذلك كبيت امرىء القيس ، كأن قلوب الطير . وقال بشار: مازلت مذ سمعت قوله : كأن قلوب الطير أراود نفسى أن أشبه شيئين بشيئين ولا أستطيع ذلك إلى أن قلت :

كأنّ مَثار النَّقْع فوق رءوسنا   وأسيافَنا ليل تهاوى كواكِبهْ[٢]

ويا بعد ما بين البيتين على أن بيت بشَار غريب ، ولا أحفظ للبيتين ثالثاً ، إلا أن بشاراً قد قال أيضاً :

من كل مشتهر فى كف مشتهر   كأن غرّته والسيف نجمان

وأما تشبيه المعنى فكتشبيه الشجاع بالأسد والجميل بالقمر ، وكقوله :

وكالسيف إن لاينتَه لان متنه   وحدّاه إن خاشنتَه خَشِنان[٣]

واللون كقول ابن هرمة :

وليلٍ كسربال الغراب ادّرعتُه   إليك كما أخَتَّ اليمانىّ أجدل[٤]

---

(١) ديوانه ٣٨

(٢) ديوانه (المختار) ١

(٣) العكبرى ٣ : ٢٠١ ونسبه لأبى الشبص .

(٤) كذا فى ديوانه ١٦٦ ، وفى الأصول : «كما أخت اليمانى» .

والصوت كقول النابغة :

* له صَرِيف صريف القعو بالمسَدِ *[١]

والحركة والسرعة ، كقول امرئ القيس :

* كجُلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ[٢] *

وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، فإذا اتفق فى الشئ المشبه معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قوىَ التشبيه ، وتأكد الصدق فيه ، وأصدق التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مشبهاً به صورة ومعنى ، كقول امرئ القيس :

نَظَرتُ إليها والنجومُ كأنّها مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[٣]

فتشبيهُ النجوم بالمصابيح لفرط ضيائها صحيح ، وتشبيه المصابيح بالنجوم صحيح ، وربما أشبه الشئ صورة ، وخالفه معنى . وقد تقدّم ذكر ذلك فى الثانية ، وربما قاربه وداناه وشابهه مجازاً لا حقيقة .

وأدوات التشبيه كأنّ والكاف ومِثْل ، وتسقط الكاف مع المصدر فيشبّه بالمصدر ، وقد يشبّه بقولهم : تخاله وتحسبه ، فما كان منه صادقاً قيل فيه « كأنه » أو كذا ، وما قارب الصدق قيل فيه : تراه أو تخاله ؛ فإذا حققتَ

---

(١) ديوانه ١٨ ، وصدره :

* ومقذوفةٍ بدخيس النّحضِ بازلها *

المقذوفة : المرمية. والدخيس: اللحم. والنحض: اللحم المكتنز، والبازل: المسن من الأبل . والصريف : الصياح من النشاط والقعو : مايضم البكرة . والمسد : الحبل .

(٢) ديوانه ١٩ وصدره :

* مِكَرٍ مِفَرٍ مُقبِل مُدبِرٍ مَعاً *

(٣) ديوانه ٣١ .

هذا الفصل انكشفت لك أسرار التشبيه ، وقد تقدّم نوع من التشبيه فى الثانية ، وسيأتى فى الأربعين تشبيهات الغريب العقم فى حكاية الأصمعى .

الاستعارة

هى من العارية لأنّ الشاعر يُعير المعنى ألفاظاً غير لفظه الموضوع له ، وهى على ثلاثة أوجه : أحدهما يستعيره الشاعر من الألفاظ على سبيل التمثيل وتتميم المعانى ، وهذا الضرب يعدّ فى البديع ومحاسن الشعر ، وهو كثير فى كلامهم ، وعليه انبنى كتاب المقامات ، وقلّما يوجد بيت يخلو منه ، وما جاء منه فى القرآن سماه بعضهم مجازاً وأباه بعضهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جَنَاح الذّلّ من الرَّحْمةِ ﴾[١] ، ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأس شَيَباً ﴾[٢] وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء» .

وقال امرؤ القيس :

* وليلٍ كَموْج البحرِ أرخى سُدُولَه *[٣]

وقال علقمة وهو بديع :

* والصبح بالكوكب الدرىّ منحور[٤] *

وقال زهير فى الحرب :

* ضَروس تُهِرّ الناس أنيابُها عُصْلُ[٥] *

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٤ (٢) سورة مريم

(٣) ديوانه ١٨ وعجزه :

* على بأنواع الهموم لِيَبْتَلِى

(٤) ديوانه ١٣٧ ، وصدره :

أووردتُها وصدورُ العِيسِ مُسْنَفَةٌ

(٥) ديوانه ١٠٣ وصدره :

إذا لَقِحَتْ حربٌ عوان مُضِرّةٌ

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالةً　　فمجدك حولى ولومك قارحُ[١]

وقال الحسن :

فى مجاسٍ ضحك السُّرور به　　عن ناجِذيه وحَلّتِ الخمرُ

وقال العباس بن الأحنف :

قد سحبَ الناس أذيال الحديث بنا　　وفرّق الناس فينا قولَهم فرقا[٢]

فكاذب قد رمى بالظنّ غيرَكمُ　　وصادق ليس يدْرِى أنه صدقا

الثانى: أن ينتحل الشاعر قولا لغيره فيدخله فى شعره ، وهذا هو الاجتلاب الذى نفاه جرير عن نفسه بقوله :

ألم تعلم مسرَّحِىَ القوافى　　فلا عِيًّا بهنّ ولا اجتلابا[٣]

الثالث : أنه يستعير الشاعر ألفاظًا كان غنياً عنها ، والمعنى غير مفتقر إليها، ويسمى الحشو والاستعانة ، ويحسن بقدر ما يتحمل من الفوائد ويقبح إذا فرغ منها .

الإشارة

قال قدامة : الإشارة هى اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة باللمحة الدالة ، ولم يأت أحد منها بمثل قول زهير :

(١) الصناعتين ٢٩٣ . والحولى : ماأتى عليه الحولّ . والقارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من البعير ، ولايبزل إلا إذا طعن فى التاسعة .

(٢) ديوانه ١٦٩

(٣) ديوانه ٦٢

وإني لو لقيتك فاجتمعْنَا لكَانَ لكلِّ منكَرة كِفاء[1]

وقال امرؤ القيس :

على هَيْكل يعطيكَ قبل سؤاله أفانين جَرْيٍ غيرَ كزٍّ ولا وانِ[2]

فتأمل مااشتملت عليه لفظة «أفانين» مما لوعُدَّ كان كثيراً ، وما اقترن به من جميع أصناف الجودة طوعاً من غير طلب ولا مسألة ، ثم نفى عنه الكزازة والونى، وهما أكبر عيوب الخيل .

والإشارة من غرائب الشعر ومُلَحه ولا يأتى بها إلا شاعر مبرز ، وتسمَّى اللمحة الدالة ، وأصلها الاختصار ، وهى أنواع، فمنها الوحى، كقول جاهلى فى يزيد ابن الصَّعق :

تركت الركاب لأربابها وألزمت نفسى على ابن الصعق[3]

جعلت يدىّ وشاحاً له وبعض الفوارس لاتُعتنق

فقوله :«جعلت يدى وشاحاً له» إشارة بديعية دالة على الاعتناق بغير لفظة .

الإيماء

ومنها الإيماء ، فمن ملحه قول قيس بن ذريح :

أقول إذا نفسى من الوجد أصْعدَتْ لها زَفْرَةٌ تعتادنى هِيَ ماهيا[4]

وقول كثير :

تجافيتِ عنّى حين لا لى حيلةٌ وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح[5]

فقوله : « غادرت ماغادرت » إيماء مليح .

(١) ديوانه ٨١ (٢) ديوانه ٩١

(٣) الصناعتين ٣٦٧ من غير نسبة (٤) ديوانه ١٦٠

(٥) ديوانه ٥٢٥ .

التلويح

ومنها : التلويح ، ومن أجوده قول النابغة فى طول الليل :

تطاولَ حتّى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذى يَرْعى النُّجومَ بآيبِ[١]

فالذى يرعى النجوم هنا الصبح ، أقامه مقام الراعى ، يغدو فتذهب الإبل والماشية ، فتلويحه هذا عجب فى الجودة ، ومنه قول المجنون :

لقد كنت أعلُو حبّ ليلى فلم يَزَلْ بىَ النقض والإبرامُ حتّى علانيا[٢]

فلوّح بالصحة والكتمان ، ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً .

التعريض

ومنها التعريض ، كقول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنْطَقَتْنِي رماحهمْ نطقت ولكنّ الرماح أجرّتِ[٣]

أى لو أن قومى صدقوا فى القتال وطعنوا برماحهم أعداءهم لنطقتُ بمدحهم، ولكنهم صرفوها عن أعدائهم منهزمين ، فكأنها أجرّت لسانى ، أى شقته كما يُجَرّ لسان الفصيل ،فكأنها أسكتتنى . فهذا تعريض ينوب عن التصريح، وأخذه أبو بكر بن دريد فقال :

يا بنى مالك عقلتمْ لسانى كيف يجرى المقيّد المعقولُ[٤]
إن سلكتمْ إلى الفَعال سبيلاً وضحتْ لى إلى المقال سبيلُ

---

(١) ديوانه ٢
(٢) ديوانه ٢٩٤
(٣) الأصمعيات ١٢٢
(٤) ديوانه ١٠٢

ومن التعريض قوله :

بنى عمّنا لاتذكروا الشّعر بعدما دفنتم بصحراء الغميـــر القوافيا[١]

ومنه قول حميد بن ثور ، وقد تقدّم :

أَرَى بصرِى قدخانني بعدصحّةٍ وحسبُكَ داء أنْ تصِحّ وتسْلَما[٢]

التفخيم

ومنها: التفخيم ، كقول الغنَوى :

أخى ما أخى لا فاحشٌ عند بيته ولا وَرَعٌ عنـد اللّقـاء هَيُوب[٣]

ونحو هذا حكاية الأعرابى فى نوادر أبى علىّ حين سئل : أله بنون ؟ فقال: نعم ، وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجبة ؛ فلمّا ذكر أسماءهم قال : جهم وماجَهْم ، غَشَمْشم وما غَشَمْشم ، عشرب وما عشرب[٤] .

ومن هذا التفخيم ما يجىء على التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : ﴿ الحاقّة ما الحاقّة ﴾ و ﴿ القارعة ما القَارِعة ﴾ وهو كثير فى كلام العرب .

ومما جاء فى الإشارة على معنى التشبيه قول الأعرابى يصف لبناً ممذوقاً :

* جاؤا بمَـذْقٍ هَلْ رأيتَ الذئب قط[٥] *

فأشار إلى تشبيه لونه إذا غلب عليه المذق بلون الذئب كما صرح به الآخر حين قال :

فيشربُهُ مذقاً ويسقى عيالَهُ سجاباً كأقراب الثعالب أَوْرَقَا[٦]

---

(١) من أبيات فى البيان والتبيين ٢ : ١٨٦ ، ونسبها لسويد المراثد الحارثى . (٢) ديوانه ٧

(٣) هو كعب بن سعد الغنوى من قصيدة له فى الأصمعيات ٩٥ والورع : الجبان

(٤) العشرب : الأسد الشديد

(٥) الخزانة ١ : ١٧٦ ، وقبله

* حتّى إذا كادَ الظّلَام يختلِطْ *

(٦) اللسان — مذق من غير نسبة . والمذق : اللبن المخلوط بالماء .

المطابقة

أبو الفرج علىّ بن الحسين ، قلت لأبى الحسن علىّ بن سليمان الأخفش - وكان أعلم مَنْ شاهدته بالشعر : طائفة وهم الأكثرون تزعم أن الطّباق ذكر الشىء وضدّه ، فيجمعهما اللفظ لا المعنى ، وطائفة تقول : هو اشتراك المعنيين فى لفظ واحد ، مثل قول زياد الأعجم :

وَنُبِّئتهم يَسْتَنْصِرُون بكاهلٍ ولِلؤم فيهم كاهِـــلٌ وَسنامُ(١)

فكاهل قبيلة وكاهل للعضو ، فقال : من ذا الذّى يقول هذا ؟ قلت : قدامة وغيره ، فقال : هذا يا بنّى هو التجنيس ، ومن ادعى أنه طباق فقد ادعى خلافاً على الخليل والأصمعىّ ، فلت : أفكانا يعرفان هذا ! فقال : سبحان الله ، وهل غيرُهما فى علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه ! قلت : فأنشدنى أحسن طباق للعرب ، فقال : قول عبد الله الزّبير الأسدىّ :

فردّ شعورهن السّودَ بيضا وردّ وجوههنّ البيض سودا(٢)

وقال أبو الفرج : وأنا أقول أن أحسن بيت قيل فيه :

للسّود فى السود آثارتركنَ بها لمعاً من البيض يثنى أعين البيضِ

يعنى أن اللّيالى بمُرورهنّ تبيّض سواد الشعر .

قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن صنعة الشعر ، فذكر فى بعض قوله المطابقة، وقال : أصلها وَضْع الرجل فى موضع اليد، فقلت : أنشدنى أحسن ماقالت العرب فى ذلك فقال : قول زهير :

لَيْثٌ بِعثَّر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صَدَقَا(٣)

---

(١) الصناعتين ٣١٦ (٢) الصناعتين ٣٢١

(٤) ديوانه ٥٤

وقيل : المطابقة أن يأتى الشاعر بلفظتين مختلفتين فى المعنى واللفظ فى بيت واحد أو فى كلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولَكُمْ فى القِصَاصِ حياة ﴾[١] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع» .

وقال علىّ رضى الله عنه : من رضى عن نفسه كثر مَنْ يتسخّط عليه .

وقال : أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه .

وقال الحسن : كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعروف الحق .

وقال الفرزدق :

لعن الإله بنى كليبٍ إنَّهُمْ ... لا يغدرون ولا يفُون لجار[٢]

يستيقظون إلى نهيق حميرِهمْ ... وتنام أعينُهُمْ عن الأوتارِ

وقال حبيب :

يرى العلقم المأدومَ بالعزّ أَريةً ... يمانية والأرىُ بالضَّيْمِ علقما[٣]

التقسيم

ومنها التقسيم . قال أبو الحسن علىّ بن هارون بن على بن حماد بن إسحاق الموصلى : هو أن يستقصىَ الشاعر تفصيل ما ابتدأ به فيستوفيَه ، فلا يغادر قسما يقتضيه إلا أورده، وإلى هذا كان يذهب أهلنا ، وأحسن ماقيل فى ذلك قول زهير :

يَطعنهم ما ارتموْا حتى إذا طَّعنوا ... ضارب حتى إذا ماضاربوا اعْتَنَقَا[٤]

وقول عنترة :

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .

(٢) الصناعتين ٣٢٢ ، نهاية الأرب ٧ : ١٠١

(٣) ديوانه ٢٩٤

(٤) ديوانه ٥٤

إن يلحقوا أكْرُرْ وإن يستلحموا ... أشدد وإن يُرْمَوْا بضَنْكٍ أنزلِ [١]

أبو العيناء : أجمع علماء الشعر أن أحسن تقسيم أتى به متقدم قول عمر ابن أبى ربيعة :

تهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْل جامعٌ ... ولاالحبلُ موصولٌ ولا أنت تصبرُ [٢]

ولا قرب نعمٍ إن دنت لك نافعٌ ... ولا بُعدهايُسْلِي ولا أنت مُقْصِرُ

المبرد : لم أسمع أحسن من تقسيم لقيس بن ذريح ، وهو :

وقد كان فيها للأمانة موضعٌ ... وللكفِّ مرتاد وللعين مَنْظَرُ [٣]

وقد تقدم فى شرح الثانية بيت المتنبى فى التقسيم وهو: بدت قمرا ... البيت . ونسج على منواله الزاهر فقال :

سَفَرْنَ بُدُورا وانتقبنَ أهِلَّةً ... ومِسْنَ غُصونا والتفتنَ جآذرا

وأطلعن فى الأجياد بالدر أنجما ... جعلن لحبّاب القلوب ضرائرا

وقال الناشى :

رأيت على أكوارنا كلَّ ماجد ... يرى كلّ مايفنى من المال مغنما

ندوّم أسيافًا ونعلو قواضبا ... وننقضّ عِقبانا ونَطْلُع أنجما

وقال السَّلامِيّ :

ماضَنّ عنك بموجود ولا بَخِلاَ ... أعزُّ ما عنده النفس التى بَذَلاَ [٤]

يحكى المطايا حنينًا والهجير جوًى ... والمزن دمعًا وأطلال الديار بِلَى

والتقسيم فى الشعر كثير .

---

(١) ديوانه ٦٥
(٢) ديوانه ٩٢
(٣) ديوانه ٨٧ ، وفية : « وللقلب »
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

التسهيم

قال عليّ بن هارون : هذا لقب نحن اخترعناه ، وصفة الشعر المسهّم أن يسبق المستمع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها راويه ، حتى لو سمع الشطر الأوّل استخرج الآخر قبل أن يسمعه ، وأحسن ما قيل فى ذلك قول جندب أخت عمرو ذى الكلب ترثى أخاها :

فأقسمتُ يا عمرُو لو نبّهاكَ ... إذًا نبها منْك دَاءً عُضَالا[1]
إذا نبهَا ليثَ عِرّيسةٍ ... مُفيتا مُفيدا نفوساً ومالاَ
وخَرْقٍ تجاوزت مجهولَةً ... بوجناء حَرْفٍ تشكّى الكلاَلا
فكنت النهار به شَمْسَهم ... وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا

قال الحاتمىّ : فانظر إلى ديباجة هذا الكلام ، ما أصفاها ، وإلى تقسيماته ماأوفاها ، وانظر إلى قوله : مفيتا مفيداً ، ووصفها إياه بالشمس بالنهار والهلال بالليل ، تجد المطيع الممتنع القريب البعيد .

التتميم

هو أن يذكر الشاعر معنى فلا يترك شيئاً يتم ويتكامل الإحسان معه فيه إلا أتى به ، وأحسن ما قيل فى ذلك قول طرفه :

فَسَقَى ديارَكِ غيرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِى[2]

فقد تم الإحسان فى المعنى الذى ذهب إليه بقوله: «غير مفسدها»، ويتلوه قول خليفة بن نافع العَنَزى :

---

(١) الصناعتين ١٤٢ ، العمدة ٢ : ٢٦ ، نهاية الأرب ٧ : ١٤٢ ، أمالى المرتضى ٢ : ٢٤٣
(٢) ديوانه ١٤٦

رجال إذا لم يقبل الحق منهمُ ويعطوه عادوا بالسُّيوف القواطعِ

فالمعنى تم بقوله « ويعطوه » ، ولولاه كان ناقصاً .

وقال حبيب :

حتّى لقد ظنّ الغواة وباطل أنى تجسّم فىّ روح السَّيِّدِ (١)

فتمّ الإحسان فى المعنى الذى أراد بقوله « وباطل » ، والسيد الحميرى له فى الشيعية مذهب ردىء ، والغواة هنا القائلون بالتناسخ . يقول : لإفراطِ حبهم فى أهل البيت ، توهّمَ الغواة أن روح السّيد تجسم فىّ ، وتوهُّمهم باطل .

الترديد

هو تعليق الشاعر لفظة فى البيت بمعنى ، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر ، وأكثر ما يستعمله المحدَثون ، وأجمعوا أن أباحيّة النميرىّ سبق إلى الإحسان جميع من تقدَّمه وتأخَّر عنه فى قوله :

أَلاَ حيّ من أجل الحبيب المغانياَ لبسن البِلَى مِمّا لبسن اللَّيَاليَاَ

إذا ما انقضى للمرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يملّ التقاضيا

ابتدأ بالمصراع الأول فأحسن الابتداء ، وردّد فى المصراع الثانى فأحسن فى الترديد ، ثم ابتدع فى البيت الثانى ما ليس لأحد مثله .

أبو تمام : لا أعلم أحدا أحسن صنعة فى الترديد من زهير فى قوله :

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً يَلْقَ السَّماحةَ منهُ والنَّدى خلقا (٢)

الحاتمى : وأحسن الخليع الباهلى فى الترديد بقوله :

لقد ملأَت عينى بحسن محاسنٍ مَلأْنَ فؤادى لوعةً وهُمُوماَ

---

(١) ديوانه ١١٤ .

(٢) ديوانه ٥٣

التجريد

وهو أن يجرّد الشاعر موصوفه من صفته ، ويسندها لأجنبي فى الظاهر ، وهو يريد الأول فى المعنى ، مثل قول الأعشى :

ياخيرَ مَنْ يركب المطىّ ولا يَشْرب كأساً بكفِّ مَن بَخِلاَ (١)

فظاهره أنه لا يشرب كأسا بكفّ رجل ينسب إلى البخل إنما يشربها بكف كريم ، وذلك الكريم هو الممدوح فى المعنى ، فجرّده فى الظاهر ، وهو يريد بكفّ بخيل من نفسه . وأبو علىّ الفارسى اختار لهذه الصنعة اسم التجريد ، ومنه قول طرفة :

جازتَ البيدَ إلى أرحُلِنا آخرَ الليل بِيَعفُورٍ حَذِرْ (٢)

يعنى بيعفور حذر ، من نفسها . وقال الأخطل :

رَبيع حياً ما يستقّل بحمله سئوم ولا مُسْتَنْكِش البحر ناضِبُهْ (٣)

أى ما يستقل بحمله سئوم من نفسه ، أى ليس بملول ، وقال النابغة .

لم يحرَمُوا حسن الغذاء وأمّهم طَفَحَتْ عليك بناتقٍ مِذْكَارِ (٤)

ومما يتعلق بنوع من التجريد قول امرئ القيس : « على لاحب لا يهتدى بمناره » . فظاهره أن المنار الذى يهتدى به إلى الطريق لا يهتدى به. وهو فى المعنى قد جرّد الطريق من المنار، وإنما أراد : ليس به منار أصلا ، فليس ثمّ اهتداء ، فنفى المسبب الذى هو الاهتداء ، وأثبت السبب الذى هو المنار فى اللفظ ، واتكل على قوة دلالة المعنى ، وأن مراده نفى سبب الهداية الذى هو المنار فتنتفى الهداية ، ومثله قول النابغة :

يحفّه جانبا نيقٍ ويُتبعُه مثلَ الزجاجة لم تُكحَلْ من الرمدِ (٥)

---

(١) ديوانه ٢٢٥ (٢) ديوانه ١٨

(٣) ديوانه ٢١٩ . مستنكش البحر، أى لا ينزع ولا يستفرغ ماؤه.

(٤) ديوانه ٣٧ (٥) ديوانه ٣٤

أى ليس بهارمد فتحتاج إلى كحل .

وقال الراجز :

* ولم يقلب أرضَها البيطارُ *

وقال الله عز وجل﴿ ولم يكن له ولىّ من الذل﴾[١] وهو كثير فى الكلام .

التتبيع

وهو أن يريد الشاعر معنًى فلا يأتى باللفظ الدال عليه ، بل بلفظ تابع له ، فإذا قال التابع أبان عن المتبوع، وأبدَعُ ما فى ذلك قول عمر بن أبى ربيعة :

بَعِيدَة مهوَى القُرْطِ إمَّا لنوفل أبوها وإمَّا عبدُ شمسٍ وهاشم

ذهب إلى طول العنق ،فلم يذكره بلفظ خاص به أتى بمعنى دلّ به على طوله، وهو قوله : « بعيدة مهوى القرط » . ومثله قول الآخر :

نعلّق فى مثل السَّوارى سُيُوفنا وما بينهاوالكفّ مهوًى نَفَانِف

فأراد نعلّق سيوفنا فى أعناق مثل السوارى فى الطول والاعتدال ، ومابين العنق والكفّ طول كثير، فكنى عن طول القامة بغير لفظه الخاص به ، وأبدع ما فى التتبيع قول امرىء القيس:

* نئوم الضحى لم تنتطق عن تَفَضّل *

فدلّ على ترفهها ، وأن لها مَنْ يكفيها المؤنة باللفظ التابع لذلك .

التبليغ

وسمّاه قوم الإيغال ، وهو أن يأتِىَ الشاعر بالمعنى فى البيت تاما قبل انتهائه إلى القافية ،ثم يبلغ القافية بزيادة مفيدة تزيد معنَى البيتِ براعة .

---

(١) سورة الإسراء ١١١ .

قيل للأصمعيّ رحمه الله تعالى : مَنْ أشعرُ الناس ؟ قال : منْ يأتى إلى اللفظ الخسيس فيجعله بلفظ حسنا أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، مثل قول ذى الرُّمة :

أظن الذى يُجْدِى عليك سؤالها دموعًا كتبديد الجمان المفصّلِ (١)

فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال : المفصّل فزاد شيئاً .

ومن التبايغ قول امرئ القيس :

كأنّ عيونَ الوحشِ حَوْلَ خِبائنا وأرُحِلنا الجزْع الذّى لمْ يُثقّبِ (٢)

فقد أتى على التشبيه قبل القافية ، وزاد بقوله : « الذى لم يثقّب » بلوغاً إلى الغاية القصوى فى الجودة، وكذلك قوله :

إذا ما جرَى شأوَيْنِ وابتلّ عِطفُه تقول هزيز الريح مرّت بأثأبِ (٣)

فمرّت بأثأب زيادة على التشبيه التام ، والأثأب شجر يكون للريح فى أغصانه حفيف شديد ، فأفادت الزيادة فى التشبيه معنى بديعاً . وقال زهير :

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ فى كل منزل نَزَلْنَ به حَبّ الفنا لم يُحَطَّمِ (٤)

وسمى أصحاب البديع هذه الزيادة فى آخر البيت الإيغال والتبليغ ، وفى حشوه المبالغة والتتميم .

التصدير

هو أن يبدأ الشاعر بكلمة فى البيت ثم يعيدها فى عجُزه ، أو فى النصف منه ، ثم يردّدها فى النصف الآخر عنه، فإذا نظم الشعر على هذه الصنعة أمكن استخراج

---

(١) ديوانه ٥٠١ وفيه : « كتبذير »
(٢) ديوانه ٧٣ . والجزع : الخرز
(٣) ديوانه ٤٩
(٤) ديوانه ١٢ . والقنا :شجر ثمره حب أحمر وفيه نقطة سوداء . والعهن : الصوف .

قوافيه قبل أن يطرق أسماع مستمعيه ، وأحسن ما فيه قول عامر بن الطفيل :

وكُنْتَ سَناما فى فزارة تامكا وفى كلّ قوم ذروة وسنام(١)

التامك : الشديد ، وقال الآخر(٢) :

سريع إلى ابن العمّ يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع

وقال آخر :

جَهول إذا أزرى التحلّم بالفتى حليمٌ إذا لم يزر بالحسب الجهلُ

والتصدير والترديد المتقدم يسميه كثير من البلغاء ردّ الإعجاز إلى الصدر .

الاستثناء

قيل إن أول من بدأ به النابغة ، وأحسن كل الإحسان فى قوله :

ولا عَيْبَ فيهم غير أنّ سيوفهمْ بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ

وهذا كقول الجعدى :

فتًى كَمُلت أخلاقُه غير أنه جواد فما يُبْقى من المال باقِيَا(٤)

فتًى تمّ فيه ما يسرّ صديقَه علَى أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

ويستحسن قول أبى هفان :

فإن تسألى عنّا فنحنُ حلى العلا بنى دارمٍ والأرْض ذات المناكبِ(٥)

ولا عيب فينا غير أنّ سَماحَنا أضرّ بنا والبأس فى كل جانب

فأفنى الردى أعمارنا غير ظالمٍ وأفنى النّدى أموالنا غير غائب

ويسمى هذا تأكيد المدْح بما يشبه الذم .

---

(١) ديوانه ١٢٦ .

(٢) هو المغيرة بن عبد الله المعروف بالأقيشر والبيت فى تحرير التحبير ١١٦

(٣) ديوانه ٦

(٤) ديوانه ١٧٣

الالتفات

إسحاق الموصلي قال : قال لى الأصمعى رحمه الله تعالى:أتعرف التفات جرير ؟ قلت: لا ، فأنشدنى :

أتنسى إذ تودّعنى سُلَيمى　　ببطن بشامةٍ سُقِىَ الْبَشَامُ[1]

ألاتراه مقبلا على شعره ، ثم التفت إلى البَشَام فدعا له !

الاعتراض

ويسمى الالتفات ، وهو أن يكون الشاعر آخذاً فى معنى ، فيعدل عنه آخذاً فى غيره قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة فى الأوّل وزيادة فى حسنه .

قال ابن المعتز : الالتفات انصرافُ المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ، وعن المخاطبة إلى الإخبار ، ومن أحسن مافى قول ذلك قولُ النابغة :

ألا زعمتْ بنو عبس بأنى　　ـ ألا كذبت ـ كبير السنّ فانِ

وقبل : بل قول كثير :

لَوَنّ ا الباخلين وأنتِ منهم　　رأوْكَ تَعلّموا منكِ المطايا[2]

فقوله : « ألا كذبت » وقوله : « وأنت منهم » اعتراض بيّن أول الكلام وآخره ، وفيه زيادة حسنة، ويستحسن قول الآخر :

فإنى إن أفتك يفتك مِنّى　　فلا يسبق به عِلْقٌ نفيس

---

(١) ديوانه ٥١٢

(٢) ملحق ديوانه ٥٠٧ ، وفيه : « المطالا »

فقوله : « فلا تسبق به » اعتراض لطيف فى معناه وموضعه، ويسمى هذا أيضاً وما تقدم من قول طرفة الحشو المفيد .

ومنه قول الأخطل :

وأقسَم المجـد حقّاً لا يحالفهم   حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعَرُ[١]

فقوله : « حقّاً » حشو أفاد معنى حسناً ، وكذلك قول امرىء القيس :

كأنّ عُيونَ الوَحْشِ حول خِبائنا   وأرحِلنا الجزْع الذى لم يُثقَّبِ[٢]

فحول خبائنا وأرحلنا لوسقط لكان التشبيه تاما والوزن ناقصاً ، فأورده حشوا ، وفيه زيادة بارعة رائعة ، وهى الإخبار عن كثرة الصيد والتمدّح بأنه مرزوق فى صيده ، وما أحسن قول ابن المعتّز رحمه الله تعالى :

وخيل طواها السَّيْرُ حتَّى كأنهـا   أنابيب سُمْرٌ من قَنا الخطِّ ذبَّلِ[٣]
صَبَبْنا عليها ظالمينَ سياطَنـا   فطارت بها أَيدٍ خِفاف وأرجلُ

فوقع «ظالمين » أحسن موقع لأنه نفى بذلك عنها هجنة البطء ، وأخذه من قول أعرابى :

وعوْد قليل الذنب عاودتُ ضربَه   إذا هاج شوق مِن مَعاهِدِها ذكرُ
وقلت له ذلفـاء ويحك سبّبت   لك الضرب، فاصبر إن عادتك الصّبْرُ

فحسّنه ابن المعتز ما شاء . وأما الحشو القبيح ، فكقول أوس بن حجر :

وهُمْ لمقلّ المـال أولاد عَلّةٍ   وإن كان محضا فى العمومة مُخْوِلا[٤]

فذكره للمال مع قوله : «مقلّ» حشو لا فائده فيه، وكذلك قول الهذلى[٥] رحمه الله :

---

(١) ديوانه ١١٢ .   (٢) ديوانه ٥٣
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٥٩ ، ديوان المعانى ٢ : ١٠٧ .
(٤) ديوانه ٩١ .
(٥) هو أبو العيال الهذلى .

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصبُ (١)

فذكْر الرأس مع الصداع حشو لا فائدة فيه ، وأهجن منه قول الأعشى :

فرميتُ غفلَة قَلْبِه عن شأنه فأصبتُ حَبّة قلبها وطحالَهَا (٢)

فتكريره ذكر القلب لا فائدة فيه ، وهجّنه بذكر «طحالها» . ودون هذا قول ديك الجنّ :

فتنفّست فى البيت إذ مَزَجَتْ بالماء واستلّت سنَا الذهبِ (٣)

كتنفّس الريحان مازجَه ما ورد جوْر ناضر الشُّعَبِ

فذكر الماء مع المزج حشو لا فائدة فيه ،وأخذه من قول أبى نواس :

سلبوا قناع انطين عن رمقٍ حىّ الحياة مشارف الحتفِ (٤)

فتنفّست فى البيت إذ مزجَتْ كتنفّس الرّيحان فى الأنْفِ

فلم يذكر أبو نواس الماء مع المزج ، وذكره ديك الجنّ فقصّر عنه ، وزاد الحسن عليه بذكر الأنف حسْناً . وذكر ديك الجنّ ماء الورد مع الريحان ولم يذكره الحسن ، لأن ذكاء الريحان أكثر ما يكون إذا أصابه بلَل ، لكنه فى ذكره ماء الورد زيادة معنى بلا شك ، إلاّ أنه قد انضاف إليها العيوب المتقدّمة . ومع هذا فالحسن قد استوفَى المعنى فى بيت واحد ، وديك الجنّ فى بيتين ، وصاحب بيت أبدا عندهم باتفاق أشعر ، كقول امرئ القيس :

أَراهنّ لا يُحببْن مَنْ قلّ ماله ولا مَنْ رأين الشَّيب فيه وقوّسَا (٥)

فما احتوى عليه هذا البيت ، أتى به علقمة فى ثلاثة أبيات مشهورة ، وإن كان المعنى أبسطَ وأجلّ فالفضل لصاحب البيت ، والزمان واحد ، لأنّ مَنْ قال علقمة سرقه فقد أخطأ ، فأما إذا كان السابق مستوفِيَ المعنى فى بيت واحد ، ويسوقه

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٤٢ (٢) ديوانه ٢٧ .
(٣) ٢٠٩ (٤) ديوانه ٣٠٣ .
(٥) ديوانه ١٠٧

للتأخر فى أبيات فالكلام فى هذا ، كقول امرىء القيس :

إذا نحن قمنا عن شِواء مُضَهَّبِ أكُفَّنَا نَمُشُّ بأعراف الجياد [1]

أخذه عَبدة بن الطبيب فقال :

لمّا نزلنا نصبنا ظلّ أخْبية وفار باللّحم للقوم المراجيلُ [2]

وَرْدٌ وأشقر لم يُنهِئْه طَابِخُهُ ماغَيّر الغلىُ منه فهو مأكول

ثمّتَ قُمْنَا إلى جُرْدٍ مسوّمة أعرافهنّ لأيدينا مناديلُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه ، وكان يجتنب غير الأدباء : ما خير المناديل ؟ فقال قائل : منايل مصر كأنها قيْض البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن ، كأنها أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً ، أفضل المناديل ما قال أخو تميم - يعنى عبدة - وأنشد الأبيات ، وهى معجودتها قصّرت عن بيت امرئ القيس.

وكذلك قول طرفة :

نَطْرد القُرّ بحَرّ صادق وعلِيك القَيْظِ إن جاء بقُرْ [3]

وقال الأعشى :

وتَبْرد بَرْدَ رداء العَرُو س بالصّيف رَقْرَقْتَ فيه العبيرا [4]

وتسخن ليلة لا يستطيعُ نُبَاحًا بها الكلبُ إلا هريرا

الاستطراد

البحترى : أنشد أبو تمام لنفسه يهجو عثمان بن إدريس الشامى :

وسابحٍ هَطِلِ التّعداء هتّانِ على الجراء أمينٍ غيرِ خَوّانِ [5]

أظمى الفصُوصِ ولم تظمأ قوائمه فخلّ عينيك فى ظمآن ريّانِ

---

(١) ديوانه ٥٤ (٢) المفضليات ١٤١ وفيها : « رفعنا ظل أردية »

(٣) ديوانه ٧٣ والعليك : الشديد الحر (٤) ديوانه ٩٥

(٥) ديوانه ٤ : ٤٢٤ (طبع المعارف) .

فـلو تراه مُشيحاً والحصى فِلَقٌ بين السنابك من مَثْنًى وَوُحْدَانِ
أيقنت إن لم تثبَّت أن حافـرَه من صَخْرِ تدمُر أو من وَجْهِ عثمان

ثم قال : ما هذا من الشعر ! قلت: لا أدرى، فقال : هذا هو الاستطراد، فقلت: فما معنى ذلك ؟ فقال : يريك وصف الفرس ، وهو يريد هجاء عثمان ، فأخذه البحترى ، فقال فى فرس :

يهوِى كما تهوِى العُقاب وقد رأتْ صيْدًا وينقضّ انقضاض الأجْدِلِ (١)
ما إن يعاف قـذًى ولو أوردتَهُ يوما خلائق حمدويه الأحْوَلِ

وكان حمدويه عدوًّا لممدوحِه ، فاستطرد به . ويقال : إن البحترى لما عُيِّر بسرقة هذا البيت أزاله من شعره . وقال دِعْبل :

فلو أننى أصبحت فى جود مالك وعـزّته ما نال ذلك مَطْلبِى (٢)
فتى شَقِيتْ أمـوالُهُ بسماحِهِ كما شقيت قيس بأرماح تغلب

فخرج فى استطراده من مدح إلى ذم ، وهو مقلوب استطراد زهير فى قوله :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـــكنّ الجواد على عِلاَّته هَرِمُ (٣)

فخرج من ذم إلى مدح . وقال جرير :

ترى بَرَصاً بمجمع إسْكَتَيْهِ كعنفقةِ الفرزدق حين شابا (٤)

والسابق إلى هذا المعنى والناس له تبع السموءل حيث قال :

وإنّا أناس لا نرى القتل سُبّةً إذا ما رأْته عامرٌ وسَلُولُ (٥)

ومما يُستحسَن ، قول بشار :

خليليّ من كَعْبٍ أعينا أخاكما على دَهْرِه ، إنّ الـكَرِيم مُعِين (٦)
ولا تبخلا بُخْلَ ابن قَذْعَةَ إنه مخافة أن يُرجَى نداه حزين

(١) ديوانه ١٧٤٥ ، وفيه : « وينتصب انتصاب »
(٢) ديوانه ٢٦ ، ونقله عن الشريشى .
(٣) ديوانه ١٥٢ (٤) ديوانه ٦٩ ، والعنفقة : مابين الذقن وطرف الشفة السفلى .
(٥) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ١١١
(٦) ديوانه ٩٧ (مطبعة الشباب)

إذا جئته فى حاجة سدّ بابه فلا تَلْقَهُ إلاّ وأنتَ كَمِينُ

فقف على هذه الجملة من صناعة البديع ، ففيها كفاية بعون الله سبحانه وتعالى:

* * *

وأما قوله : فبرز الشيخ مجلِّياً ، وتلاه الفتى مصلِّياً ، فأصل ذلك فى الخيل .
ونذكر من ذلك جملة تليق بهذا الموضع ، وينتظم المجلّى والمصلّى فى حكاية الرشيد مع المأمون .

[حكاية فرسى الرشيد والمأمون]

وذلك أن الرشيد أجْرَى الخيلَ يوما بالرَّقة فوقف متلوّما حتى طلعت ، فإذا فى أولها فَرَسَان فى عِنان واحد ، فتأمّلهما ، فقال : فرسى والله . ثم تأمّل وقال : وفرس ابنى عبد الله ، فجاء الفَرَسَان أمام الخيل ؛ فرسُه السابق وفرس المأمون المصلِّى، فسُرّ بذلك الرشيد سروراً عظيما . قال الأصمعىّ : فقلت للفضل : يا أبا العباس ، هذا من أيامى ، فاحتل حتى توصّلنى ، فقال الفضل : ياأمير المؤمنين ، إن الأصمعىّ قدأعدّ فى أمر الفرسين شيئاً يريد به سرور أمير المؤمنين ، فقال : هات يا أصمعىّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين، كنتَ وابنك اليوم وفرساكما ، كما قالت الخنساء ـ وقد قيل لها : كيف تفضّلين أخاكِ على أبيكِ ؟ فقالت :

جارَى أباه فأقبلا وهما يتعاوران مُلاءَةَ الحُضْرِ [1]
وهُمَا كأنهما وقد برزا صَقْران قد حَطّا إلى وَكْرِ
حتى إذا جدّ الجِراء وقد ساوت هناك العُذر بالعُذْرِ
وعلا هُتاف الناس : أيّهما ؟ قال المجيب هناك : لا أدرى
بَرَقَت صحيفةُ وجه والدِهِ ومضَى على غُلَوَائه يجرى
أوْلى فأولى أن يساويَه لولا جلال السنِّ والكِبْرِ

قيل لأبى عُبيد : ليس هذا فى مجموع شعرها ، فقال : العامّة أسقط من أن يجودوا عليها بمثل هذا. فقولها: « ملاءة الحُضر » تعنى بها غُبْرة الفرسين التى أثاراها

---

(١) ديوانها ١٣٨

جملتهما كلمحفة يرتديانها ويتجاذبانها . وسيأتى مَنْ أخذ منها هذا المعنى ومَنْ سبق إليه فى الأربعين .

[مراتب الخيل فى الحلبة]

ومراتب الخيل فى الحلبة : السابق منها يسمى المجلّى [١] ثم المصلّى [٢] ثم المسلّى [٣] ، ثم التالى [٤] ثم المُرتاح [٥] ثم العاطف [٦] ثم الحظىّ [٧] ، ثم المؤمّل [٨] ، ثم اللطيم [٩] ، ثم السُّكَيت [١٠] .

قال الأصمعى وأبو عبيدة : لم نَسْمع فى سوابق الخيل اسماً لشىء منها ممّن يوثق بعلمه إلا الثانى واسمه المصلّى . قال الأصمعى ، هو من الصَّلا وهو جانب ذَنَبه . والعاشر واسمه السُّكَيْت ، وما سواهما فإنما يسمى الثالث والرابع إلَى التاسع .

وكان عند المتقى العباسى فتًى راوية للخبر والشعر يأنس به ، فقال ليلة لجلسائه : عودوا إلى ذكر الخيل ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، حدّثنى كلاب بن حمزة العقيلىّ : قال : كانت العرب ترسل خيلَها أراسيل ، عشرة عشرة ، والقصب سبعة سبعة ، فلا يدخل الحجرة من الخيل إلّا ثمانية : الأوّل السابق المجلّى لأنه جَلَى عن وجه صاحبه الكرب . والثانى المصلّى لأنه وضع جحفلته على قَطَاة المجلّى ، وهو صَلاه ، والصّلا عُجْب الذنَبِ . والثالث المسلّى ؛ لأنه كان شريكا فى السبق فسلّى عن صاحبه بعضَ همّه . والرابع التالى ، لأنه تلا المسلّى دون غيره ، والخامس المُرتاح وهو المفتعل من الراحة ، لأنّ فى الراحة خمس أصابع ، فلما كان الخامس على خامسة الأصابع سمى مرتاحاً . والسادس حَظِىّ ، لأنه نال حظا فحظِىَ به وإن قَلّ ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى السادس نصيباً وهو آخر حظوظ الحلبة ، وسمّى السابع العاطف لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشىء وإن خَسّ إذ كان قد دخل الحجرة ، الثامن المؤمّل ، على القلب والتفاؤل ، كما سُمّىَ اللّديغ سليما فسمى مؤمّلا لقربه من ذوات الحظوظ . التّاسع اللطيم ، لأنه لورام الحجرة لُطِم دونها ، لأنه أعظم جرْماً من السابع والثامن . العاشر السُّكَيْت ،

لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت خزياً وعيًّا ، وكانوا يجعلون فى عنقه حَبْلاً ، ويحملون عليه قرداً يركضه ليعيّر بذلك صاحبه .

أبو عبيدة يشدد السُّكّيت ، وسمى سكّيتاً لأنه آخر العدد الذى يقف عليه العادّ والسّكت الوقوف ، وسُمِّيتْ حَلْبة ، لأن العرب تحلب إليها خيولها أى تضمُّها .

وأنشد ابن الأنبارى أبياتا تجمعها وهى قوله :

جاء المجلّى والمصلّى بعده ثم المسلّى بعده والتّالى
والخامس المرتاح ينقص عَدْوُه والعاطف الصهّال كالرُّئبال
نسقا وقاد حظيّها فى صَهْوَةٍ ذاك المؤمّل غير ذى الأشكال
ثم اللطيم يقودها بجميعها قبل السّكَيْت العاشر الذَّيّالِ

[أشعار فى وصف الخيل]

ونذكر هنا جملة مقاطيع فى أوصاف الخيل يكمل بها الغرض المقصود ، قال امرؤ القيس :

إذا ماركبْنا قال وِلْدان أهلِنا تعالوا إلى أن يأتِنَا الصيد نَحْطِبِ (١)

وقال عُمَارة بن عقيل :

وأرى الوحش فى يمينى إذاما كان يوماً عِنانُه بشِمَالِى

وقال حبيب :

مخاقّ وجْهه على السّبقِ تَخْليقَ عروسِ الأبناء للعُرْسِ (٢)
تقتل عشراً من النّعام به بواحد الشدّ واحد النَّفْس

(١) ديوانه ٣٨٩
(٢) ديوانه ١٦٩ ، ١٧

وقال أيضاً :

إن زار ميداناً مضى سابقاً أو نادياً قام إليه الجلوس[١]
ترى رزانَ القوم قد أسْمَجَتْ أعْيُنُهمْ فى حُسْنِه وهْىَ شُوسْ
كأنّما لاح لهم بارقٌ فى المَحْلِ أوْ زُفَّتْ إليهم عَرُوسْ
سامٍ إذا استعرضته زانــه أعْلَى ، رطيبٌ وقرارٌ يبيسْ
كأنما خامره أوْلَقٌ أو عارضت هامته الخندريسْ
عوّدَه الحاسد بخـلاً به ورَفْرَفَتْ خوفاً عليه النُّفُوسْ

وقال البحترى :

وأغرّ فى الزمن البهيم محجّلٍ قد رُحْتُ منه على أغرّ محجّلِ[٢]
كالهيكل المبنىّ إلا أنه فى الُحسْنِ جاء كَصُورةٍ فى هيكلِ
ذَنب كما سَحَب الرداء يذبُّ عن عُرْفٍ، وعرف كالرداء المسبَلِ
تُتَوَهَّمُ الجوزاء فى أرساغِه والبــدر غرة وجهه المتهلّلِ
وتراه يَسْطَعُ فى الغبار لهيبُه لوناً وشدًّا كالحريق المشعَلِ
هزِج الصَّهيل كأنّ فى نَغَماتِه هَزّات مَعْبد فى الثَّقيل الأوّلِ
مَلَكَ العيون فإنْ بدا أعطينَه نظر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

وقال عبد الله بن المعتز :

ولقد وطئت الغيث يحملُنِى طِرْفٌ كلون الصبْح حينَ وقَدْ[٣]
يمشى ويعرِض فى العِنان كما صدف المعشَّق ذو الدلال وصَدّْ
جمّاع أطراف الصُّوار فما الْ أُخْرَى عليه إذا جرى بأشدّْ

(١) ديوانه ١٧٩ .
(٢) ديوانه ١٧٤٤ .
(٣) زهر الآداب ١٧٧ ، العقد ١ : ٢٠٦ .

بلْ المهـــابدمائهنّ ولَمْ يبتلّ منـــــه بالحميم جَسَدْ
وكأنه موج يذوب إذا أطلقته وإذا حسبت جَمَدْ

وقال المتنبي :

وعَيْنى إلى أذْنىْ أغرّ كأنّه من الليل باقٍ بين عينيه كوكبُ(١)
له فضلةٌ عن جِسمه فى إهابه تجىء على صدر رحيب وتَذْهَبُ
شققتُ به الظلماء أُدْنِى عِنانه فيطغى وأُرخِيه مِراراً فيلعبُ
وأصرع أىّ الوحش قفّيْتُه به وأنزل عنه مثــلَه حين أركبُ
وما الخيلُ إلاّ كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرّبُ
إذا لم تعاين غير حُسْنِ شِياتِها وأعضائها فالحسن عنك مغيَّبُ

وقال ابن نباتة يصف فرساً أغرّ حمله سيف الدولة عليه :

قد جاءنا الطِّرف الذى أهديتَه هاديه يعقد أرضَه بسمائه(٢)
تختــال منه على أغرّ محجلٍ ماء الدياجى قَطْرَةٌ من مائِه
وكأنما لطَم الصباح جبينَه فاقتصّ منه فخاض فى أحشائِه
لاتعلق الألحــاظ فى أعطافه إلا إذا كَفْـكَفْتَ من غُلَوَائِهِ

وقال أيضاً :

وأدهم يستمدّ الليـــــل منه وتطلع بين عينيــه الثريا(٣)
سرى خلف الصباح يطير مشيًا ويطوى خلفه الأفلاك طَيَّا
فلما خاف وشك الفَوْتِ منه تشبّث بالقــــــوائم والمحيَّا

وقال أبو منصور(٤)، يخاطبُ أبا الفضل الميكالى :

يامُهْدِىَ الطِّرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع(٥)

(١) ديوانه : ١ : ١٧٩
(٢) هو ابن نباته السعيدى ، نهاية الأرب ١٠ : ٦٤.
(٣) نهاية الأرب ١٠ : ٦٤
(٤) هو أبو منصور الثعالبي .
(٥) معاهد التنصيص ٢ : ٢٧٠

لاشىء أسرعُ منه إلاخاطرى | فى شكر نائلك اللطيف الموقعِ
ولو أُننى أنصفت فى إكرامه | لجلال مُهْدِيه الـكريمِ الأرْوَعِ
أقضمته حَبَّ القلوب لحبّـه | وجعلْت مربطه سواد الأدْمُعِ
وخلعتُ ثم قطعت غير مضيّق | بُرْدَ الشباب لجله والبرقعِ

وقال القسطلّى :

سامى التَّلِيل كأنّ عقد عذاره | فى رأس غصن البانة الميّادِ[1]
يهدى بمثل الفرقدَيْن وناب عن | رعى السِّمَاك بقلبه الوقا ِ
فـكأنما أطأ الأباطح والرُّبا | بعُقاب شاهقةٍ وحيّة وادِ
وكأنه من تحت سَوطى خارجاً | فى الرَّوْع شعلة قادحٍ بزنادِ

ولأبى تمام الأندلسى :

وأقبّ تنّقد البروق إذا جرى | من غيظها حسداً بأن لم تلحقِ
ملَك الرياحَ قوائما فجرى بها | فيكاد يأخذ مغرباً من مشرقِ

وقال فيه أيضا :

وتحِتِىَ ريح تسبق الريح إن جرتْ | وما خلتُ أن الرّيح ذاتُ قوائمِ
له فى المدى سبْقٌ إلى كلّ غاية | كأنّ لنا فيه نفوذ عزائم
وهمّةِ نفس نزهتْها عن الونى | فيا عجبا ، حتى العلا فى البهائم !

وكان للمتوكل ببِطليوس فرس أخضر أغرّ محجل على كَفَله ست نقط بيض ، فبذل كل شاعر فى وصفه جهده ، فما سبق الغاية إلا البَجلىّ بقوله :

حمل البدر جوادٌ سابحٌ | تقف الريح لأدنى مهله

---

(١) ديوانه ص ٥٤

وكأنّ الصبح قد خاض به فبدا تحجيله مِن بَلَلِه
لبس الليل قميصا سابغاً فالثريّا نقط فى كفَلَه
كلّ مطلوب وإن طالت به رجله من أجله فى أجله

والباب لا يدخل تحت الحصر ، فلنكتف بهذا القدر .

* * *

فلما أنشداها الوالى مترَاسِلَيْن ، بُهِتَ لذكاءيهما المتعادِلَيْن . وقال : أشهد بالله أنّكما فرقدا سَماء ؛ وكَزَنْدَيْن فى وعاء ، وأنّ هذا الحدَث لَيُنْفِقُ مِمّا آتاهُ اللهُ ، ويَسْتغنى بوُجْده عمَّنْ سِواه . فَتُبْ أيُّها الشَّيْخُ مِن اتِّهامِه ، وثُبْ إلى إكْرامِهِ .

فقال الشيخ : هَيْهاتَ أن تراجِعَه مِقَتِى ، أو تَعْلَق به ثِقَتِى . وقدْ بَلَوْتُ كفرانَهُ للصّنيعِ ؛ ومُنيت منه بالْعُقُوق الشّنيع . فاعترضه الفتى وقال : ياهذا ، إنّ اللّجاجَ شؤم ، والْخَنَقَ لُؤم ، وتَحقيق الظِّنة إثْم ، وإعنــاتَ البرئ ظُلْم . وهَبْنِى اقْتَرفْتُ جَرِيرة ، أو اجترحْتُ كبيرة ؛ أما تذكرُ ما أنشدْتَنِى لِنَفْسِك ، فى إبَّانِ أنْسِكَ :

* * *

قوله :« بُهِت» أى تحير . المتعادلين : المتماثلين ، وشبّهما بالفرقدين لرفعتهما وتوقدهما، وأخذ الحريرى هذا التشبيه من البحترى فى قوله :

* كالفرقدين إذا تأمّل ناظر *

وتقدّم فى الثانية ، وبالزّندين لما فيهما من النار، وفى هذين من الذكاء وجعلهما فى وعاء ، يريد : متى التمسهما الإنسان وجد فيما وقعت عليه يده حاجته .

وجْده: غناه وماعنده من العلم . ثب : ارجع . هيهات ، معناها بُعد . مِقَتى: محبتى . تعلَق به ثقتى، يريد : لا أثق به بعد ماجرَّبته ، وبلوت كفرانه للصنيع، أى جرّبت قلة شكره لفعل الجميل معه مُنِيت . بليت . العقوق : المقاطعة . الشنيع : المشتهر بالقبيح .

[فصل فى كفران الصنيع]

ونسوق هنا فى كفران الصنيع فصلا يليق بهذا الموضع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من عباد الله عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم». قلنا : مَنْ أولئك يارسول الله ؟ قال : « المتبرئ من والديه رغبة عنهما ، والمتبرئ من ولده، ورجل أنعم الله عليه نعمة فكفرها » .

وفى التوراة : من صنع معروفا إلى أحمق فهى خطيئة تُكتب عليه .

وقال الحجاج لابن الكلبى: أخبرنى عن خمسة أشياء أضيعت فى الدنيا . قال: نعم أصلح الله الأمير! سراج يوقد فى شمس ، ومطر جوْد فى أرض سبخة، وامرأة حسناء تُزفّ إلى عِنّين ، وطعام اجتهد صاحبه فى صنعته فقدمه إلى سكران أو شبعان، ومعروف تصنعه إلى رجُلٍ لا يشكرك عليه .

عائشة رضى الله عنها:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«لا تنفع الصنيعة إلا عند ذى حسب ودين، كما لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب » .

المدائنى : خرج فتْيان فى صيد لهم فأثاروا ضبعة فنفرت ومرّت ، فاتبعوها ، فلجأت إلى بيت رجل ، فخرج إليهم بالسيف مسلولاً ، فقالوا له : يا عبد الله ، لِمَ تمنعنا من صيدنا ؟ فقال : إنها استجارت بى. فخلُّوا بينها وبينه ، فنظر إليها فإذا هى مهزولة مضرورة، فجعل يسقيها اللبن صبوحاً ومَتيلاً وغبوقاً ، حتى سمنت وحسنت حالها ، فبينما هو ذات يوم متجرد عَدَتْ عليه فشقّت بطنه وشربت دمه، فقال ابن عمّ له :

ومنْ يَصْنَع المعروف فى غير أهلِه يلاقى الذى لاقَى مُجير امِّ عامِرِ[1]
أعد لها لمّا استجارتْ بقربه مع الأمن ألبانِ اللقّاح الدرائرِ
فأشبَعَها حتى إذا ما تمكّنَتْ فرتْه بأنياب لهـا وأظافرِ
فقل لذوى المعروف، هذا جزاءمَنْ يُوجِّهُ معروفاً إلى غير شاكرِ

وعن جابر رضى الله تعالىعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه ومعروفه فى أهل الحِفاظ ، وإذا أراد به سوءاً جعلها فى أهل المضائع » وقال حسان :

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يصاب بها طريق المصنع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . وأنشد عبد الله بن جعفر هذا البيتَ فقال: هذا رجل يريد أن يبخّل الناس؛ أمطِر المعروف مطرا ، فإن صادفت موضعه فهو الذى قصدت ، وإلاّ فكنت أحقَّ به .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لا يُزَهِّدَنك فى المعروف كفر من كَفَره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصنعه إليه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اصنع المعروف إلى مَنْ هو أهله ، وإلى من ليس أهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله» . وقد قال الحريرى بعد هذا :

واحفظ صَنِيعك عنـده شَكَر الصنيعة أم غَمَطْ

أى لا تفسد معروفك بالمنّ ؛ شكره من أنعمت عليه أم كفره . وغمط : ستر . وهو ضد شكر .

---

(١) جرة الأمثال : ١ : ٥٢٥

قوله: اعترضه، أى واجهه وقابله : شؤم: نحس وطِيَرة . الحَنَق: الغضب . الظِّنة : التهمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاث لازمات أمتى: سوء الظن، والحسد، والطيَرة» . قيل: ما يذهبهن؟ قال: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر، وإذا تطيّرت فامض» . إعنات : مشقة . هبنى : احسبنى . اقترفت واجترحت، معناها اكتسبت . جريرة : جناية . إبّان أنسك ، أى وقت أنسى بك .

* * *

سامحْ أخاكَ إذا خلَطْ منه الإساءة بالْغَلَطْ

وتجافَ عن تَعْنيفِه إنْ زاغَ يوماً أو قسطْ

واحْفَظْ صَنيعَكَ عنده شَكَرَ الصنيعة أم غَمَطْ

وأطِعْهُ إن عاصَى وهُنْ إنْ عزَّ وادْنُ إذا شَحَطْ

واقْنَ الوفاء ولو أخَلّ بما اشترطْتَ وما اشْتَرَطْ

واعْلَمْ بأنَّكَ إن طَلَبْتَ مهذَّباً رُمْتَ الشَّطَطْ

من ذا الذى ما ساء قطُّ ومَنْ له الحُسْنَى فقطْ

أو ما ترى المحبوبَ والْمَكْرُوهَ لُزَّا فى نَمَطْ

كالشوكِ يَبْدُو فى الغصو نِ مع الجَنِىّ الْمُلْتَقَطْ

ولَذاذة العمر الطَّو يلِ يشوبُها نغصُ الشَّمَط

ولو انتقَدْتَ بنى الزّما نِ وَجَدْتَ أكْثرَهمْ سَقَطْ

رُضْتُ البَلاغةَ والبرا عةَ والشجاعَةَ والخِطَطْ

فوجَدْتُ أحْسَنَ ما يُرَى سَيْرَ الْعُلومِ مَعاً فقطْ

* * *

تجاف : تباعد . تعنيفه : لومه . زاغ : مال . قسط : جار .

وقوله : وهُنْ إنْ عَزّ ، لفظ المثل : إذا عز أخوك فهن ، يُرْوَى بضم الهاء وكسرها ، فالضمّ من هان يهون ، قال ابن أحمر :

دَبَبْتُ لها الضَّرَاء وقُلْت أبقَى ... إذا زّ ابنُ عمك أن تَهُونَا[١]

ورواه بالكسر أبو عبيد وثعلب ، وقال أبو عبيد : معناه أن مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك ، فتدخلك منه حميَّة ، إنما هو حسن خُلق وتفضّل منك ، فإذا عاسرك فياسره ، فالضيم الّذى ذكر هو الهوان بعينه . قال ابن درستويه : معناه إذا صار أخوك عزيزا قويا عليك فأطِعْه واخضع له ، تسْلَمْ من ظلمه . رواية الكسر من هَان يَهِين ، ويكون معنى عزّ تصعَّب واشتدّ لا من العزة ، ومعناه إذا صعب أخوك فلِنْ له ، والمثل لهذيل بن هبيرة ؛ وسببه أنه أغار على ضبّة فغنم ، وأقبل بالمغانم ، فقال له أصحابه : اقسمها بيننا، فقال : أخاف أن يدرككم الطلب، فأبوا، فعندها قال المثل ، ونزل فقسّمها

قوله شحط ، أى بَعد . وأقْن الوفاه : أى الزمه ، وقنيتُ الحياء بكسر النون أقنيه قنيانا، ألزمته . أخلّ : نقص . بما اشترطت وما اشترط ،أى بما جعلتما بينكما من علامة ، ومنه أشراط الساعة أى علاماتها ومنه الشّرط لأن لهم علامة يعرفون بها . مهذبا: مخلصاً . والشّطَط: مجاوزة القدر، قال الفضيل بن عياض : مَنْ طلب أخا بلاعيب بقىَ بلا أخ.

قال الحارث المحاسبي: ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حُسْن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الدّيانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وقال النابغة :

ولستَ بمستبْقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعثٍ ،أىّ الرجال المهذب![٢]

وقال يزيد بن محمد المهلّبي :

ومَنْ ذا الذى تُرْضى سجاياه كلها ... كفى المرء فضلاً أن تعدَّ مَعايبُهْ[٣]

(١) فصل المقال لأبى عبيد ١٩٦ .

(٢) ديوانه ٥ .

(٣) ط : الباهلى ، تحريف . والبيت فى زهر الآداب ٧٥٥ ، نهاية الأرب ٣ : ٩٤ .

قوله: «قطّ» بمعنى الدهر والأبد . والحسنى: الفعل الحسن . فقط : حسب .
لزا : ربطا . النّمط : ثوب من الصوف المصبوغ ، والنّمط الطريق ، تقول : الزم
هذا النمط ، والنمط النوع من العلم والخير ،فيريد أن الخير والشر قد نظما فى سلك
واحد ، فإذا أتى يوم يُرْضِى أتى بعده يومٌ يسخط .

الجنىّ : الطرىّ مما يجنَى ، فعيل بمعنى مفعول ، وأصل مجنىّ مجنوىّ فأُعِلّ .
والملتقط : من قولك:لقطت هذه الفاكهة واحدة واحدة، أى اخْتَرتها وانتخبتها .

أبو أمامة ، قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إنّ الناس اليوم كشجرة
ذات جنًى ، ويوشك الناس أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم ناقدوك ،
وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم طلبوك»،قيل؛ فكيف المخرج من
ذلك ؟ قال : « تقرضهم من عِرْضك ليوم فقرك» ، وأنشد عمر بن الجعْد :

طبْ عن الأمّة نفساً وارض بالوحدة أُنْسَا
لست بالواجد حرًّا أو تردّ اليوم أمسا
ما وجدنا أحداً يسـوَى على الخبرة فَلْسَا

قوله : «نغص» تكدير العيش ، ونغص الرجل إذا لم يتم له أمره وتكدّر
عيشه. يشوبها : يخالطها .الشَّمَط : اختلاط الشيب بالسواد وانتقدت : فتشت.
والسَّقَط : من لا خير فيه .

وللزاهد بن عمران فى معنى أبيات الحريرى رحمه الله :

إذا وَغْدٌ جفاك فلا تَلُمْهُ لأنّك إن فعلتَ أثرت جيفَه
وإن يصُل الكريمُ عليك فاصفحْ ستعطفه أصالته الشريفه
ومَنْ يك بين ذاك فأغضِ عنه تنل مجدًا ومرتبةً مُنيفَهْ
وسُلّ الضغن إن آنستَ ضِغْنًا ببسط الوجه والحيَل اللّطيفه

أخذ البيتين الأولين من قول حاتم :

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخارَه   وأُعرِض عن شتمِ اللّئيم تكرّما[1]

* * *

قال : فجعل الشّيخُ يُنضنض نَضْنَضَةَ الصِّلّ ، ويُحمْلِقُ حَمْلَقةَ البازِي المُطِلّ ، ثمّ قال : والّذي زيَّنَ السّماءَ بالشُّهُبِ ، وأنْزَلَ الماءَ من السُّحُب ، ما رَوْغِي عن الاصْطِلاح ؛ إلا لتوَقِّي الافتضاح ، فإنّ هذا الْفَتَى اعْتَادَ أن أمُونَهُ ، وأراعِي شئونه ، وقَدْ كانَ الدَّهْرُ يَسُحّ ، فلَمْ أكُنْ أشِحّ ؛ فأمّا الآن فالوقْتُ عَبُوس ، وحَشْو العَيْش بُوس ؛ حتّى إن بزّ بِي هَذِهِ عارَة ، وبيتِي لا تَطُورُ به فارَة .

قال : فرقَّ لمقالِهِمَا قَلْبُ الوالى ، وأوَى لهُمَا مِنْ غِيَرِ اللَّيَالى ، وصَبَا إلى اختصاصِهِمَا بالإسعاف ، وأمَر النَّظارة بالانصراف .

* * *

قوله : « يُنضنض » يحرك لسانه . الصِّلّ : الحية . يحملق : ينظر بحملاقه وهو باطن جفنه ، وذلك نظر الغضبان . المطلّ : المشرف على فريسته . الشهب : النجوم . رَوْغِي : فراري . توقِّي : خشية . الافتضاح : الشهرة . أمونه : أتكلف لوازمه . أراعي : أحفظ . شئونه : أموره . يسحّ : يصب الرزق . الحشو : ماحُشِي به . بوس : ضرّ . بزّني : ثوبي . عارة ، أي عارية . تطوره : تقرب منه ؛ يريد أن الفارة ليس لها فيه ماتأكل ، وأخذ هذا المعنى من قول امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ،

---

(١) ديوانه ١٠٨

فقال : ما أحسن هذه الكناية ! املئوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً . وقد أعاد هذا المعنى منظوماً فى الثالثة والثلاثين ، فقال [١] :

وأحلتْ رَبْعِيَ حتى خاتْ من ربعيَ المحِل جُرْذَانُهُ

وحكى الفنجديهيّ بسنده إلى أبى محمد الحسن بن إسماعيل الضرّاب ، قال: كنت قاعداً أنسخ فى السراج ، وبين يدىّ قدح فيه ماء ، وظرف فيه كعك وزبيب ولوز ، فجاءت فأرة فأخذت لوزة فمضت ، ثم عادت فأخذت أخرى فبدّدت الماء الذى فى القدح ، فعادت الفأرة فكببتُ القدَحَ عليها واشتغلت بشغلى ساعة ، فإذا فأرة أخرى قد جاءت فشقْشقت وبقيت ساعة على ذلك ، والفأرة الأخرى تشقشق من داخل القدَح ، فلم تجد حيلة فى خلاصها ، فمضت أختها ، فأتتْ بدينار فوضعته ووقفتْ ، ولم أرفع القدح عن الفأرة ، فمضت وأتت بدينار آخر ، ووقفتْ ولم أرفع القدح ، ففعلتْ ذلك إلى أن أتت بسبعة دنانير ، ووقفتْ ساعة ، ولم أخلّ عن الفأرة ، فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنها لم يبق عندها شىء فخلّيت عن الفأرة .

قال الفنجديهيّ : رويت هذه الحكاية عن أشخاص وأشياخ ثقاة .

وعلى ذكر الفأرة والجرذان كتب أبو حفص الورّاق رقعة إلى الصاحب ، منها: وحال عبد مولانا فى الحنطة مختلفة ، وجرذان داره عنها منصرفة ، فإن رأى أن يخلط عبده بما أخصب عنده فعل إن شاء الله تعالى . فوقّع فيها : « أحسنت يا أبا حفص قولا ، وسنحسن إليك فعلا ، فبشّر جرذان دارك بالخصب ، وأمّنها من الجدب ، فالحنطة تأتيك فى الأسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بممنوع إن شاء الله تعالى » .

قوله « أوى »: أشفق . غِيَر : تغيّرَ وهو من تغيُّر الحال ، وهو اسم واحد بمنزلة الجمع ، والغِيَر مذكّر وجمعه أغيار . هذا قول الكسائى . ويجوز أن يكون

---

(١) ص ٣٦٥ (المطبعة الحسينية) .

جمعاً ، واحدته غِيرة وهذا قول ابن عمرو ، يقال للدية : غِيرة لأنها تغير الفؤاد إلى الرّضا به . صَبَا : مال . الإسعاف : قضاء الحـــاجة . النّظّارة : الناس الناظرون إليه .

* * *

قال الراوى : وكنت مُتشوقاً إلى مَرْأَى الشَّيْخ لعلّى أعلمُ عِلْمَهُ ، إذا عاينت وَسْمَه ، ولم يَكُنِ الزِّحَامُ يُسْفِرُ عَنْهُ ، ولا يَفْرَجُ لى فأدْنُوَ منه . فلمّا تقوّضتِ الصُّفُوف ، وأجْفَل الوُقوف ، توسّمْتُه فإذا هو أبو زيدٍ والفتَى فَتَاهُ ، فعرفتُ حينئذ مَغْزَاه فيما أتاه ، وكِدْتُ أَنقضّ عليه ، لأستعْرِفَ إليه . فَزَجَرَنِى بإيماءِ طَرْفِهِ ، واسْتَوْقَفَنى بإيماءِ كَفّهِ .

* * *

متشوقاً : متطلعاً . وَسْمه : علامته . يسفر : يكشف . يفرج : يفتح لى فرجة . تقوّضت : تفرّقت ، وأصلها الهدم . أجفل : أسرع المشى . توسّمته : نظرته . مغزاه : مذهبه ومقصده . انقضّ : انحطوانصبّ أستعرف إليه : أعرّفه بنفسى . زجرنى : انتهرنى . إيماض : إشارة بالعين خفية ، وكثيراً ما يصرف الحريرىّ فى المقامات تنبيه أبى زيد لابن همام على نفسه بخفىّ الإشارة ، المغنية عن تصريح العبارة ، وهو مذهب للعرب ، ونبلاء أهل الأدب ، وقد قالوا : رُبّ كناية تغنى عن إيضاح ، رُبّ لحظ يدل على ضمير .

[مختار من الشعر فى إشارة اللحظ]

وفى إشارة اللحظ يقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة محزونٍ ولم تتـكلّمِ
فأيقنتُ أن اللحظ قد قال مرحبًا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّمِ

وقال أبو نواس :

لهــفى على النّجل العيونِ ... النُّهـــد القُبّ البطونِ

الناطقات عن الضمـــير لنـــا بألسنة الجفونِ

وقال المهـدى بن المنصور :

ومُطلع من نفسه مايسرّه ... عليه من اللحظ الخفىّ دليلُ
إذا هو لم يُبدِ الذى فى ضميره ... فنى اللحظ والإيمـاء منه رسولُ

وقال تميم بن المعتز :

سبحان مَنْ خلق الخـدو ... د شقائقاً تُتَنَـــــمُّ[1]
وأعارها الألحـــاظ فهـــــى ... بلحظها تتـــكلَّمُ

وقال آخر :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها ... من المحبّة أو بغضٍ إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتةٌ ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقال أعرابى :

وليل لم يقصِّرْهُ رقادٌ ... وقصّر طولَه وصلُ الحبيب
بمجلس لذَّةٍ لم نَقْوَ فيـــه ... على شكوى ولا عدِّ الذنوبِ
بخلنـا أن نقطّعـه بلفظٍ ... فترجمت العُيون عن القلوبِ

وقال الحسن بن بشـير :

أما ترَى لى ناظراً شاهداً ... بالحبّ ، والأعينُ رُسْلُ القلوبِ
ودون إلحـاح جُفونى هوًى ... يخـبّر عمّـا فى ضمير الـكئيبِ
وأنتَ لا شـــك به عالمٌ ... لأنّ عندَ اللحظ علم الغيوبِ

وقال الأحوص :

ودّعتُهنّ ولا شىء يراجِعُنِي ... إلا البنان وإلاّ الأعين السُّجْمُ[2]

(١) ديوانه ٣٨٦ .
(٢) ديوانه ٢٢٢ .

إذا أردن كلامى عنده عرضتْ من دونه عبراتٌ فارعوى الكلِمُ
مسنّدات وقد مالتْ سوالفُها وما بهنّ سوى مَسٍّ الهوى ألم

وقال مانى الموسوس

بنانُ يدٍ تُشير إلى بنانٍ تجاوَبتا وما تتكلَّمانِ
جَرَى الإيماء بينهما رسولا فأحكم وحيَه المتناجيانِ
فلو أبصَرْتنا لغضضت طَرْفًا عن المتحدّثين بلا لسانِ

والباب لا يحصى كثرة فلنقتصر على هذه اللمعة

قوله : «واستوقفنى بإيماء كفه» : أى أمرنى بالوقوف، والإيماء : الإشارة .

* * *

فلزمتُ مَوْقِفِى ، وأخَّرْتُ مُنْصَرَفِى. فقال الوالى: مامَرامُك، ولأىّ سَبَبٍ مَقامُكَ ؟فابتَدرهُ الشيخُ وقالَ : إنَّهُ أنيسى ، وصاحبُ مَلْبُوسِى. فَتَسَمَّحَ عِنْدَ هذا القول بتأنيسِى ، وَرَخَّصَ فى جُلُوسِى . ثمّ أفاضَ عَلَيْهِمَا خِلْعَتَيْنِ ، وَوَصَلَهُمَا بنصابٍ من الْعَيْنِ ، واسْتَعْهَدَهُمَا أن يَتَعَاشرا بالمعروف ، إلى إظلالِ الْيَوْمِ المَخُوفِ . فنهضَا مِنْ ناديه ، مُشيدِينِ بِشُكْرِ أياديهِ ، وتبِعْتُهُمَا لأعرفَ مثواهما ، وأتزوّد من نجواهما .

فَلَمَّا أَجَزْنا حِمَى الوالى ، وأفضيْنَا إلى الْفضاءِ الخالى، أدركنى أحَدُ جَلَاوِزَتِهِ ، مُهيبًا بِى إلى حَوْزَتِهِ ، فقلتُ لأبى زيد : ما أظُنُّهُ اسْتَحْضَرَنى إلَّا لِيَسْتَخْبِرَنى ، فماذا أقولُ ؟ وفى أىّ وادٍ معه أجُولُ ؟ فقالَ : بَيِّنْ لَهُ غَبَاوَةَ قَلْبِهِ . وَتَلْعَابَى بلُبِّهِ ؛ لِيَعْلَمَ أنّ رِيحَهُ لاقَتْ إعْصَارًا ، وَجَدْوَلَهُ صَادفَ تَيَّارا ، فَقلْتُ : أخَافُ أن يَتَّقِدَ غضبُهُ

فَيَلْفَحَكَ لَهَبُهُ ، أو يَسْتَشْرِيَ طَيْشُهُ ، فيَسْرِيَ إليكَ بَطْشُهُ ، فقالَ: إنى أَرْحَلُ الآن إلى الرُّها ، وأَنَّى يلتقِي سُهَيْلٌ والسُّها !

* * *

مرامك : مرادك. مقامك : تلبثك ووقوفك. أنيسى : صاحبى الذى أتأنس به. فتسمّح بتأنيسى ، أى أولانى منه المؤانسة. رخّص : ليّن وسهل . أفاض : صبّ . خلعتين : كسوتين . والنصاب : عشرون دينارا ، والعين : الذهب . استعهدهما : استحلفهما . يتعاشرا : يتصاحبا . إظلال : قرب ودنوّ . اليوم المخوف : يوم موته . ناديه : مجلسه . مُشِيدين : رافعين بشكره أصواتهما . أياديه : نعمه . مثواهما : مسكنهما . فحواهما : معنى كلامهما ، ويروى : «نجواهما» أى سرّهما . أجزنا : خلّفنا . أفضينا : وصلنا . الفضاء : المتّسع من الأرض . جلاوِزَته : شُرَطه ، واحدهم جِلواز ، والجلاز عقب ملوىّ على القوس ، وجلزت القوس والسوط والسكين : عصبتهما بالعقب ، فسمّوا جلاوزة ، لأنهم يعصِبون بالسياط الناس عند الضرب ، أولأن السياط لا تفارق أيديهم ، والجلز : الشدّ ، وهم يربطون الناس ويشدّونهم . مهيبا : داعيا . حوزته موضعه الذى يحميه ويحوزه . استحضرنى : طلب حضورى . ويستخبرنى : يسألنى خبره . أجول . أتصرّف وأمشى ، أى علّمنى فى أى غرض من الحديث آخذ معه . غباوة : جهل ، ورجل غبىّ غير فطِن . تلعابى بالبّه ، أى لعبى بعقله ، والتّلعاب بنية للمبالغة . يستشرى : ينتشر . طيشه : خفته من الغضب . يسرى : يسير . بطشه : إيقاعه وتناوله بما يكره .

الرُّها : بلد من كورة الجزيرة تجاورها الرّقة وحرّان، سمّيت باسم صاحبها الرها بن البلوى بن مالك بن ذعر ، وهو أوّل من نزلها . وقال اليعقوبىّ : الرُّهامن ديار مضر ، وهى مدينة روميّة ذات عيون كثيرة منها عجيبة ، تجرى

الأنهار وبها الكنيسة التي للنصارى، وهي إحدى عجائب الدّنيا الموصوفة، وكان بالرُّها رجل ضعيف الحال متجمّل بين الناس، فخرج ذات يوم من منزله وعليه جبّة له، فلقيه سائل، فسأله شيئا يدفئه، فقال: والله ما أملك غير جُبّتي هذه، فقال السائل: ألا تحب أن تكون من الذين قال الله تعالى في حقهم: (وَيُؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كَانَ بهم خَصَاصة)، فدفعها إليه.

أنّى: كيف. سهيل والسها: كوكبان لا يلتقيان، لأنّ السها نجم خفيّ في بنات نعش، وبنات نعش لا تغرب أبداً في بلاد أرمينية، وفي سمتها بلاد الشام والمغرب والأندلس، وسهيل لا يرى في شيء من هذه البلاد إلا رؤية لا يعتدّ بها في أيام قلائل، فلا يلتقي سهيل والسها بوجه، وإنما أخذ هذا من لفظ عمر بن أبي ربيعة حيث قال:

أيُّها المنكحُ الثّريا سهيلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان (١)

هي شامية إذا ما استقلّت وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمانِ

والثريا هذه بنت عليّ بن عبد الله بن الحارث، وكانت موصوفة بالجمال، وكان عمر يشبّب بها، فتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر؛ فضرب لها عمر المثل بالكوكبين. وأبدل الحريري لفظ الثريا بالسها، وأفاد عدم الالتقاء، وسهيل هو كوكب أحمر يخيّل إليك لشدة اضطرابه أنه يستدير، وقال المعرّي في صفته فأحْسَنَ:

وسهيلٍ كوجنة الحِبّ في اللوْ نِ وقَلْبِ المحبِّ في الخفقَانِ (٢)

مستبدًّا كأنه الفارس المعـ ـلِمُ يبدُو مُعارض الفرسانِ

يُسْرِعُ اللمح في احمرار كما تُسْـ ـرِع باللمح مقلةُ الغضبانِ

(١) ديوانه ٥٠٣ .

(٢) سقط الزند ٤٣٣ .

ضرّجَتْهُ دمًا سيوف الأعادى فبكت رحمةً له الشِّعريانِ
قدماه وراءه وهو فى العجـ ـز كساعٍ ليستْ له قدمانِ

قالوا : ولا تقع عين بعير على سهيل إلا مات من حينه .

وقد أشار المعرى إلى هذا فى قوله :

لا تحسبَنْ إبلِي سهيلا طالعا بالشأم فالمرئىّ شعلة مقبِس

ومتى طلع صرفت الإبل كلّها وجوهها عن مطلعه وقابلته بأعجازها :

وقال المتنبى :

وتنكر قتلهمْ وأنا سهيل طلعتُ بموت أولاد الزناء (١)

وفى معنى تخويف ابن همام للسروجى بعقاب الوالى ما حُدّث أن أبا الحسن العباس بن حيون ، دخل عليه فى السجن مَنْ أعلمه أن إبراهيم بن الأغلب يريد قتله ، فلم يجد مفرًّا ، فقال لمعلِمه بالخبر ، وأحسن فى قوله :

تخوّفنِى بمخلوق ضعيفٍ يهاب من المنية ما أهابُ
له أجلٌ ولى أجـل وكلٌّ سيبلغ حيث بلّغه الكتابُ

* * *

فَلَمَّا حضرتُ الوالىَ وَقَدْ خَلاَ مَجْلِسُهُ ، وانْجلَى تَعَبُّسُهُ ، أخذ يَصِفُ أبا زيدٍ وفضلَهُ . ويَذُمّ الدهرَ له . ثم قال : نشدْتُكَ اللهَ ، أَلَسْتَ الَّذِى أَعارَهُ الدَّسْت ؟ فقلتُ : لا والَّذِى أَحَلَّكَ فى هذا الدَّسْت ، ما أنَا بِصاحِب ذَلِكَ الدَّسْت ؛ بَلْ أنت الَّذِى تمّ عليه الدَّسْت ، فازْوَرّتْ مُقْلَتَاه ، واحمَرّتْ وَجْنَتَاه ، وقال : واللهِ ماأعْجزَنِى قطُّ فَضْحُ مُرِيب،

(١) ديوانه ١ : ١٢ .

لا تَكْشيف معيب؛ ولكن ما سَمِعْتُ بأنَّ شيخاً دَلَّس، بَعْدَ ما تَطَلَّس وَتَقلَّسَ، فبهذا تمَّ له أنْ لَبَّسَ. أفتَدْرى أيْنَ سَكَعَ، ذلكَ اللُّكَع؟ قلْتُ: أشْفَقْ منْكَ لتعدِّى طَوْره، فظَعَنَ عن بَغْدادَ من فَوْره. فقال: لا قرَّبَ اللهُ لَهُ نَوي، ولا كَلأَهُ أيْنَ ثَوَى؛ فَمَا زَاوَلتُ أشَدَّ مِن نُكْره، وَلاَ ذُقْتُ أمرَّ من مَكْره، ولولا حُرْمةُ أدبِهِ، لأَوْغَلْتُ فى طلَبِهِ، إلى أنْ يَقعَ فى يَدِى فَأُوقعَ به. وإنى لأكره أن تشيع فعلتُه بمَدِينة السَّلَام، فأفتضِح بينَ الأنام، وتحبَطَ مكانَتى عند الإمام؛ وأصيرَ ضُحْكَةً بين الخاصِّ والعامّ. فعاهَدَنى على ألاَّ أفُوهَ بما اعْتَمد، مادُمْتُ حِلاًّ بهذا البَلَدِ.

قال الحارث بن همام: فعاهَدْتُهُ مُعَاهَدَةَ مَنْ لاَ يتأوَّل، ووفَيْتُ له كما وفَى السَّمَوْءَل.

* * *

قوله: «انجلى»، أى زال وانكشف. نشدتك: حلفتك. الدّست الأول هو الثوب، والثانى: المجلس، والثالث هو الأول، والرابع هو الخداع والحيلة، وقدمه فى الحادية عشرة حيث قال: متى مادَسْته تمّ. ازورّت مقلتاه: اعوجّت عيناه وتغيّر نظرها. والوجنتان: ما أحاط بالعين من أسفل. أعجزنى: غلبنى. فضح مريب: كشف متهم. تطلّس: لبس الطيلسان، وهو من لباس الخواص، وهو كساء خزّ. لبّس: خلط. سكع: ذهب. اللُّكَع: اللئيم العاجز، قال بعض أهل العلم: كان يقال: خمس خصال، من أقبح شىء فيمن كنّ فيه: الحدَّة فى السلطان، والكبْر فى ذى الحسب، والبخل فى الغنىّ، والحرص فى العالم، والفسق فى الشيخ، وثلاث هن أحسن شىء فيمن كنّ فيه: تؤدَةٌ لغير ذلّ، وجود لغير ثواب، ونصَب لغير الدنيا.

أشفق : خاف . تعدّى طوره : تجاوز قدره . ظعن : رحل . فوره : حينه . نوى : بعد وسفر . كلأه : حفظه . ثوى : أقام . زاولت : حاولت . نكره : منكره . مكره : خداعه . أوغلت : أبعدت . أوقع به : أتناوله بالشرّ والمكروه والضّرب .

وقال أبو حازم فى معنى دعاء الوالى على السّروجىّ :

إذا استقلتْ بك الرِّكابُ فحيث لادرّت السَّحابُ
زالت سراعاً ، وزلت تجرى ببينك الظّبيُ والغُرابُ
بحيثُ لا يُرْتَجى إيابٌ وحيث لا يبلغ الكتابُ

والذى استعمل الناس فى الدعاء على الغائب ألّا يرجع قولُ زهير :

* لَدَى حيثُ ألقتْ رحلَها أمّ قشعمِ *(1)

وقال آخر :

كما سار الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

ومثل هذا رقْية المرأة إذا سافر زوجها ، قالت : نافرك القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودَبُور تدبره ، ونكباء تنكبه : شبك ولا انتقس ، وتعس ولا انتعش . ثم ترمى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة وتقول : حصاة حصّ أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راث خبره ، وبعرة تبعره ، ولو أوغل فى طلبه كما ذكر فأدركه لأنشده السّروجى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ(2)

(١) ديوانه ٢٣ ، وصدره :

* فشدّ ولم يفزِعْ بيوتاً كثيرةً *

(٢) ديوانه ٥٥ .

وقال المعرى :

إذا ما أَخَفْتَ المرءَ جُنَّ مخافةً وأيقن أنّ الأرض كِفّةُ حابلِ[1]
يرى نفسه فى ظل سَيْفِكَ قائماً وبينكما بُعْد المدى المتطاولِ

وقال محمد بن هانىء رحمه الله تعالى :

فلا مهجة فى الأرض منك منيعة ولو قطرت من ريق أرقط شَجْعَمِ[2]
ولو أنها نِيطَتْ بمخلَب طائر ولو أنها باتت على قرن أعْصَمِ

وقال أشجع السُّلَمِى فى الرشيد ، حين بعث لإدريس بن عبد الله العلوىّ من اغتاله بالمغرب :

أتظنّ ياإدريس أنك مُفلِتٌ كيدَ الخلافة أو يقيك حِذارُ
إن السيوف إذا انتضاها عزمُهُ طالت وتقصُر دونه الأعمارُ
هيهات ألاّ أن تكون ببلدةٍ لايُهتدى فيها إليك نهارُ

ولأبى العرب الصقلى :

كأنّ بلاد الله كفُّكَ إن يَسِرْ بها هارب تجمع عليه الأناملا
فأين يفرّ المرء عنك بجرمِه إذا كان يطوى فى يديك المراحلا

قوله :تشيع ، أى تتصل،يقال : شاع الخبر فى الناس، أى اتصل بكل واحد، فاستوى علم الناس به ، ويقال:سهم شائع ومشاع، إذا كان فى جميع الدار فاتصل كل جزء منه بكلّ جزء منها ، وأصله فى الناقه، يقال: أوزعت الناقة ببولها إيزاعا، إذا فرّقته ، فإذا أرسلته متصلا ، قيل : أشاعت به . تحبط : تسقط وتبطل . مكانتى : منزلتى . ضُحْكة : يضحك الناس به وتسكين عينها للمفعول،وتحريكها

(١) سقط الزند ١٠٧٥ .

(٢) ديوانه ١٢٥ ، والشجعم : الأسد .

للفاعل . أفوه : أنطق . اعتمد ، أى قصد من الخداع . حِلاًّ : متمما . يتأول : يحتال ليمينه فيحملها فى الباطن على غير ما أوقعها فى الظاهر عليه ، فيريد أنه ثبت له اليمين .

* * *

[قصَّة السموءل]

السموءل ، هو ابن عاديا ، يُضرب به المثل فى الوفاء ، وقصة وفائه أن امرأ القيس، لما ألحّ المنذر فى طلبه لحق بعمرو بن جابر بن مازن يستجير به ، فقال له : يا بن حُجْر ، إنى أراك فى خلل من قومك ، وأنا أنفس بك ، أفلا أدلك على رجل لم أر أحسن جواراً منه؟فدلَّهُ على السمول بتيماء ، ووصف له حسبه وحصنَه، فقال : ومَنْ لى به؟ فقال :أُصحبك من يوصلك إليه، فأصحبه الربيع بن ضبع ـ وكان الربيع يأتى السموءل ويمدحه فيحمله ويعطيه ـ فمشوا حتى قدموا على السموءل ، فأنشدوه أشعاراً فعرف حقَّهم ، وأنزل هنداً بنت امرئ القيس فى قبّة من أدم ، وأنزل القوم فى مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء ، ثم طلب أن يكتب له للحارث بن أبى شمر الغسانىّ بالشّام ليوصِّله إلى قيصر ، ففعل ، فاستودعه بنته وأدراعه الخمس ، وهى الفضفاضة ، والصافية ، والمحصنة ، والحريق ، وأم الذيول ، وكنَّ لبنى آ كل المرار ، وهم أجداده يُتوارثن ملِـكا عن ملك . فمضى إلى قيصر ، وأقام عنده حتى جهَّزه بجيوش،ثم بعث له بالحلَّة المسمومة ، فلما لبسها تقطع لحمه ، ومات . فلما بلغ خبر موته المنذر قصد تيماء حصن السموءل ، فبعث إليه أن يعطيَه أدراع امرئ القيس وما ترك عنده من المال ، فقال له : إنما أدفع ذلك لابنته ولورثته ، فحاصره فى الحصن ، حتى أخذ ابناً له صغيراً ، فقال للسموءل إما أن تعطيَنى ماترك امرؤ القيس أو أقتل ابنك وأنت تنظر إليه ، فقال له : والله لا وفيت له فى حياته ، وأغدره بعد وفاته ! اذهب ، فشأنك بابنى فافعل به ماشئت ،

فذبحه وهو ينظر إليه ، ولم يرض بالغدر ، فلما جاء الموسم ذهب بالدروع فدفعها لابنته وورثته ، وقال :

وفيتُ بأدرع الكندىّ إنى ... إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ
وقالوا إنه كنز عظيم ... ولا والله أغدر ما حييتُ[1]
بنَى لى عاديا حصناً حصيناً ... وبئراً كلّما شئت استقيت

فضرب به المثل فى الوفاء[2] . وانظر فى الثلاثين ابتداء الحكاية .

(١) موضعه فى الأغاني :
وأوصَى عاديا يوماً بألاَّ ... تُهَدِّم يا سموءلُ مابنيتُ
(٢) الخبر والشعر فى كتاب الأغانى ٦ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

المقامة الرابعة والعشرون النحوية

حكى الحارث بن همام قال: عَاشَرْتُ بقطيعة الرَّبيع ، فى إبَّان الرَّبيع ، فتيةً وجوهُهُمْ أَبْلَجُ من أنواره ، وأخلاقهم أبهج مِنْ أزْهارِهِ ، وألفاظُهُمْ أرقُّ مِنْ نسيمِ أسْحَاره .

فاجتليتُ مِنْهُمْ مَا يُزْرِى على الرَّبيعِ الزَّاهِر ، ويُغْنِي عَنْ رنَّاتِ الْمَزَاهِرِ ؛ وكنّا تقاسمْنَا عَلَى حِفْظِ الودادِ، وحَظْرِ الاستبدادِ، وألاّ يتفرَّدَ أحَدُنا بالْتذاذ ، ولا يَسْتأثِرُ ولو بَرَذاذ . فَأجمَعْنَا فى يومٍ سَمَا دَجْنُهُ ، وَنَمَا حُسْنُهُ ، وحَكَمَ بالاصطباحِ مُزْنُهُ ، عَلَى أنْ نَلْتَهِى بالْخُروجِ ، إلى بعض المُروج ؛ لِنسرّح النَّوَاظِر ، فى الرِّياضِ النّواضِر ، ونَصْقُلَ الخواطِر ، بشيْمِ الْمَوَاطِرِ ؛ فَبَرَزْنا ونَحنُ كالشّهورِ عِـــدّه ؛ وكنّا كَنَدمانَىْ جَذِيمَة مَوَدَّة .

* * *

عاشرت : صاحبت .

قطيعة الربيع : بلد معروف، والربيع حاجب المنصور ومولاه، وهو [والد][1] الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة ، وكان أقطعه المنصور بلداً بالعراق فبناه ، وبنى الناس معه ، حتى صار فيه عمارات كثيرة ، وهى محلّة قريبة من كرخ بغداد فى أعلى غربية بغداد ، فنُسِبتْ إلى الربيع .

إبّان : وقت . فصل الرّبيع : النّوار . أبلج: أحسن لونًا وأنعم أنواره:

---

(١) زيادة من معجم البلدان .

أزهاره ، ونوّر النبات وأنور صار فيه النَّوْر ، وأبهج : أحسن لوناً ، والبهجة: حسن اللون ونسيمُ السَّحر ريحه اللينة الباردة ، وفى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: « يقول الله تعالى للجنّة كلّ يوم : طيبى لأهلك فتزداد طيباً » ، فذلك البَرْد الذى تجده الناس بسحَر ذلك اليوم .

وقال ابن عمّار فى نسيم السَّحَر على الرياض فأحسن :

ويومٍ لَنا بالسّد بين معاطفٍ ... من النّهر تنساب انسيابَ الأراقمِ
بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورُنا ... هداياه فى أيدى الرّياح النَّواسِمِ
يبلّغنا أنفاسَه فيردّها ... بأعْطِرِ أنفاس وأذكى لناسمِ
تَسير علينا ثم عنّا كأنّها ... حواسدُ تمشى بيننا بالنّمائم

اجتليت : نظرت . يزرى . يقصر ، وتقول : زريتُ عليه إذا عبتَ عليه ما فعل ، وأزريتُ به قصَّرْت . الزاهر : الناعم . رنات : أصوات . المزاهر : عيدان الغناء . تقاسمنا : تحالفنا . حَظْر : منع . الاستبداد : الانفراد بالشىء . يستأثر : يختص : رذاذ : أقل المطر ، أى اتفقوا ألاّ ينفرد واحد بشىء دون أصحابه . أجمعنا : عزمنا : سما دَجْنُه : ارتفع سحابه : نما : زاد . الاصطباح : شرب الخمر بالسَّحر . مزنه : مطره ، وفى مثل بكورهم يقول عبد الجبار الصّقلى[(١)] :

بادرْ إلى اللّذاتِ واركَبْ لها ... سوابقَ اللّهو ذوات المراحْ[(٢)]
من قبل أنْ ترشف شمسُ الضّحى ... ريقَ الغوادى من ثُغور الأقاحْ

نلتهى[(٣)] : نتسلى ونتفرج .والمروج : المواضع المنخفضة الخصيبة ، واحدها

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس ، وشهرته ابن حمديس .
(٢) ديوانه ٨٩ ، وفيه: « باكر إلى اللذات » .
(٣) ط : « انتهى » التصحيف .

مَرْج ، وسمى مَرْجًا ، لأنّ البهائم تمرج فيه أى تسيب . نسرّح : نسيب النواظر : العيون ، وبالضّاد واعم الأزهار . والخواطر: الأذهان . شيْم المواطر: نظر السحاب . برزْنا : خرجنا ، وجعل خروجهم فى السَّحر ، لأن أول النهار أحمد أوقات الشرب ، فقال : أوّل النهار ، ألا ترى الدّواء يبكَّر به ، والمسافر يُدلج لحاجته ، لأن العقول أوّل النهار أزكى ، والفطن أصحّ ، وقال العَطَوىّ:[1]

قبَّح الله أوّلَ الناس سنّ الشرب ظهراً ماذا أتى من خسارِ !
مجلس مونقٌ وكأس وندما ن وتأخيرها إلى الإظهار
نكتة فى السرور بادية الشَّ ين لأهل العقول والأبصار
إنّ شرب النبيذ سيرٌ إلى اللّهـ ـو وخير المسير صَدْرُ النّهار
ما رأينا لنشوة الصبح شكلاً كنديم مساعد وعُقَارِ
وغناء يفتّ فى عضد الهـ ـم ويُزرى على النُّهى والْوَقَارِ
وأحاديث فى خلال الأغانى كانفتاح الرّياض غِبَّ النّهار

وبعضهم يمدح الغَبوق ، ويذم الصبوح ، وابن المعتز ممّن يذهب إلى ذلك.

[جَذيمة ونديماه]

قوله : كندمانى جذيمة ، أى صاحبيه على الخمر ، واسمهما مالك وعَقيل ، وجذيمة ابن مالك بن تَيْم الأزدىّ ، وكان مَلك أيام الطوائف بشاطىء الفرات وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة .

قال ابن الكلبى : جذيمة : أول من ملك قُضاعة بالحيرة ، وأوّل من حَذَا

---

(١) ط: « القطوى » ، تصحيف .

النعال[١] وأدلج من الملوك ، ورُفِع له الشمع ، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً ، وأظهرهم حزماً ، وهو أوّلُ من استجمع الملك له بأرض العراق ، وغزا بالجيوش ، وكان به بَرَص ، فكنت العرب عن البَرَص إعظاماً فقالت له : جَذيمة الوضّاح ، وجَذِيمة الأبرش .

وكان غزا طسْماً وجديساً فى منازلهم ، فصادف حسان بن تُبّع ، قد أغار عليهما ، فانصرف جذيمة . وصادفت خيول تبع سرّية له فقتلوهم ، فبلغ الخبر جذيمة فقال[٢] :

رَبّما أوفيتُ فى عَـلَمٍ ... ترفعَنْ ثوبى شِمَالاتُ[٣]
فى فتوٍ[٤] أنا كالئُهُمْ ... مِنْ بلايا غزوةٍ ماتُوا
ليت شعرى ما أماتَهمُ ... نحنُ أسرينا[٥] وهم باتوا

وكان جذيمة قد تنبّأ وتكهّن ، واتّخذ صنمين ، وسماها الضيزنين[٦] ، ومكانهما بالحيرة معروف .

وغزا إيادا بعين أباغ ، فبعثوا قوماً منهم سرقوا منهم الضيزنين ، وأصبحوا

---

(١) حذا النعل : قدرها وقطعها ، وفى المعارف لابن قتيبة ٥٥٤ : « وأول من حذا النعال جذيمة الأبرش بن مالك ، وهو أول من وضع المنجنيق وأدلج من الملوك ، ورفع له الشمع ، وكان ينادم الفرقدين ذهابا بنفسه ، وكان يشرب قدحا ، ويصب لكل نجم قدحا فى الأرض ؛ حتى نادمه مالك وعقيل .

(٢) وردت أبيات هذه القصيدة فى سيبويه ٢ : ١٥٤ وابن سلام ٣٢ ، ٣٣ ، والأغانى ١٤ : ٧٣ والمؤتلف للامدى ٣٤ والخزانة ١ :٥٠٧ ، وفى تاريخ الطبرى ١ : ٦١٣ ، ٦١٤ أحد عشر بيتاً ، ونقل عن ابن الكلبى قال : ثلاثة أبيات منها حق والبقية باطل .

(٣) أوفيت : أشرفت . والعلم : المرتفع من الأرض . والشمالات : جمع شمال من الرياح ، والنون فى « يرفعن » تأكيد للفعل ضرورة .

(٤) ط : « فتون » تصحيف . وفتو : جمع فتى . وكالئهم : حافظهم .

(٥) الطبرى : « ونحن أدْلَجنا » .

(٦) ط : « الضيزتين » تصحف .

بهما فى إياد ، فأرسلوا إليه : إن صنميك أصبحا عندنا ، زهدا فيك ورغبة فينا ، فأعطنا عهداً ألا تغزوَنا، ونردهما إليك. ففعل .

وكان بلغه أن غلاماً من لَخمْ يسمى عدىّ بن نصر مقيم فى أخواله من إياد ، وله ظرف ولُبّ وأنه لحسنٌ أن ينادم الملك ، ويقوم بمجلسه . فاشترط على إياد أن يبعثوا مع الصنمين بعدىّ بن نصر، وكان له جمال وظرف ، فدفعوه إليه معهما فضمَّه إلى نفسه . وكان ينادمه ويَسقيه فتعشّقته رَقاش أخت جذيمة ، فبعثت إليه : إذا سقيتَ أخى واستنشَى ، فاخطبنى لك ، وأشهِدْ عليه ، ففعل . فلما طرب جذيمة خطبها ، فأنعم عليه ، وأشهد عليه ، فقال له : عرّس بأهلك ، ففعل . فلما أصبح غَدا على جذيمة مضرّجًا بالطّيب ، فقال له : ماهذه الآثار ؟ فقال : آثار العرس ، قال : وأىّ عرس ؟ قال : عرس رقاش ، فأكبّ جذيمة على الأرض، وفرَّ عدىّ، وطلبه جذيمة فلم يدرِكْه. وقيل : ظَفِر به . وقال لرقاش:

حَدّثينى رَقاشُ لا تَـكْذِبينى ... أبحرٍّ زنيتِ أمْ بهجينِ
أم بعبـدٍ فأنت أهْلٌ لعبدٍ ... أم بدونٍ فأنت أهلٌ لدونِ

فقالت له :

أنت زوّجْتَنى وما كنتُ أدرِى ... فأتانى النّسـاء للتزيينِ
ذاك من شُرْبك المدامة صِرْفًا ... وتماديك فى الصّبا والمجون

فحبسها فى قصرها، فاشتملت على حَمْل[1] فأتت بغلام ، وسمته عمراً ، وربّته حتى ترعرع ، فجمّلته وعطّرته وألبسته كسوة مثله ، ثم أزارته خاله فأعجب به ، وألقيت عليه محبّته، وخرج جذيمة فى سنةٍ قد أكْأت، وبُسط له فى روضة، وعمرو

(١) الطبرى : ١ : ٦١٥ : « على حبل »

مع غِلمة يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو ، خبأها ثم أقبلوا يتعادَوْن[1] وعمرو يقدمهم ، ويقول :

هذا جناىَ وخيارُه فيهْ إذ كلّ جانٍ يدُه إلى فيهْ

فالتزمه جذيمة ، وحلّ منه بمكان . ثم إن الجنّ استهوته[2] ، فطُلِب زماناً ، وأرسَل فيه فى الآفاق ، فلم يجد له خبراً . ثم إن عمراً أوفى على مالك وعقيل ابنى فارج بن مالك بن كعب بن القيس بن حمير بن قضاعة ، وقد نزلا منزلا ، وهما متوجّهان إلى خاله جَذيمة ، ومعهما قَيْنة ، يقال له أم عمر ، وهى تغنّيهما وتسقيهما ، فرأت عمراً وقد تلبّد شعره وطالت أظفاره ، وساءت حاله ، فاحتقرته فرمت إليه بكُراعٍ[3] من طعامها ، وناولتْهما ، وأوكأتْ زِقَّها ولم تناول عمرا شيئاً ، فقال عمرو :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمّ عمرٍو وكان الكأسُ مجراها اليَمِينا[4]
وما شرّ الثلاثة أمّ عمرٍو بصاحبك الذى لا تصبحينا
فما شرب الشّراب كمثل عمرو وما نال المكارم فاصبَحينا
فإلاّ تنكرى عمرا فإنى أنا ابن عدىّ حقّاً فاعرفينا
وخالى لا أبالك ذُو المعالى جذيمة كيف ويحكِ تنكرينا!

فقالا له : مَنْ أنت يافتى ؟ قال :أنا عمرو بن عدىّ ، فضمّاه إليهما ، وغسلا رأسه ، وأخذا من شعره . وقلّما أظفاره ، وألبساه بعض الثياب التى كانت معهما ، وقالا : ما كنا نُهدى جذيمة أنفسَ من ابن أخته ، ثم وَرَدا به على جذيمة فسرّ به سروراً شديداً ، وقال : لهما تمنّيا ، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش وعاشا ،

---

(١) تعادى القوم ، أى تباروا فى العدو .

(٢) استهوته الجن ، أى ذهبت بهواه وعقله .

(٣) الكراع : مستدق السّاق من البقر والغنم .

(٤) البيتان الأولان ينسبان لعمرو بن كلثوم ؛ وهما فى معلقته ص ٢١١ — بشرح التبريزى

فنادماه أربعين سنة ، ما أعادا عليه حديثاً ، فضرب بهما المثل فى تأكيد الألفة »
ونال مالك بن نويرة فى مالك :

وكنّا كندمانىْ جَذِيمة حِقْبـةً   من الدّهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعَا[(١)]
فلمّا تفرقنا كأنىّ ومالكاً   لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً مَعَا

وتمثلت بهما عائشة رضى الله عنها عند قبر أخيها عبد الرحمن .

وقال أبو خراشٍ الهذلى يرثى أخاه:

تقول أراه بعد عُرْوَة لاهياً   وذلك رزء لو علمت جليلُ[(٢)]
فلا تحسبى أنْ قد تناسيت عهدَه   ولكنّ صبرى يا أميمَ جميلُ
ألم تعلمى أن قد تفرّق قبلَنا   خليلاً صفاء : مالكٌ وعقِيلُ

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العملبقى من العماليق ، ومنهم قوم من حمير . وكان ملكَ الجزيرة وملك الحضْر، وهى مدينة قديمة بين دِجْلة والفرات ، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفرّق جموعه ، وقال فى ذلك شاعرهم :

كأنّ عمرو بن برقا لم يكن ملكاً   ولم تكن حوله الرّايات تختفِقُ[(٣)]
لاقى جذيمة فى شعواء مشعلةٍ   فيها حراشِفُ بالنيران ترتشقُ

[الزباء]

فملكت بعده الزّباء ابنته واسمها نائلة .[(٤)]

قال ابن الكلبىّ : ولم يكن فى عصر الزباء أجمل منها جمالا ، وأكمل

---

(١) من قصيدة مفضلية ص ٢٦٧ .
(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢١٦ .
(٣) البيتان فى تاريخ الطبرى ١ : ٦١٨ بنسبتهما الى الأعور بن عمرو بن هناءة بن مالك بن فهم الأزدى وفيه : «عمرو بن تربى» .
(٤) خبر الزباء وجذيمة فى كتاب المغتالين من الأشراف ١١٢ ـ ١١٥ .

منها كالا ، وكان لها شعر إذا مشت يتدلّى وراءها، وإذا نشرته جلّلها، فسمّيت الزباء ، لكثرة شعرها ،فجمعت خيل أبيهاوغزت بالجيوش مَنْ حواليها من الملوك، فذلّلتهم ، فضُرب بها المثل فقيل : أعزّ من الزباء ، واشتهر عنها علوّ الهمة ، وسموّ القدرة ، وقوّة المنعة ، ومَضاء العزم ، وبذْل الأموال . فلما استحكم مُلْكها أرادت أن تغزُوَ جذيمة لتُدرك فيه ثأر أبيها ، فنهتها أختها زَبيبة عن ذلك وقالت : لاطاقة لكِ به ، ولكن ابْنِي أمرَكِ فيه على المكر والحيَل . فبعثتْ إلى جذيمة تخطبه على نفسها،ليتّصل ملكه بملكها ، فيصيرا بذلك أعزَّ الملوك - وكان بلغه عن جمالها ماأطمعه فى الظَّفَر بها - فاخبرأرباب دولته بمخاطبتها إيّاه ، فكلّهم أشار عليه أن يتزوّجها، إلا قصير بن سعد[1] بن عمرو - وكان لبيباً عاقلاً له عزم وحزم ، وكان خازنَه وعميد دولته - فإنه قال له : هذا رأى فاتر ، لأن الزباء قتلتَ أباها والدم لا ينام ، ولك فى بنات الملوك الأكفاء متّسع ، فقال له الملك : إنّ النفس إلى ما تحبّ توّاقة ، وإن كان القدَر قد جرى بشىء فلا مفرّ عنه .

وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح ، وقالت له : لولا أنّ السعى فى مثل هذا للرّجال أجمل، ولهم ألزم ، لسرتُ إليك. وأهدت مع كتابها من العبيد والسلاح والأموال والذهب هديّة سنية ؛ فلماوصلت أبهجتْه ، وحسب أن ذلك لفرط رغبتها فيه ، فشاور قومه وابن أخته عمرا ، فشجعوه على المسير إليها ، واستخلف عَمْراً على ملكه ، وسار فى خواصّه حتى نزلوا بالفُرْضة ، فشاور خواصّه وقصيرا فى الجملة ، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيرا ، فإنه قال : أيّها الملك كلّ عزم لا يؤيّد بحزم فآخره إلى فساد ؛ ولولا أن الأمور تجرى على المقدور ، لعزمت على الملك ألاّ يفعل ، فقال جذيمة : الرأى مع الجماعة ، فقال قصير : أرى القدَر سابق الحذر، ولايطاع لقصيررأى . فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها

(١) ط : « سعد » ـ تحريف .

بموضعه ،فأظهرتالسرور به ، وأخرجت له هدايا وأنواعا من الأطعمة والأشربة. فقال لقصير : كيف ترى ؟ فقال قصير : مَنْ لم ينظر فى العواقب لم يأمن المصائب ، فاستدرك الأمر قبـــل فوته ، وارجع فإنّ فى يديك بقية تستدرك بها الصّواب، وإن كنتَ لابدّ فاعلا فإن القوم إنْ تلقَّوْك غداً يجىء قوم ويذهب قوم، فالأمر فى يديك،وإن تلقّوك صَفّيْن فإذا توسطتهم وأحدقوا بك ، فقد ملكوك ، وهذه العصا — وهى فرس لجذيمة تستبق الطير — فسأعرضها لك فاركبها لتسلم عليها ، فإنه لايُشَقّ غبارها ، فأرسلها مثلا .

فلما كان غد لقوْه صفين ، فلّما توّسطهم انقضُّوا عليه ، فقال لقصير: صدقتَ فما الرأى ؟ فقال له: بِقّة تركتُ الرأى ، وهذه العصا ، اركبها ، فشغلَه الأمر عنها . فلما رأى قصيرالجيوش نسير بجذيمة أعطى العصا عِنانها ، فهوت به هُوِىّ الرّيح ، فتطاول إليه جذيمة ينظره ، فقال: ويل له جذيمة؛ لجرت به إلى غروب الشمس .

ـ قال الأصمعى رحمه الله تعالى : لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلا ، ثم وقفت فبالت ، فبُنى على الموضع بُرْج يسمى برج العصا ـ وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة ، وهو يساق ، فقالت: ماأحسنَكَ من عروس يزف إلىّ ! فدخلوا به إليها ، وحولها ألف وصيفة ، لاتشبه واحدة صاحبتها فى خَلْق ولازِىّ ، وهى بينهنّ كالقمر حفت به النجوم ، فأمرت بالأنطاع فبُسطت ، وقالت للوصائف : خذن بيد سيدكنّ وبَعْل مولاتكنّ ، فأجلسنه على الأنطاع ، ففعلن به ذلك ، ثم كشفت له عن شَعْرتها [1] ، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها ، فقالت له :ياجذيمة أشوارذات عروس ؟ قال : بل شوار بظراء تِفَلة ،وأمْر غدر قد بلغ المدى [2] ، فقالت : والله ما ذاك من عدم المواس ، ولكنهاشيمة أناس .

---

(١) الأشعران : جانبا الفرج ، وفى ط : « شعرتها» .

(٢) فى المقتالين : فقالت : ياجزيعة ، أذات عروس ترى ، قال : بلغ المدى وجف الثرى، وأمر غدر أرى.

ثم أمرت به فسُقى بالخمر حتى أخذت فيه ، وكانت الملوك لا تضرب أعناقها إلاَّ فى الحرب[1] ، ثم أمرت أن تقطع رواهشه[2] ، وقالت : تحفّظن بدمه ، لأنه إن قطرت من دمه قطرة فى غير الطشت طُلبَ بدمه ، فجرى دمه فى طشت ذهب ، فلما ضعفت يداه سقطتا ، فقطرت على النّطع من دمه قطرات ، فقالت : لاتضيّعُوا دم الملوك ، فقال لها « لا يحزنك دمٌ ضيّعه أهله » ، فذهبت مثلا ، فقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكَلَب ، ووالله ماوفّى دمك ولا شفى قتلك ، ثم أمرت به فدفن .

وكان عمرو بن عدى يخرج كلّ يوم لبعض الحيرة ، يستطلع أمرخالِه ، فنظر يوما إلى فارس قد أقبل ، فأشرف عليه قصير ، فقال له : ماوراءك ؟ فقال له : سعى القدر بالملك إلى حتفه ، فاطلب بثأره ، فقال عمرو : وأىّ ثأر يُطلب من الزّبا ، وهى أمنع من عُقاب الجوّ ! فقال قصير : والله لاأنام عن طاب دمه مالاح نجم ، فاجْدَع أنفى واضرب ظهرى ، ودعنى وإياها . فقال عمرو : ما أنت لذلك بأهل ، وقد علمتُ نصحَك لخالى . فقال: خلّ عنى إذًا ، فجدَع أنفه وَلحِق بالزباء ، فقالت: ماجاء بك؟ فأشار بظهره وأنفه ـ فقالت العرب: «لأمرماجدعقصير أنفه!» فقالت : ياقصير ، بيننا دم خطير ، فقال : يا ابنة الملوك العظام لاثأر ولا قوَد ، ولقد أتيت فيه على ما يأتى مثلك فى مثله ، وقد جئتك مستجيراً بك من عمرو . فإنه علم أنى أشرت على خاله بالمجىء إليك ، فجدع أنفى وأذنى ، وأوجع ظهرى ، وحال بينى وبين مالى وولدى ، فاستجرتُ بك لعلمى أنّى لا أكون مع أحد أثقلَ عليه منك ، فقالت له : أهلاً وسهلا ـ وكان يبلُغهامن رأيه وحزمه ـ فاختصّته وأنزلته واصطفْته ، فلما وثقت به ، أخذت تستشيره فى أمورها . فقال لها يوما : إن عمرا يطلبك بخالِه ، والرأى أن تتخذى نفقا لعلك تحتاجين إليه ، فقالت له :

---

(١) بعدها فى مجمع الأمثال : « تكرمة لهم » .
(٢) الرواهش : « عروق ظاهر الكف » .

إنّي قد اتخذته تحت سريري ، وخرجت به تحت سرير أختي ـ وكان الفرات يشق بين قصيريهما ـ فأظهر لها السرور ، ثم قال لهـا : إنّ لي بالعراق أموالاً كثيرة تصلح بالملوك فإن جهزتِني بمال للتجارة ، توصلت فيه إلى أخذ تلك الذخائر ونقلها إليك ، فجهّزته . فاحتال حتى وصل إلى عمرو، فجهّزه بطُرَف من الجواهر والخزّ والديباج والأسلحة ، فرجع بها ، فلما تحققت نصحه ، أرسلته إلى العراق ثالث سفرة ليضرب لهـا بها عدّة من السلاح ، ويشترى لها خيلاً وعبيدا لتجهّز جيشا إلى مَنْ حواليها من الملوك ، فمشى فيما أمرتْه به ، وتوصل إلى عمرو ، وقال: قد أصبتُ الفرصة من الزّبّاء، فقال عمرو: قل أسمع، ومر أفعل، فأنت طبيب هذه القَرْحة ، فقال : الرجال والمـال ، فقال : حكمك فيما عندى مسلّط، فعمد إلى ألفي رجل من أهل القتال ،وجعلهم فى غرائر سود ، وجعل سلاحهم السيوف والحَجَف(1) ،وجعل رءوس الغرائر مربوطة من داخلها،وجعل عمرا فى الحملة ، وساق الخيل والعبيد ، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ماجاء به ، فسألت عن العِير أين نزل ؟ فقيل لها : بالغوير ـ وكانت تنظره من غير طريق الغوير ـ فقالت: عسى الغوير أبؤسا ، وتقدّم قصير، فدخل عليها فبشّرها ، فرقيَتْ سطحا عاليا لتنظر مجيء الإبل،فنظرت قوائمها تسوخ فى الأرض لمـا عليها من الأثقال ، فقالت : يا قصير :

ما للجمال مشيُها وئيدَا أجندلاً يحملن أم حديدا !
أم صَرَفانا(2) بارداً شديداً أم الرجال جُثَّما قعـودا

وكانت قالت لجواريها : إنى أرى الموت الأحمر فى الغرائر السود ، فذهبت مثلا

فدخلت الجمال المدينة ، فجسّ بواب بمخصرة فى يده غرارة على آخر بعير ،

---

(١) الحجف : بالتحريك : التروس من جلود بلا خشب ولا عقب .
(٢) الصرفان . تمر رزين صلب .

فأصابت المخصرة خاصرة رجل فضرط فصاح: الشر الشر ، فأظهروا علامة كانت بينهم ، فحلوا رءوس الجوالق ، فخرج منها ألفا دارع بألفى سيف ، فصاحوا: يالثأر الملك المقتول غدراً ! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات ، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير ، وكانت صورة عمرو مصورة فى جانبها ، فعندما رأته عرفته ، وكانت جعلت تحت فص خاتمها سم ساعة فمصت الفص ، وقالت : بيدى لا بيد عمرو . فسقطت ، وعمرو وقصير يضربانها بالسيف ، فماتت بين السم والسيف ، فاستباحوا بلدها بما فيه ، واستولى عمرو على مملكتها . واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه، وتوارثها بنوه واحدا واحدا إلى النعمان بن المنذر، وهو الذى أدرك زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتله كسرى ، وهو آخرهم ، وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام . وقال ابن دريد :

وسيفُ عمرو أستَعْلتْ به همتهُ حتى رمى أبعــدَ شأو المرتمَى[1]

فاستنزل الزّباء قسراً وهى من عُقاب لوح الجوّ أعلى منتهى

* * *

إلى حديقةٍ أخذتْ زُخْرَفَها وازّيّنتْ، وتنوَّعتْ أزاهيرُها وتلوّنتْ، ومعنا الكميتُ الشَّموس، والسقاةُ الشُّمُوس . والشّادِي الذى يُطرِبُ السَّامِعَ ويُلْهِيهِ ، وَيَقْرِى كُلَّ سَمْعٍ ما يشتهِيهِ . فلمّا اطمأنّ بنا الجُلوسُ ، ودَارَتْ علينا الكُئوس ، وَغَلَ عَلَيْنَا ذِمْرٌ ، عَلَيْهِ طِمْرٌ ، فتجهّمناهُ تَجَهُّمَ الغِيدِ الشّيبَ ، ووجَدْنا صَفْوَ يومنا قدْ شِيبَ .

* * *

[فصل فى الرياض والبساتين وبعض ما ورد فيها من الشعر]

قوله : إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت .

---

(١) المقصورة ١١٩

نُريد أن نصل باب الرياض والبساتين، إذ هي جامعة ألوان لم تدخلها الصنعة، ولم تمازِجْها الكلفة، مع بديع أزهارها التي سمّاها الله سبحانه وتعالى زينة، وزخرفاً فقال تعالى: ﴿حتّى إذا أخذت الأرضُ زخرفها وازّيّنت﴾، وأن نجتنيَ فيه بعض ماقالت العرب، ونقلته الرواة من الشعر المستحسن، والتشبيه المشاكل، فإن جُلّ النفوس مستأنسة به ونازعة إليه، ومرتاحة لذكره، ومشتاقة إلى زمانه، ولا تكون الرياض مونقة، والأزهارُ مشرقة، إلاّ في اعتدال الزمان، وجدّة الأيام، وهي إذا حلّت الشمس في برج الحمل، كما قال الحسن:

أما ترى الشمسَ حلّت الحملاَ ... وقام وزنُ الزمان واعتدلاَ (١)
فاشرب على جدّة الزمان وقدْ ... أصبح وجه الزمانِ مقتبلاَ
وغنّت الطيرُ بعد عُجْمتها ... واستوفت الخمرُ حولها كَملا

قال الأصمعي رحمه الله تعالى: سألت أعرابيّا عن الغيث، فقال: عُلّلت الحياض، وأشرقت الرياض، وأخرجت الأرض زخرفها، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقيل لأعرابيّ: أيّ شيء رأيتَ أحسن؟ فقال الأعرابيّ: ظباء راتعة، في رياض يانعة، والشمس طالعة.

وقيل لآخر: صف لنا الربيع وأوجزْ، فقال: هو صديق النّفس بريحانه، ومِلك الطّرف بريعانه، مع أنه أشكل بالشبيبة، وباعث الشهوة البعيدة.

وقال إبراهيم بن السدّي: خرجت أريد نزهة نهر الأُبُلّة مما يلي كاظمة تميم وقصر مَعْبد، حتى غوّرت في مبنى أتخيّل الرياض، وأجيل ناظري في مساقط الغيث، حَتى دفعتُ إلى أعرابيّ عند روضة غنّاء، عميم نبتها، زاهر نورها، يطيف بها، فقلت: يا أعرابيّ، أحسنٌ عندك ماترى؟ فقال: كلاّ والله، سماء

(١) ديوانه ٣١٣

مظلة وأرض مقلة ، تضحك هذه عن بكاء هذه ، فما شئت من درة بيضاء ، وياقوتة حمراء ، وزمردة خضراء ، قد نظمتها أيدى المزن فى نحور الصعيد .

وقال يزيد بن ماهان الأومى : أتيت أرضَ السماوة فى أنْفِ[1] من الربيع، وقد اكتهل النبت ، فلما جزتُ ساحةَ الحىّ دفعت إلى جوار كأنهن دُمى العاج ، يمشين كقضيب البان ، وبين أيديهن روضة مشرقة، وهن يَطُفْنَ بها، ويهبْن الولوج فيها . فقلت : مالكنّ لاتلِجن الروضة ، فهى أوطأ لأقدامكنّ، وأقرب لإثارة أرَجها من أنوفكنّ ؟ فقالت إحداهن : أحرام عندكَ أن يطأ بعضنا خدود بعض ؟ قلت : بلى والله ، قالت : فوجْه الأرض أحق بالتحريم أن يحصد أو يُتوسّد .

وبعث الحجاج إلى عبد الملك بجاريتين ، وكتب إليه : هما عندى بمنزلة روضتين من رياض السّماوة، جاد الربيع أوّله وآخره عليهما، فاعتمّ نبتهما ، ونوَّر زهرهما، وحسُن منظرهما ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بهما مباركا له فيهما .

وقد ذكرت الشعراء الغيثَ والرياض بألفاظ مستحسنة ، ومعان مستظرفة، وتمثيل رائع ، وتشبيه رائق ، يبعث السرور ، وينفى لوعة المحزون، ويجلب أريحية الفتوة والشباب ،فنذكر هنا من محاسن أشعارها ولطائف مذاهبها فى ذلك مانرجو به أن يفِىَ بالغرض الذى قصده وضمّنه الحريرىّ صدرَ هذه المقامة ونوافقه ، ونشرح منزعَها الشريف فى ذلك ونحققّه إن شاء الله تعالى .

أنشد السِّيرافىّ رحمه الله تعالى يصف روضة :

نضّاخة تملأ العينين بهجتُها ... فيحاء حُفّتْ بأنواع الرياحينِ

فى ظل آس وجرجير ونرجسةٍ ... وسوسَن زان وردا بين نسْرينِ

وكرْمة ذات أعنابٍ مذلّلة ... من كلّ أقطارها تحت الأفانينِ

(١) أنف الربيع : أوله

شبّهت فيهـا العناقيد التى بقيتْ … أولاد زنجية فُطْسَ العرانينِ
فتارةً من يواقيت منضَّدةٍ … وكالزَّبرجد فى بعض الأحايينِ
فعينها غَـدَقٌ وماؤها غبقٌ … وريحها ريح مسك الهند والصينِ
فيها زرابىّ قـد بُثَّتْ ملمَّعة … يضحكن عن زهر أنواع البساتينِ

فعارضه حسن الكوفىّ ، فقال :

كأنّها كاعبٌ حسناء أبرزَها … عيد فلم تألُ فى طيبٍ وتزيينِ
تبرّجَت لتروقَ الناسَ بهجتها … فالناس مابين مبهوت ومفتونِ
والأيك مائلة الأغصان زائدة … قد كسيت زخرفا حمرَ الأفانينِ
إذا الرَّخاء جرت فى نَوْرها لفظت … قُراضةً من حرير الرىّ والصينِ
كأنما ألبِست أكامها حُللاً … من وشى إسكندرٍ أو مِنْ نصيبينِ

وقال علىّ بن الجهم :

لم يَضْحك الروض إلا حين أعجبه … حسنُ النّباتِ وصوتُ الطّائرِ الغَرِدِ[١]
بدا فأبدى لنا دنيا محاسِنهـا … وراحت الراح فى أثوابها الجُدُدِ
ماقابلتْ قُضُبَ الريحان طلعتَه … إلا تبيَّن فيه ذلة الحسـدِ
بين النديمين والخِلّيْنِ مسرعة … وسيرهُ بيـد موصولة بيدِ
فبادرتْه يد المشتاق تَسْنُده … إلى الترائب والأحشاء والكبدِ
لا عذّب الله إلا مَنْ يعذّبه … بمسمع بارد أو صاحب نكدِ

وقال البحترىّ :

سقى الغيثُ أكنافَ الحمى من مَحَلّةٍ … إلى الحِقْف من رمل اللِّوى المتفاودِ[٢]

---

(١) ديوانه ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) ديوانه ٦٠٣ . والحقف . المعروج من الرمل . واللوى : ماالتوى منه .

ولا زال مخضرٌّ من اللون يانع[١] عليــه بمحمرٍّ من النَّوْر حاشدِ[٢]
يذكرنا رؤيا[٣] الأحبة كلَّما تنفس فى جُنْحٍ من الليل باردِ
شقائق يحملن الندى فكأنَّه دموع التصابى فى خدود الخرائدِ
ومن لؤلؤ كالأقحوان منظمٍ على نُكَتٍ مُصفرَّة كالفَرائدِ

وقال أيضاً :

وكأنَّ الحوادث والأقحوان الـ غضّ نظمان : لؤلؤٌ وفريدُ[٤]
قطرات من السحاب ورَوْضٌ نثرت وردها عليه الخـــدودُ

وقال أيضاً :

وقد نبَّه النَّوروزُ فى غَسَقَ الدجى أوائل وردٍ كنَّ بالأمس نُوَّما[٥]
ومن شجرٍ رَدَّ الربيع لبــاسَهُ عليه كما نشَّرْت بُرْداً متنَمنما

وقال الحسن بن وهب :

طلعَتْ أوائلُ للرَّبيـع فبشَّرَتْ نَوْرَ الرياض بجـدَّةٍ وشَبابِ
وغدا السحاب يكاد يسحب فى الثرى أذيال أسحمَ حالك الجلبابِ
يَبْـكى فيضحك نورهنّ ، فيالَهُ ضحكا تحسَّر عن بـكاء سحابِ
وترى السماء إذا أجدَّ ركابُها فكأنما التحفتْ جَنَاح غُرابِ
وتَرَى الغصون إذا الرياح تأرَّجَتْ ملتفَّةً كتعانُق الأحبـــابِ

ولأبى زرعة الدمشقى :

وقد أخذت زهر الرِّياض حُليَّها وألبست الأرضَ الفضاء الزخارفُ

---

(١) الديوان: مخضر من الروض .
(٢) الديوان : « حاسد » .
(٣) الديوان : « ريا » .
(٤) ديوانه ٧٢٢ ، ٧٢٣
(٥) ديوانه ٢٠٩٠

لُجين وعِقيان يروق وجوهرٌ   تؤلّفه أيدِى الربيع اللطائفُ
تهادى التلاع الغور مِسْكا وعنبراً   تؤديه أنفاسُ الرياحِ العواصفُ
كأنَّ أباريق المُدامة بينها   من المنظر الأعلى ظباءٌ رَواعِفُ

ولبكر بن حماد :

فسقياً لأيّامِنا الذاهباتِ   لقد فارقتنا بصَفْوِ الْهَوَى
وهذا الربيع ورَيْعَانُهُ   يجَدّدُ عهدًا لها قد مَضَى
يذكّرنى الورد حمرَ الخدودِ   ولُعسَ الشِّفاه إذا ما بَدَا
وسَوْسنه صحن خد الفتا   ة إذا برزتْ لمحبٍّ أتى
ونشر الرِّياح رياح الحبيبِ   تباعَدَ موعدُه أو دَنَا
يجود بها الطّلُّ وشى النّبات   وينظمه بلآلِي النَّدى

ولمحمد بن يزيد :

وروضة صنف النوّار جوهرَها   فيها كماشئت من حسن ومن طيبِ
كأنَّ ما تجتنيه من زخارفِها   أخلافُ مستحسن الأخلاق محبوبِ
ما انفك للعين فيها أعينٌ ذرف   تبكى بدمع من الأنواء مسحوبِ
حتى كأن أفانين النّبات بها   على الميادين ألوانُ اليَعَاسيبِ
كأنَّ غدرانها بالروض محدقةٌ   تحبير ثوبٍ من الوشِيِّ مخضوبِ

وقال كشاجم :

إلَى الرّوض الذى قد زينته   شآبيب السَّحائب بالبكاء
بكين عليه فابتهجت رُباه   تباهى فى زخارف نسج ماء

كأن الأقحوان بجانبيـــــه عـذارى يَبْتَسِمنَ من الحيـاء

وقال ابن الزّقاق :

وحدائقٍ خُضْرِ المعاطف أُلبِسَتْ من حسن بهجتها ثياب زَبَرْجَدِ[1]
جرّتْ عليه الشمسُ فَضْلَ ردائها[2] فيُرَى زبرجد هنّ تحت العسجد

وقال أيضاً :

وروضـــةٍ عاطر بنفسجُها عطّرها وشيُها وسندسُهَا[3]
لما غذتْها السّحابُ دِرّتَهـا من فوق حَوْذانِها ونَرْجسها[4]
خاف عليـه الغمامُ حادثةً فسلَّ سيف البرق يحرسُها

وقال أيضاً :

نُـثِر الورد فى الغدير وقد دوّحَهُ بالهبوب نَشْر الرِّياحِ[5]
مثل درع الكمى مَزّقها الطّعْـنُ فسالت دماه بِجَراحِ

وقال أيضاً ،

وقزازة زَرْقاء راق صفاؤُها قد ضم زهر الجلّنار رداؤهـا[6]
فاعجب لراح كأسُها من فضّة ما إن تسيل وقد يسيلُ إناؤها

(١) ديوانه ١٤٠

(٢) الديوان : «زرت عليه الشمس»

(٣) ملحق ديوانه ٢٩٤

(٤) فى الأصول : « حواداتها » ، والمثبت من الديوان . والحوذان : نبت .

(٥) ديوانه ١٣٠ ، وفيه : «وقد درجه » .

(٦) ديوانه ٢٨٢ .

ومن ملح الأدباء وما تصرفوا به فى الأنوار ما كتب به أبو دلف إلى ابن طاهر يعاتبه :

إخاؤكم كالورد ليس بدائمٍ ولا خير فيمن لا يدومُ له عهدُ(١)
وعهدى لكم كالآس حسناً وبهجة له ورق خضر إذا فنى الوَرْدُ

فأجابه ابن طاهر :

وشبَّهتَ ودِّى الورد فيما تذمّه وهل زهرة إلاَّ وسيدُها الورْدُ(٢)
إخاؤكم كالآس مرّ مذاقُــــه وليس له فى الريح قبلٌ ولا بَعْدُ

ولم يأت أحد بأخبث من تشبيه ابن الرومى فى ذمّ الورد :

كأنه سُرمُ بغــل حين أبرزَهُ بعد الخراء وباقى الرَّوْث فى وسطهْ(٣)

وقال أبو الشيص :

يامن تَجَلّى بريحانٍ ينادمه من بين ورد وخيرىّ ونَسْرِينِ(٤)
وياسمين وعودٍ ما يغــــيره ما كان أحسن ذا لو لم يكن دونى

وقال أبو المعلى الطائى :

كأن عيونَ النور زُيِّنَّ بالنــدى عيونٌ تراسلن الدموع على عذلى

وقال أيضاً :

ترَى للنّدىَ فيه مجالا كأنّما نثرن عليه لؤلؤا فتبــدّدا

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٣
(٣) نهاية الأرب ١٠ : ١٩٢ ، وقبله :

مادِحَ الورْدِ لا تنفكُّ عن غلطٍ ألسْتَ تَنْظُرُهُ فى كفِّ مُلْتَقِطِهْ

قوله : حديقة ، أى بستان . زخرفها ، أى زينتها . تنوّعت أزاهيرها : اختلفت أنواع أزهارها .

وهذه الحديقة التى ذكر من حسنها، مثل البستان الذى دخله عُروة بن الزبير مع عبد الملك بن مروان - وكان عروة معرِضاً عن الدنيا - فحين رأى فى البستان الوصف الذى ذكر الحريرى قال : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، لأنه يؤتى أكله كلّ عام وأنت تؤتى أكلك كلّ يوم ، وكان عبد الملك يحب عروة ويعظّمه، على ما بين الزبيريّة والمروانية من التباغض .

وقال لابن شهاب حين وفد عليه : عند من طلبت؟ قال: عند سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب ، فقال عبد الملك : فأين أنت من عروة بن الزبير! فإنه بحر لا تكدّره الدلاء. قال ابن شهاب: فلم أبارح عروة بعد حتى مات.

قال ابن وكيع فى وصف ما ذكره الحريرى :

ألست تَرى وشْىَ الربيع تنمْنما ... وما صنع الرّبعىّ فيه ونظّما[(١)]

وقد حكت الأرض السماء بنوْرِها ... فلم أر فى التشبيه أيُّهما سَمَا

فخضرتهـا كالجوّ فى حسن لونِهِ ... وأنوارها تحكى لعينيك أنجما

فمن نرجسٍ لما رأى حُسْنَ نفسه ... تداخله عجب به فتبسَّما

وأبدى على الورد الجنىّ تطاولا ... وأظْهر غيظ الوْرد فى خدّه دما

وزهرِ شقيق نازع الوردَ فضلَه ... فزاد عليه الورد فضلاً وقدَّما

فظل لفرط الحزن يلطِم خدّه ... فأظهر فيه اللّطم جمرًا مضرّما

ومن سوسنٍ لما رأى الصّبغ دونه ... على كل أنواع الرياض تقسّما

تجلبب من زرق اليواقيت حُلّة ... فأغرب فى الملبوس فيها وأحكما

(١) ديوانه ٩٢ ، ٩٣ ، يتيمة الدهر ١ : ٣٣٦ .

وأنوار منثور يخالف شكلُها فصار بهـا شكلُ الربيع منمنما
جواهر لو قد طال فيهـا حياتُهـا رأيت بهـا كلّ الملوك مختما

وقالو أبو بكر البلوىّ :

وروضةٍ بات طَلُّ الغيث ينسجُها حتَّى إذا التحمت أضحى يدبِّجُهَا
يبـكى عليهـا بـكاء الصبّ فارقه إلفٌ فيُضحكها طورا ويُبهجُها
إذا تنفّس فيها ريحُ سوسَنِها وفاح مثل خُزاماها بنفسجُها
أقول فيهـا لساقينا وفى يدِه كأس كشعـلة نار إذ يوهِّجُها :
لا تمزجنْها بغير الريق منك فإنْ تبخل بذاك فدمعى سوف يمزجُها
أقلّ مابى من عينيـك أنَّ يدى إذا دنت نحو قلبى كاد يُنضجُها

وقال الوزير المهلّبىّ :

الورد بـين مضمَّخٍ ومضرّجٍ والزّهـر بين مكلَّلٍ ومتوَّجِ
طلع النهـار فـلاح نَوْر شقائقٍ وبدت سطور الورد بين بنفسجِ
والثلج يهبط كالنّثار فقم بنـا نصبحْك بابنة كرمة لم تمزجِ
فـكأنَّ يومك فى غلالة فضةٍ والنبت من ذهب على فَيْروزجِ

وقال السرى :

وحديقة يُنْسيك وشى بُرُودها حتى تشبِّهها سبائب عبقرِى [1]
يجرى النّسيم خلالَها فـكأنّما غُمِستْ فضولُ ردائها فى العنبرِ
طارت قلوبُ المحـل تخفِقُ بينَها بخفوق رايات السحاب الممطرِ
طارتْ عقيقـة برقه فـكأنّمـا صدعتْ ممسك غيْمِهِ بمعصفرِ

---

(١) ديوانه ١٠٩، اليتيمة ٢ : ١٥١

وقال السّلامى :

نَسَبُ الرِّياض إلى الغمام شريفُ   ومحلُّها عند النسيم لطيفُ[١]
أو ما ترى طرز البروقِ توسّطتْ   أفقاً كأنّ المزن فيه شنوفُ[٢]
واليومُ من خَجل الشقيق مضرّجٌ   خَجِلٌ ومن مرض النسيم ضعيفُ
والأرض طرسٌ والرياضُ سطورُه   والزهر شكلٌ بينها وحروفُ
فأدِرْ سقيتَ الرّىّ جامَكَ إنه[٣]   يومٌ على كبد الزمان خفيفُ

قوله : الكميت ، يعنى الخمر . الشَّموس : التى فيها حدَّة . والشُّموس : السقاة الذين وجوههم كالشمس ، وللسّلامى فى ذلك :

وظبية من بنات الأنس فى يدِها   ووجهها للصِّبا والحسن خاتام[٤]
قد حلت لؤلؤ الأزرار عن دُرَرٍ   لهن فى ثغرها الفضىّ أتوام[٥]
وزارت الأرضَ منها مقلتان لها   وحشيّتان وعذب الريق بسّامُ
والكأس للسكر التبرىّ صائغةٌ   والماء للحبب الدرِّىّ نظّامُ
بِتْنا نكفكف بالكاسات أدمعَنا   كأننا فى حُجور الرَّوض أيتامُ

وهذه أشعار غريبة عجيبة ، ولابن سكرة فى ذلك :

اشرب ففى اليوم فضلٌ لو علمتَ به   بادرت باللّهو واستعجلتَ بالطَّرَبِ[٦]
ورد الخدود وورد الروض قد جُمِعا   والغيم مبتسمٍ والشمس فى الحجبِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٨٠ .
(٢) اليتيمة : « شفوف » .
(٣) اليتيمة : « فاشرب وثقل وزن جامك إنه » .
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٩ . وخاتام ، أى خاتم .
(٥) أتوام : جمع تومة ؛ وهى اللؤلؤة الكبيرة .
(٦) يتيمة الدهر ٣ : ١٦ .

لا تحبس الكأس واشربها مشعشعة   حتى تموت بهـا موتاً بلا سببِ

وقال سيف الدولة وذكر قوس قُزح :

وساقٍ صبيح للصَّبُوح دعوتُه   فقام وفى أجفانه سِنَةُ الْغَمْضِ [(1)]
يطوف بكاساتِ العقار كأنجمٍ   فمن بين منقضٍّ علينا ومنفضّ
وقد نشرت أيدى الجنوب مَطارفا   على الجوّ دُكْناً والحواشى على الأرضِ
يطرِّزُها قَوْس السماء بأصفرٍ   على أخضرٍ فى أحمرٍ تحت مبيضّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غلائلٍ   مصبَّغة والبعضُ أقصرُ من بعضِ

وهذه من التشبيهات الملوكية التى لا يحضر السوقة مثلها . وقال ابن الزقاق:

وشادنٍ طاف بالكئوس ضحًى   فحثّها والصَّباح قـد وضَحا [(2)]
والرَّوض يُبدى لنـا شقائقَهُ   وآسه العنـبرىّ قد نفحَا
قلنـا وأين الأقاح ؟ قال لنـا   أودعته ثَغْر مَنْ سقى القدحاَ
فظلّ سـاقى العقـار يجحزه   عنّـا فلمّـا تبسَّم افتضحا [(3)]

وقال أيضاً :

نَبّهتُه ونجومُ الليـل زاهرة   والفجر منصدعٌ والصُّبحُ قد لاحا [(4)]
والليل منهزم ولّتْ عساكره   والرَّوْض مبتسمٌ والزهر قد فاحَا
فقـام يمسحُ عينيْهِ براحتِه   فخِلْتُهُ فى ظلامِ الليل مِصْباَحاَ

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ١٢٤ .
(٢) ديوانه ١٢٤ .
(٣) الديوان : « فظل ساقى العقار يجحد ما قال » .
(٤) ديوانه : ٢٩٢

قوله الشادى : المغنى . يلهيه : يشغله ويزيل همه . يقرى : يعطى ويهدى . سمع : أذن . ولبعضهم فى غلام مغن ـ وأجاد :

فديتك يا أتمَّ الناس ظَرْفاً ... وأصلحهم لمتّخذٍ حبيبا
فوجُهك نزهة الأبصار حُسْناً ... وصوتك أمتع الأصوات طيبا
وسائلةٍ تسائل عنْك قُلْنَا ... لها فى وصفك العجب العجيباَ
رنا ظبيا وغَنَّى عندليباَ ... ولاح شقائقا ، ومشى قضيباَ

وقال ابن الزقّاق :

يذكّرنى تحنانُ شدو غنائه ... على الأيْك تَحْنَان الحمام المغرّدِ (١)
له نغمات أفحمت كلَّ صادحٍ ... وصوتُ نشيدٍ قد شجا كلَّ منشدِ
فدعْ كل ماحُدِّثت عن صوت مَعْبَدٍ ... وطارحْ نشيداً عن نشيدِ ابن معبدِ

قوله : اطمأن ، أى استقر وسكن . وغلَ : دخل ، والواغل الداخل على الشّراب ولم يُدْعَ إليه . ذمِر : شجاع ، والذمر أيضاً : الخبيث ذو الدهاء ، وهو مخفف من ذمْر ، وهو الشجاع ، والجمع أذمار ، ومنه فلان حامى الذمار ، معناه : يحمى مايلزمه أن يحميه ، وسمى ذمارا لأنّ الإنسان يذمر نفسه ، أى يحرضها به ، وذمرتُ الرجل أذمره ، إذا حرّضته . طمْر : خلَق . تجهّمناه : عبسنا له ، والجهامة : العُبوس ، ويقال: تجهّمنى فلان بكذا ، يتجهّمنى بمعناه.

[مما قيل فى الشيب والشباب]

الغيد : النساء الحسان اللينات الأعناق . الشّيب: الشيوخ ، الواحد أشيب. شيب : كدّر ونغّص ، وأوّل من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله :

---

(١) ديوانه : ٢٩٢

أراهنّ لا يُحببن من قلّ ماله ... ولا من رأين الشّيْب فيه وقوّسا[١]

وعلقمة فى قوله :

إذا شاب رأسُ المرء أوقلّ مالُه ... فليسَ له من ودّهِنّ نصيبُ[٢]

وقال حبيب فى هذا المعنى فأحسن :

لعِبَ الشيب فى المفارق بل جــدّ فأبْــكَى تُماضراً ولعوباَ[٣]

يانسيبَ الثَّغام ذنبُك أبقَى ... حسناتى عند الحسان ذنوباَ[٤]

ولئن عبنَ ما رأين لقـد أنـ ... كرْنَ مستنكراً وعِبْنَ مَعِيبا[٥]

لو رأى الله أن للشيب فضلاً ... جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

وقال على بن الجهم :

أنــكرتْ ما رأت برأسِى وقالتْ ... أمشيبٌ أم لؤلؤ منظومُ[٦]

قلتْ أوْلاهُمَا برأسى فأنّتْ[٧] ... أنّةً يستثيرها المهمومُ

حسرتْ عنّى القِناعَ ظلُومُ ... فتولّتْ ودمعُها مَسْجُومُ

وقال عمرو الوراق:

لا تطلبنْ أثراً بعـينِ ... فالشيب إحدى الميتتين[٨]

أبدى مقـابح كل شيـ ... نٍ ومحـا محـاسنَ كلّ زينِ

(١) ديوانه ١٠٧ ، وقوس ، أى كبر وانطوى كانطواء القوس .
(٢) المفضليات ٣٩٢.
(٣) ديوانه ٢٥ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .
(٤) الثغام : شجرة بيضاء الزهر والثمر ، يشبه بها الشيب. وفى الديوان: «عند الغوانى» .
(٥) الديوان : « خيرا » .
(٦) ديوانه ١٧٦ :
(٧) الديوان :
* قلتُ شَيبٌ وليْسَ عَيباً ، أنّتْ *
(٨) الشيب والشباب ..

فإذا رأيتَ الغـــانيا ت رأينَ منك غراب بينِ
ولربما نافسن فيـ ـك وكنّ طوعاً لليدينِ
أيام هِمّتك الشبـــا ب وأنت سَهْلُ العارضينِ

الفنجديهى : من أحسن ما سمعت فى هذا المعنى قول ابن البياضى ، رحمه الله تعالى :

عرض المشيب بعارضيَّ فأعْرَضُوا وتقوّضت خِيم الشباب فقوّضُوا
فكأنّ فى الليل البهيم توسّطوا حفرا وفى الصبح المنير تقبّضُوا
ولقـد رأيتُ وما رأيت بمثـله بيناً غراب البين فيه أبيضُ

وقال حبيب وزاد فى الشيب نقاء الخد :

راحتْ غوانى الحىّ عنك غوانياً يلبسْنَ نأياً تارة وصُدُودا[(١)]
من كلِّ سابغة الشباب إذا بدتْ تركت عميد القريتين عميدا[(٢)]
أزرينَ بالمُرْدِ الغطارف بدَّنا غيـداً ألِفتهُمُ لدانا جيـدا
أحلى الرجال من النساء مواقعاً مَنْ كان أشبههم بهن خدودا
حتى إذا ما الشعر سوّد وجهه عاد المسوّد بينهنّ مَسُودَا[(٣)]

هذا من قول الأعشى :

وأرَى الغوانى لا يواصِلْنَ امرأ فقد الشباب وقد يصِلْنَ الأمْرَدَا[(٤)]

ولحبيب ـ وروى لأبى دلف :

---

(١) ديوانه ٨٧
(٢) الديوان : « عميد القوم »
(٣) لم يرد فى الديوان
(٤) ديوانه ٢٢٧ ، وروايته : « إن الغوانى » .

نظرت إلىّ بعين من لم يعدلِ لمّا تمكّن طرفُها من مَقْتَلِى
لمـا رأت وضَح المشيب بلحيتى صدّت صدود مفارق متحمِّلِ
فجعلت أطلب وصلَها بتلطّف والشّيب يغمزها بألاّ تفعل

وقال محمد بن أمية :

رأيْن الغوانِى الشَّيْب لاح بعارضِى فأعرَضْنَ عَنِّى بالخدودِ النَّواضر
وكنَّ إذا أبصرننى أو سمعننى دنَونَ فرفَّعن الـكوى بالمحاجرِ

وللشريف الرضىّ رحمه الله :

قالُوا المشيب فعِمْ صباحا بالنّهى واعقِرْ مِراحكَ للّطروق الزائرِ (١)
لودام لى ودّ الـكواعب لم أبلْ بطلوع شيب وابيضاضِ غدائرِ
لـكنّ شيب الرأس إن يك طالعا عندى فوصلُ البيض أوّل عابرِ (٢)
إن أعرضت عنه الخدود فطالمَا (٣) عطفتْ له بسوالفٍ ومحاجرِ
ولقد يكون وماله من عاذلٍ واليوم عاد وماله من عاذرِ
كان السّواد سواد عين حبيبه فغدا البياض بياضَ عين الناظرِ
لو لم يكن فى الشيب إلاّ أنه عذر الملول وحجة للهـاجرِ

وقال أيضاً :

لجام الشيب ثنى لى جيادِى وربانى لعـذّالى ورَاضَا (٤)
لوى عنّى الخدود من الغوانى وغمّض عَنِّىَ الحدَقَ المِراضا
وصار بياضُه عنـــدى سواداً وكان سوادُه عنــدى بياضا

---

(١) ديوانه ٣٧٠ .
(٢) الديوان : « غائر » .
(٣) الديوان : « إن أصفحت » .
(٤) ديوانه ٤٢٢ .

ودخل أبو دُلف على المأمون ، وقد ترك الخضاب ، فغمز جارية عنده أن تعبث به ، فقالت : شبتَ ياأبا دلف ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها ، فقال له المأمون : أجبها ، فأطرق برأسه ثم رفعه ، فقال:

تهزأتْ إذْ رأت شيبي فقلتُ لها لا تهزئى من يَطُل عمرٌ به يشبِ (١)
شيب الرجال لهم زين ومكرمةٌ وشيبكن لكنّ الويل فاكتئبي
فينا لكنّ ـ وإن شيب بدا ـ أربٌ وليس فيكنّ بعد الشيب من أربِ

* * *

إلاَّ أَنَّهُ سَلَّمَ تَسْلِيمَ أُولِى الْفَهْم ، وَجَلَسَ يَفُضُّ لَطَائِفَ النَّثْرِ والنَّظْمِ ، وَنَحْنُ نَنْزَوِى من انْبِسَاطِهِ ، ونَنْبرِى لِطَىّ بِساطِهِ ، إلى أَنْ غَنَّى شَادِينَا الْمُغْرِب ، ومغرِّدنا المُطْرِب :

إلاَمَ سُعَادُ لاتَصِلِينَ حَبْلِى وَلاَ تَأْوِينَ لِى مِمَّا أُلاَقِى
صَبَرْتُ عَلَيْكِ حَتَّى عِيلَ صَبْرِى وكادَتْ تبلغُ الرُّوحُ التَّرَاقِى
وها أَنَا قَدْ عزَمتُ على انتصافٍ أُساقِى فِيهِ خِلِّى ما يُسَاقِى
فإن وَصْلاً أَلَذُّ به فوَصْلٌ وإنْ صَرْماً فصَرْمٌ كالطَّلاَقِ

قال: فاستفهمْنَا العابث بالمثانى ، لِمَ نصب الوصْلَ الأوَّلَ ورفع الثانى ؟ فأَقْسَمَ بتُرْبةِ أبوَيْه ، لقدْ نَطَق بما اختاره سيبويه .

* * *

قوله: «يفضّ» يكسر. لطائم: أوعية الطيب، وجعلها للكلام مجازا. نزوى :

---

(١) العقد ٣ : ٥٢ .

ننقبض . وننبرى: نبادر. طىّ بساطه : لقطع كلامه . المغرب : الحسن الغناء الآتى بالغريب فيه . والشادى والمغرّد واحد وهو المغنى . المطرب : الآتى بالطّرب وهو الاهتزاز بالسرور ، وقد يكون من شدة الحزن، وقال ابن رشيق فى مغنّ :

غننى يامجوّد الخلق عندى : «حىّ نجداومَنْ بأكناف نجدِ»[١]
واسقنى مايصير ذو البُخْلِ منها حاتما والجبانُ عمرَو بن معدِى
فى زمان الشباب عاجلنى الشيـ ـبُ فهذا أوائل الدنّ دُرْدِى

وقال البجلى فى مغنية :

ولاعبةِ الوشاح بغصن بانٍ لهـا أثر بتقطيع القلوبِ
إذا استولت طريق العود نقْرا وغنَّتْ فى محبّ أو حبيبِ
فيُمْناها يفدِّيهـــا فؤادى ويُسْراها تفَدِّيها ذنوبِى

قوله : تأوين ، أى تشفقين . عِيل : غلب ، وأنث الروح لأنه ذهب به إلى النفس ، قال ابن ظفَر: الرُّوح الذى يكون به الحياة ، وإذا فارق الجسد كان الموت ، والنفْس التى بها العقل وهى المقبوضة عند النوم ، ولا معنى للإكثار فى هذا ، لأن الشارع ليس له فيه قول يعوّل عليه ، ولا للحواس على إدراكه حَوْل فنهتدى إليه.

التراقى : العظمان المعوجّان أعلى الصدر : خِلّى : صاحبى . صرم : قطيعة ، ويستقبح عندهم مجازاة الحبيب على إساءته ، كبيت امرئ القيس :

* فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ *[٢]

---

(١) نقله فى النتف ٢٦
(٢) ديوانه ١٣ وصدره :

* وإنْ تكُ ساءتْكِ مِنِّى خليقَةٌ *

وقول طرفة :

وإذا تلسُنُني ألسُنَهَا إنّني لست بموهون فقر[١]

وقول الأعرابىّ :

إن كان أهلك يمنعونك رغبةً عنّى فأهْلِيَ بى أضنُّ وأرغبُ

والمستحبّ عندهم قول ابن ربيعة :

ألا يامنْ أحبُّ بكلّ نفسى ومَنْ هو من جميع الناس حَسْبِي[٢]

ومن يظلم فأغفرْه جميعاً ومَنْ هو لا يهمّ بغفر ذَنْبِي

وقال أبو نواس :

جنان تَسُبّنِى ـ ذكرتِ بَخيْرٍ ـ وتزعم أننى رجل خبيثُ[٣]

وأن مودتى كذب ومينٌ وأنى للذى يُطْوَى بَثوثُ

وما صدقت[٤] ولا ردّ عليها ولكنّ الملول هو النّكوث

ولى قلبٌ ينازعنى إليها وشوق بين أضلاعى حثيثُ

رأت كَلَفِي بها ودوامَ عهدى فملّتْنى كذا كانَ الحديثُ[٥]

وقال ابن شهيد :

كَلِفت بالحب حتى لو دنا أجَلى لما وجدتُ لطعْمِ الموتِ من ألَمِ[٦]

وعاقنى كَرَمِي عمّن ولهتُ به ويلى من الحبّ أوويلى من الكرم

وأطرب من شعر المقامة للغناء ، ماحكى أن القاضى أبا عبد الله محمد بن عيسى

---

(١) ديوانه ٧٤

(٢) ديوانه ٤٨٥

(٣) ديوانه ٣٦٩

(٤) ديوانه : « وليس كذا ».

(٥) لم يرد فى الديوان

(٦) ديوانه ١٥٢

من بنى يحيى ، خرج إلى حضور جنازة ، وكان رجل من إخوانه ينزل بقرب مقبرة قريش ، فعزم عليه بالميل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وغنّت جاريته :

طابت بطيب لثاتك الأقداحُ وزها بحمرة وجهك التفّاحُ
وإذا الربيع تنسّمَتْ أرواحهُ نمّتْ بعَرْفِ نسيمك الأرواحُ
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها فضياء وجهِك فى الدّجَى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضى طرباً بها على ظهر يده ، ثم خرج . قال الراوى : فلقد رأيته يكبّر على جنازة والأبيات على ظهر يده .

وقال إبراهيم بن المهدى : دخلتُ يوما على الرشيد وفى رأسه فضلة خُمار ، وبين يديه المغنون ، فقال : يا إبراهيم ، بحقّى عليكَ غنّنِى ، فأخذت العودَ فغنيتُه من أشعار جرير :

أسرى لخالدة الخيال ولا أرَى شيئاً ألذّ من الخيالِ الطارقِ (١)
إن البليّة من تملّ حديثه فانبع حديثك من حديث الوامقِ (٢)
أهواك فوق هوى النّفس ولم يَزَلْ مذ بنْتِ قلبى كالجناح الخافق
شوقا إليك ولم تجار مودتى ليسَ المكذّب كالحبيب الصادق (٣)

وقال إبراهيم الموصلى لابن جامع : لو هذا طلب الغناء كما نطلبه ، ما أكلنا معه الخبز ، فقال ابن جامع : صدقت .

ومما ينتظم فى هذا النمط ويغنّى به قولُ الآخر :

قال الوشاة لهند عن تصارمنا ولست أنسى هوى هندٍ وتنساني
قد قلت حين بدا لى بخلُ سيدتى وقد تتبع فى بثى وأحزانى
هل تعلمين وراء الحب منزلة تُدْنِى إليك فإنّ الحب أقصانى

---

(١) ديوانه ٣٩٧ (٢) الديوان « فانشح فؤادك »
(٣) ديوانه : « ليس المكاذب » .

والحريرى لم يتعرض بشعره فى هذا ، لأنه بنى البيت فى المسألة ، لكن فيما ذكرناه زيادة بيان ، وأنه يجب أن يختار المغنى ما يتلقى للغناء من كل جهاته بالاستحسان

قوله : العابث بالمثانى ، أى اللاعب بأوتار عود الغناء . ومما يستحسن فى وصف العود قول ابن القاضى :

جاءت بعود تناغيه ويُسعدها ... فانظر بدائع ما خصّت به الشجرُ
غنّت على عودها الأطيار مفصحةً ... غضا فلمّا ذوى غَنّى به البشرُ
فلا يزل عليه أو به طربٌ ... يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

وقال ابن شرف :

سقى الله أرضًا أنبتت عودك الذى ... زكت منه أغصانٌ وطابت مغارسُ[1]
تغنّى عليه الطير والعود أخضرٌ ... وغنى عليه الغِيدُ والعود يابسُ

ومما قيل فى ذم مغنّ :

لو أبصرتْ عيناك بشراً جالساً ... والعود فى يده يبثُّ وساوسا
لرأيت منه فتى تحبّ بأن ترى ... فى الرأس منه مشاورا وَطَنافِساَ
فإذا تربّع ـ لا تربع بعدها ـ ... وبدا يحرّك عودَه متنافسا
فكأنّ جرْذان المدينة كلها ... فى عوده يقرضن خبزاً يابساَ

المثانى : أوتار بالعود، معروفة على سائر أوتاره . بتربة أبويه، يريد عظامهما التى تصير ترابا فى القبر ، ولذلك أقسم بالقبر .

---

(١) نقله فى التنف ١٠٣ .

[ترجمة سيبويه]

وأما سيبويه ففارسىّ ، مولى لبنى الحارث بن كعب ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وتفسير سيبويه بالفارسية ريح التفاح ، وهو لقب له لأنه كان من أطيب الناس رائحة ، وأجلّهم وجها، وقد أشرنا إلى ذلك فى العاشرة[1]. وقيل: معنى « سى » ثلاثون و« بويه» رائحة التفاح، فكأنّ معناه: الذى ضعف طيب رائحته ثلاثين مرة . وقيل : إن أمه كانت ترقّصه بذلك وهو صغير فلازمته .

وولد بالبيضاء ، وهى قرية بشيراز من عمل فارس ونشأ بها ، وقدم البصرة فى أوّل أيامه ليكتب الحديث ، فلزم حَلْقة حماد بن سلمة فاستملى عليه يوماً قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ليس من أصحابى إلا مَنْ لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، بالرفع ، وظنه اسم ليس، فقال حمّاد: لحنتَ ياسيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنما ليس هنا استثناء ، فقال سيبويه : سأطلب علماً ليس يلحنّنى فيه أحد ، فلزم الخليل، فبلغ فى علم النحو الغاية ، وضُرِب به فى ذلك المثل وهو أوّل مَنْ بسط طريقته ، وشرّع شريعته ، وكتابُه الإمام فى النحو، الذى لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، وغاية لأئمة فهمه . وأخذه الأخفش عنه .

وقيل ليونس: ألّف سيبويه كتاباً نحواً من ألف ورقة فى علم الخليل ، فقال: متى سمع سيبويه هذا كله ! فأْتِى بكتابه ، فنظر فيه فقال : يجب أن يكون صدق عن الخليل ، كما صدق فيما حكاه عنّى .

وناظر الأصمعىّ سيبويه ، فغلبه الأصمعىّ بلسانه ، فقال يونس : الحقّ مع سيبويه .

وكانت فى لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه . قال أبو زيد : كان سيبويه

(١) الجزء الأول : ٢٧٩

يختلف إلىّ وهو غلام له ذؤابتان ، وإذا قال فى كتابه : حدّثنى مَنْ أثق به ، فإنما يعنينى .

قال الأخفش: كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرض علىّ وهو يرى أنّى أعلم منه ، وكان أعلم منّى .

والأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة مولى بنى مجاشع ، يكنى أبا الحسن ، وهو الذى أخذ الكتاب عن سيبويه ، وهو أكبر من سيبويه ، وصحب الخليل. وأما الأخفش الكبير شيخ سيبويه فهو عبد الحميد بن عبد المجيد ، يكنى أبا الخطاب وهو الأخفش الكبير ، ويونس هو ابن حبيب، يكنى أبا عبد الرحمن مولى بنى ضبّة ، أخذ النحو عن حماد بن سلمة وعن أبى عمرو بن العلاء ، وقيل: إنه جاوز المائة فى سنّه . ولما فاق سيبويه فى علم النحو أهلَ عصره ، وبرّز فيه على نظرائه من أهل دَهْرِه ، سمع أن الكوفيين ظهروا ببغداد عند الرشيد بعلم النحو ، وهم الكسائى وأصحابه ، فقصدهم ببغداد ، وناظرهم بحضرة الرشيد وبحضرة يحيى بن برمك .

وناظره الكسائىّ ، وقيل الفراء بحضرة الكسائى فى المسألة الزنبورية(١) المشهورة ، وقد ذكرناها فى الرابعة والثلاثين، وكان ـ فيما ذكر ـ الظهور لسيبويه، وتراضوْا بينهم بشهادة الأعراب الحاضرين بباب الخليفة ، فقدم الكوفيون بجانبهم عند الخليفة للأعراب من لغتهم أن يجيبوا بموافقة قول الكوفيين ، فأجابوا بذلك ، فخرج سيبويه خجلا وكاد يموتُ غمًّا ، فزعموا أنهم شفعوا للرشيد لئلا يرجع مغلوبا خائبًا، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فانبعث إلى الأهواز ولم يعرّج على البصرة . فأقام هناك مدة مديدة إلى أن مات .

وحكى أنه لما انصرف عنهم مغموما لَقِيَ الأخفش سعيد بن مسعدة ، فأخبره

---

(٣) إنباه الرواة ٢ : ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

بتأليهم عليه، فدخل الأخفش، فسأل الكسائىّ عن مائة مسألة فخطّأه فيها كلّها ، فقال له : أنت سعيد بن مسعدة ؟ فقال له : نعم ، فسأله أن يؤدب أولاده فأجابه . وقرأ عليه الكسائى كتاب سيبويه ، وأعطاه سبعين ديناراً .

ويروى أنه لما بلغ الكسائىّ موتُه، قال للرشيد : يا أمير المؤمنين، أدِّ عنى ديَته ، فإنى أَخاف أن أكون شاركت فى موته .

وقيل : إنه مات من ذَرَب المعدة .

وقيل : إنه لما خرج عنهم سأل مَنْ يرغب من الملوك فى النحو ، فقيل له : طلحة بن طاهر بخُراسان ، فقصده ، فلما انتهى إلى ساوة مرض ومات .

ولما احتُضر وضع رأسه فى حِجْر أخيه ، فقطرت دمعة من دموعه على خدّه ، فرفع عينيه إليه ، وقال :

أُخَيَّيْنِ كنا فرّق الدهر بيننا ... إلى الأمد الأقصى ،ومَنْ يأمنِ الدَّهرا ! (١)

ثم قال عند موته :

نؤمّل دنيا لنبقَى بها ... وتأتى المنية دونَ الأمَلْ (٢)
حَثيثا يروّى أصول الفسيلِ ... فعاش الفسيلُ ومات الرّجُلْ

وفيه أنه مات بشيراز وقُبِر بها سنة ثمانين. وقيل سنة أربع وتسعين ومائة .
قال أبو سعيد الصولى : رأيت على قبره مكتوبا لسليمان بن يزيد :

---

(١) إنباه الرواة ٢ : ٢٥٧ .
(٢) إنباه الرواة ٢ : ٣٦٠

ذهب الأحبة بعد طول تَزاورٍ ونأى المزارُ فأسلموك وأسْرَعُوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرةٍ لم يؤنسوك وكربةً لم يدْفعُوا
قُضِيَ القضاءُ وصرت صاحب حُفْرَةٍ عنك الأحبّة أعرضوا وتصدَّعُوا

* * *

فتشَعّبتْ حينئذٍ آراء الجمْع ، فى تجويز النَّصْبِ والرَّفع ، فقالت فرقةٌ : رفعهما هو الصّواب ، وقالت طائفة : لا يجوز فيهما إلا الانتصاب ، واستَبْهَمَ عَلَى آخرين الجواب ، واستعَر بينهم الاصْطِخاب ، وذلِك الواغل يبدى ابتسامَ ذى معرفة ، وإن لم يَفُهْ ببنت شفة ، حتّى إذا سكنتِ الزّماجر ، وصَمَتَ المزجور والزّاجر . قال : يا قوم ، أنا أنبّئكمْ بتأويلهِ ، وأميِّز صحيح القولِ مِنْ عليله ؛ إنه لَيجوز رفع الوصلين ونصبُهما ، والمغايرة فى الإعراب بينهما ، وذلك بحسب اختلاف الإضمار ، وتقدير المحذوف فى هذا المضمار . قال : ففرط من الجماعة إفراط فى مماراته ، وانخراط إلى مباراتِه .

* * *

قوله: تشعبت ، تفرقت، وشَعَبتُ الشىء: فرّقته وجمعته، وهو من الأضداد. ورجل شعاب : يضم ويجمع . آراء : جمع رأى . واستبهم : استغلق . استعر : اتّقد : الاصطخاب : اختلاط الأصوات، وقد صخب صخبا. بنت شفة : كلمة .

[بعض حكايات النحويين]

ومثل اختلاف هذه الجماعة على المعانى فى رفع «وصل» وخفضه، اختلاف أصحاب الواثق[1] على جارية غنّت بحضرته :

أظلومُ إنَّ مصابَكُمْ رَجُلاً أهدى السَّلامَ تحيةً ظُلمُ

وذكر الحريرى فى الدرّة : أن أبا العباس المبرد ذكر أن أبا عثمان المازنى

(١) وردت هذه الحكاية فى درة الغواص ٤٣، وإنباه الرواة ١ : ٢٤٩، وطبقات الزبيدى ٩٣

قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من قبول بذله ، فقلت له : جعلت فداك ! أتترك هذه النفقة ، مع فاقتك وشدّة إضاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة كذا وكذا آية من كتاب الله تعالى ، ولستُ أرى أن أمكّن منه ذمّيًا ، غيْرةً على كتاب الله وحميَّة له .

قال : فاتفق أن غنّت جارية بحضرة الواثق بقول العرْجى : أظلوم . . . البيت ، فاختلف مَنْ بالحضرة فى إعراب « رجل » فمنهم من نصبه بأن على أنه اسمها ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مُصِرَّة على أن شيخها أبا عثمان لقّنها إياه بالنصب ، فأمر الواثق بإحضاره . قال أبو عثمان : فلما مَثَلْتُ بين يديه قال : ممّن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : من أىّ الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس ؟ أم مازن أم ربيعة ؟ فقلت : من مازن ربيعة ، فكلّمنى بكلام قومى وقال لى : باسمك ؟ يريد ما اسمك ــ وهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كان فى أول الأسماء ــ فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر ، فقلتُ : بكر ياأمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته وأعجب منه ، ثم قال : ماتقول فى قول الشاعر :

* أظلوم إن مصابكم رجلا *

أترفع « رجلا » أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : « إن مصابكم رجلا » مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدىّ فى معارضتى فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربكم زيدًا ظلم ، فالرجل مفعول بمصابكم ومنصوب به ، الدليل عليه أن الكلام معلّق إلا أن تقول « ظلم » فيتمّ . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم ، بنيّة يا أمير المؤمنين ، قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى(١) :

---

(١) ديوان الأعشى ٤١

أيا أبتـا لاتَرِمْ عنـدنا فإنا بخـير إذا لم تَرِمْ
أرانـا إذا أضمرتك البلا د نُجْفَى وتُقطع منـا الرحِمْ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثِقى بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنّجاح[1]

قال : أنت على النجاح إن شاء الله تعالى . ثم أمر لى بألف دينـار وردّنى مكرماً .

قال أبو العباس : فلما عاد إلى البصرة قال : كيف رأيتَ يا أبا العباس ! رددْنا لله تعالى مائة فعوّضنا بألف .

قال الحريرىّ : فهذه الحكاية ترغّب فى اقتباس الأدب ودراسته حيث استعطف المازنىّ الواثق ببيت الأعشى حتى اهتزّ لإحسان صلته

قال : وفى أخبار النحويين[2] أيضاً أنّ المازنىّ سئل بحضرة المتوكل عن قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بغيًّا ﴾ فقيل له : كيف حذفت الهاء من « بغيا » وفعيل بمعنى فاعل ، تلحقه الهاء ، نحو فتىّ وفتية وغنىّ وغنىّ ، فقال : إن « بغيا » ليست « فعيلا » إنما هو فعول بمعنى فاعل ، لأن الأصل « بَغوى » ومن أصول التصريف أنه متى اجتمعت الياء والواو فى كلمة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء ، كشويته شيًّا ، ويوم وأيام ، وهذا أصل مطّرد لم يشذّ منه إلا القليل ، فعلى هذه القضية تحذف الهاء وجوباً لأنها بمعنى « باغية » ، كما تحذف من « صبور » لأنها بمعنى « صابرة » .

قال المازنىّ :[3] حضر يعقوب عند الواثق وقد حاز منزلة العلماء ، فقال لى الواثق: سله عن مسألة،فقلت له: ماوزن « نكتل »؟ فقال : « نفعل » ، فقلت له:

---

(١) ديوان جرير ٩٨
(٢) طبقات الزبيدى ٩٥ .
(٣) إنباه الرواة ١ : ٢٥ .

غلطت،ثم قال لى: فسّره . فقلت: أصله «نـكتيل»،فقلبت الياء ألفاً للفتحة قبلها وسكنت اللام للجزم، لأنه جواب أمر، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فقال الواثق : هذا الجواب لا جوابك يا يعقوب ، فلما خرجنا قال لى يعقوب : ما حملك على هذا وبينى وبينك المودة ؟ فقلت : والله ما ظننت أنه يعزب عنك مثل هذا ! فانظر كيف لم يثبتْ يعقوب الأوزان على ثبوت قدمه فى العلم .

لقى هارون الرشيد الـكسائىّ فى بعض طرقه فوقف عليه ، وتحفّى بسؤاله عن حاله ، فقال : أنا بخير يا أمير المؤمنين ، ولو لم أجد من ثمرة الأدب إلا ماوهب الله تعالى لى من وقوف أمير المؤمنين علىّ لـكان ذلك كافيا محتسبا .

ودخل أبو يوسف رحمه الله تعالى وهما فى مذاكرة وممازحة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا الـكوفىّ قد غلب عليك ، فقال : يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبى ، وتأخذ بمجامعه ، فقال الـكسائىّ : يا أبا يوسف ، هل لك فى مسألة ؟ فقال: فى نحو أو فى فقه ؟ فقال: بل فى فقه ، فضحك هارون حتى فحص برجليه ، وقال : تُلقِى على أبى يوسف الفقه ؟ فقلت : نعم ، ثم قال : يا أبا يوسف ، فما تقول فى رجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ قال : إذا دخلت الدار طلقت ، قال : أخطأت يا أبا يوسف ! فضحك الرشيد ثم قال : فـكيف الصواب ؟ قال : إذا قال: «أنْ» وجب الفعل ، دخلت بعد أو لم تدخل ، وإذا قال «إن» بالـكسر لم يجب ولم يقع الطلاق .

دخل الفراء على الرشيد فتـكلم فلحن مرات ، فقال له جعفر: ياأمير المؤمنين ، إنه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن يا يحيى ؟ فقال : إنّ طبع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه وعلم أنه الحق [١] .

---

(١) الخبر فى طبقات الزبيدى ١٤٣ .

وهذا القدر من المناظرة النحوية كاف .

* * *

قوله : الزماجر ، أى الأصوات من الجوف كصوت الأسد، الواحدة زمجرة . صمت : سكت . المزجور : المنهىّ ، والزاجر : الناهى ، وزجرته : انتهرته . أنبئكم بتأويله : أخبركم بتفسيره . المغايرة : المخالفة ، وهى من لفظ « غير » . المضمار : الموضع يختبر فيه جرى الخيل . فَرْط : تجاوز الحدّ . مماراته : مخاصمته . انخراط : اندفاع وانطلاق ، وخرط عبده : أطلقه على أذيّة الناس ، والمرأة نكحها ، والشجرة نثر ورقها بيده . مباراته : معارضته .

* * *

فقال : أمّا إِذْ دَعَوْتُم نَزَالِ ، وتلبَّبْتُمْ لِلنّضال ؛ فما كلمةٌ هِيَ إن شِئْتمْ حرفٌ مَحْبوبٌ ، أو اسمٌ لِماَ فِيهِ حرفٌ حَلُوب ؟ وأَىّ اسمٍ يتردّد بَيْنَ فرد حازمٍ ، وجَمْعٍ مُلاَزمٍ ؟ وأيّةُ هاءٍ إذا التحقَتْ أماطتِ الثِّقَل ، وأطْلَقَتِ المُعتقَل ؟ وأيْنَ تدْخلُ السِّينُ فتعزل العاملَ ، من غير أن تجاملَ ؟ وما منصوبٌ أبداً على الظَّرْف، لا يَخْفِضُهُ سِوَى حَرْف ؟ وأىّ مضافٍ أخلّ من عُرَى الإضافة بِعُرْوة ، واختلف حُكْمُهُ بين مَساءٍ وغُدوة ؟ وما العاملُ الّذِى يتّصل آخرُه بأوّلِه ، ويعملُ معكوسُه مثلَ عَمَلِه ؟ وأىّ عامِلٍ نائبه أرحبُ منه وكْراً ، وأعظمُ مَكْراً ، وأكثرُ لِلّه تعالى ذكراً ؟ وفى أىّ موطنٍ تَلْبَسُ الذُّكران براقعَ النّسوان ، وتبرز رَبّاتُ الحِجَال بعمائمِ الرجال ؟ وأَيْنَ يجب حفظ المراتب ، على المَضْرُوب والضارب ؟

وما اسم لا يُعرَف إلاّ باستضافةِ كلمتين ، أو الاقتصار منه على حَرْفيْن . وَفى وصفه الأول الْتزام ، وفى الثّانى إلْزام ؟ وَمَا وَصْفٌ إذا أُرْدِف بالنون ، نقص صاحِبُهُ فى الْعُيُون ، وَقُوِّمَ بالدُّون ، وَخرَجَ من الزَّبون ، وتعرَّضَ لِلْهُونِ ؟

فهذه ثنتا عشرة مسألة ، وفْقَ عَدَدِكُمْ ، وزِنَةَ لَدَدِكُمْ ، ولَو زِدْتُمْ زدْنا ، وَإن عُدْتُمْ عُدْنا .

* * *

نزالِ ، أى انزلوا للحرب ، ولذلك بُنيت على الكسر لأنها فى معنى فعل الأمر ، وهى كلمة تقال فى الحرب ولها مقامان : الأول أن ينزلوا من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل ، والثانى أن ينزلوا من ظهور الخيل إلى الأرض ؛ وذلك أشدّ ما يكون للحرب . تلبَّبْتم : تحزمتم . النضال : المراماة بالسهام . حرف : ناقة . حلوب : لها ابن . حازم : مشمر، أخذ بالثقة . أماطت : أزالت . المعتقل: المحبوس . تجامل ، أى تاقى المعزول بجميل . أخلّ : نقص . معكوسه : مقلوبه . نائبه : القائم مقامه . أرحب منه وكرا : أوسع موضعا . مكرا : تصرفا . الحجال : جمع حَجَلة ، وهى الستر . المراتب : المواضع . استضافة : إضافة . أُردف : جُعل ردْفه ، أى خلفه . قوّم: قدرت قيمته. الدون : الحقير . الزَّبُون : الكريم الكثير دفع العطايا ، أى أُخرِج من هذه الصفة . والهون : الهوان . وفْق : موافقة . لددكم : خصامكم . عدتم : رجعتم للخصام .

ومن ملح ابن رشق فى مليح نحوىّ :

إن زارنى يوماً على خلوة　　　أو زرتُه في موضعٍ خالِ(١)

(١) نقله فى التنفيه ٦٣

كنت له رفعًا على الابتدا   وكان لى نصباً على الحال

وقال الميكالى :

أفدى الغزال الّذى فى النّحو كلمنى   مجادلا فاجتنيتُ الشهد من شَفَتِهْ
وأورد الحججَ المقبولُ شاهدُه   مناظراً ليُرِينى فَضْلَ معرفتهْ
ثم اتفقنا على رأيٍ رضيت به   والرفع من صفتى والخفض من صفته

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فوَرَدَ علينا من أحاجيه التى هالَتْ ، لمّا انهالَتْ ، ماحارَتْ له الأفكار وحالَتْ . فلمّا أعجزَ العومُ فى بحرِه ، واستسلمَتْ تمائمنا لسِحْرِه ، عدَلْنا عن استثقال الرُّؤْيةِ له ، إلى استنزالِ الرِّوايةِ عنْه ، ومِن بَغْيِ التبرُّم به ، إلا ابتغاءِ التّعلُّم منه .

فقالَ : والذى نَزَّل النحوَ فى الكلام ، منزلةَ الملْحِ فى الطّعام ، وحَجَبَهُ عَنْ بَصائرِ الطَّغامِ ؛ لاأنلتكمْ مَراما ، ولاَ شَفَيْتُ لَكُمْ غَراما ، أو تخوِّلَنِى كُلُّ يدٍ ، ويختصَّنى كُلٌّ مِنْكُمْ بيدٍ . فلم يبقَ فى الجماعَةِ إلاَّ مَنْ أذْعَنَ لِحُكْمِهِ ، ونَبَذ إليه خُبْأَة كُمِّهِ . فلمّا حَصَلتْ تَحْتَ وكائِهِ ، أضْرَمَ شُعْلَةَ ذكائِهِ ، فكشف حينئذٍ عَنْ أَسْرارِ أَلْغازِه ، وبَدائعِ إعْجازِه ، ماجَلاَ بهِ صَدَأ الأذهان ، وجَلَّى مَطْلَعَه بنورِ البرهان .

---

(١) يتيمة الدهر .

قال الرّاوى : فهِمْنا ، حينَ فَهِمْنَا ، وَعَجِبْنَا إِذْ أُجِبْنَا ، وَنَدِمْنَا على ما ندَّ مِنَّا . وَأخَذْنَا نعْتَذِر إِليْهِ اعْتِذارَ الأكياس ، و نُعْرِضُ عَلَيْهِ ارْتِضَاعَ الْكَاس . فقال : مأربٌ لاحَفَاوَة ، وَمشربٌ لم يَبْقَ له عِنْدِى حَلَاوَة ، فَأَطَلْنا مُرَاوَدَتَه ، وَوَالَيْنَا مُعَاوَدَتَهُ .

* * *

أحاجيه : ألغازه : هالتْ : عظُمت فى النفوس . انهالت: انصبّت ، وانهال الرمل : انصبّ أعلاه إلى أسفله . الأفكار : الأذهان . حالت : تغيرت . استسلمت : انقادت . تمائمنا : معاذاتنا ، وهى الأحراز . عَدَلْنا : ملنا . الروية : الفكرة . استنزال: طلبه بتلطّف. بغْى : ظلم . ابتغاء : طلب . التبرم: الاستثقال، وبرم بالأمر برَماً : ضجر، والبرَم: البخيل الذى لايدخل فى الميسر . والبصيرة : اليقين والمعتقَد وجمعها بصائر. والطغام : الأوغاد وأرذال الناس . أنلتكم: أعطيتكم . مراما : مرادا . تخولنى: تملّكنى وتعطينى . يختصّنى : يفردنى . بيد ، أى نعمة . أذعن : انقاد وذلّ . نبذ : رمى . خُبْأة كمه : ماخبِىء فيه . بدائع : غرائب . إعجازه : ماعجز به . جَلاَ : كشف . صدأ : وسخ . جلّى : أوضح . البرهان : الحجّة . همنا : تحيرنا لحسن ماسمعنا ، وهام الرجل : ذهب فى غير طريق . فهمنا ، من الفهم ، أى عرفنا . ندّ : سبق وخرج ، يريد الخصام الذى بدروه به وردّوا كلامه ، وندّ : أصله شَرد البعير . قوله: الأكياس : الحذّاق العقلاء . ارتضاع : شرب . مأرب : حاجة ، قال يعقوب : قال الأموىّ : ومن الأمثال : مأرب لا حفاوة، يضرب للرجل إذا كان يتملقك، أى إنمابك حاجة إلىّ لا حفاوة لى . قال ابن سيده: مأرب بيننا، يكون واحداً وهو السابق ، ويكون جمع مأربة،من الجمع الذى يفارق واحده بالهاء . حفاوة : تهمّم ، وقدحفيت بك ، أى تهممت واعتنيت . ومشرب لم يبق له عندى حلاوة ، قال الشاعر فى معناه :

ولم أجتنبْ شرب المُدام لعـلّةٍ ... ولم ألحق الصَّهباء ذمًّا ولاَ عَذْلاَ
تنافرنى أن صرتُ ضدًّا لشكلها ... فليستْ لنا أهلا ، ولستُ لها أهلا

وقال ابن رشيق :

قرعت سنّى على مافاتنى ندماً ... من الشّباب ومَنْ باللّهو للشّيب[1]
فقد رددت كئوس الرّاح مترعةً ... على السقاة وكانت جلّ مشروبى
أنزّه السمعَ والعينين فى نغم ... ومنظر عابثٍ بالحسن والطّيبِ
من كلّ لافظةٍ بالدرّ باسمــةٍ ... عنه محـلاةٍ نوعٍ منه مثقوبِ
أيام تصحبنى الغِزْلان آنسةً ... هذا على أننى أعْدَى من الذّيب

والسابق لردّ الـكأس لعلة الـكبَر أيمن بن خُرَيم بن فاتك الأسدىّ فى قوله:

وصهباء جرجانية لم يَطُفْ بها ... حنيفٌ ولم يسعر بها ساعةً قِدْرُ[2]
ولم يحضر القَسّ المهيمُ نارَها ... طُروقا ، ولم يشهد على طبخها حبْرُ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومَةً ... وقدغابت الشِّعرَى وقدجَنَح النَّسْرُ
فقلت اغتبقها أو لغيرىَ فاسقِها ... فما أنا بعد الشّيب ويحك والخمرُ
تعفّفت عنها فى السّنين[3] التى خلت ... فكيف التّصابى بعدما كلأ العُمْرُ[3]
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكنْ ... له دون مايأتى حياءٌ ولا سِتْرُ
فدعه ولاتنفس عليه الّذى ارتأى ... وإن جرّ أسباب الحياة له الدّهرُ

قال الهيثم بن عدىّ : كنا نقول بالكوفة : مَنْ لم يروِ هذه الأبيات فلا مُروءة له ، أنشدَها أبو علىّ فى نوادره . وأنشد أيضاً :

---

(١) نقله فى النتف ١٠ .
(٢) أمالى القالى ١ : ٧٨ ، وفيه : « لم تنفر » ، أى تغلى .
(٣) كلاه : انتهى إلى أقصاه .

رأيتُ النبيذ يُذ.ّ العزيز ... ويكسو التقىّ النّقىّ اتّساخا[1]

فهبنى عذرتُ الفتى جاهلاً ... فما العذر فيه إذ المرء شاخا

وأنشد أيضاً فى نوادره لمن حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية مروءةً جملة أشعار، شهرتُها فى الكتاب أغنت عن ذكرها، وأين شرف أولئك فى جاهليتهم - على أن الخمر مباحة لهم - من مجون جماعة من الإسلاميّين - على تحريمها عليهم - مثل الرّمادى فى قوله :

أفى الخمر لامت خلّتى مستهامها ... كفرتُ بكأسى إن أطعت ملامها

لمحمولة فى الفلك فى جنّة المنى ... قد أوصى لنوح غرسها وضِمامَها

فخادعَهُ إبليس عنها لعلمه ... بها فرأى كتمانَها واغتنامَها

ففاز بثلثيها ونوح بثلثها ... ولولا مضيّ عنه لم يكُ رامَها

له حظ أنثى وهو حظّ مذكّرٌ ... قليل لعينى أن أطيل انسجامها

وإنا لَوِترانِ وقد مات جدنا ... عنيفا وإنا لا نجيز اقتسامها

أخذ هذا من خبرٍ يروى، أنّ نوحا عليه الصلاة والسلام لما نزل من السفينة، نازعه إبليس أصلَ العنب، فاصطلحا أنّ لنوح الثلث ولإبليس الثلثين .

ولما قيل للحسن : نزعتَ عن اللهو إلى التوبة، قال :

قالوا نزعت ولمّا يعلموا وطرى ... فى وصل أغيدَ ساجِى الطَّرْفِ ميّاسِ[2]

كيف النزوع وقلبى قد تقسّمه ... لحظ العيون ولون الراح فى الكاسِ

إذا نزعت إلى رشدٍ تكنّفنى ... رأيان قد شغلا يُسْرِى وإفلاسى

فاليسر فى القصف واللذات أخاسها ... والعمر فى وصل مَنْ أهوى من النّاس

(١) أمالى القالى ٢ : ١٣٩ .
(٢) نهاية الارب ٤ : ٩٦ ، ديوانه ٢٩٦

لا خير لعيش إلا فى المجون مع الأكفاء فى الورد والخيرىّ والآس
ومسمع يتغنى والكئوس لها حثٌّ علينا بأخماس وأسداس
يا مورىَ النار قد أعيت قوادحُه أقبس إذا شئت من قلبى بمقياسِ

* * *

فَشَمَخَ بأنفه صَلَفاً، و نَأى بجانبه أنفاً، وَأنشد:

نَهَانِىَ الشَّيْبُ عَمَّا فيهِ أَفراحِى
فكيفَ أجمعُ بين الرَّاحِ وَالرَّاحِ

وَهلْ يجوز اصطباحِى مِنْ معتّقةٍ
وَقَدْ أنارَ مَشِيبُ الرَّأسِ إصباحِى

آليتُ لا خامرتنِى الخمرُ ما عَلِقَتْ
رُوحى بجسْمِى وَأَلفاظِى بإفصاحِ

ولا اكتستْ لى بكاسَاتِ السُّلافِ يدٌ
وَلا أَجَلْتُ قِداحِى بينَ أقْداحِ

وَلاَ صَرَفتُ إلى صِرْفٍ مُشَعشعةٍ
هَمِّى ولا رُحْتُ مُرْتاحاً إلى رَاحِ

وَلاَ نَظَمْتُ عَلَى مشمولةٍ أبداً
شَمْلِى ولا اخترت نَدْماناً سِوَى الصَّاحِى

مَحَا المشيبُ مِراحِى حِينَ خَطَّ على
رَأْسِى، فأبْغِض بهِ من كَاتِبٍ ماحِى

ولاحَ يَلْحَى عَلَى جَرِّى العنانَ إلى
مَلْهًى فَسُحْقاً لهُ مِنْه لائح لاحِي
ولو لَهوتُ وفَودِى شائبٌ لَحَبَــا
بَين المصابيحَ من غَسَّانَ مِصْبَاحِي
قــومٌ سَجاياهُمُ توقيرُ ضيفهمُ
والشَّيْبُ ضيفٌ لَهُ التوقيرُ ياصاحِ

ثمّ إنه انساب انسيابَ الأَيْم ، وأجْفَلَ إجفالَ الغَيْم . فعلمت أنَّه سِرَاجُ سَرُوج ، وبَدْرُ الأدَبِ الذى يَجْتابَ البرُوج . وكان قُصَارانا التحرَّقَ لبُعْدِه ، والتفرّقَ مِنْ بَعْدِه .

* * *

قوله: «شمخ» أى تكبرورفع أنفه . صلفا : قِحة وصلابةوجه ، وفى فلان صلَف ، أى قلة انطباع وموافقة إذا أردت منه شيئاً تهاون بك، والصَّليفان : ناحيتا العنق ، كأنه إذا كلّمته فى شىء أعرض عنك ، ولوى عنك صليفَه ، والصلَف مجاوزة قدر الظّرْف ، وفى الشهاب : آفة الظرف الصّلف . ناء : نهض ، ويروى: نأى، تباعد . أنفاً : غضبا ، وأنفت من كذا تنزهت عنه وترفعت ، وأصله من رفع الأنف ، فكأنه رفع أنفه تيهاً عليهم وتكبرا عن منادمتهم لاحتقارهم له أولا قبل اختباره ، ثم تبدّلهم آخر بعد اعتباره ؛ واعتذر لذلك بالشيب .

ونذكر هنا فصلا أدبيًا يأتى على جميع أغراض هذه الأبيات :

قال بعض الظرفاء يذم الخمر : الشراب : أول الخراب ، ومفتاح كلّ باب ، يمحق الأموال، ويذهب الجمال ، ويهدم المروءة ، ويوهن القوّة ، ويضع الشريف، ويذل العزيز ، ويبيح الحرائر ، ويفلس التجار، ويهتك الأستار ، ويُورِث الشَّنار .

وقال بعضهم لابنه : كثرة الشراب تكسد القلب ، وتقل الكسب ، وتغير اللب ، واعلم أن الظمأ الذابح ، خير من الري الفاضح .

وقال يزيد بن محمد المهلبي يذمه :

لعمرك ما يحصى على الناس شرها　　وإن كان فيها لذة ورخاء
مرارا تريك الغي رشدا ، وتارة　　تخيل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الود مبغض　　وأن مديح المادحين هجاء
وجربت إخوان النبيذ فقلما　　يدوم لإخوان النبيذ إخاء

وقال ابن الرومي :

مودة إخوان النبيذ سلافة　　يبولونها عند انقضاء المجالسِ
فبينا نراهم أهلَ ألفٍ وأثرة　　وبينا نراهمْ بينهمَ حربُ داحسِ
فأما إذا ناديتهم للملمة　　فناد التصاوير التي في الكنائس

ولهذا كتب الحسن إلى صديق له يستهدي منه مشروباً :

لما رأيت الحظَّ للقاعدِ　　والنّاس من واشٍ ومن حاسدِ
خلوت في بيتيَ وحدي ولا　　أقلّ في الأعداد من واحد
فابعثْ بها تشغلني واكفني　　رؤية هذا العالم الفاسد

وقال أيضاً :

خلوت بالخمر أناجيها　　أشرب منها وأعاطيها(١)
نادمتُها إذ لم أجد صاحباً　　أرضاه أن يشركني فيها
شربتُها صِرْفاً على وجهها　　فكنت ساقيها وجانيها

---

(١) ديوانه ٣٥٠ .

قيل لبعضهم : لم لا تتخذ لك نديماً ؟ قال : لأنه مأخوذ من النَّدم .

واختلفوا فى اختيار استعمال النديم ، فمنهم من اختار نديماً واحداً ، ومنهم مَن انتهى فى الاختيار إلى ستة بالساقى وصاحب البيت ، وما زاد على ذلك فمذموم بإجماع منهم . قال : وأنشدوا فى ذلك :

وخير النَّدَامى ستَّة من ذَوِى الحِجَى فخمسة إخوانٍ وآخر يَمْنَعُ
ويحمد فى الإخوان مَنْ كان محسناً بصوتٍ يغنّيه ولا يتمنّع

* * *

قوله : نهانى الشيب ، جعله الناهى عن اللذات ، لأنه الداعى إلى الفناء والنذير بالموت ، وما يقول بغير هذا إلا متكلّف عذر ، كقول أعرابى — ويروى لإبراهيم بن المهدى :

لقد جَلّ قدر الشيب أنْ كان كلما بدت شيبة يعرى من اللهو مَرْكَبُ

وقال المعذَّل :

لاح شيبى فظلْت أمرحُ فيه مرح الطِّرْف فى اللجام المحلّى
وتولّى الشباب فازددت ركضاً فى ميادين باطلٍ إذْ تولّى
إنّ من ساءه الزمان بشيبٍ لأحق أمره بأن يتسلَّى
أتُرانى أسوء نفسىَ لمّا ساءنى الدهر ، لا لَعَمرِىَ كلاّ

وقال البحترى يعتذر منه :

عيّرتنى بالشيب وهى رمتُهُ فى عذارِى بالصدّ والاجْتِنابِ[1]
لا تَرَيْه عاراً فما هو بالشّيب ولكنّه جلاء الشباب

---

(١) ديوانه ٨٤

وبياض البازيّ أصدق حسناً إن تأمّلْتَ من سوادِ الغراب

أخذه ابن رشيق فقال :

وإن لم تعجبنى ببياض شَعْرٍ فلا تستغربى بَلَق الغرابِ(١)
تعافين المشيب وليس هذا ولكن هذهِ شيةُ الشّبابِ

وقال حبيب يتشكاه :

أصبحتْ روضةُ الشباب هشيما وغدت ريحُهُ البليلُ سَمُوما(٢)
شعلة فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثكلا صميماً
غُرّةٌ بُهمةٌ ألا إنما كُنْتُ أغرًّا أيام كنت بَهيما
دقّة فى الحياة تُدْعَى جلالاً مثل ما سُمِّىَ اللديغ سليما

وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره أن يفارقنى أعجِب بشىء على البغْضاء مورود(٣)
يمضى المشيب فلا يأتى له خلفٌ والشَّيْب يذهب مفقوداً بمفقودِ

أخذه سليمان بن وهب حين نظر إلى المرآة ، فقال : عيب لاعدمناه .
وقال أبو الفتح البستىّ :

ياشيبتى دُومى ولا ترحّلِى وتيقّنى أنى بوصلك مولَعُ
قد كنت أجزع من حُلولك مدّة والآن من خوفِ ارتحالك أجزعُ

وزاد أبو الطيب على هذا فقال : وذكر أنه يتمنّى الشيب فى زمن الشباب :

---

(١) نقله فى النتف ١١ .
(٢) ديوانه ٣ : ٢٢٣ (دار المعارف)
(٣) ديوانه ٣١٠

مُنَى كُنّ لى أنّ البياض خضابُ   فيخفى بتبييض القرُون شَبابُ[١]
ليالِيَ عند البيض فَوْدايَ فتنةٌ   وفخر وذاك الفخر عندىَ عابُ
فكيف أذمُّ اليوم ما كنت أشتهى   وأدعو بما أشكوه حين أجاب

كأنّ أبا الطيب نسى ما قاله فى الشيب فى الزمن الذى زعم أنه كان يشتهيه ويتمنّاه[٢] :

ابعَدْ بعِدْتَ بياضاً لابياضَ له   لأنت أسود فى عينى من الظُلَمِ

وقال ربعىّ :

مَنْ كان يبكى الشباب من أسفٍ   فلست أبكى عليه من أسفِ
كيف وشَرْخ الشباب أوقفَنِى   يوم حسابى مواقف التَّلَفِ
لاصَحِبتُ شِرّة الشباب ولا   عَدِمْتُ مافى المشيب من خَلَفِ

وقال ابن رشيق :

أراكَ للشيب ذا اكتئابِ   فأين تمضِى عن الصواب[٣]
إن كنت ترعى الوفاء حقّاً   فالشيب أوفى من الشَّبابِ

وحقيقة الأمر أنه مازال الناس يكرهون الشيب ويذمُّونه ، نثراً ونظماً . لما فيه من دليل الفناء ، والهجنة عند النساء ، وقطع اللذات بالرِّقبة والحياء ، ويحبون الشباب ويمدحونه ، لما فيه من عذرة الجاهل ، وإتيان العاجل ، وحسن الشمائل ؛ إلا أن لطف الحذاق من الشعراء فى تحسين ما كانوا يكرهون ، وتقبيح ما كانوا يمدحون رياضةً للنفوس ، وتوسعاً فى القول، كما قال أحدهم :

---

(١) ديوانه ١ : ١٨٨
(٢) ديوانه ٤ : ٣٥
(٣) نقله فى التنف ١٢ .

تفاريق شيب فى العذار لوامعٌ وماحُسْنُ ليلٍ ليس فيه نجوم !

وقالوا : فى الشيب استحكام الوقار ، وتناهى الجلال ، وميسم التّجربة . فهذه مقاصدهم فقف عليها .

قوله : أفراحى: جمع فرح . الراح : الخمر ، والثانى جمع راحة، وهى الـكفّ . معتقة : خمر قديمة شديد الحمرة . أنار : بيّض . إصْبَاحى : احمرار شعرى ، والصبحُ : حمرة الشعر، وضعه موضع السَّواد ، لأنّ كِلَيهمْا من حلية الشباب ، وحمله على هذا ماضمن الشيب من التحسين فيقول مستفهماً : هل يجوز شربى فى البـكور من خمر صافية فى حال تغيير الـكبَر شبابى ، وتبديله حلية الشباب بحلية الشيوخ . خامرتْنى : خالطتْنى . إفصاحى : تبيينى . السُّلاف : الخمر . وأجات : صرّفت . قِداحى : سهام الميسر . أقْدَاح : جمع قِدْح ، وهو الـكأس . صرفت : رددت . صِرْف : خمر . مشعشعة : رقيقة المزيج . هِمّتى : إرادتى . رُحْتُ : مشيتُ بالعشىّ . مرتاحا : مهتزًّا من الطرب ، وارتاح : وجَد راحة الطلب أو خِفّة الـكرم . نظمت : جمعت . مشمولة : خمر ، وهى الشَّمول ، سمِّيت بذلك لاشتمالها على عقل صاحبها ، وقيل : لأنها تشمل القوم بريحها ، أى تعمُّهم . وقيل : لها عصفة كعصفة الريح الشمال . شملى : مجموع أمرى ، والندمان : هو النديم . الصاحى : المُفيق من سكره . مَحَا : أزال . مراحى : طَرَبى . خطّ : كتب . أبغِضْ به ، أى ما أبغضه إلىّ . لاح : ظهر : يلْحَى : يلوم ويغلظ القول . جَرْى العنان ، أى انْهما كى فى الملاهى . مَلْهى : لهو . سُحْقاً : بعداً . لائح : ظاهر فى الرأس . لاحٍ : شاتم وعائب ، يريد أن شيبه لاح فى رأسه فلحاه على اللهو والصِّبا . فَوْدِى : جانب رأسى . شائب : فيه الشيب . خبا : طفِىء وسكن ضوءه . غسان : قبيلة . وأحسن

ماسمعت فى شيب الفوْد ، وفى وخط المشيب الّذى ذكر ، قول عبدالرحيم بن هارون :

رأيت الشيب مبتسما بفودِى ففاضتْ أدمعِى بدم الفؤاد
وعمرى كلّ يوم فى انتقاصٍ وذاك النقص لقّب بالزياد
ولى خطٌّ وللأيام خــط وبينهمــا مخالفة المِداد
فأكتبه سواداً فى بياض وتكتبه بياضاً فى سواد

أنشدها الفنجديهىّ وقال عند إنشادها: ولعبدالحميد أبيات، كأنها روضات جنات.

قوله : سجاياهم ، أى طبائعهم . ياصاح ، أراد ياصاحب فرخّم لكثرة الاستعمال . ولما جعل غسان من عادتهم توقير الضيف ، والشيب ضيف وجب عليه توقيره . ومراعاة مثل هذا العموم قد تقدّم له فى ذم الزجاج الذى جرت عليه سبيله ، وأخذ هذا من قول دعبل :

أحبّ الشيب لمّا قيل ضيفٌ كحبّى للضُّيُوف النّازلينا(١)

وقال المتنبى فى ذم هذا الضيف :

ضيفٌ ألمَّ برأسى غير محتشِمٍ والسيفُ أحسنُ فِعْلا منه باللِّمَم(٢)
ابعَدْ بعِدت بياضا لا بياض له لأنت أسودُ فى عينِى من الظُّلَمِ

وقال محمود الورّاق :

للضيف أن يُقرَى ويُعرفَ حقُّه والشَّيب ضيفٌ فاقْرِه بخضابِ
وافى بأصدقِ شاهد ولربّما وافى المشيب بشاهد كذّاب
فافسخ شهادته عليك بخضبة تنفى الظنون بها عن المرتاب
فإذا دنا وقت الرحيل فخلّه والشّيب يذهب فيه كلّ ذهاب

وقوله: والشيب ضيف له التوقير ، قام وكيع لسفيان فنكر قيامه إليه فقال:

---

(١) ديوانه ١٥٠

(٢) ديوانه ٤: ٣٥

أتنكر عليّ قيامى إليك،وأنت حدّثتَنى عن عمرو بن دينار ، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ من إجلال الله عز وجل إجلال ذى الشيبة المسلم». قال : فأخذ سفيان بيده، فأقعده إلى جانبه .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه : «ما أكرم شابٌ شيخاً لِسنّه إلا قيّض الله تعالى له من يكرِمه عند كبَرسنه» .

وقال صلى الله عليه وسلم: «أوحَى إلىّ ربى يقول : الشيب على عبدى المؤمن نور من نورى ، وأنا أكرَم مِنْ أن أحرق نورى بنارى» .

وحدث محمد بن مسلم الخوّاص الرجل الصالح . قال :رأيت يحيى بن أكثم القاضى فى المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفنى بين يديه ، وقال : ياشيخ السوء ، لولا شيبتُك لأحرقتك بالنار ، فأخذنى ما يأخذ العبد بين يدى مولاه ، فلما أفقت قالها ثانية وثالثة ، فلما أفقت قلت : ياربّ ، ما هكذا حُدِّثت عنك ، فقال تعالى : وما حُدِّثتَ عنى ؟ قلت : حدثنى عبدالرزاق ، قال : حدثنى معمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزّهرى ، عن أنس بن مالك، عن نبيّك محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل ، عنك يا عظيم ؛ أنك قلت : ما شاب لى عبد فى الإسلام شيبة إلا استحييتَ منه أن أعذبه بالنار ، فقال الله عز وجل : صدق عبد الرزاق وصدق معمر ، وصدق الزّهرىُ وصدق أنس وصدق نبيِّى وصدق جبريل ، أنا قلت ذلك ، انطلقوا به إلى الجنة .

* * *

تفسير ما أودع هذه المقامة

من النكت العربية والأحاجى النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذى هو : « فإن وصلاً ألذّ به » ؛ فإنه نظير قولهم : المرء مجزىٌّ بعمله ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌّ ، وهذه المسألة أودعها سيبويه كتابَه وجوّزَ فى إعرابها أربعة أوجه :

أحدها — وهو أجودُها — أن تنصب : « خيراً » الأول وترفع الثانى . وتنصب : «شرًّا » الأول وترفع الثانى ، ويكون تقديره : إن كان عملهُ خيراً فجزاؤه خير ، وإن كان عمله شرًّا فجزاؤه شرّ ، فتنصِب الأوّل على أنه خبر كان ، وترفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقد حذِفت فى هذا الوجه « كان » واسمها لدلالة حرف الشّرط الذى هو « إن » على تقديرهما . وحذف أيضاً المبتدأ لدلالة الفاء التى هى جوابُ الشرط عليه ؛ لأنه كثيراً مايقع بعدها .

الوجه الثانى : أنْ تنصبهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان عملهُ خيراً فهو يُجزى خيراً ، وإن كان عمله شرًّا فهو يجزى شرًّا ؛ فينتصب الأوّل على أنه خبر « كان » وينتصب الثانى انتصاب المفعول به .

والوجه الثالث: أن ترفعهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان فى عمله خير فجزاؤه خير ، فيرتفع «خير» الأوّل على أنه اسم « كان» ويرتفع « خير » الثانى على ما بُيِّن فى شرح الوجه الأول .

وقد يجوز أن يرتفع « خير » الأول على أنه فاعل « كان» وتجعل « كان» المقدّرة ها هنا هى التامّة التى تأتى بمعنى حدث ووقع، فلا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى : ﴿ وإنْ كانَ ذُو عُسرَةٍ فنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ﴾ ، ويكون التقدير فى المسألة : إن كان خيرٌ فجزاؤه خير ، أى إن حدث خير فجزاؤه خير .

والوجه الرابع : وهو أضعفها أن ترفع الأوّل على ما تقدّم شرحه فى الوجه الثالث، وتنصب الثانى على ما بُيّن ذكره فى الوجه الثانى ، ويكون التقدير : إن كان فى عمله خير فهو يجزى خيراً ، وعلى حسب هذا التقدير والمقدّرات المحذوفات فيه يجرى إعراب البيت الذى غُنِّى به . ومما ينتظم فى هذا السّلك قولهم : المرء مقتول بما قُتِل به ؛ إن سيفاً فسيف ، وإن خِنْجَراً فخنجر .

وأما الكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لما فيه حرفٌ حلوب ، فهى « نعم » ، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العِدة عند السؤال فهى حرف ، وإنْ عنيتَ بها الإبل فهى اسم . والنَّعم تذكر وتؤنث وتُطلق على الإبل وعلى كلّ ماشيةٍ فيها إبل . وفى الإبل الحرْف وهى الناقة الضامرة ، سُمّيت حرفاً تشبيها لها بحرْف السيف . وقيل : إنها الضخمة تشبيها لها بِحَرف الجبل .

وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، فهو : سراويل ، قال بعضهم : هو واحد وجمعه سَراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد ، وكنىَ عن ضَمّه الخَصْر بأنّه حازم .

وقال آخرون: بل هو جمع، واحده سِرْوال،مثل: شِملال وشمَاليل، وسِرْبال وسَرابيل ، فهو على هذا القول جمع .

ومعنى قوله : ملازم ، أى لا ينصرف ؛ وإنما لم يَنْصرف هذا النوع من الجمع، وهو كلّ جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدّد ، أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرّده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له فى الأسماء والآحاد ، وقد كنى فى هذه الأُحْجِية عَمّا لا ينصرف بالملازم ، كما كنى فى التى قبلها عمّا ينصرف باللازم .

* * *

وأما الهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدّم ذكره ، كقولك: صيارفة وصياقلة ، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الهاء به ، لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد ، نحو : رفاهية وكراهية ، فخفّ بهذا السبب وصُرِف لهذه العلة . وقد كنى فى هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بالمعتقل ، كما كنى فى التى قبلها عمّا لا ينصرف باللازم .

وأما السين التى تعزل العامل من غير أن تجامل ، فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن ، التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب ، فيرتفع حينئذٍ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ ، وتقديره : علم أنه سيكون .

وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفضه سوى حرف ، فهو : « عند » إذ لا يجرّه غير « منْ » خاصة ، وقول العامة : ذهبت إلى عنده لَحن .

وأما المضاف الذى أخلّ من عُرَى الإضافة بعرْوة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، فهو « لَدُن » ولدن من الأسماء الملازمة للإضافة ، وكلّ ما يأتى بعدها مجرور بها إلاّ غُدوة ، فإن العرب نصبتْها بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نوّنتها أيضاً ليتبيّن بذلك أنّها منصوبة ، لأنّها من نوع المجرورات التى لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن « لَدُن » بمعنى « عند » ، والصحيح أنّ بينهما فرقاً لطيفاً ، وهو أنّ « عند » يشتمل معناها على ما هو فى ملكك ومكْنَتِك ، ممّا دنا منك وبَعُد عنك ولدن يختصّ معناها بما حضرك وقرُب منك.

وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، فهو : « يا» ، ومعكوسها « أى » ، وكلتاهما من حروف النداء ، وعملهما فى الاسم

المنادى سيّان ، وإن كانت « يا » أجوَل فى الـكلام ، وأكثر فى الاستعمال . وقد اختار بعضهم أن ينادى بأىْ ، القريب فقط كالهمزة .

وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مـكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا ، فهو باء القَسَم ؛ وهذه الباء هى أصل حُروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ،ولدخولها أيضاً على المضمر ، كقولك : بكَ لأفعلنّ ؛ وإنما أُبْدِلت الواو منها فى القَسَم لأنهما جميعاً من حروف الشفة ؛ ثم لتقارب معنييهما ؛ لأنَّ الواو تفيد الجمع والباء تفيد الإلصاق ، وكلاهما متَّفق، والمعنيان متقاربان . ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدْوَر فى الـكلام وأعلَق بالأقسام ؛ ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعـالى ذِكْراً . ثم إن الواو أكـثرُ موطنا من الباء، لأن الباء لاتدخل إلا على الاسم، ولاتعمل غير الجرّ، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف. وتجرّ تارة بالقسم وتارة بإضمار ربّ . وتنتظم أيضاً نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برُحب الوكر وعظم المـكر .

وأما الموطن الذى يلبس فيه الذّكران براقع النسوان ، وتبرُز فيه ربّات الحجال بعمائم الرجال ، فهو أوّل مراتب العدد المضاف ، وذلك بين الثلاثة إلى العشرة، فإنه يكون مع المذكّر بالهاء ومع المؤنث بحذفها ، كـقوله تعالى : ﴿سَخَّرها عليهمْ سَبْعَ ليالٍ وثمَانِية أيَّامٍ﴾ والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث ، كـقولك : قائم وقائمة وعالم وعالمة ، فقد رأيت كيف انعـكس فى هذا الموطن حـكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضدّ قالبه ، وبرز فى بزّةِ صاحبه .

وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب عن المضروب والضارب ، فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذّر ظهور علامة الإعراب فيهما أو فى أحدهما ،

وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى ، أو من أسماء الإشارة نحو ذاك وهذا . فيجب حينئذٍ لإزالة اللّبس إقرار كل منهما فى رتبته ، ليعرف الفاعل منهما بتقدمه ، والمفعول بتأخّره .

وأما الاسم الذى لا يفهم إلا باستضافة كلمتين ، أو الاقتصار منه على حرفين فهو « مهما » ، وفيها قولان : أحدهما : أنها مركبة من « مه » التى هى بمعنى اكفف ، ومن « ما » والقول الثانى ـ وهو الصحيح ـ أنّ الأصل فيها «ما» فزيدت عليها «ما» أخرى ، كما تزاد على «إنّ » فصار لفظها « ماما » ، فثقل عليهم توالى كلمتين بلفظ واحد ، فأبدلوا من ألف «ما» الأولى «ها» فصارتا «مهما» . ومهما من أدوات الشرط والجزاء ، ومتى لفظت بها لم يتمّ الكلام ، ولا عُقِل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها ، كقولك : مَهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرتَ منهما على حرفين وهما «مه» التى بمعنى اكْفُفْ ، فهم المعنى وكنت ملزماً مَنْ خاطبته أن يكفّ .

وأما الوصف الذى إذا أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون ، وَقُوّم بالدون ، وخرج من الزّبون ، وتعرّض للهُون ، فهو « ضيف » إذا لحقته النون استحال إلى « ضيفن » وهو الذى يتبع الضيف ويتنزّل فى النقد منزلة الزّيْف .

المقامة الخامسة والعشرون وتعرف بالكرجية

حكى الحارث بن همام قال : شَتَوْتُ بالكَرَج لِدَيْنٍ أَقْتَضِيه ، وأَرَبٍ أَقْضيه ، فبلوت من شتائها الكالح ، وصرّها النّافح ، ما عرّفني جَهْدَ البلاء ، وعَكَفَ بي عَلَى الاصْطِلاء ؛ فَلَمْ أكُنْ أُزايِلُ وِجارِي ، وَلاَ مُسْتَوْقَدَ نارِي ، إلاّ لضرُورةٍ أُدْفَعُ إليْهَا ، أوْ إِقامَةِ جماعةٍ أُحافِظُ عَلَيْهَا ، فاضطُرِرْتُ في يوم جوّهُ مُزْمَهِرّ ، وَدَجْنُهُ مكفهِرّ ، إلى أن بَرَزْتُ من كِنانِي ، لِمُهِمّ عَنانِي ؛ فإذا شيخٌ عارِي الجِلْدَة ، بادِي الجُرْدَة ، وقد اعتَمَّ بِرَيْطَة ، واسْتَثْفَرَ بِفُوَيْطَة ، وَحَوالَيْهِ جمعٌ كثيفُ الحواشي ، وهو ينشدُ ولاَ يُحاشِي .

* * *

شَتَوْت : أقمت فى الشتاء

[الكرج]

والكَرَج : مدينة معروفة ، وبشدة البرد موصوفة ، وهى بين أصبهان وهَمَذان ، وقد تقدم برد همذان[1] فى الأولى ، ومن همذان إلى نهاوند مرحلتان ، ومن الكَرَج إلى مدينة أصبهان ستون فرسخاً . وهى منازل عيسى بن إدريس بن معقل العجلىّ ، ولم تكن فى أيام العجم مدينة مشهورة ، وإنما كانت فى عداد القرى العظام من رساتيق كورة أصبهان ، فنزلها العجليّون فبنوا بها الحصون والقصور ، وجعلها أبو دلف مدينة عظيمة .

وقال أبو دلف : دخلت على الرّشيد ، فقال لى : ياقاسم ، ماخبر أرضكَ ؟ قلت : خراب يباب ، خرّ بها الأكراد والأعراب ، فقال قائل : هذا آفة الجبل وهو أفسده ، فقلت : فأنا أصلحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسدتُه وأنت علىّ ،

(١) فى الجزء الأول ، صفحة ٢٤ ، ٢٥

وأصلحه وأنت معى . ففعل ذلك ، وعمّر الكرَج ، حتى صار دار أجناد ، ومحلّ وفود وقُصّاد .

وقال علىّ بن جبلة(١) : زرته فى الجبل، فلما حللت بالكرَج ، أظهر من برّى وإكرامى أمراً مفرطا ، حتى تأخرت عنه تأخرا كبيراً. فوصل إلىّ معقل بن عيسى، فقال: يقول الأمير: انقطعتَ عنى ، وأحسبك استقللتَ برّى ، فلا يغضبنّك ذلك ، فسأزيدُ فيه حتى ترضى . فقلت: والله ماقطعنى عنه إلا إفراطه بالبرّ . قال: وكتب إليه فى ذلك :

هجرتُك لم أهجرْك من كفر نعمةٍ ... وهل يُرتجى نَيْلُ الزيادة بالكفر

ولكنّنى لما أتيتك زائراً ... فأفرطت فى برى عجزت عن الشكر

فآليت لا آتيك إلاّ مسلِّما ... أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهر

فإن زدتنى برًّا تزايدت جَفْوَةً ... ولم تلقنى طول الحياة إلى الحشرِ

فلما وصلت إليه ، قال : قاتله الله ماأشعره ، وأدق معانيه ! فأجابنى لوقته ، وكان حسن البديهة :

ألا ربّ ضيفٍ طارق قدبسطته ... وآنسته قبل الضيافة بالبشرِ

أتانى يرجّينى فما حال دونه ... ودون القِرَى والعرف من نيله سترى

وجدتُ له فَضلا علىّ بقصده ... إلىّ وبرًّا زاد فيه على برّى

فزوّدته مالا يقلّ بقاؤه ... وزوّدنى مدحا يَدُوم مع الدهر

وبعث إلىّ بها وبألف دينار مع وَصِيفة ، فقلت حينئذ :

إنما الدنيا أبو دلَفٍ ... بين مبداه ومُحْتَضَرهْ

فإذا ولّى أبو دلَفٍ ... ولّت الدنيا على أثره

ملك تندى أنامله ... كانبلاج النّور عن مَطَرِه

(١) الأغانى ١٩ : ٢٩٨ (بيروت)

مستهلٌّ عن مواهبـــه كابتسام الزهر عن زهَرِهْ
جبلٌ عزَّتْ مناكبهُ أمنَتْ عـدنان فى ثَغرِهْ
كلّ من فى الأرض من عَرَبٍ بين باديه ومحتضرِهْ
مستعيرٌ منـه مـكرمة يـكتسبها يوم مفتَخِرِهْ

والبيت الثانى أحفظ المأمون علَى ابن جبلة حتى سلّ لسانه من قفاه .

* * *

قوله : أقتضيه ، أى أجمعه . أرب : حاجة . بلوت : قاسيت . الـكالح : الشديد ، وكلح كلوحا . أبدى أسنانه عند العبوس ، والبرد الشديد يبدى الأسنان عند رعده . صرّها : بردها الشديد . النافح : المتحرك بالريح الباردة . جهد البلاء : مشقة الضرّ ، ويقال : بلغ جهده ، أى أقصى قوته ، فأراد بجهد البلاء المشقة التى يتمنّى الإنسان عندها الموت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ منه .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الأعداء » ؛ وروى فى «جهد البلاء» ، أنه القتْل صبرا

أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه قال: قتْل الصبر جهد البلاء.

وقال صلى الله عليه وسلم: «جهد البلاء أن تحتاج إلى ما فى أيدى الناس فيمنعوك»

مجاهد قال : كنت جالسا عند عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بالـكوفة ، فأُتِىَ برجل أن يضرب عنقه، فقلت : هذا والله جهد البلاء ، فقال : والله ما هذا إلا كشَرْطة حجام بمشراط ، ولـكن جهد البلاء فقر مدقع بعد غِنًى مُوسع .

الأحنف: جهد البلاء خمسة : خادم مذموم ، وحطب رطب ، وبيت يصف ،

وخوان ينتظر ، وجبار على الباب يدق .

عـكف بى على الاصطلاء : ألزمنى التسخُّن بالنار وعكف على الشىء عكوفا:لزمه. أزايل وجارى : أفارق بيتى، والوجار جحر الضبع. إقامة جماعة ، أى حضور الصلاة مع الجماعة، وبردشكير بغرناطة كان أشد على ابن صارة ـ حيث منعه الصلاة ـ من برد الـكرَج على ابن همام حيث يقول ابن صارة :

أحلّ لنا تركَ الصلاة بأرضكمْ ... وشرب الحمَّيــا وهو شىء محرّمُ
فراراً إلى نار الجحيم فإنهـا ... أرقّ علينا من شـكير وأرحمُ
لئن كان ربى مُدْخِلِى فى جهنّمٍ ... ففى مثل هذا اليوم طابت جهنّمُ

جوّه مزمهرّ : هواؤه بارد ، والزمهرير: البرد . دَجْنه مكفهرّ : سحابه متَرا كم مظلم . كنانى : بيتى : مهمّ : أمر لايؤخر . عنانى: عرض لى وقصدنى . الجرْدة الجلدة : التى تجرّد عنها ثوبها،وفلان حسن الجردة والتجرّد ، أى حسن العرى ، وقيل : الجردة الثوب المتَجرّد البالى . والريطة عند العرب : شىء رقيق ، شبه الملحفة ، ولذلك شُمِّىَ به المرأة ، ولا معنى لهذه الصفه لأنه قد وصفه بالعرْى ، وإنما أراد هنا شبه الـكراز لفظ مغيّرعن أصله كالفوطة عندنا ، ضرب مما يعتمّ به، وهى مغيّرة عن أصلها ، وإنما أصل الفوطة ثوب يجلَب من الهند غليظ، وتصغيرها فُويطة ، يلبسه أهل مصر وأهل المشرق كما يلبس أهل المغرب وأهل الأندلس الإحرام والمئزر. واستثفر : بالثوب إذا لواه على فخِذيه، ثم أخرجه من بينهما ، فشدّه فى حُجْزته ، واستثفر الـكلب بذنَبه : جعله بين فخِذيه فتخيل صورة السروجىّ هنا التى نهاية فى القبح على مايتّصف به أبدا ، وقد لوَى على رأسه نطعة من عمامة بالية ، واستثفر بمثلها، فلا تجدله مثلا إلا ما قال أبودلامة فى نفسه :

إذا لبس العمامة كان قردًا ... وخنزيراً إذا نزع العِمَامَهْ :

وأين هذا من قول ابن رشيق فى غلام معتمّ بعمامة حمراء :

يامن يمرّ ولا تمرّ به القــلوب من الحرقْ
بعمامة من خدّه أو خـدّه منها سَرَقْ
فـكأنه وكأنهـا قمرٌ أحاط به شفق
شغل الجوارح والجوا نح والخواطر والحدَقْ

وقال السَّلامى فى عمامة :

حسناء ضافيـة ، بيضاء صافيـةٌ كأَنَّ رونقها فى صارم ذكرِ
يزين أطرافها طرز كما رقمت على المجرّة طرز الأنجم الزّهرِ

كثيف : خشن منضمّ بعض حواشيه إلى بعض من الـكثرة . يحاشى : يستثنى .

* * *

ياقومِ لا ينبئكُمْ عَنْ فقْرى
أصدقُ مِنْ عُرْيِى أوانَ القُرِّ

فاعْتبروا بما بدا من ضُرِّى باطِنَ حَالِى وخَفِيَّ أمرِى
وحاذروا انقلابَ سِلْمِ الدّهرِ فإِنّنِي كنتُ نَبِيَه القدْرِ
آوِى إلى وَفْرٍ وَحَدٍّ يَفْرِى تفيدُ صُفْرى وتُبيدُ سُمْرى
وتشتكى كومي غداةَ أقرى فجرّدَ الدّهرُ سيوفَ الغدْرِ
وشنَّ غاراتِ الرزايا الغُبْرِ ولم يَزَلْ يَسْحَتُنِى ويَبْرِى
حتّى عفتْ دارِى وَغاضَ دَرِّى
وبارَ سِعْرى فى الورى وشِعْرِى

(١) نقله فى التتف ٥٤

وَصِرْتُ نِضْوَ فاقةٍ وَعُسْرِ
عَارِى الْمَطاَ مجرَّدًا مِن قشْرِى
كأننى المِغزلُ فى التَّعَرِّى لادِفْءَ لى فى الصِّنّ والصَّنَّبرِ
غيرُ التّضحِّى واصطلاءِ الجمْرِ فهل خِضمٌ ذو رداءٍ غَمْرِ
يسْتُرُنِى بِمُطْرَفٍ أو طِمْرِ طِلاَبَ وجه اللهِ لا لشكرِى!

* * *

ينبىء : يخبر . أوان القرّ : وقت البرد . حاذروا : خافوا . سِلْم : صلح . نبيه القدر : رفيع المنزلة . آوى : ارجع . وفر : مال كثير . يفرِى . يقطع . تفيد : تأتى بالفوائد. صُفرى : دنانيرى . تُبيد : تتلف . سُمْرِى : رماحى . كَوْمى : إبلى ، والـكوْماء: الناقة العظيمة السنام أقرى : أطعم الأضياف ، أى تشتـكى إبلى من كثرة ما أنحرها للضيفان . شنَّ : فرّق . الرزايا : المصائب. الغبر : الآتية فى الزمان المحل . يَسحَتُنى : يستأصل مالى . يبرى : يقطع لحمى . عَفَتْ : درست . غاض : ذهب وجفّ . درّى : لبن إبلى . بار : كسد وضاع . سعرى:سوقى . نضو:هزيل . فاقة : حاجة وفقر .عسر:ضِيق حال . المطا : الظهر قشْرى : ثيابى . والدفء : ذهاب البرد،وقددفِئَ يدفأ، أى سخن وذهب برده. الصِّنُّ والصنّبر : يومان من أيام العجوز ، وهى سبعة : أربعة من آخر فبراير، وثلاثة من أول مارس . وقال الشاعر يجمعها :

كُسِعَ الشتاء بسبعة غُـبْرِ بالصِّنّ والصِّنَّـبر والوبْرِ[1]
وبآمر وأخيــه مؤتمـرٍ ومعلِّل وبمطفىء الجمـرِ

التَّضحّى : الجلوس للشمس . خضمّ : كريم ، شبّه بالبحر ، وهو الخضمّ . ذو رداء غمر : ذو عطاء كثير . مطرَف : ثوب مربّع فى طرفه عَلَمَ . الفرّاء: قيل مُطرَف لأنه أطرِف،أى جُعل فى طرفيه العلمان. طِمْر: ثوب خَلَق.

* * *

(١) اللسان ــ صنبر .

ثمّ قالَ: يا أرْبابَ الثَّراء ، الرَّافلينَ في الفِراء ؛ مَنْ أُوتِي خيراً فلينفقْ ، وَمنَ استطاعَ أن يُرْفِقَ فليُرْفِق ؛ فإنّ الدُّنيا غَدُور ، والدَّهْرَ عَثُور ، وَالمُكْنَةُ زَوْرَةُ طَيْف ، وَالفرصة مُزْنَةُ صَيْف . وَإِنّي وَاللهِ لطَالَما تلقَّيْتُ الشّتاء بكاواته ، وَأعْدَدْتُ الأُهَبَ لَهُ قَبْلَ موافاتهِ ، وَها أنَا الْيوْمَ ياسَادَتي ، ساعِدِي وِسادَتي ، وجِلْدَتِي بُرْدَتِي ، وحَفْنَتِي جَفْنَتِي ، فلْيَعْتَبِر العاقِلُ بحالِي ، وليبادِرْ صَرْفَ اللَّيالِي ؛ فإنّ السَّعيدَ مَنِ اتّعظَ بِسَواه ، واستعدَّ لِمَسْراه .

* * *

أرباب الثراء : أصحاب المال . الرّافلين : الماشين بخُيلاء وتبختر : الفِراء : جمع فروة . أوتى : أعطى . خيراً : مالاً . يُرفق : يعين ، وأرفقته : أعطيته مايرتفق به . غَدُور : كثيرة الخداع . عَثور : واقع بأهله . المكنة : الغِنَى .

طيف : مايرى فى النوم .

ابن الأنبارى : فى طيف الخيال قولان : قيل : أصله طيِّف فخفِّف ، وقال الأصمعى رحمه الله تعالى : هو مصدر طاف ، وبه أخذ السهيليّ رحمه الله تعالى ، فقال : هو مصدر طاف الخيال يَطيف طيْفا ، ولا يقال : منه طائف على فاعل ، لأنه لا حقيقة للخيال ، إنما هو توّهم وتخيّل . فإن كان شيء له حقيقة قلت : فيه طائف ، نحو قوله تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ ، لأن الذى طاف عليها له حقيقة ، ويقال : إنه جبريل عليه الصلاة والسلام . وأما قوله تعالى : ﴿ إذا مسَّهم طيف من الشيطان تذكروا ﴾ فقد قرئ ﴿ طائف ﴾ أيضاً فطائف لأن له حقيقة ، وطيف لأنه غرور الشيطان وأمانيه تشبه بالخيال وما لا حقيقة له ، فتحصّل من هذا ثلاث مراتب الخيال ، ولا حقيقة له فيعبّر بالطيف ، ويقال فى وسوسة الشيطان : طائف وطيف ، وما عدا هذين فهو باسم الفاعل ، ولا يعبّر عنه بطيْف

فقف عليه . الفُرْصة : ماتهيأ لك وتيسَّر لك من مطالبتك . مزنة صيف ، أى سحابة لا دوام لها ، وأراد قول عمران بن حطَّان :

أرى أشقياء النَّاس لا يسأمُونها   على أنهم فيها عراة وجوّع
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها   سحابة صيف عن قريب تَقَشَّعُ

ولما ولِيَ بلال بن أبى بردة البصرة ، كان إذا اجتاز فى مواليه بخالد بن صفوان يقول : * سحابة صيفٍ عن قريب تقشّعُ *

فبلغ قوله بلالا ، فقال : والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب ، فردّه ثم ضربه مائة سوط .

كافات: جمع كاف ، وأراد بها آلته ومايستعدّ له بها وهى الأهب التى أراد. موافاته : مجيئه وحضوره . ساعدى : ذراعى . بردتى : ثوبى ، الحفنة : مايملأ الكفّ . الجفنة : الصحفة . فليتعظ ، أى يعتبر ويجعلنى عبرة . صرف : تقلّب. استعد : أعـدّ : لمسراه : مثواه . وقال الألبيرى فى هذا المعنى :

وذى غنى أوهَمته همَّتـهُ   أنَّ الغنى عنه غير منفصلِ [1]
فجرَّ أذيال عُجْبِهِ بَطَراً   واختال للكبرياء فى حُلَلِ
بزَّته أيدى الخطوب بِزَّتَه   فاعتاض بعد الجديد بالسَّمَلِ
فلا تثق بالغنى فآفته الفقـ   ـر وصرف الزمان ذو دُوَلِ
كفى بنيل الكفافِ منهُ غِنًى   فكفَّ به الدهر غَيْرَ مُحْتَفِلِ

[من مقامة البديع البخارية]

ومن مقامات البديع : حدثنا [1] عيسى بن هشام قال: أحلّنى جامع بخارى يومٌ وقد انتظمتُ مع رفقة فى سِلك الثُّريا . وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طِمْرَيْن ، قد أرسل صوانا ، واستتلى طفلا عريانا ، يضيق بالضرّ وسعُه ، ويأخذه القرّ ويدعُه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتنى لحماية رعدة ، فوقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا الطفل إلاّ مَنْ الله طفّله ، ولا يرق لهذا الضرّ إلاّ مَنْ لا يأمن

(١) مقامات الهمذانى ٩٥.

مثله . يا أصحاب الجدود المفروزة ، والأردية المطروزة ، والدُّور المنجّدة ، والقصور المشيّدة . إنكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تعدَموا وارثا ، فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طَعِمْنا السِّكباج ، وركبنا الهملاج ، ولبسنا الديباج[1] ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدْرِه ، وانقلاب المجنّ لظهره ، فعاد الهملاج قَطوفا[2] ، والديباج صوفا ، وهلمّ جرا إلى ما تشاهدون من حالى وزيّى ؛ فها نحن نرتضع من الدهر ثدى عَقِيم ، ونركب من الفقر ظهر بَهِيم ، فلا نرنو إلاّ بعين اليتيم ، ولا نمدّ إلاّ يدَ العديم . فهل من كريم يجلو غياهب هذه البؤوس ، ويفُلّ شَبا هذه النحوس . ثم قعد مرتفقا[3] ، وقال للطفل : أنت وشأنك ، فقال : ماعسى أنْ أقول وهذا الكلام لو لقىَ الشّعر لحلقه ، أو الصخر لفلَقه ، وإن قلباً لم ينضجه ماقلت لنىء ، وقد سمعتم يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليَشغَلْ كلٌّ منكم بالجود يده ، وليذكر غده ، واقياً بى ولده ، وامنحونى أشكركم ، واذكرونى أذكركم . وتمامها فى العشرين .

* * *

فقيل له : قَـدْ جلوتَ علينا أدَبك ، فاجْلُ لنا نسبَك ، فقال : تبًّا لمفتخرٍ ، بعَظْمٍ نَخِر ، إِنَّمَا الفخرُ بالتّقَى ، والأدبِ الْمُنْتَقَى ؛ ثم أنشد :

لَعمرُكَ ما الإنسانُ إلاّ ابنُ يَوْمِهِ
عَلَى ما تجلَّى يَوْمُه لا ابنُ أمْسِهِ

(١) السكباج : لحم يطبخ بالخل ويجعل معه مرق ، والهملاج : الدابة السريعة ، والديباج : الحرير .
(٢) القطوف : الدابة البطيئة فى سيرها .
(٣) مرتفقاً ، أى فى مكان عال .

وما الفخـرُ بالعظمِ الرَّميمِ وإنّما
فخارُ الذى يبغى الفخـار بنفسهِ

ثمَّ إنّه جلَسَ مُحْقَوقِفاً ، واجرنْثَمَ مُقْفَقِفاً . وقال : اللّهمّ يا مَنْ غمَرَ بنوالِه ، وَأمَرَ بسؤالِه ؛ صلّ على محمد وآلِه ، وأعنّى على البردِ وأهْوَالِه ، وأتِحْ لى حُـــرًّا يؤثِرُ من خَصاصة ، ويُواسِى ولو بقُصاصة .

* * *

قوله : «جلوت» ، أظهرت وكشفت . اُجلُ : اكشف وبيّن عنه . تَبًّا : خسرانا . نَخِرٍ : بالٍ . المنتقى : المختار . تجلّى : تبدّى وظهر . الرّميم : البالى . يبغى : يطلب .

وقوله : « تباً لمفتخر، بعظمٍ نخِرِ» ، كانت العرب تتفاخر بالأحساب ، وتتعاظم بكرم الآباء ، فنزل القرآن العظيم بترك ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ و ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِجة الوداع : « أيها الناس ، إنما الناس إخوة وليس لعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى . أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم »، فلذلك قال : إنما الفخر بالتقى .

وقال علىّ كرم الله وجهه ورضى عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهمُ آدمٌ والأمّ حوّاء
فإن يكن لهم من قبل ذا نسبٌ يفاخِرون به فالطين والماء

وقال عامر بن الطفيل :

وإنى وإن كنتُ ابن سيّد عامرٍ ... وفى السرِّ منها والصريح المهذّبِ[1]
فما سودَتْنِي عامرٌ عن ولادة[2] ... أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أبِ
ولكنّنى أحمى حِماها وأتّقى ... أذاها وأرمى مَنْ رماها بمنكبِ[3]

فهذا مع إمكانه الفخر بالآباء لم يفخر إلا بنفسه . وأخذه عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فقال :

لَسْنا وإن أحسابُنا كرمتْ ... يوماً على الأحساب نَتّكِلُ
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنِى ونفعل مثل ما فعلوا

وهذا مثل قول الحسن رضى الله تعالى عنه وقد أجزل صلةَ شاعر ، فليم فى ذلك فقال : أترانى خفت أن يقول : إنى لست ابن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا ابن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولكنى خفت أن يقول: لستَ كمثلهما فيصدّق ويحمَل عنه، ويبقى مخلّداً فى الكتاب محفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر: أنت والله يا بن رسول الله أعرف بالمدح والذم منى .

قوله : والأدب المنتقى ؛ حدّث يحيى بن أكثم قال : بينما أنا جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى، أبدع الناس زيًّا وهيبة ووقاراً، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فنظر إليه المأمون ، فقال : يا يحيى إنّ هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشميًّا أو نحويًّا ، ثم بعثنا مَنْ يتعرف ذلك منه . فعاد الرسول فأخبر أنه نحوىّ ، فقال المأمون : يا يحيى ؛ أعلمت إن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلوّ الهمة منزلة بنى هاشم فى شرفهم ! يا يحيى، مَنْ قعد به نسبه قام به أدبه .

قال : وأنشد الشاعر :

(١) ديوانه ٢٨ .
(٢) الديون : « وراثة » .
(٣) الديوان : « بمقنب » .

كنِ ابنَ مَنْ شئت واتّخذ أدبا ... يُغنيك مأثورُه عن النَّسبِ
إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفَتَى من يقول كان أبى
مالىَ عقـــلى وهمتى حَسَبِى ... ما أنا مولًى ولا أنا عـربى
إنِ انتمى منتمٍ إلى أحـــدٍ ... فإننى مُنْـتَمٍ إلى أدبى

وتـكلم رجل عند عبد الملك بكلاَم ذهب فيه كلّ مذهب ، فقال له وقد أَعجبه : ابن مَنْ أنت يا غلام؟ فقال : ابن نفسى يا أمير المؤمنين، التى نلت بها هذا المقعد منك ، قال:صدقت. أخذه ابن دريد فقال :

كن ابن من شئت وكن مؤدّباً ... فإنما المرء بفضل حِسِّه[(١)]
وليس مَنْ تـكرمه لغيره ... مثل الذى تـكرمه لنفسِه

وقالت عائشة رضى الله عنها : كل كرم دونه لؤم ، فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالـكرم أولى به — يعنى أن أفعال الإنسان إذا كرمت لم يضرّه لؤم آبائه ، وإذا لؤمت لم ينفعه كرم آبائه . وقال المعرّى :

لو عرفَ الإنسان مقداره ... لم يفخر المولَى على عَبْدِه[(٢)]
لولا سجاياه وأخـــلاقه ... لـكان كالمعدوم فى وُجْدِهِ
ومجـــده أفعـاله لا الذى ... من قبله كان ولا بعـــدِه

قوله : ما تجلّى يومه ، أى على ما ظهر وانـكشف يومه من أفعاله المحمودة أو المذمومة . محقوقفا : منحنياً . اجرنثم : انقبض . مقفقفا : مرتعداً ، ويقال : قفّ شعره إذا ارتفع من ذعر أصابه . وقفّ جلدى من هذا الحديث ؛ إذا اقشعر من استشناع ما سمع .

غمر بنواله ، أى غطّى بعطاياه . وأمر بسؤاله : يريد قوله تعالى : ﴿ واسألوا

(١) ديوانه ٧٠ ، وفيه : «كيسه» .
(٢) سقط الزند ١٠١٦ مع اختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات .

الله من فضله ﴾ . آله : أهله . أهواله : شدائده ومخاوفه . أتح : قدِّر . يؤثِر : يفضِّل غيره على نفسه . خصاصة : جوع، وهذا منتزع من القرآن .

* * *

قالَ الرّاوي : فلمّا جَلّى عن النَّفْسِ العِصاميّة ، والمُلَحِ الأصمعيّة ، جعلتْ مَلامِحُ عيني تَعْجُمُهُ ، ومرامي لَحْظي تَرْجُمُهُ ، حتّى استبنتُ أنّهُ أبو زَيْدٍ ، وأنّ تعرّيَهُ أحبولَةُ صَيْدٍ . ولَمَحَ هُوَ أنَّ عِرْفاني قَدْ أدْرَكَهُ ، وَلَمْ يأمَنْ أَنْ يَهْتِكَهُ ، فقالَ : أُقسِمُ بالسَّمَرِ والقَمَرِ ، والزُّهْرِ والزَّهَر ، إنَّهُ لَنْ يَسْتُرَني إلاّ مَنْ طَابَ خِيمُهُ ، وأُشْرِبَ ماءَ المروءةِ أديمُهُ . فعَقَلْتُ ما عَناهُ ، وإنْ لم يَدْرِ القومُ مَعْناهُ ، وَساءَني ما يعانيهِ من الرِّعدة ، واقْشِعْرارِ الجِلْدَةِ . فعَمَدْتُ لِفَرْوَةٍ هيَ بالنّهارِ رِياشي، وفي اللّيلِ فِراشي . فنضوتُها عَنّي، وقلتُ له : اقْبَلْها مِنّي ؛ فما كذبَ أنِ افْتَراها ، وعَيْني تَرَاها . ثم أنشد :

لِلّهِ مَنْ أَلْبَسَني فروةً أضحتْ من الرِّعْدَةِ لي جُنَّةْ

أَلبَسنيها واقيـــــاً مُهْجَتي وُقِّيَ شرَّ الإنسِ والجِنَّـــهْ

سَيَكْتَسي اليومَ ثنائي وَفي غـدٍ سيُكْسَى سُنْدُسَ الجَنَّه

• • •

والعصامية : منسوبة إلى عصام بن شهبر بن الحارث الجرمىّ، حاجب النعمان ابن المنذر الذى يقول له النابغة :

فإنى لا ألام على دخـولٍ ولـكن ما وراءك يا عصام(١)

ولم يكن عصام شريفاً ، ولا نشأ فى قومه ،ولـكن كان من أشدّ الناس بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، وأقربهم إلى النعمان ، وقال له رجل يوما : كيف بلغتَ هذه المنزلة من الملك وأنت دنىء الأصل ؟ فقال :

نفسُ عصامٍ سوّدت عِصَامَا وعلّمته الـكرّ والإقداما(١)

* وصيّرته سيّدا هماما *

ويقال : كن عصاميا ولا تـكن عظاميا ، أى افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيَت عظامهم . فـكلّ من ليس له شرف قديم ، وشرف بنفسه ، يقال له عصامىّ .

وكانت لرجل عند الحجاج حاجة ، فوُصِف بالجهل والحمق ، فأراد أن يختبره ، فقال : أعصامىٌّ أنت أم عظامىّ ؟ فقال له الرجل : عصامىّ عظامىّ ، فظنّ أنه يريد افتخاره بنفسه لفضله وبآبائه لشرفهم ، فقال الحجاج : هذا من أفضل الناس ، وقضى حاجته ، ثم جرّبه بعد ذلك ، فوجده أجهل الناس ، فقال له : أصدِقنِى وإلا قتلتُك ، أجبتَنِى بعصامىّ وعظامىّ ، فقال له الرجل: لم أعلم معناهما ، فخشيت أن أقول أحدهما فأخطىء ، فقلت فى نفسى: أقولهما معا ، فإن ضرّنى أحدهما نفعنى الآخر ، فقال الحجاج: المعاذير تصيّر الغبىّ خطيبا ، فذهبت مثلا .

وسمع المأمون رجلا يفخر بنفسه وهو ناقص ، فقال: أنت عظامى لا عصامىّ .

(١) ديوانه ٧٤ .

(١) ديوانه ٧٩ .

ولهذا أشار بما تقدم من قوله « تبًا لمفتخر ، بعظم نخر » ، يريد أن عصاما ساد بنفسه لا بآبائه ، وكذلك السّروجيّ لم يفخر إلا بنفسه .

الأصمعية : التى حكاها الأصمعيّ ، وقد مرّ من مُلح الأصمعيّ فى هذا الكتاب جملة كافية بحمد الله تعالى . والأصمعيّ عِصاميّ لأنه من باهلة ، وهى أهجن قبيلة فى العرب وألأمها ، وذكر المبرّد فى كامله جملة أخبار فى أمثالها ، قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلِى عوى الكلبُ من لؤم ذاك النَّسَبْ (١)

وهو مع ذلك خامل المنشأ ، وقد ذكرنا فى الأربعين خمول أبيه إلا أنه ساد الناس بنفسه أدبا وعلما ودينا . ومن مُلَحه أنه قال : بينما أنا فى طرق البصرة إذا أنا بكناس يكنس كنيفا ، وإذا هو يقول :

فإياك والسكنى بأرض مذلةٍ تعدّ مسيئًا فيه إن كنت مُحسنا
فنفسكَ أكرِمْها وإن ضاق مسكن عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

قال : فوقفت عليه ، فقلت : والله ما بقىَ عليك من الهون شىء إلا وقد أهنتَها به ، فما الذى نلتَ من كرامتها ؟ قال : والله لكنس ألف كنيف أحسن من القيام على باب مثلك ساعة .

الأصمعيّ : كان أعرابيان متواخيان بالبادية ؛ ثم إن أحدهما استوطن الريف ، واختلف إلى باب الحجاج ، فولاّه أصبهان . فسمع أخوه خبره فضرب إليه ، فأقام ببابه حينا لا يصل إليه ، ثم أذن له بالدخول ، فأخذه الحاجب فمشى به وهو يقول :

فلستُ مسلّمًا ما دمتُ حيًّا على زيد بتسليم الأميرِ

---

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١١ .

فقال زيد : لا أبالى ، فقال الأعرابىّ :

أتذكر إذ لحافُك جلدُ شاة وإذ نعلاكَ من جلد البعيرِ

فقال : نعم ، فقال الأعرابىّ :

فسبحان الّذى أعطاكَ ملكا وعلّمك القعود على السرير

تمْجمه : تختبره . مرامى لحظى : نظرات عينى وسهام نظرى ، واحد المرامى مَرْماة، وهى السهم .

ترجمه : ترميه وتقع عليه . أحبولة : شبكة . يَهتكه : يكشفه . السَّمَر : ظل القمر ، ثم سُمّى حديث الليل سمرا به . الزُّهر : النجوم . خِيمه : طبعه . أشرب : سُقىَ . المروءة : الفعل الجميل . أديمه : وجهه ، ويقال : أشرب فلان حبّ فلان، إذا خالط حبُّه قلبه. ماعناه: ما أراده ، يريد أنه لما قال: لن يسترنى، إنما أراد لن يستر علىّ هذه الحيلة التى أريد بها خداع الناس بعد ماعرفها الآمَنْ هو كما وصف .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: « من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موءودة من قبرها » .

ساءنى : شقّ علىّ . يعانيه : يقاسيه . اقشعرار : انقباض وارتعاد . عَمَدت : قصدت . رياشى : لباسى . نضوتها : جرّدتها . افتراها : اتخذها . جُنّة : ستراً ووقاية . واقيا : صائنا . مهجتى : نفسى . وُقِّىَ : كُفِىَ . الجِنّة : الجنّ : سندس: ثياب خضر.

* * *

قال : فَلَمّا فتَنَ قُلُوبَ الجماعة ، بافتنانِهِ فِى الْبَرَاعَةِ ، أَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الفراء المغشّاة ، والجبابِ المَوشّاة ، ما آدَهُ ثِقَلهُ ، ولَمْ يَكَدْ

يُقِلُّهُ ، فانْطلَقَ مُسْتَبْشِراً بالفرَج ، مُسْتَسْقِياً لِلْكَرَج ، وتبعتُهُ إلى حَيْث ارتفعتِ التقيّة ، وبَدتِ السَّماءُ نَقِيّة ، فقلتُ له : لَشدَّ ما قرَسك البرْد ، فلاَ تتعرَّ مِنْ بَعْد ، فقال : وَيْكَ ! لَيْسَ من العَدْل، سُرْعَة العَذْلِ ، فَلاَ تعجلْ بلوم هُوَ ظُلْم ، وَلاَ تَقْفُ ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلم ؛ فو الّذِى نَوَّر الشّيْبه ، وَطَيَّبَ تُرْبَةَ طَيْبة ، لَوْ لَمْ أتعرَّ لَرُحْتُ بالخَيْبة ، وصَفرِ العَيْبَةِ .

* * *

افتنانه : تنوّعه . البراعة : الجودة والفصاحة المغشاة : المغطّاة بغيرها من الثياب . الموشّاة : المزيّنة بالرقم . آده : أثقله . يقلّه : يرفعه . مستسقيا : داعيا بأن يسقيها الله تعالى . التقية : الخشية .

قوله : بدت السماء نقية ، مَثَل ضرب لخلوّ الموضع من الناس وظهوره فيه وحده . ويْك ، أى عجبا لك . العَذَل :اللوم .

تقْف: تتبع ، يقال : قفوت أثره أقفوه قفواً ، إذا تتبّعته ، ومنه : قَفَا فلان فلانا إذا أتبعه بكلام قبيح ،ويقال: قَفَاه بالتخفيف .

أبو عبيدة رحمه الله تعالى : أصل القَفْوُ والتّقافى : البهتان يَرْمِى به الرجل صاحبه ، واحتج بحديث حبان بن عطية : « مَنْ قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة[1] الخبال حتى يأتى بالمخرج » . قال الفراء رحمه الله تعالى : القفو: مأخوذ من القيافة ، وهو تتبع الأمر ، يقال : قاف القائف يقفُو قيافة ، فهو قائف ، بتقديم الفاء على الواو ، كماقالوا فى جَذَب :جَبذ ، وقرىء : ﴿ولا تَقُفْ﴾ مثل تَقُلْ . نوَّر : بيّض .

(١) الردغة : الطين والوحل ؛ كذا فسره ابن الأثير وأورده فى النهاية .

[ذكر طيبة]

طَيْبة مدينة النبي صلى الله علية وسلم ، وطيّب الله تربتها بأن صيّرها موطنا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فى حياته ومستقرًا له بعد مماته . وذكر شيخنا ابن جبير المدينة فقال : للمدينة(١) المكرّمة أربعة أبواب وهى تحت سورين فى كلّ سور باب يقابله آخر : باب الحديد ، وباب الشريعة ، وباب القبلة ، وباب البَقيع ، وبين سورها الغربىّ وخندق النبي صلى الله عليه وسلم مقدار غَلْوة ، وبين السور والخندق عين النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حَلَق عظيم مستدير ، ومنبع العين وَسَطه ، كأنه الحوض المستطيل ، وتحت العين سقايتان بينهما جدار لطهر الناس وغسل أثوابهم ، والعين للاستقاء والعين تمد السقايتين ، وتهبط إليهما على خمس وعشرين درجة ، وماؤها يعم أهل الأرض فضلا عن أهل المدينة . وبمقربة من الحوض ممّا يلى الحوض حجر الزيت ، يقال : إنّ الزيت رشح للنبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر . وبالقرب منه بئر بضاعة وبإزائها من الجهة اليسار جبل الشَّيطان حيث صرخ يوم أُحُد : قتل نبيكم . وعلى شفير الخندق حصن العزّاب ، وهو خرب . كان عمر رضى الله عنه بناه لعزّاب المدينة ، وأمامه لجهة الغرب على بعد بئر رُومة التى اشتراها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفا . وداخل باب الحديد سقاية يهبط إليها على أدراج ، وهى بمقربة من الحرم المكرّم ، وبقبلىّ الحرم دار مالك بن أنس رضى الله عنه . ويُطِيف بالحرم شارع مبلط بالحجر المنحوت ، وفى جوفىّ المدينة جبل أُحد على ثلاثة أميال منها ، وبقبليّه مسجد حمزة ، وقبره برحبة بجوفىّ المسجد ، وبإزائه قبور الشهداء ، وحوله تربة حمراء أنزل فيها سورة الفتح الشريفة ، وشرقى المدينة بَقِيع الغَرْقد ، وإذا خرجت على باب البقيع تلقى على يسارك قبر صفيّة عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير ، وأمامها قبة مختصرة البناء على قبر مالك بن أنس . وأمامه قبر

(١) رحلة ابن جبير ، ١٧٦ بتصرف .

السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم عليه قبة بيضاء وعلى يمينها قبر عبد الرحمن بن عمر ، الذى جلده أبوه الحدّ فمات ، وبإزائه قبر عَقِيل بن أبى طالب وعبد الله بن جعفر ، وبإزائه روضة صغيرة فيها ثلاثة من أبنائه صلى الله عليه وسلم ، ويليها رَوْضة العباس والحسن رضى الله عنهما ، وعليها قبة مرتفعة فى الهواء ، وقبراهما مرتفعان على الأرض مغشيان بألواح ملتصقة أبدع التصاق ، مرصّعة بالصفائح الصفر مسكوكة بمسامير على أبدع صفة ، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم عليه السلام بن النبى صلى الله علية وسلم ، وفى آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد ، وعليه قبة مختصرة البناء ، وبمقربة منه قبر فاطمة بنت أسد أم علىّ كرم الله وجهه ، ومشاهد البقيع أكثرمن أن تُحْصَى لأنها مدفن الصحابة رضى الله عنهم . وقبل المدينة على نحو الميلين قُباء ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرّمة ، وبها المسجد الذى أسس على التقوى وهو مربع مستوى الطول والعَرْض له باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبع بلاطات فى الطول ، ومثلها فى العرض ، وفيه صومعة طويلة بيضاء تظهر على البعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، عليه حلق قصير شبه الروضة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مسطبة ، وهو أوّل موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى قبليّه دار بنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارىّ ، ويليها دار عائشة رضى الله تعالى عنها ، وبإزائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين ورضى عنّا بهم ، وبإزائها بئر أرِيس حيث تفل فيه النبى صلى الله عليه وسلم فعاد عذبا بعد أن كان أُجاجا ، وفيه وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، وحديثه مشهور ، وفى آخره تلّ مشرف يعرف بعرفات لأنه كان موقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرَفة ، ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات . ويدخل من التل على دار الصّفة ، وبها كان عمار وسلمان وأصحابهما . والطريق من قبل قُباء إلى المدينة بين حدائق النخل المتصلة ، والنخيل تحدق بالمدينة من

جهاتها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب . وآثار المدينة وقباء لاتحصى. فلمّا خص الله تعالى تربة طيبة بصفوة عباده أقسم الحريرى بمن طيّبها .

صفر العيْبة : خلو الوعاء .

* * *

ثمَّ نَزَعَ إلى الفِرَار ، وتَبرقَعَ بالاكْفهرار ، وقال : أما تعلَمُ أنّ شِنْشِنَتِي الانتقالُ من صَيْدٍ إلى صَيْد ، والانعطافُ مِنْ عَمْرو إلى زيدٍ ، وأراكَ قَدْ عُقْتَنِي وعَقَقْتَنِي ، وأفتَّنِي أضعَاف ما أفدْتَنى، فاعْفِنِي عافَاكَ اللهُ مِنْ لَغوكَ ، واسْدُدْ دُونِي بابَ جدّكَ ولَهْوِكَ. فجبذتُهُ جَبْذَ التِّنْعَابة ، وجَعْجَعْتُ به للدُّعابة ، وقلتُ له : والله لَوْ لم أوارِك ، وأغطّ عَلَى عَوارِكَ ، لمَا وَصَلْتَ إلى صِلَة ، ولانقَلَبْتَ أكْسَى مِنْ بصلة ، فجازني عن إحساني إليْكَ ، وسَتْرِي لَكَ وَعَلَيكَ ، بأنْ تَسْمَحَ لِي برِدِّ الفرْوة ، أوْ تعرِّفَنِي كَافاتِ الشَّتوَة . فنظرَ إليّ نَظرَ المتعجّب ، وازمَهَرّ ازمِهْرَار المتغضِّب ، ثمّ قال :أمّا رَدُّ الفرْوةِ فأبعدُ مِنْ رَدِّ أمسِ الدَّابرِ ، والميتِ الغابرِ .

. . .

نَزَعَ : مال وحنّ . وتبرقع:ستر وجهه . الاكفهرار: العبوس. شِنْشنتي: طبيعتي . الانعطاف : الرجوع . عقتني : حبستني . عققتني : قطعتني. أفتّني : حرمتني . أفدتني : أكسبتني فائدة . اعفني : أرحْنَي وعافِني. لغوك : باطلك.

التلعابة : كثرة اللعب ورجل تِلْعابة : حسن اللعب مزّاح ، وفى الحماسة :

هُوَ الظفر الميمون إن عاد واغْتَدَى به الركب والتِّلعابة المتحبِّبُ

جعجعت: صحت ودعوت به ، والجعجعةُ : رُغاء الإبل . الدُّعابة: المزاح . أوارِك : أسترك . عوارك : عيبك . صلة : عطية . سترى لك ، أى ثوبى ، وأراد بمليك، سكوتى عنك حين قلت:لن يسترنى إلامن طاب خِيمه . ازمهرّ : توقدت عيناه غضبا . المتغضّب : المستعمل الغضب . الدابر : الماضى . والغابر : الذاهب .

* * *

وأمّا كافاتِ الشَّتْوَة ، فسبحانَ مَنْ طبَع على ذِهْنِك ، وأوْهي وعاء خزْنك ، حَتَّى أنسيتَ ما أنشدتك بالدَّسْكرَة ، لابن سُكّرَةَ :

جاء الشِّتاَء وعِنْدِى مِنْ حوائجه

سبعٌ إذاَ القطرُ عَنْ حاجاتناَ حبساَ

كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكاسُ طِلاً

بعد الكباَب وكُسٌّ ناعمٌ وكِساَ

ثمّ قال : لَجَوابٌ يَشفى ، خيرٌ من جلباَبِ يُدْفِى ؛ فا كتفِ بِماَ وَعَيْتَ وانْكفِ . ففارَقته وقدْ ذهبتْ فرْوتِى لِشقْوتِى ، وحَصَلْت عَلَى الرِّعْدَة طولَ شَتْوتِى

* * *

وقوله : سبحان من طبع ، معناه تنزيهاً لك ياربنا من الولد والصاحب والشريك،أي نزهناك من ذلك ، وانتصابه على المصدر ، كأنك قلت : سبحت الله تسبيحا ، فجعلت « سبحان » فى موضع التسبيح ، ومعنى طبع على قلبك ، أى غشّاه الصدأ والدنس والوسخ ، قال الله تعالى:﴿فَطُبِعَ على قُلوبِهِمْ﴾ وقال: ﴿كذلكَ يطبع الله على قلوب الّذين لا يَعلمون﴾،وفى الحديث« نعوذ بالله من طمع يدنى إلى طبَع» . وقال الشاعر :

لاتطمعنْ طمعاً يدنى إلى طَبَعٍ   إن المطامع فقر والغنى ياسُ

وأنشد يعقوب :

لاخير فى طمَع يُدنِي إلى طبَع   وغُفّةٌ من قوام العيش تَكفيني[١]

والذهن : قوّة ادراك العقل. أوهى : أضعف . خزنك: تثقيفك وحرزك . الدسكرة : هنا قرية معروفة بينها وبين بغداد على طريق خراسان ستة عشر فرسخا .

[ترجمة ابن سكّرَة]

وابن سكّرَة من شعراء اليتيمة قال صاحبها[٢]: ابن سكرة الهاشميّ هو أبوالحسن محمد بن عبدالله بن محمد . شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الظرف والملح ، أحد الفحول والأفراد ، وجالَ فى ميدان المجون والسخف بما أراد . وكان يقال ببغداد: إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخيّ جدّا ، وما أشبهما إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما . ويقال إن ديوان ابن سكرة يربو على خمسين ألف بيت .

---

(١) البيت فى اللسان_ غفا من غير نسبة. والغفة : بلغة من العيش.   (٢) اليتيمة ٣_٣ .

ومن شعره فى غلام فى يده غصن نوار :

غصن بانٍ بدا وفى اليدّ منه　　غصن فيه لؤلؤ منظومُ(١)
فتحيّرت بين غصنين فى ذا　　قمر طالع وفى ذا نجوم

وله فى غلام يعرف بابن برغوث :

بُليت ولا أقول بمَنْ لأنى　　إذا أنا قلت مَنْ هُو تعشقوه(٢)
حبيب قد نفى عنّى رُقادى　　فإن غمّضت أيقظنى أبوهُ

وله فى غلام أعرج :

قالوا بليت بأعرج فأجبتُهُمْ　　العيب يحدث فى غُصون البان(٣)
ماذا علىّ إذا استجدتْ شمائلا　　وروادفا تغنى عن الكُثْبانِ
إنى أحبُّ جلوسَه وأريده　　للنوم لا للجرْى فى الميْدَانِ
فى كلّ غصن منه حسن كامل　　ماضرّنى إن زلّت القدمان

وله فى غلام سميّه :

إذا باسمى دُعيت حننت شوقا　　وذكّرنى به الداعى حَبيبى(٤)
فليت كما اتفقنا فى الأسامى　　وألفتها اتفقنا فى القلوبِ

وله أيضاً :

بنفسى عِذار بَدَا طالعا　　على ناضر الورد ما أمْلَحَا(٥)
كتمت هواه زَمان الصِّبا　　وبوّحت(٦) بالحبّ لمّا التحَى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٣
(٢) اليتيمة ٣ : ٨
(٣) اليتيمة ٣ : ٦
(٤) اليتيمة ٣ : ٤
(٥) اليتيمة ٣ : ٥
(٦) اليتيمة : « صرحت »

وقالوا محا الشعر لمّا بدا محاسنه منه واستقبحا
فقلت لهمْ ما محا حسنه ولكنّ صبرىَ عنه محا

وله فى مثله :

وغزال لولا تَميمة شعر ذكّرته لقلت بعض الجوارِى[(١)]
شاربٌ أشرَبَ الصبابة قلبى وعذار خلعتُ فيه عذارى

وله فى مثله أيضاً :

مَنْ عذيرى من شادنٍ لايرانى وهو روحِى أهلا لردّ السلام[(٢)]
أنا من خده وعينيه والثغر ومن ريقِهِ البعيد المرام
بين وردٍ ونرجس ولآلٍ أقحوان وبابلىّ مُدام

وله فى مثله أيضاً :

فى وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعنَ فى أحدِ[(٣)]
الخدّ ورد والصُّدغ غالية والريق خمر والثّغر من بَرَدِ

وله فى مثله أيضاً :

لقد أمسكت من عمر بن يحيى بحبل ما أخاف له انبتاتا[(٤)]
حبَانى فى الحياة ورمّ حالى وأوصَى بى أبا حسن وماتا
فكنت مجاورا للبحرِ منه فلمّا مات جاورتُ الفُراتا

وله فى وزير المهلبى :

لاعذّب الله ميتا كان يُنعِشنى فقد لقيت بضرّى مثل مالاَقَى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٣
(٢) اليتيمة ٣ : ٤
(٣) اليتيمة ٣ : ٦
(٤) لليتيمة ٣ : ٢٢

طواه موتٌ طوَى عنى مكارمَهُ   فذقت من بعــده بالفقر ماذاقا[1]

وقال فيه أيضاً :

مضى ملك عمّ البرية جودُه   رءوف وإن راع الأسود شفيقُ[2]
سكرتُ بنعماه وجــود وزيرهِ   فقالت لى الأيام : سوف تذوقُ

وقال رحمه الله أيضاً :

لقد كان الشباب فكان غضًّا   له ثَمَرٌ وأوراق تظــلُّك[3]
وكان البعضَ منك فمات فاعلم   مَتَى ما مات بعضُك مات كُلُّكْ

ويابعد ما بين حاله وقت قوله : جاء الشتاء ... البيتين . وبين حاله وقت موت المهلّبى، وقد أدرك فاقة، فسئل عما أعدّ للشتوة فقال :

قيل ما أعددت للبر   د فقــد جاء بشِدّه[4]
قلت : درّاعة عُرْيٍ   تحتها جُبّة رعــده

* * *

قوله : « إذا القطر عن حاجاتنا حبسا » ، فى معنى ذلك أن الحسن بن وهب تأخر عن ابن الزيات وهو يكتب له ، فاستبطأه فكتب الحسن إليه :

أوجب العذرَ فى تراخى اللقــاء   ما ترى بى من هذه الأنواء[5]
لست أدرى ماذا أقول وأشكُو   من سماء تعوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالثُّكـــلِ   وأدعو لهــذه بالبقــاء
فسلام الإله أهــــديه منّى   لك غضًّا يا سيِّــد الوزراء

كان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه أنى راحل غدا ، فلما أصبح عاقه عن

---

(١) اليتيمة ٣ : ٢٠   (٢) اليتيمة ٣ : ٢١   (٣) اليتيمة ٣ : ٢٤
(٤) اليتيمة ٣ : ٢٢   (٥) الأغانى ٢٠ : ٥٤ ـ ساسى

السفر تكاثرُ المطر ، فانجلى عن ابن عبد ربه همّه ، وكتب إليه :

هلاّ ابتكرت لبين أنت مبتكرُ   هيهات يأتى عليك الله والقدَرُ (١)
ما زلتُ أبكى حذار البين ملتهباً   حتى رثا لى فيك الريح والمطَرُ
يا بَرْده من حيا مُزْنٍ على كبدٍ   نيرانهـا بغليل الشّوق تستعِرُ
آليت ألاّ أرى شمساً ولا قمراً   حتى أراك ، فأنت الشمس والقمر

وعد ابنَ رشيق محبوبُهُ الصائغ أن يكون عنده يوم عيد فصلّى وارتقبه ، فإذا بالسماء قد أرعدت وأبرقت ، فكتب إليه :

تجهّم العيـد وانهلّتْ مدامعُهُ   وكنت أعهد منه البشر والضّحكا (٢)
كأنه جاء يطوِى الأرض من بَعَدٍ   شوقا إليك فلما لمْ يَجِدْك بكَى

وكتب السّلامىّ إلى أصحابه والمطر قد قطعه عنهم :

قطعتكمُ برَغم المجد شهراً   أشدُّ علىَّ من شهر الصّيامِ (٣)
وكيف أزوركم والمزن تَبْكى   على دارِى بأربعةٍ سِجَامِ
وكانتْ منزلاً طلق المحيّا   فصارت وادياً صعْبَ المرَام
تهافتَ ركّعَ الجدران فيها   سجوداً للرُّعود بلا إمام
أنادى كلما ارتفعت سحاب   فأبكتنا البوارق بابتسامِ
حوالينا بذاك ولا علينـا   كفانا الله شرّكَ من غمام

كنّ ، أى بيت . كيس : وعاء الدراهم . كانون : حيث تجعل النار فيه . طِلا : خمر . كباب : لحم يشرح ويشوى ، وكبّبتُه : فعلت ذلك به ، وقيل : الكباب قطع الكرش تلوى عليها المصارين ، وأراد بها هاهنا شواء اللحم . والكُس: اسم فرج المرأة وليس بعربى،قال الفنجديهى رحمه الله تعالى : سمعت

---

(١) معجم الأدباء ٤ : ٢١٥   (٢) نقله فى التنف ٥٦   (٣) اليتيمة ٢ : ٣٩٤

بعض الفضلاء يقول : كتب ابن سكّرة فى يوم مطر إلى صديق له :

يوم مطير وعندى من خواطرِه ... سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حُبسا[1]

حروف كافاتها فيهـــا مقوّمة ... إذا تلاها الفتى ذو اللبّ أو درسا

لِنٌّ وكيس وكانون وكأس طِلا ... مع الكباب وكُسٌّ ناعم وكِسا

فلو مطرت البحار الدّهْرَ لم ترنى ... أقول : أحسن هذا اليوم بى وأسا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة فقال :

وكم ليلة فى شهر كانونَ بتُّها ... أعانق من حِبِّى بها الدِّعْصَ والغُصُنَا

سممت من الكافات فيها ثمانياً ... فماشئت من مرأى أنيق حوى الحسَنا

كبابا وكيزانا وكيسا وكاعباً ... كساء وكوبا والكوانين والكسا

كانقصه الأمير تميم بن المعز السابعة ، فقال :

إذا هبّ سلطان المِريسىّ ضاحكاً ... سُحَيراً وحلّ الغرب كلّ نقابِ[2]

وَزَرَّ على الأرض الغمامُ ثيابَهُ ... فقم والقـــه فى عدّة وحرابِ

بكِنّ وكانون وكأس مدامة ... وكيس وكُسٍّ وافرٍ وكباب

نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن اللبان ، قال : ولما جمعنا فى أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات ، قلت فى ضدها من الحرّ بيتين ، جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهى :

عندى فديتُك راءات ثمانية ... ألقى بها الحرَّ إنْ وافى وإن بَرَدا

رَقٌّ ورُوح ورَيْحان وريق رشاً ... ورفرف ورياض ناعم وردا

جلباب : ثوب يلبس على الثياب . اكتف : اقتنع . وعيت : حفظت .
انكفى : ارجع إلى موضعك . طول : مدة . والله تعالى أعلم .

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٢٧ . (٢) ديوان تميم ٥١ والمريسى ريح جنوبية .

المقامة السادسة والعشرون وتعرف بالرقطاء

حدّث الحارثُ بن همّام قال : حَلَلْتُ سُوقَ الأهوَاز ، لابسًا حُلَّةَ الإعْوَاز ، فلبثت فيها مُدّة ، أكابدُ شدّة ، وأُزجِّي أيامًا مُسْودَّة ، إلى أنْ رأيتُ تمـادِيَ المقام ، من عوادِي الانتقام ، فرَمَقْتُها بعينِ القالِي ، وفارَقْتُها مفارَقَةَ الطَّلَلِ البالِي . فظَعَنْتُ عَنْ وَشَلِهَا كَميشَ الإزارِ ، رَكْضًا إلى المياهِ الغِزَارِ ؛ حَتَّى إذا سِرْتُ مِنْهَا مَرْحَلَتَيْنِ ، وَبَعُدْتُ سُرَى لَيْلَتَيْنِ ، تَرَاءَتْ لِي خَيْمَةٌ مَضْرُوبة ، ونارٌ مَشْبوبة ، فقلتُ : آتِيهمَا لَعَلِّي أنقَعُ صَدًى ، أو أَجِدُ على النارِ هُدًى .

* * *

حللت: نزلت . الأهواز : مدينة واسعة لها سبع كور بين البصرة وفارس ، قال الرّشاطي: الأهواز : متصلة بالجبل وأصبهان ، وقيل: إن الأهواز بلد مَنْ سكنَ قصبتَه ، ضعف عقله ولزمتْه الحمَّى .

حُلة الإعواز : ثوب الفقر ، والحُلّة إزارٌ ورداء ، ولا يقال لثوبٍ واحدٍ : حُلّة . لبثت : أقمت . أكابد : أقاسي . أزجِّي : أسوق . مسودّة : شداد مشؤمة . تمادي : دوام وطول . المقام : الإقامة . عوادي: جمع عادية ، من العُدْوان وهو الظلم . والانتقام : العذاب والنكاية . رمقتها : نظرتُها . القالي : البغيض . الطلل : ما شخص من آثار الدار . ظعنت : ارتحلت . وشَلها : ماؤها القليل .

كميش : مشمّر ، وانكمش فى طلب حاجته : أسرع فيها ، والإزار والمئزر : مايلبس عرَضاً من السراويل ، ولا تعرف العرب السراويل ، ووجدها أعرابى فظنّها قميصاً ، فأدخل يديه من على ساقيها ، والتمس من أين يخرج رأسه فلم يجد ، فرمى بها ، وقال : هذا قميص الشيطان .

قوله : راكضا ، أى جاريا ، وهمزة ماء مبدلة من هاء «مياه» . الغزار : الكثيرة . سُرى ليلتين ، أى سرت مقدار مايسار فيه ليلتين . تراءت : ظهرت . مشبوبة : موقودة . أنقع صدى : أروى عطشا . أجد على النار هدى ، أى أجد عليها مَنْ يُرْشدنى إلى الطريق

* * *

فلمّا انتهيتُ إلى ظِلِّ الخَيْمَةِ ، رأيتُ غِلْمَةً رُوقَةً ، وشارَةً مَرْمُوقَةً ، وشَيخاً عَلَيْهِ بِزّةٌ سَنيّة ، ولَدَيْهِ فاكِهَةٌ جنيّة . فَحَيَّيْتُهُ ثُمَّ تَحامَيْتُهُ . فَضَحِكَ إليّ ، وأحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيّ ، وقال : ألاَ تَجْلِسُ إلَى مَنْ تَرُوقُ فاكِهَتُهُ ، وَتَشوقُ مُفاكَهَتُه ! فَجلست لاغتنامِ مُحاضَرَتِهِ ، لا لالْتِهامِ ما بِحَضْرَتِهِ ، فَحِينَ سَفَرَ عَنْ آدابِهِ ، وكَشَرَ عَنْ أنيابِهِ ، عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ بِحُسنِ مُلَحِهِ ، وقُبْحِ قَلَحِهِ . فتعارفنا حينئذٍ ، وحفَّتْ بِي فَرْحتان ساعتئذٍ ، ولَمْ أَدْرِ بأيِّهِما أنا أصْفَى فرَحًا ، وأوفَى مرَحًا ! أَبِإسْفارِه ، مِنْ دُجُنّةِ أسفارِه ، أم بِخِصْبِ رِحالِهِ ، بَعْدَ إمْحالِهِ .

* * *

رُوقة : حسانا ، وغلام روقة ، إذا أعجبك ، وغلمان رُوقة ، الواحد والجمع سواء ، وقيل : رُوقة لفظ مفرد والجمع رُوق ، والهاء للمبالغة . شارة : هيئة حسنة

يشار إليها . مرموقة : محبوبة . بزّة سنية ثياب حسان ، والبزّة والبزّ أفضل الثياب . جَنيّة : طرية كما اجتنيت . حَيَّيْتهُ : سلّمت عليه . تحاميته : تباعدت عنه . تروق : تعجب. تشوق : تشوّق وتدعو إلى الطرب. مفاكهته : ممازحته ، وفاكهتهُ : حدّثته بما يعجب التهام : ابتلاع . سَفَر : كشف وبيّن أنه من أهل الأدب . كشَر عن أنيابه : كشف عن أسنانه عند الضحك . مُلَحه : ماليح كلامه . قَلَحه : صفرة أسنانه . تعارفنا : عرّفته من أنا وعرفني من هو . حفّت : أحاطت . والمرَح : شدة الفرح؛ وأوفى مرحاً، أي أكمل طربا ونشاطا . إسفاره : طلوعه وإضاءته . دجنة : سواد وظلام . أسفاره : جمع سفر . رحاله : أوقاره ، يصف كثرة ماله ، وأنه إذا نزل منزلا أخصب بكثرة أحماله . إمحاله : جدبه .

* * *

وتاقَتْ نَفْسِي إلي أنْ أفُضَّ خَتْمَ سِرِّه ، وَأَبْطُنَ داعِيَةَ يُسْرِه ، فَقلْتُ لَهُ : مِنْ أينَ إيابُكَ ، وإلى أيْنَ انسِيابُكَ ، وبِمَ امتلأتَ عِيابُكَ ؟ فقال : أمّا المَقْدَمُ فمِنْ طُوس ، وأمّا المَقْصَدُ فإلي السُّوس . وأمَّا الجِدَةَ الَّتِي أصَبْتُهاَ ، فمِنْ رسالةٍ اقتضيتُهاَ . فسألتُهُ أَن يَفرُشَنِي دِخْلَتَهُ ، وَيسْرُدَ عَلَيَّ رسالَتَهُ ، فقالَ : دون مرامكَ حَرْبُ الْبَسُوس ، أو تَصْحَبَنِي إلَى السُّوس . فَصاحَبْتُهُ إليهاَ قَهْراً ، وعكفتُ عليهِ بهاَ شهرًا ، وَهُوَ يَعُلّنِي كاسَاتِ التعليل ، ويجرّني أَعِنّةَ التَّأْميِل.

* * *

تاقت : اشتاقت . أفضّ : أكسر . ختم : ربط وشد . أَبْطُن : أعرف باطنه . يُسره : غناه . إيابك : رجوعك . انسيابك : ذهابك . عيابك : أوعية متاعك .

طوس : مدينة منها إلى نيسابور مرحلتان ، قال اليعقوبى : مدينة طوس العظمى ، يقال لها لوبان ، وبها قبْر الرشيد ، وبها توفِّىَ الرضا علىّ بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين ، وهى من ثغور الجبال المتصلة بخراسان ، ومجاورتها أيضاً مدينة أصبهان ، وهى عظيمة .

وأما السوس ، فمدينة بأرض فارس ، تعمل بها الثياب السُّوسية من الخزّ ، قال الرشاطى : السوس من كُور الأهواز ، والسوس فى بلاد الغرب ، وذكر الجاحظ أن من طنجة إليها عشرين يوما .

وسوسة من بلاد إفريقية على البحر ، تُصنع بها ثياب رفاع ، والسوس اسم مشترك ، والذى قصد الحريرى منهما الأولى .

الجِدة : الغنى . اقتضبتها : ارتجلتها . يُفرِشنى دخلته : يبسط لى باطن أمره ، وأفرشتك حديثى : بسطته لك وبيّنته . يسرد : يقرأ . مرامك : مطلبك . وتقدّمت حرب البسوس فى التاسعة عشرة .

عكفت : أقمت . يعانّى : يسقينى مرّة بعد مرة ، والتعليل أن يطمعك فى قضاء حاجتك فإذا تقاضيتَه أظهر لك عِللا وعوائق ثم يمنّيك ، فمتى ماجئتَه اعتلّ لك بعلّة مانعة من قضاء حوائجك .

يجرّنى : يعلقها بى ويجعلنى أجرّها . أعنّة : جمع عنان . التأميل : مصدر أمّله ، إذا رجاه وحقق له أمله .

* * *

حَتَّى إذا حَرِجَ صَدْرِى ، وَعِيلَ صَبْرِى قُلْتُ له : إِنَّه لَمْ يَبْقَ لَكَ عِلّة ، وَلاَ لى فى الْمُقَامِ تَعِلّةٌ ، وفى غَدٍ أَزْجُرُ غُرَابَ الْبَيْنِ ، وأَرْحَلُ عَنْكَ بِخُفَّىْ حُنَيْن ، فقال : حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أُخلِفَكَ ، أوْ أُخالِفَكَ ؛ وَمَا أرْجأتُ أنْ أحدِّثكَ إلاَّ لِأُلَبِّثَكَ . وإذَا كُنْتَ قَدِ اسْتَرَبْتَ

بِعدَتى ، وأغراكَ ظَنُّ السُّوءِ بتباعَدَتى ، فأَصِخْ لِقَصَصِ سِيرَتى المتدّة ، وأضِفْها إِلَى أَخْبَار الفرج بَعْدَ الشِّدَّةِ .

فَقلتُ لها : هاتِ فَما أَطْوَلَ طِيَلَكَ ، وَأَهْوَلَ حِيلَكَ . فقال : اعْلَمْ أنَّ الدَّهْرَ الْعَبُوس ، أَلْقَانِي إِلَى طُوس ، وأنا يَوْمَئذٍ فقيرٌ وقِيرٌ ، لاَ فتيلَ بها ولا نَقير ، فَأَلْجَأَنِي صَفَرُ اليدَيْنِ ، إِلَى التَّطَوُّقِ بالدَّيْن ، فادَّنتُ لسُوءِ الاتّفَاقِ ، مِمَّنْ هُوَ عَسِرُ الأخلاَقِ ، وتوَهَّمْتُ تَسَنِّيَ النَّفاقِ ، فتوَسّعْتُ فِي الإِنفاقِ ، فَمَا أَفقتُ حَتَّى بَهَظَنِي دَيْنٌ لَزِمَنِي حقُّهُ ، وَلاَزمَنِي مستحقُّهُ ، فَحِرْتُ فى أمْرِى ، وَأَطْلَعْتُ غَرِيمى على عُسْرِى .

* * *

حرِج صدرُه ، إذا ضاق . عيل : غلب ، وعالنى الأمر يَعُولنى عَوْلاً : غلبنى . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿وإنْ خِفتُمْ عائلة﴾ أى خصلة تَعُولكم وتغلبكم . تعِلّة : ما تبديه من العلل فى اعتذارك لمن يتقاضاك ، وفى غد أزجر غراب البين ، أى التفاؤل به لفراقك ، وإنّما ينسبون الفراق للغراب ، لأنهم إذا ارتحلوا عن موضع اجتمعت الغِربان فيه يلتقطنَ ما تركوا من بقايا طعامهم وزبل دوابهم ، وإذا أخذوا فى هَدْم البيوت للرحيل وأبصرهم الغراب صاح رغبة فيما يلتقط ، فيقولون عند ذلك : نعِقَ غراب البين ، فصاروا يتشاءمون به ، وزجْر الطير يذكر فى الثامنة والثلاثين . قال المعرّى فى صدق التفاؤل بالغراب :

نبىٌّ من الغربان ليس على شرْعِ ... يخبِّرنا أن الشُّعوب على صدعِ (١)

أُصدّقه فى مِرْيةٍ وقد امترتْ ... صحابة موسى بعد آياته التسعِ

(١) شروح سقط الزند ١٣٣٢ . والشعوب : القبائل.

كأنّ بفيهِ كاهناً أو منجّماً ... يخبّرنا عمّا لَقِينا مِن الْفَجْعِ
وما كان أفْعَى أهل نجران مثله ... ولا كان للإنسِ الفضيلة فى السَّمْعِ (١)
أتى وهو طيّار الجناح وإن مَشَى ... أشاح بما أعْيَا سطيحاً من السَّجْعِ (٢)

قوله : أخلفك ، أ كذب وعدك . أرجأت : أخرت . لألبثك : لأثبطك وأجعلك تقيم معى . استربت : تشككت ، وداخلك الريبة . أغراك : حرضك وألصقك . أصِخْ : أسمع : قَصَص : خبر وحديث . سيرتى : عادتى . أضفها : ضمها. وأخبار الفرج بعد الشدة أن ينزل بالإنسان شدّة فيشرف منها على الهلاك ثم ينزل الله تعالى تفريجها ، فالحديث بها يسمى خبر الفرج بعد الشدة .

[قصص فى الفرج بعد الشدة]

ومنها ماجاء فى حديث أنس رضى الله عنه ، قال : كان رجلٌ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم يتّجر من بلاد الشام إلى المدينة ، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى ، فبينا هوجاء من الشام عرض له لصٌّ على فرس ، فصاح بالتاجر : قِفْ ، فوقف التاجر ، وقال له : شأنك بمالى ، فقال له اللصّ : المال مالى ، وإنما أريد نفسك ، فقال له : أنظِرْنى حتى أصلّى ، قال : افعل مابدا لك. فصلّى أربع ركعاتٍ ورفع رأسه إلى السماء يقول: ياودود ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يا مبدىء يامعيد ، يا فعّالاً لما يريد ، أسألك بنُور وجهك الذى ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك التى قدّرت بها على جميع خلقك ، وأسألك برحمتك التى وسعت كلّ شىء ، لا إله إلا أنت يامغيث أغِثْنى ، ثلاث مرّات. وإذا بفارس بيده حَرْبة ، فلمّا نظره اللص ترك التاجر ومضى نحوه ، فلما دنا منه

(١) أفعى أهل نجران: كاهن منهم . ونجران أقدم بلاد اليمن، وكانت لها كعبة تحج فخربت
(٢) سطيح كاهن ، والكهان : معروفون بالسجع .

طعنه ، فأذراه عن فرسه ثم قتله ، وقال للتاجر : اعلم أنى ملك من السماء الثالثة ، لمّا دعوتَ الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا: أمر حدث، ثم دعوتَ الثانية ، ففتحت أبواب السماء ولها شرَر ، ثم دعوت الثالثة ، فهبط جبريل عليه السلام ينادى : مَنْ لهذا المكروب ؟ فدعوت الله أن يولّيَنى قتله . واعلم ياعبد الله أن مَنْ دعا بدعائك فى كلّ شدّة أغاثه الله ، وفرّج عنه . ثم جاء التاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر ، فقال : لقد لقّنك الله أسماءه الحسنى التى إذا دُعى بها أجاب ، وإذا سُئل بها أعطى .

وقال عمرو السرايا : كنت أعبرُ فى بلاد الروم وحْدِى ، فبينا أنا نائم إذ ورد علىّ علج فحرّكنى ، ثم قال: ياأعرابىّ ، اختر إمّا مسايفة ، وإما مطاعنة ، أو مصارعة ! فقلت :المسايفة والمطاعنة لامعنى لهما ، ولكن المصارعة، فلم ينهنهى أن صرعنى وقعد على صدرى ، وقال : أىّ قِتلة تريد أن أقتلك ، فذكرت الدعاء ورفعت رأسى إلى السماء ، وقلت : أشهد أن كلّ معبود مّادون عرشك إلى منتهى الأرضين باطل ؛ عزّ وجهك الكريم ؛ فقد ترى مانزل بى . وأُغْمِىَ علىّ ، فأفقت والرومى قتيل إلى جانبى ، فقمت ، وكنت أعلّم الناس هذا الدعاء .

ووَجّه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ، فأطلق أهل سجون الحجاج وضيّق على يزيد بن أبى مسلم كاتبه . فظفر به يزيد لمّا وَلِىَ إفريقيّة ، فجعل محمد يقول : اللهم احفظ لى إطلاق الأسرى ، وإعطاء الفقراء ، فلما دنا يزيد منه وفى يده عنقود ، قال: يامحمد مازلت أسأل الله أن يُظفرنى بك . فقال له محمد : وما زلتُ أستجير الله منك ، قال : فوالله ما أجارك ولا أعاذك منّى . ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة من العنب ؛ ووالله لو رأيت ملكا

يريد قبض روحك اسبقته إليها . وأقيمت الصلاة فوضع حبّة العنب بين يديه ، وتقدّم فصلّى بهم ، وكان أهل إفريقية اجتمعوا على قتل يزيد ، فلما ركع ضربه رجل بعمود حديد فقتله ، وقال لمحمد: اذهب حيث شئت .

وقال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه هشام يجفونى فى أيامه لذلك ، فلمّا مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفتهُ ، فمكثت فى بيتى سنة؛لا أخرج إلا لمن آمن إليه من إخوانى سرّا . فلمّا لم أسمعْ أحداً يذكرنى فى السنة أمنت فخرجت ، وصلّيت الجمعة فى الرُّصافة ، فإذا شُرْطيّان قد وقفا علىّ ، وقالا : يا حمّاد ، أجب الأمير يوسف بن عمر ،فقلت فى نفسى : مِنْ هذا كنت أخاف ، ثم قلت للشرطيين : هل لكما أن تدَعانى حتى آتى أهلى فأودّعهم وداع مَنْ لا يرجع إليهم أبدًا، ثم أسير معكما إليه؟ فقال : ما إلى ذلك من سبيل ، فاستسلمت فى أيديهما ، وصرت إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر ، فسلمّت عليه فردّ علىّ السلام ورمى إلىّ كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر. أما بعد فإذا قرأتَ كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية مَنْ يأتيك به من غير تروّع ولا تتعتع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهريًّا يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الدنانير وجعلت رجلى فى غَرْز جمل أعدّه لى ، ووافيت دمشق لاثنتى عشرة ليلة ، واستأذنت على هشام ، فأذن لى ، فدخلت عليه فوراً فى دار مفروشة بالرّخام ، وبين كلّ رخامتين قضيب من ذَهب ، وهو جالس على طِنْفَسِةٍ حمراء ، وعليه ثيابٌ حمر من الخزّ ، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر ، فسلمّت عليه ، فردّ علىّ السلام واستدنانى فدنوت منه ، حتى قبّلت رجله ، فإذا جاريتان لم أرَ مثلهما قط ، فى أذنَىْ كلّ واحدة منهما حَلْقتان فيهما لؤلؤتان تَوقدان ، فقال : كيف أنت ياحماد وكيف حالك ؟ فقلت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت: لا، قال:فى بيت خطر ببالى لم أدر مَنْ قائله ، قلت : وماهو ؟ قال :

ودَعَوْا بالصَّبوح يوماً فجاءت قَيْنَةٌ في يمينهـــا إبريقُ

فقلت : هو لعدىّ بن زيد فى قصيدة له ، قال: أنشدْنيها فأنشدته :

بَكَرَ العاذلونـ فى وَضَح الصبـ ـح يقولون لى: أما تستفيقُ

ويلومون فيـك يا ابنة عبد اللـــه والقلْب عنـدكم موثوق

لستُ أدرى إذ أكثروا العذل فيها أعـدوّ يَلُومنى أم صـديقُ!

حتى انتهيت إلى قوله :

ودعوا بالصبوح يوماً . . . البيت

قدّمته على سُلافٍ كعين الدّ يك صَفَّى ســلافَها الرَّاوُوقُ (١)

مُرّة قبـل مزجهـا فإذا ما مُزِجَتْ لذَّ طعمَها مَنْ يذوقُ

وطفا فوقها فقاقيعُ كاليـا قوت حمرٌ يزينها التَّصفيق (٢)

ثم كانـ المزاج ماء سحابٍ لا صِرًى آجنٌ ولا مَطْروقٌ (٣)

قال: فطرب ، ثم قال لى: أحسنتَ والله ياحماد ! ثم قال لإحدى الجاريتين : اسقيه ، فسقتنى شربة ذهبت بثلث عقلى ، ثم قال : أعده فأعدته، عليه ، فاستخفّه الطرب حتى نزل عن فرشه ، ثم قال للأُخرى : اسقيه ، فسقتني شربة فذهب ثلث آخر من عقلى ، ثم قال : سَل حاجتك ، فقلت : إحدى الجاريتين ، فقال: هما جميعاً لك ، ثم قال للأُولى اسقيه ، فسقتني شربةً سقطتُ منها فلم أفق إلا والجاريتان عند رأسى وعشرة من الخدم مع كلّ واحد بَدْرة ، فقيل لى يقول: لك أمير المؤمنين : انتفع بهذا فى سفرك ، فأخذتها والجاريتين وعاودت أهلى .

---

(١) الراووق : المصفاة وناجود الشراب الذى يروق فيه . والناجود : الوعاء .

(٢) التصفيق : المزج.

(٣) الصرى : الماء الذى طال استنقاعه . والآجن : المتغيرطعمه . والمطروق : ماء يخوض فيه الناس وغيرهم .

وذكر أبو محمد هذه الحكاية فى الدرّة[1] وقال : هذه حكاية تنشر مآثر الأجواد ، وترغّب المتأدب فى الازدياد . وهذه النبذة دالة على أخبار الفرج بعد الشدّة فلنقتصر عليها .

* * *

قوله : ما أطول طيلك ، أى ما أكثر حيلتك . يقال ذلك للكثير الدهاء والتصرّف ، والطِّيَل : الحَبْل . أهول: أخوف وأغرب وقِير : إتباع لفقير ، وفائدة الإتباع المبالغة فى معنى الأوّل ، وذلك أنك تقول : فلان فقير فيكون له الشىء اليسير من المال ، فإذا قلت : وقير ، فليس له شىء البتة . وقيل : معنى وقير مثقَل بالدين مُوقَر به ، والإتباع قصد لأنه فسره بقوله : لافتيل لى ولا نقير ، كأنّ إنسانا توهم أن له شيئاً فذكر وقيرا لنفسه ، ثم زاده بياناً بما بعده ، ولأنه ذكر استئناف الدّين بعد ذلك .

ويكون الوقير أيضاً من الوقْر فى العظم ، وهو الكسر كأنه مكسور العظم ، كما أن الفقير أصله المكسور الفَقار . والفتيل : الخيط الذى فى شِقّ النواة مثل الفتيلة ، والنقير الفرض الصغير الذى فى ظهرها ، وفيه كالنقطة ومنه تنبت النخيل ، والقِطْمير : اللفافة التى عليها ، وهى القشرة اللطيفة .

صفَر اليدين: فراغهما من المال . التطوّق : لُبْس الطوق : أراد أنه لبِس من الدّيْن طوْقاً . ادّنت : أخذت الدَّيْن ، والاتفاق ، ضدّ الاختلاف . عسر : صعب توهّمت : حسبت . تسنى : تيسر . النَّفَاق ، ضد الكساد . توسّعت : كثُرت . بهظنى : غلبنى وثقل علىّ . حقه : واجبه .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الرزق مفتوحة إلى باب العرش فينزل الله تعالى إلى عباده أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمَنْ

(١) درة الغواص ١١٠ ، وهى أيضا فى نزهة الألباء ٣٧ ، ٣٨

قلل قُلِّل له ، ومن كثر كثّر عليه .

مستحقّه : صاحبه لحرت فى أمرى ، أى فى همّ الدّين ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : علمنى جبريل دعاء فى الدّين ، وهو أن يصلِّى إذا زالت الشمس أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسى وقل هو الله أحد ، فإذا سلّم قرأ: ﴿قل اللهم مالك الملك تُؤتى الملك مَنْ تشاء وتنزعُ الملك مِمّن تشاء وتُعِزّ مَنْ تشاء وتُذِلُّ مَنَ تشاء بيدك الخير إنّك على كل شىء قدير * تُولِجُ الّليل فى النهارِ وتُولِجُ النهار فى الليل تُخْرِج الحىّ مَنْ الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق مَنْ تشاء بغير حساب﴾، ثم يقول: يافارج الهمّ يا كاشف الغمّ، يا مجيب دعوة المضطر يارحيم الدنيا والآخرة ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عمّن سواك واقضِ دَيْنى؛ فإن الله تعالى يقضى دينه عنه وفيها اسم الله الأعظم .

غريمى : صاحب دَينى ، سُمِّىَ غريماً لإدامته التقاضى وإلحاحه وملازمته مَنْ عليه الدين ، ويكون الغريم أيضاً المطلوب بالدّيْن لازم له كما قال الشماخ :

تلوذ ثعالب الشرّفين منها كما لاذ الغريم من التّبيع[1]

عسرى : فقرى .

* * *

فَلَمْ يُصدِّقَ إِمْلاَقِى ، وَلاَ نَزَعَ عَنْ إِرهاقِى ، بَلْ جَدّ فى التَّقاضِى ، ولَجّ فِى اقْتيَادِى إلى القاضى . وكلّما خَضَعْتُ له فى الْكَلاَمِ ، واسْتَنْزَلتُ مِنْهُ رِفْقَ الْكِرَام ، ورَغّبْتُهُ فِى أَنْ يَنْظُرَ لِى بِمُيَاسَرَة ، أَوْ يُنْظِرَنى إلى مَيْسَرَة . قال : لا تَطْمَعْ فِى الإِنْظَارِ ،

(١) ديوانه ٢٧٧ .

واحْتِجَانِ النُّضارِ ، فَوَحَقِّكَ ما تَرَى مَسَالِكَ الخَلاَصِ ، أو تَرَيَنِي سَبائِكَ الخِلاَصِ . فلمَّا رأيتُ احْتِدادَ لَدَدِه ، وألاَّ مَناصَ لي مِنْ يَدِهِ ، شاغبتُهُ ، ثمّ واثبتُه ، ليرافِعَني إلى والي الجَرائم ، لا إلى الحاكِم في المظالِمِ ، لِمَا كان بَلَغني من إفضالِ الوالي وفَضْلِهِ ، وتَشدُّدِ القاضي وبُخْلِهِ . فلمَّا حضَرْنا بابَ أَميرِ طُوس ، آنستُ ألاَّ بأسَ ولاَ بُوس . فاسْتَدْعَيْتَ دواةً بَيْضاء ، وأنْشأْتُ رسالةً رَقطاءَ ؛ وهي :

* * *

ومثله إملاقي ، وأملقَ . ذهب ماله ، مشتق من الملقات وهي الصخور الملْس ، كأنه افتقر حتى لم يبق له ما يلبس إلاّ جلده الأملس . نزع : كفّ . إرهاقي : تكليفي مالا أطيق ، وأرهقتُه : كلّفته مشقة ، والرَّهَق : الظلم . جَدّ : عزم واجتهد ، التقاضي : طلب المال . لجّ : عزم وركب رأسه . استنزلت : طلبت . رفق الكرام : لطفهم وحنانهم على الفقير . مياسرة : لين ومساهلة . ينُظِرني : يؤخّرني والإنظار الإمهال ، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « من أنظر معسراً أظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظله » .

ميسرة : غنى . احتجان : اختزان ، واحتجنت الشيء : ضممته بالمِحْجَن ، وهو عود معقّف . النّضار : الذهب . مسالك الخلاص . طرق النّجاة . سبائك : فقَر وقطع . الخِلاص ، بالكسر : الذهب الخالص . احتداد : اشتداد ، وقد احتدّ . لدده : خصامه وإلحاحه . مناص : مخلص ومفرّ ، وناص عن قرينه نوْصاً ومناصاً ، إذا فزع وفرّ ، وما أحسن ما قال العبديّ في محمد بن إبراهيم يشكو غريماً لازمه :

اقض عنّي يابن عمّ المصطفى أنا بالله من الدّيْن وبك

مِنْ غريم فاحش قد عرّنى أسود الوجه لعرضى منتهكْ
أنا والظلُّ وهو ثالثنا أيمازاتُ من الأرض سلكْ

شاغبته :شاررته، أى أوقعت بينى و بينه الشغاب . واثبته : ضاربته ووثبت إليه ، ووثب إلىّ . والى الجرائم: حاكم الجنايات، والحاكم فى المظالم : هو القاضى. إفضال : إنعام . فضله : جوده وكرمه .وتشدّد : بخِل ، ورجل شديد ومِشْدَاد ، أى بخيل، قال الله تعالى : ﴿وإنه لحبِّ الخير لشديد﴾، أى لبخيل من أجل حبه الخير وهو المال ، أو تشدّد شدته على من تعين قبَله حق . آنست : علمت وأحسنت بأس : ضُرّ . وبوس : شدّة . بيضاء : ورقة يكتب فيها؛ ولابن الزّقاق فيها :

وواضحة كمثل النصل تجرى مع الإبصار كالماء القَرَاح[1]
ترى حُبُك المداد بجسم نَورٍ كمخضرّ الفرند على الصّفاح
كأنّ سواده فى صفحتيْها بقايا الليل فى وَجْهِ الصّبَاح

رقطاء : فيها حرف منقوط وآخر غير منقوط ، والرقطاء عندهم الدّجاجة المرقشة ، وهى المنقَّطة بسواد وبياض ، ومنه قيل للنهر أرقط ؛ لأن فيه تنقيطاً خلاف لونه ، ولو شكر لمعطيه الدّواة لأنشد هذه الأبيات ، وهى لابن سكرة :

أخ مزجت بروحى روحَه وجَرَى منه كجرى دمِى فى الجسم أفْديهِ[2]
أهْدَى إلىّ دواة لو كتبتُ بها دهرى أياديه لم تنفد أياديهِ

وهذه الرسالة التى أنشأها أبو محمد أبدع فيها بما أراد ، وأغرب بها وأجاد

ونشد من الشعر النّفيس فى مدح الرسائل مايجرى لها كالوصف ، ويسرى بذكرها طيب العَرْف ، فمن ذلك قول أبى تمام :

---

(١) ملحق ديوانه ٢٩١ (٢) يتيمة الدهر ٣ : ٢٢

مـداد مثل خافية الغرابِ وقرطاس كرقراقِ السَّرابِ (١)
وألفاظ كألفاظ المثانى وخطّ مثل وَشْم يدِ الـكَعَابِ
كتبت ولو قدرت هوًى وشوقا لـكنت إليك سطراً فى الـكتاب

وله فى كتاب جاء من الحسن بن وهب :

لقد جلّى كتابك كل بَثٍّ جَوٍ وأصاب شاكلة الرّمى (٢)
وكان أغضّ فى عينى وأندى على كبدى من الزّهرِ الجنىّ
وأَحسن موقعاً منى وعندى من البشرى أَتتْ بعد النّعِىّ
فكائن فيه من معنىً خطيرٍ وكائن فيه من لفظ بَهِىّ
فيا ثلج الفؤاد وكان رضْفاً ويا شبَعى برونقـه وريِّى

من أبيات كلها عيون، وفيما ذكرنا دليل على ما تركنا .

وقال أبو نواس فى كتاب ورد عليه من صديق :

ووارد ورد إنشاء يؤكّده صدوره عن سليم الورد والصَّدْرِ
شـدّت بتيجانه منه على نزه تقسّم الحسن بين السمع والبصر
عذوبة صدرت عن منطقٍ ينع كالمـاء يخرج ينبوعاً من الحجرِ
وروضة من رياض الفـكر دبّجها صوبُ القرائح لا صَوْبٌ من المطر
كأنما نشرتْ أيدى الرّبيع بها بُرْداً من الوشى أو ثوباً من الحِبَرِ

ولابن طاهر فى ابن ثوابة :

فى كل يوم صدور الـكتب صاردةٌ عن رأيه وندى كَفَّيْه عن مَثَلِ
عن خط أقلامه خط القضاء على الأعـداء بالموت بين البيضِ والأَسَلِ
لعـابها عَسَلٌ فى الصدر تبعثه وربما كان فيـه النفع للعِلَلِ
كأنّ أسطارها فى بطن مُهْرَقةٍ نَوْرٌ يضاحك دمع الواكف الخضِلِ

(١) ورد البيت الأول فى ديوان المعانى ٢ : ٨٣ من بيتين نسبا إلى الحسن بن وهب .
(٢) ديوانه ٣٤٤ ، أدب الـكتاب ٤٦ .

وقال بعضهم :

كتاب فيه من غُرَرِ المعانى ... قلائد لا تنظمها اليـدانِ
إذا نشرت صحائفـه تجلَّتْ ... بروضتها أزاهيرُ المعـانِى
ترود العين منها فى مَرَادٍ ... مريع جاده فيض البنان
كأن مجال عين الفـكرِ فيه ... مجال اللحظ فى غُرَرِ الحسانِ

وقال آخر :

يدير على القرطاس أسمر مرهفاً ... إذا دار لم تلحق به البيضُ والسُّمْرُ
كأنّ المعانى روضة وهو غيثُها ... فمهما سقى أغصانها ضحِك الزَّهْرُ

وقال الرماديّ :

قـلم الوزير وكفّه ... هذا يصول وذا يطولُ
أضحى كليثٍ خفيَّةٍ ... ودواته لِلَّيْثِ غيلُ

* * *

أخلاقُ سَيِّدِنا تُحَبّ ، وبعقْوتِهِ يُلَبّ ، وقربُهُ تُحَف ، ونأيه تَلَف ، وخلّتُهُ نَسَب ، وقَطِيعَتُهُ نَصَب ، وغربُهُ ذَلِق ، وشُهْبُهُ تأتلق ، وَظَلْفهُ زانَ ، وقويمُ نَهْجِهِ بانَ ، وذهنُه قَلّب وَجَرَّبَ ، ونَعْتُهُ شرّق وغرَّب

سَــيِّدٌ قلّبٌ سَبَوقٌ مُبِرٌّ ... فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزوفٌ عَيُوفُ
مُخْلِفٌ مُتْلِفٌ أَغَرٌّ فريدٌ ... نابهٌ فاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنُوفُ
مُفْلِقٌ إن أبان ، طبٌّ إذا نا ... بَ هياجٌ وجَلَّ خَطْبٌ مخوفُ

* * *

قوله : أخلاق سيدنا تحب ، حسن أخلاق الإنسان من كمال سعادته، وكرم فضيلته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهمّ كما حسَّنْتَ خَلْقى فحسِّن خُلُقى» مع أن الله عز وجل يقول فيه : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ .

قوله : وبعقوته يلَبّ ،أى بمنزله يقام لحماية الممدوح من يلوذ به وإكرامه له. وقربه تحف ، أى من قرب منه أتحفه وهاداه، ومن بَعُدَ منه فقد الأمْنَ فهلك . والنأى : البعد ، ولمّا كان القربُ سببا للتّحف والنأى سبباً للتلف ، جعل نفس القرب والبعد هما الحياة والموت . خَلّته : صداقته . نسب، أى هو للصديق بمنزلة النسيب ، قيل لبزرُ جُمهر : مَنْ أحبّ إليك: أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحبّ أخى إلا إذا كان صديقى . وقال أكثم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودّة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : القرابة قد تقطع، والمعروف قد يكفر ، وما رأيت كتقارب القلوب، أخذه ابن مناذر فقال:

قدْ يُقطَع الرحم القريب وتُكْفر النّعمى ولا كتقارب القلبين[1]
يُدْنى الهوى هذا، ويدنى ذا هوًى فإذا هما نفس ترَى نفسْينِ

أخذه أبو تمام فحسَّنه فقال :

فإنّ الفتى فى كلّ حال مناسِبٌ مَناَسبَ روحانيةً مَنْ يشا كلُ[2]
ولن يَنْظمَ العِقدَ الكعابُ لزينةً كما تنظم الشملَ الأشتَّ الشمائلُ[3]

وقد تقدَّم حديثِ : الأرواح جنود مجندة ، ونظم الحسن له .

وقال الشاعر :

لاخيرَ فى قربَى بغير مودّةٍ ولربّ منتفعٍ بودّ أباعدِ

---

(١) الأغانى ١٧ : ٢٦ ــ ساسى
(٢) ديوانه ٢٥٦ ، وفيه : « فى كل ضرب مناسب » .
(٣) الديوان : « الشتيت » .

وإذا وجدت من البعيد مودَّةٍ فامْدُدْ له كفَّ القبول بساعدِ

قوله : وقطيعته نصب ، أى عداوته همٌّ وتعب ، وقد قال أبو تمام :

وإلا فأعلِمه بأنك ســاخطٌ ودعه فإنّ الخوف لاشك قاتِلُهْ (١)

غربه : أى حدّه . ذلِق، أى حادّ . شهبه : نجومه، يعنى أخلاقه ومكارمه تأتلق : تضىء . وظَلَفَه : منعه وكفه ، وظلفت نفسى عن الشىء : منعتها منه . زان : يزين ، يقول : إن قمعه من تجاوز قدره ومنعه مَنْ سأل ما لا يحبّ زُيّن بالممنوع ، وشرِّف بالمقموع ، فتأديب الملوك لاعارَ به ، وإنما العار أن يهينك كفؤك ، ومَنْ لاحكم له عليك . وقال المتنبى :

ومِنْ شرف الإقدام أنك فيهمُ على القتل مموموق كأنّك شاكد (٢)
وإنّ دما أجريتَه بك فاخِرٌ وإنّ فؤادا رُعْتَهُ لك حامدُ

وقال حبيب :

خشعوا لصولتك الّتى هى عندهمْ كالموت يأتى ليس فيــــه عارُ (٣)

وقال آخر :

وإنّ أمير المؤمنين وعتْبه لَـكَالدَّهْرِ لاعارٌ بما فعل الدّهرُ (٤)

وإذا تزين بمنعه ، فما ظنك بعطائه! على أن اليد القابلة للجدوى ، وهى اليد السفلى، لاتنفك عن حشمة أو ذلة ، وقد اعتذروا لهذا المعنى، قال أبو تمام :

رأيتُ رجائى فيك وحدك همة ولـكنّه فى سائر الناس مطمع (٥)

(١) ديوانه ٢٣٢ .
(٢) ديوانه ١ : ٢٧٦ . مموموق: محبوب . والشاكد : المعطى .
(٣) ديوانه ١٤٦
(٤) البيت فى شرح العكبرى ٢ : ١١٣ ، بدون نسبة
(٥) ديوانه ١٩٢

وقال أيضاً :

تُدْعَى عطاياه وَفْراً وهي إن شهرتْ ... كانت فخاراً لمن يعروه مؤتنفاً[1]

مازلت منتظراً أعجوبة زمناً ... حتى رأيت نوالا يقتضي شرفاَ

وقال إبراهيم بن العباس :

إذا طمعٌ يوما عراني منحتُه ... كتائب يأس كَرّها وطرادَها[2]

ســوى طمعٍ يدنى إليك فإنّه ... يبلغ أسباب العلا مَنْ أرادَها

وقال الخريمى :

عطاؤك زين لامرئٍ إن أصبته ... بخير وما كلّ العطاء يزينُ[3]

وليس بعار لامرئٍ بذلُ وجهه ... إليك كما بعضُ السؤال يشينُ

وقال أبو الطيب :

وفيضُ نواله شرفٌ وزينٌ ... وفيضُ نوال بعض الناس ذمّ

وقال ابن أبى خالد :

شرف للشريف منك نوال ... رُبَّ نيل تعـــافُهُ الأحرَارُ

فزاد بقوله : للشريف على من سبق .

قوله: قويم نهجه، أى مستقيم طريقه . بان تبين. قلّب: بحث. شرّق وغرّب: أى مشى بوصفه المادحون شرقاً وغرباً ، وأنشد المتنبي وزاد فيه معنى :

ستحيا بك السُّمّار مالاح كوكبٌ ... وتحدو بك السفّار ماذرّ شارقُ[4]

(١) ديوانه ١ : ٢٠١ (٢) ديوانه ١٨٣ .
(٣) البيتان فى ديوان أمية بن أبى الصلت ٦٣ .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٤٨ ، وفى ترتيبه ؛ الثانى قبل الأول .

تخلّى من الدنيا ليُنْسَى فما خلَتْ مغاربُها من ذكره والمشارق

قلّب : درّب بالأمور ، وفلان حوّل قلّب ، إذا كان متصرّفا فى أموره ، نفاعا لأوليائه ، ضرّاراً لأعدائه ، كأنه لمعرفته بالأمور قد حوّل الأمور وقلّبها . ومبرّ ، أى غالب لاعدائه . فطن : ذكى . مُغْرِب : يأتى بالغرائب . عزوف : نزيه النفس بعيد من الريب . عيوف : كاره للدنايا . والمتلف عند العرب : الذى يتلف ماله بالجود . والمخلف : الذى يخلف ما أتلف بالإغارة على الأعداء ، وأخذ أموالهم ، يصفه بالشجاعة والكرم . وقال البحترىّ :

بأرْوَعَ من طىٍّ كأن قميصَه بُزَرَّ على الشيخين زيد وحاتم [(١)]
سماحاً وبأسا كالصواعق والحيا إذا اجتمعا فى العارض المتراكم

وقال ابن الرومىّ :

لم تخلنى قط من صنائعك الـــغرّ ولا من حروبك الضّرْسِ
تصرّف الغيث فى صواعقه وتارة فى سِجاله البجْسِ

وقال البحترىّ :

ضحوكٌ إلى الأبطال وهو قريعهمْ وللسيف حدّ حين يسطو ورونقُ [(٢)]
حياة وموت واحد منتهاهما كذلك غمر الماء يُروِى ويُغرِقُ

وقال ديك الجن :

هو عارض زجلٌ فمن شاء الحيا أرضى، وَمَنْ شاء الصواعق أغضبا [(٣)]

---

(١) ديوانه ١٩٧١
(٢) ديوانه ٩٦ ١٤ ، وفيه : « وهو يروعهم »
(٣) ديوانه ١٥٠

وقال أبو مسهر :

تحيا الأنام به فى الجدب إن قحطوا جوداً وتشقى به يوم الوغى الهام
كالمزن يجتمع الحالان فيه معاً ماء ونار ، وإرهام وإضرامُ

وقال ابن الرومىّ :

والنــاس طرًّا بين مرتقب سطواته ومؤمل نفْعَـــهْ
كالعارض التهبت صواعقه وسقى البلاد فلم يدع بُقْعَهْ

قوله : أغرّ : مشهور . فريد : ليس له نظير . نابه : رفيع الذكر . ذكى : متوقد الفطنة، ويروى: «زكىّ» ، وهو الطاهر العفيف ، وقيل: هو المتزيد فى الخير ، والزّكاء : النماء والزيادة . أنوف : كثير الحميّة والغضب لما يستراب منه . مفلق. فصيح ، وأفلق: جاء بالفلق، وهى الداهية كأنه جاء من الفصاحة بما لا يطاق. أبان : بيّن كلامه . طبّ : حاذق حسن التدبير . ناب هياج: حدث شر واختلاف. جلّ خطب : عظم أمر . مناظم : جمع منظوم . تأتلف : تجتمع، يريد أن ماينظم فى شرفه من المدائح يأتلف بلا تكلّف على الشعراء لكثرة صفات الفضل والسؤدَد ، كما قال حبيب :

تغَايَر الشِّعر فيه إذ سهِرتُ لَهُ حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ (١)

وقال أبو الطيب :

لك الحمد فى الدرّ الذى لِىَ لفظه فإنك معطيه وإنّى نَاظم (٢)

وقال آخر :

مالقينا من فَضْل جود ابن يحيى صَيّر الناس كلهم شعراء

* * *

---

(١) ديوانه ٢٢٧ (٢) ديوانه ٣ : ٣٩١

مَنَاظِمُ شَرَفِهِ تأتَلِف ، وشُؤبوبُ حِبائه يَكِف ، ونائل يَدَيْهِ فاضَ ، وشُحُّ قَلْبِهِ غَاضَ ، وخِلْف سَخَائِهِ يُحْتَلَب ، وذَهَب عِيابِهِ يُحْتَرَب . مَنْ لَفَّ لِفَّهُ فَلَجَ وَغَلَبَ ، وتاجِرُ بابِهِ جَلَب وخَلَبَ . كفّ عَنْ هَضْمٍ بَرِي . وبرِئَ مِنْ دنسِ غَوِي ، وقَرَنَ لِيانَه بِعِزّ ، ونكّبَ عَنْ مَذْهَب كَزّ . لَيْسَ بوثّابٍ عِنْدَ نُهْزَةِ شَرّ ، بَلْ يَعِفّ عِفّةَ بَرّ .

فلِهذا يُحَبُّ ويُسْتَحَقُّ عَفافُهُ
شَعَفاً به فلبابُهُ خَلّابُ
أخلاقُهُ غُرٌّ ترفّ وفُوقُه
فُسوقٌ إذا ناضلْتَه غلّابُ
سُحُجٌ يَهِشّ وذو تلافٍ إن هَفَا
خِلٌّ فليسَ بحقه يُرْتَابُ
لا باخلٌ بل باذلٌ خِرْقٌ إذا
يُعْتَرُّ ، بَرْزٌ لا يليه بابُ
إنْ عَضَّ أَزْلٌ فَلَّ غربَ عِضَاضِهِ
بِنابِهِ فانحتّ منهُ نابُ

* * *

شؤبوب حبائه : دفع عطائه ، والشؤبوب : دُفَع المطر . يكف : يقطر ويسقط . نائل : عطاء . فاض: سال وخرج على الأرض. غاض : غاب وجفّ .

والخِلْف : حلمة الضَّرْع الذى يُحلب منه اللبن ، وهو أيضاً اسم للضّرع . سخائه : جوده . عيابه : جمع عيبة . يُحترب : يستلب ، أى لكثرة جوده كأنّ ماله يسلبه القاصدون له . من لفّ لِفّه ، أى من التف به ودخل فى جماعته ، واللِّف : لفيف الناس ، ولفّ القوم : اجتمعوا والتفّ بعضهم ببعض ، وأخذ هذا اللفظ من قول الأعشى :

وقد ملأت بكرٌ وَمَنْ لَفّ لِفَّها ... نُباكاً فأحواض الرّبا فالنواعصا[١]

بكْر قبيلة ، ومَنْ لفّ لِفّها ، أى مَن التفّ بها . فلج ، أى ظفر بما أحبّ . جلب : ساق ، أى التاجر الذى يقصد بابه بما جلب إليه من الفوائد يجازيه على ذلك بالعطاء الكثير ، فلكثرة ما أخذ فكأنه قد خدعه ، والملك المفضال يوصف أنه يُخدع لكثرة هباته ، وقيل لعرَابة : بم سدت قومك ؟ قال : أنخدع لهم فى مالى . هضم: نقص ، أراد أنه لايهضم ولا يظلم من لم يذنب إليه . غوِى : ضالّ مفسد . ليانه ، أى لين خلقه . بعزّ : بمنع وبعظم ، والعزة فى اللغة : الشدة والمَنعة ، والعزَاز : الأرض الصلبة ، يريد أن الأمير إذا انبسط لم يهب ، وإذا اشتدَّت سطوته لم يُؤْلَف ، فحالة هذا الممدوح بين العزة واللين ،

وقال أبو تمام :

المجدُ شيمتُه وفيه فكاهةٌ ... سمحٌ ولا جدّ لمن لم يلعبِ[٢]

شرِسٌ يتبع ذاك لينُ خَليقةٍ ... لاخيرَ فى الصَّهباء مالم تقطّبِ[٣]

نَكَب : عدل ومال . مذهب : طريق: كزّ : بخيل قليل الخير . وثّاب : عجول كثير الوثوب . نُهزْة : فرصة وغنيمة . ويعفّ : يكف نفسه . برّ : مطيع لله ، أراد أنه عفيف عن المحارم . قوله : شعفا ، أى حبا يطلب الغاية ، وشعاف القلب : أعلاه ، يريد أن عفافه بلَّغه غايةَ الحبّ من القلوب ، وفلان

(١) ديوانه ١٤٩ . (٢) ديوانه ١٣ . (٣) تقطب : تمزج .

مشعوف بفلان ، إذا ذهب به حبّه كل مذهب . الفراء : هو من الشّعف ، وهى رءوس الجبال ، واحدها شعفة ، فكأنَّ معنى شعف بفلان ، ارتفع حبه إلى أعلى موضع فيه .

لبابه : خالصه . خلاب : آخذ للنفس غالب عليها . غُرّ : حسان . ترفّ : تتلألأ وتشرق ، والرفيف : بريق اللون . وفُوقه : سهمه والفُوق : طرف السهم الذى يلى الوتر . ناضلته : راميته ، يقول : سهمُه ، غلاّب لمن راماه . سجج : سهل الخلق . يهشّ : يهتزّ طربا . تلاف : تدارك . هفا : زلّ وسقط ، والهفوة : الزلة . خِلّ : صاحب . يرتاب : يشكّ . خِرق : كريم جواد يتخرّق فى العطاء . يعترّ : يقصد . بَرْز : ظاهر غير محتجب . قال الفنجديهىّ : رجل بَرْز ، أى عفيف عاقل كريم . لا يليه باب ، أى لا يحتجب ببابه دون قصاده .

[مما قيل فى الحجاب]

شاد الملوكُ قصورهم وتحصَّنُوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغبِ
غالوْا بأبواب الحــــديد لعزها ... وتنافسوا فى قبح وجه الحاجب
فإذا تلطَّف للدخـول عليهمُ ... راجٍ تلقَّوْه بعــذرٍ كاذبِ
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تـكن ... بادى الضراعة طالباً من طالبِ

هى لمحمود الورّاق .

وقال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الكافى فحجبنى ، فكتبت إليه :

إنى أتيتكَ للتسليم أمسِ فلمْ ... تأذنْ عليك لِيَ الأستارُ والحجبُ
وقد علمتُ بأنى لم أردّ ولا ... والله ما ردّ إلا الحلم والأدبُ

فأجابنى بهذا القول :

لو كنتَ كافأت بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملاً ... إنّ السماء ترجّى حين تحتجب[1]

وقال حبيب :

سأترك هـذا البـاب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليـلاَ
فمـا خاب مَنْ لم يأته متعمداً ... ولا فاز من قَدْ نال منه وصولاَ
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئٍ ... حمى بابه من أن ينـال دخولاَ
إذا لم أجد للإذن عندك موضعاً ... وجدت إلى ترك المجىء سبيلاَ

وحُجِب أبو العتاهية عن بعض الهاشميين ، وقال له : تـكون لك عودة فقال :

لئن عدتُ بعـد اليوم إنى لظالمُ ... سأصرف نفسى حيث تُبغَى المـكارمُ
مَتَى يظفرِ الغـادى إليك بحاجةٍ ... ونصفك محجوبٌ ونصفك نائمُ !

قال المتنبى :

أصبحتَ تأمرُ بالحجاب لخـلوةٍ ... هيهات لستَ على الحجاب بقادرِ[2]
مَنْ كان ضوء جبينه ونوالِهِ ... لم يحجباً لم يحتجبْ عن ناظرِ
فإذا احتجبتَ فأنت غير محجّبٍ ... وإذا بَطَنْتَ فأنت عينُ الظاهرِ

وقال جرير :

قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهم ... نُتِفَتْ شواربُهمْ على الأبواب[3]

---

(١) ابن أوس : هو أبو تمام والبيت فى ديوانه ٢٢.
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٧ .
(٣) ديوانه ٥٦ .

وقال آخر :

نهيت جميع الناس عن كلّ خطة يدبِّرها فى رأيهــا ابنُ هشامِ
فلمّـا وردنا الباب أيقنت أنّنَا على الله والسلطان غيرَ كرام

وقال آخر :

وكل خفيف الشأن يدعى مشمّراً إذا فتح البوّاب بابك إصبعاَ
ونحن الجلوس المـا كثون توقّراً حياء إلى أن يفتح الباب أجمعاَ

قوله : عض أزْل ، أى اشتد زمان ، والأزْل : ضيق العيش من الجدب والقحط ، وعضّ : قبض بأسنانه . فلّ : كسر . غرْب : حدّ . بمنابه : بكفايته . انحتّ : انـكسر . ناب : سنّ ، يقول : إن عضت الشدائد الناسَ وأضرّتْ بهم دفعها وكسر أنيابها بمواهبه وخيره لمن أفقرته . ومن مليح ما قيل فى هذا المعنى قول المتنبي :

أظمتْنِيَ الدّنيا فلمّـا جئته مستسقيا مطرتْ علىّ سحائبا[(١)]
حالٌ متى علم ابنُ منصور بها جاء الزمان إلىّ منها تائبـاَ

نقل المتنبي اللفظ والمعنى من قول أبى تمامٍ :

كثرت خطايا الدهر فىّ وقد يرى لنــداك وهو إلىّ منها تائبُ[(٢)]

وألمّ به الحصنى أيضاً فى قوله :

وقد تحسنُ الأيّام بعــد إساءةٍ ويذنب صَرْف الدهر ثم يتوبُ

وقال ابن المعتز :

وعوّقنى الدهر عن قُربه زمانا فقـد تاب عن ظلمه

(١) ديوانه ١ : ١٢٥ . (٢) ديوانه ٢٩ .

وقال ابن الرومى :

أساءت لى الأيام يا بن محمّدٍ وهنّ إلىّ اليوم معتذرات

رأين مطافى حول عفوك عائذاً فهنّ لما أبصرنه حذرات

وقال أبو تمام :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف غدًا تقطّع ما بينى وبين النوائب

وقال أبو نواس :

أخذتُ بحبلٍ من حبال محمدٍ أمنتُ به من طارق الحدثانِ

تغطّيت من دهرى بظلّ جناحِهِ فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأيام عنّى ما درَتْ وأين مكانى ما عرفن مكانى

وقال أيضاً :

أنا فى ذمّة الخصيب مقيمٌ حيث لا تهتدى صروفُ الزمانِ

قد عرفْنَا من الخصيب خلالاً آمَنتنا طوارق الحدَثانِ

كيف أخشى من الليالى اغتيالاً ومكانى من الخصيب مكانِى

* * *

وجَدِيرٌ بِمَنْ لَبَّ وفَطَنَ ، وقَرَّبَ وشَطَنَ ، أن أَذْعَنَ لِقَرِيعِ زَمَن ، وجابِرِ زَمِن ، مُذْ رَضِعَ ثَدْىَ لِبانِهِ ، خُصَّ بإفاضةِ تَهْتَانِه . نَعَش وفرَّج ، وضافرَ فأبْهَج ، ونافرَ فأزْعَجَ ، وفاءَ بحقٍّ أبْلَج ، أَتْعَبَ مَنْ سَيَلِى ، وقُرِّظَ إِذْ هُزَّ وَبُلِى ، وتَوَّجَ صِفَاتِهِ ، بِحُبِّ عُفاتِهِ .

فَلاَ خَلاَ ذَا بَهْجَةٍ   يَمْتَدُّ ظِلُّ خِصْبِهِ
فإنه بَرٌّ يَمَنْ   آنس ضَوْءَ شُهْبِهِ
زانَ مَزَايا ظَرْفِهِ   بِلُبْسِ خوفِ ربِّهِ

* * *

قوله : جدير ، أى حقيق . لبّ : كان لبيبا وعاقلا . شَطن : بَعُد . أذعَن: ذلّ وانقاد . القريع : السيد يدفع ضرّ الزمن ويقرعه . جابر زَمِن ، أى مغنى فقير ، والزمِن الفقير الذى لازمه الفقْر أو المريض الذى لازمه المرض ، وبه زمانة ، وأصل ذلك من لزمن . لبانه،أى لبن أمّه،وقال فى الدرة[1] وقولهم : الرضيع الإنسان ارتضع بلبنه ، صوابه بلبانه ، لأن اللّبن هو المشروب ، واللّبان ، هو مصدر لابنه ؛ أى شاركه فى شُرْب اللبن ، هذا معنى كلامهم الذى نحْوا إليه ولفظوا به . التّهتان : سيَلان المطر ، وإفاضته : صبّه ، وأراد فى لبن أمه ، ارتضع الجود فداوم عليه، كقول المتنبّى :

سموْا للمعـــــالى وهم صِبيةٌ   وسادوا وقادوا وهم فى المهودِ[2]

وقد غالط المتنبي فى هذا،ونُسب فيه إلى الـكذب والمحال الفاضح ، لأن سيادة الأطفال فى المهود وقوْد الجيوش من أمْحلِ المحال ، وهـذا وإن كان ظاهره كذلك ، فقد اتسعت العرب وأهل الأدب فى هذا القدر ، وأقاموا تخيّل النجابة فى المولود فى مهده مقام وجودها فى كبره . ثم إذا وجدوا صفة الـكمال فى الرجل التامّ حكموا بكمالها ، لأنه رضعها فى ثدى أمه ، أو غذى بها فى بطن أمه ، ألا ترى قوله: تعلمت العلم قبل أن يقطع سرّك وسرَرُك ،وقبل أن يقطع ذاك ، كان

(١) درة الغواص ٩٩   (٢) ديوانه ١: ٣٤٥ .

فى بطن أمّه ، وهذا لم ينـكره أحد ، ومن شعر الحماسة فى الذى رأى المهلب فى مهده فقال :

خذونى به إنْ لم يَسُدْ سرواتهمْ ويبرع حتى لا يصاب له مثلُ (١)

وفيها أيضاً :

لئن فرحت بى معقل عند شيبتى لقد فرحت بى بين أيدى القوابل

وذلك لتخيّل النجابة فيه فى ذلك الوقت ، ألا ترى ماتثبت نساء العرب من بلوغ السيادة لأبنائهنّ عند ترقيصهن ، وانظر إلى ذلك إن شئت فى فصل نظمناه فى كتابنا الموضوع لاختصار نوادر أبى علىّ ، فقد سقط عن المتنبى والحريرى بهذا ماعِيب عليهما ، وقال سوار بن أبى شراعة :

تعرف السّوددَ فى مولودهمْ وتراه سيّدا إن أيفعا

نَعَش : رفع الضعيف بجوده . فرّج : أزال همه . ضافر : فاخر . أبهج : أدخل السرور على أحبابه إذا كان له الغلب . نافر : حاكم فى النسب .

وكانوا فى الجاهلية إذا تنازع الرّجلان الشّرف تنافرا إلى حكمائهم فيفضّلون الأشرف ، وسميت منافرة(١) لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة: أيّنا أعزّ نفرًا .

[منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة]

وأشهر منافرة فى الجاهلية منافرة عامر بن الطّفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن علُاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر ، حين قال له علقمة: الرياسة لجدّى الأحوص ، وإنما صارت إلى عمّك أبى براء من أجْله ، وقد أسنّ عمك وقعد عنها ، فأنا أوْلى بها منك . وإن شئت نافرتُك ، فقال عامر : قد

(١) المنافرة : المفاخرة بالنسب ، وخبر المنافرة بين عامر وعلقمة فى الأغانى ١٥ : ٥٠ ـ ساسى ، مع تصرف واختصار .

شئت والله ؛ لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت نسباً ، وأطول قصباً، فقال علقمة:
أنافرك وإنى لبرّ وإنّك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لعفٌّ وإنك
لعاهر ، وإنى لوافٍ وإنك لغادر ؛ فقال عامر : أنافرك ؛ أنا أسنى منك سنّة،
وأطولُ قمّة ، وأحسن لمّة ، وأجعدُ جمّة ، وأبعد همّة . فقال علقمة : أنت جسيم
وأنا قضيف[1] ، وأنت جميل،وأنا قبيح؛ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك.
فخرجت أمّ عامر فقالت : نافره أيُّكما أولى بالخيرات ، ففعلوا على أن جعلوا مائة
من الإبل يعطاها الحكم الذى ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببنى خالد بن
الأصفر وبنى الأحوص ومعهما القباب والجزور والقدور؛ ينحرون فى كلّ منزل
يطعمون، وخرج عامر ببنى مالك ، وقال: إنها المقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا :
بمثل ماشخص به ، وقال لعمه أبى براء : أعنّى ، فقال : سُبّنى ، فقال لا أسبّك
وأنت عمّى ، فقال : وأنا لا أسبُّ الأحوص وهو عمّى، ولكن دونك نعلى ،
فإنى ربعت فيها أربعين سنة؛ولم ينهض معه . فجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب
ابن أميّةَ ، ثم إلى أبى جهل بن هشام ، فلم يقولا بينهما شيئاً،ثم رجعا آخرا إلى هرم
ابن قطبة بن سيار بن عمر الفزارىّ،فقال: لعمرى لأحكمنّ بينكما، فأعطيانى موثقاً
أطمئن إليه أن ترضياَ بحكمى ، وتسلمّا ماقضيت بينكما . ففعلا ، فأقاموا عنده أيّاماً
فأرسل إلى عامر فأتاه سرًّا ،فقال : قد كنت أحسب أنّ لك رأيا،وأن فيك خيرا،
وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافر رجلا لا تفتخر أنت
وقومك إلا بآبائه ! فما الذى أنت به خيرٌ منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ،
ألاّ تفضل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أفلح بعدها ، هذه ناصيتى فاجُززْها
واحتكم فى مالى ، فإن كنت ولا بدّ فاعلاً فسوِّ بينى وبينه ، فقال له ما قال
لعامر ، فقال له: أتفاخر رجلا هو ابن عمّك فى النسب وأبوه أبوك وهو مع ذلك
أعظم منك غَناء وأحمد لقاء ، وأسمح سماحا ! فما الذى أنت به خير منه ! فردّ

(١) قضيف ، أى نحيف

عليه علقمة ماردّ عامر وانصرف وهو لايشك أنه ينفّر عامراً عليه . فأرسل هرِم إلى بنيه وبنى أخيه ، وقال لهم: إنى قائل غداً بينهما مقالة ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطردْ بعضُكم مثلها فلينحرْها عن عامر ، وفرّقوا بين الناس لا يكون بينهم جماعة . ثم أصبح هرِم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا ، فقال هرِم: إنكما يا بنى جعفر قد تحا كمتما إلىّ ؛ أنتما كركبتى البعير الآدم الفحْل تقعان على الأرض [معا] (١)، وليس فيكما واحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه، وكلا كما سيد كريم . ولم يفضّل واحدا منهما على صاحبه لئلا يجر ب بذلك شرّا بين الحيّين ، ونحرت الجزر وفرّقت على الناس .

وعاش هرِم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال: ياهرم ، أىّ الرجلين كنت مفضلا لوفعلت ؟ فقال : لوقلت ذلك اليوم عادت جَزَعة ، ولبلغت شَعفات هَجَر ، فقال عمر : نعْم مستودع السرّ أنت ياهرِم ، مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم . والحكاية طويله ، وقال فيه الأعشى(٢) :

حَكّمتموه فقضى بَينَكمُ ... أبلجُ مثلُ القمرِ الباهرِ
لايقبل الرّشوة فى حكمِه ... ولا يبالى غَبْرة الخاسِر

قوله : فاء ، أى رجع أبلج : بيّن ظاهر . أتعب مَن سَيَلِى ، يقول : إن الأمير الذى يأتى بعده فى تعب لأنه يروم أن يفعل مثل مافعل فيعجز عنه ، وأعاد هذا المعنى منظوماً فى السابعة والثلاثين حين قال :

سماحُهُ أزرى بمن قبلَه ... وعَدْله أتعب مَنْ بعدَهُ(٣)

أخذه من قول رجل قال لأحد الأمراء وقد عزل عن عمله : أصبحتَ والله

(١) من الأغانى (٢) ديوان الأعشى ١٤١ . (٣) المقامات ٤١٤ .

واضحاً متعبا ، أما واضحاً فلكلّ وال قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعبا فلكل والٍ بعدك أن يلحقك .

قرّظ : مدح . هزّ : حرك بالثناء عليه . بلى : جرّب : توّج صفاته ، أى زيّنها وشرفها . عُفاته : قصاده . بهجة : سرور ، وكنّى بخصبه عن ماله ودعا له بالبركة والكثرة إذ جعله ممتدّ الظل . برّ : مكرم . آنس : أبصر . شهبه : نيرانه الساطعة، واحدها شهاب، وأصل هائه التثقيل فخففت، وكانت العرب توقد النيران فيقصدها الأضياف بالليل ، أراد أنه كثير الإكرام لمن يقصد ناره ، وأخذ اللفظ من قوله تعالى : ﴿آنس من جانب الطُّورِ نارًا﴾[1]

مزايا : فضائل. ظرفه: حسن هيئته وعذوبة لسانه، وهومصدر ظرُف يظرُف ظرفا فهو ظريف، فمن قال : الظريف البليغ ، وقصَره على اللسان لم يَجُزْ له أن يقول : ما أظرف زيد ؟ على الاستفهام ، ومن جعل الظرف حسن الوجه والهيئة جاز له ذلك ، وكذلك مَنْ جعل الظرف عاما فيكون معناه : أىّ شىء فيه من الظرف ؟ أوجهه أم هيئته أم ذكاؤه وبلاغته ؟

بلُبس : اختلاط ، أراد أنه يخلط الهزل بالجد ، والمزاح وخفّة الطرب بالانقباض والحشمة ، وقد تقدّم فى صفة التنوخى مثل هذا . والمزايا : جمع مزيّة وهى التمام والكمال ، وأصلُها من الزىّ .

* * *

فَلْيَهْنِ سَيِّدَنَا فَوْزُه بِمَفَاخِرَ تَأَثَّلَتْ وَجلَّتْ ، وفَوْقُهُ بِصَنَائِعَ تَمَّتْ وعَمَّتْ ، وَيُلائِمُ قربَ حَضْرتِهِ ، وَوُثُوقُه بِرِقِّهِ بِحَظّ مِنْ حُظْوَتِهِ ؛ فإِنَّهُ تَليدُ نَدْب ، وشَرِيدُ جَدْب ، وجَرِيح

(١) سوة القصص ٢٩

نوَبٍ أثَّرَتْ ، وَنَاظِمُ قَلاَئدَ تَسَيَّرَتْ ، إذاجاشَ لخطبةٍ فَلاَ يُوجَدُ قائل ، ثمّ قس ثَمَّ باقِل .

فإن حبَّر قلتَ : حِبَرٌ نمنِمَتْ ، وخِلْتَ رياضاً قَدْ نَمتْ ، هذا ثمَّ شِرْبُهُ بَرْض ؛ وقوتُه قَرْض، وفَلَقُهُ غَسَقَ ، وجلباَبه خَلَق . وقد قَلِقَ لِتوغرِ غريمٍ غاشم ، يَسْتَحِثّهُ بحقٍّ لازم ؛ فإنْ مَنَّ سَيِّدُنا بكَفِّهِ ، ، بهباتِ كفِّهِ ، توشَّحَ بمجدٍ فاقَ ، وباء بأَجْرِ فكّى مِنْ وَثاق .

لا خَلَتْ سجايا خُلُقهِ ، تَرْفِدُ شائِمَ برقِهِ ، بِمَنّ رَبٍّ أَزَليّ ، حيٍّ أبَديّ

• • •

فوزه : ظفره . تأثلت : تقدمت واتصلت . جلّت : عظمت . فوْقُهُ : سبقه صنائع : أفعال جميلة . نمت : اشتهرت . يلاءم : يوافق . حضرته : موضعه الذى يحضر فيه ، والقرْب: جمع قرية،وهى مايتقرب به من أعمال البر إلى الله تعالى ومن الهدايا إلى الملوك . غَوْث : إغاثة وكشف ضرّ . رقّه : عبده . حظّ : نصيب . حظوته : مكانته ورفعته . تليد ندب ؛ تقول : ندبت القوم دعوتَهم ، يريد أنه عبدٌ للدعوة التى دعاه بها خصمه إلى الوالى ، والتّليد من العبيد : ماولد عند غيرك ثم اشتريتَه صغيراً ، فكبر عندك، وجعل نفسه عبداً للدعوة لمّا تعبّد بها، أو يريد بالتليد القديم ، فإن التليد والتالد المال القديم ، والنّدب : الهمّ ،من ندبت الميت ندبا ، فيريد أنه قديم همّ ، ورجل ندب ، أى خفيف فى قضاء الحوائج لأصحابه ، فيريد على هذا بتليد ندب ، أى خفيف ومنْ هذه صفته

فقد وجبت حرمته . وشريد جدب : طريد فقرٍ وجوع ، والجدْب ضد الخصب . نوب: نوازل . أثّرت : أبقت به أثرا وأثرها أخذها ماله حتى عاد فقيراً ، فمن نظره رأى أثر النوائب عليه . ناظم قلائد : قائل قصائد . ورسائل تسيّرت : مشت فى الناس والبلاد ، جاش لخطبة : تحرك صدره للكلام بها ، يريد أنه إذا أراد قول خطبة ازدحم الكلام فى صدره وارتفع ، كما يجيش القِدْر ، أى يغلى ، ونقدّم هذا الكلام .

قسّ : فصيح العرب، ويأتى ذكره فى الأربعين . ثَمّ ، معناه هنالك . باقل، تقدم ، يريد أن قسا على فصاحته لوحضر مع الموصوف لنظمٍ أو نثرلرجع فى عىّ باقل، والعادة إنما يذكر معه سحبان للزوم الرسالة وقال حبيب وذكر ثلاثة من أصحاب عبد الله بن طاهر :

أول :

حازوا خلائق قد تيقّنت العلا كلّ التيقّن أنهنّ نجومها[1]

ثان :

لو أنّ باقلاً المفهّهَ ينبرِى فى مدحها سهلت عليه حُزومها

ثالث :

ولو أن سحبانا يسحب ذيله فى ذمها لم يدر كيف يذيمها[2]

حبّر : قال شعرا أورسالة ، وأصل حبّر:وشّى وزين . حِبَر : ثياب موشاة . نُمنِمتْ : زينت ورقت . نمّت: تحركت بالروائح العطرة .

وقال الصابى فى المهلّبى وكأنه يصف هذا الكلام :

وإن استنطَق الأنامل جاءتْ ببيان كالجوهرِ المنضودِ[3]

فى سطور كأنّما نشرتُ يمـــنْاه منهـا عصائبا مِنْ بُرودِ

فِقَرٌ لم يزل فقـيرا إليهـا كلُّ مبدى بلاغة ومعيـدِ

---

(١) ديوان أبو تمام ٣١١ (٢) يذيمها : يذمها (٣) يتيمة الدهر ٢: ٣٤٩

يَغتدِى البارع المفيد لديْها لاحقا بالمقصّر المستفيد
ببيان شافٍ ولفظ مصيبٍ واختصارٍ كافٍ ومعنى سديدِ

وله فى مثله أيضاً :

وكم من يدٍ بيضاء حازت جمالَها يدٌ لك لا تسودّ إلا من النّقْسِ[1]
إذا رقّشت بيضَ الصحائف خِلْتَهَا تطرّز بالظلماء أردية الشمسِ

وقال السرىّ رحمه الله تعالى :

شغلتْك عن حسن الشآم مدائحٌ حسنت فما تنفك تطرب سامعاً[2]
زهرٌ إذا صافحن سمع معاندٍ خَفَضَ الكلامَ وغضّ طرفا خاشعا
جاءتكَ مثلَ بدائع الوشْيِ الذى مازال فى صنعاء يتعب صانعا
أو كالربيع يريك أخضر يانعاً متورّدا شرقاً وأصفر فاقعا

وله أيضاً فى مثله :

سأبعث الحمد موشيًّا سبائبهُ إلى الأمير صحيحاً غير مؤتشبِ[3]
إنّ المدائح لا تهدى لِناقدها إلا وألفاظها أصْفَى من الذهب
كم رُضْتَ بالفكر منها روضة أُنُفاً تفتّح الزهر فيها عن جَنى الأدب
لفظ يروح له الريحان مطّرحا إذا جعلناه ريحانا على النخب

قوله: شِرْبه ، أى حظه من الماء . بَرْض:قليل. قرض : سلف، والقرْض ماأخِذ ليعوّض منه. وَفَلقه : ضوء صبحه . غَسَق : ظلام ، يريد أن حاله متغيرة. جلبابه : ثوبه . خلَق : بالٍ . توغّر : توقّد واشتدّ غضبه ، والتّوغّر : التوقد لشدّة الغيظ ، والوغْر شدة الحر . غاشم: ظالم جافّ . يستحثه : يستعجله . لازم:

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٩ .
(٢) ديوان السرى ١٦١ .
(٣) ديوان السرى ٣٩ .

وأجب · منّ : أنعم وأحسن · بكفه : بردّه عنى . هبات : عطايا . توشح : تحزم وتزين ، وتوشّح الرجل بثوبه : جعله موضع الوشاح وتحزم . فاق : فضل بهذا المجد كل أحد . باء : رجع . فكّى : إنقاذى . وثاق : شدّ وربط . سجايا : طبائع · ترفد : تصل وتعين ، والرّفد : المعونة : شائم برقه : راجى خيره ونازل أمره ، ونزّل البرق منزلة الجود لأنه يأتى بالمطر والمطر يشبَّه به الجود : يمنّ : بإحسان وإنعام · أزلىّ : قديم · أبَدِىّ : باقٍ مع الأبد وهو الدهر .

وإذ قد فرغنا من شرح هذه الرسالة على صعوبتها ، فإنا نعتذر إلى مَنْ وقف على شرحنا لها من صعوبة هذا المقام ، فإن هذه الرسالة وأمثالها إنما يؤتى بها على جهة المُلَح والاقتدار ، لا على أنها من نفيس الكلام الفصيح ، ألا ترى الحريرىّ كيف اعتذر فى مثلها حيث قال : أجلّ الأبيات العرائس ، وإن لم يكنّ نفائس ؛ ولا شك أن الشارح لمثل هذه الرسالة يقارب تعب منشِئها فى أنه يغوص على تلك الاستعارات البعيدة ، فيريد أن يبرز المعنى فى غاية البيان ، واللفظ فى أغلبها موضوع على غاية الإبهام ، فوقع التمانع ، فلا يصل إلى عبارة متوسطة تتعلق بالمعنى ، ولا تبعد من اللفظ إلاَّ بعد جهد ، فهذا عذرنا فى هذه الرسالة الرقطاء والقهقرية والخيفاء المتقدمتين ، وما علمت أحداً شرحها شرحَنا ولا بلغَ منها مبلغنا ، ولله منشئها من عالمٍ بارعٍ ! فما اتَّفق له إنشاؤها إلا بعد التبحّر فى علوم اللغات حتى كأنَّ أبا حفص بن برد يخاطبه بهذه الأبيات :

أبا العلاء استمعْ تعريضَ ذى مقةٍ ... أهدى لك الودّ محضاً غير مقطوبِ
أنت الذى لم نُعاشر مثـلَه رجـلاً ... فى العلم والظرف والآداب والطيبِ
تحصيل فضلك للحسَّاد معجزة ... وكُنْهُ علمك شىء غير محسوبِ
أمّا اللغات فما يعقوب يبلغ ما ... وعيت منها ولا أشياخُ يعقوبِ

* * *

قَالَ : فَلَمَّا استشَفَّ الأميرُ لآلِيهَا ، وَلَمَحَ السِّرَّ المودَعَ فيها ، أوْعَزَ فى الحال بقضاءِ دَيْنِى ، وفَصَلَ بين خَصْمِى وبينى . ثمّ اسْتَخْلَصَنى لِمُكاثَرَتِهِ ، واختصَّنى بأَثَرَتِهِ . فلبثت بِضْعَ سِنِين أنعم فى ضيافَتِهِ ، وأَرْتَعُ فى ريفِ رأفتِهِ ؛ حتَّى إذا غمرتْنى مواهِبُهُ ، وأطَال ذيلِى ذهبُهُ . تلطّفْتُ فِى الارْتِحَالِ ، عَلَى ماترى مِنْ حُسْنِ الحال .

قال : فقلت لَهُ شكراً لِمَنْ أتاحَ لَكَ لُقيان السَّمْحِ الكَرِيم ، وَأنقذَكَ مِنْ ضغْطةِ الغريم . فقال : الحمدُ للهِ عَلَى سَعَادَةِ الجدّ ، والخلوص مِن الخصْمِ الألدِّ . ثم قال : أَيُّمَا أحبُّ إليكَ ؟ أن أحْذِيَكَ من العطاء ، أم أُتحِفَكَ بالرسالَةِ الرَّقطاء . فقلت : إملاء الرِّسالَة أحبُّ إلَىّ . فقال : وهو وحقِّكَ أخفّ عَلَىّ . فإنَّ نِحلَةَ ما يَلِجُ فى الآذان ، أهونُ مِنْ نِحْلَةِ ما يخرجُ من الأرْدَان . ثمَّ كأنّهُ أنفَ واستَحْيا ، فجَمعَ لِى بَيْنَ الرِّسالةِ والحُذْيا ، ففزتُ مِنْهُ بِسَهْمَيْن ، وفصلت عَنْه بِغُنْمَيْنِ ، وأُبْت إلى وَطَنِى قرِيرَ العين ، بما حزتُ من الرسالة والعين .

* * *

قوله : استشفّ ، نظر . لآليها : جواهر كلامها . لمح : رأى . المودَع : المضمّن المجعول ، وعنى بالسرّ ماذكر من النقط لحرف والترك لآخر . أوعز : تقدم . فصل : قطع . استخلصنى : ضمّنى وأنقذنى منه . لمكاثرته : لزيادة عدده ، يريد أن الأمير خلّصه من غريمه وضمه إليه ، وجعله فيمن حواليه فكثروا به . اختصنى بأثرته : أفردنى بعطيته ، وآثرنى بها على غيرى . لبثت : أقمت .

بضع سنين : قال أبو عبيدة رحمه الله : البضع من واحد إلى أربعة ، وقال

الأخفش: من واحد إلى عشرة، وقال الفرّاء : مادون العشرة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : البضع من الثلاثة إلى عشرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر لما نزلت﴿فى بضْع سنين﴾: البِضع مابين السبع والتسع،قال ابنُ سلاّم : فلما انقضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس.وقال أبو محمد فى الدّرة: البِضع أكثر مايستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر ، وأسرّ ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى: ﴿وهُمْ مِنْ بعد غَلَبِهم سيغلبون . فى بضع سنين﴾،وذلك أنّ المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب والمشركون يميلون إلى أهل فارس ، لأنهم أهل أوثان ، فلما بشّر الله المسلمين بأنّ الروم سيغلبون سُرّ المسلمون . ثم إن أبا بكر رضى الله عنه أخبر مشركى قريش بما نزل عليهم،فقال له أمية بن خلف: خاطِرْنى على ذلك ، فخاطره على خمس قلائص فى مدّة ثلاث سنين ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن البِضع ، فقال : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، فأخبره بخطاره مع ابن خلف ، فقال له : ما حملك على تقريب المدة ؟ قال : الثقة بالله ورسوله ، فقال له : عد إليهم فزدهم فى الخطر ، وازدد فى الأجل ، فزادهم قَلوصين وزادوه سنتين ، فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثانى تصديقاً لتقديرأبى بكر رضى الله عنه . ويقال:البضع بغير هاء للمؤنث مثل خمس وبضعة للمذكر مثل خمسة .

أرتع : آكل وأتنعم ، والريف:الخِصْب ، والرأفة : الرفق.غمرتنى مواهبه: غطّتنى عطاياه ، وأراد بإطالة ذيله كثرة ماله حتى صار منه فضول ، وصار يجرّ ذيله تبختراً . تلطفت : تسلّلت برفق . أتاح : قدّر . لقيان : لقاء . الضُّغطة : التضييق ، وضغطه :ضيّق عليه .الجَدّ : الحظ والسعد . الألدّ :الشديد الخصومة . أحذيك : أعطيك . أتحفك : أهديك . وإملاء الرسالة :إلقاؤها عليه ليكتبها . نِحْلَة: عطية . يلِج: يدخل. الأردان: الأكمام .أنِف: كَبُر ذلك عليه واستنكفه . والحذيا : العطية فصلت: زلت . أبْتُ :رجعت : قرير العين: مسرورا بالفائدة . حزت : جمعت، وصار فى حوزى، أى فى ملكى . والعين : الذّهب الأحمر .

المقامة السابعة والعشرون وهى الوبرية

حكى الحارثُ بن همّامٍ، قالَ: مِلْتُ فى رَيِّق زماً الّذِى غَبَر، إلى مُجاوَرَةِ أهْلِ الْوَبَرِ؛ لآخذَ أخْذَ نُفوسِهم الأَبِيَّة، وألْسِنَتِهم العربيَّة، فشمّرتُ تشميرَ مَنْ لا يألو جُهْدًا، وجعلتُ أَضرِبُ فى الأرضِ غَوْرًا ونَجْدًا؛ إلى أن اقْتَنَيْتُ هَجْمَةً من الرَّاغية وثَلَّةً من الثَّاغية، ثمَّ أوَيْتُ إلى عَرَبٍ أردافَ أقيـالٍ، وأبناء أقوالٍ، فأوطَنُونِى أمْنَعَ جَنَابٍ، وَفَلُّوا عنِّى حَدَّ كُلِّ نَابٍ، فما تَأَوَّبنِى عندهم همٌّ، ولا قَرَعَ صَفاتِى سَهْمٌ.

* * *

غبَر، تقدم. أهل الوبر: أصحاب البوادى: الذين مالهُم الإبل، وكَنَى بالوبر عنها. الأبيّة: العزيزة التى تأبى الذلّ. يألو جهدا: يقصّر فى الاجتهاد. أضرب: أمشى فى الأرض. وغوْرًا ونجْدًا: مرتفعاً ومنخفضاً. اقتنيت: اكتسبت لنفسى لا للبيع.

وشرح الحريرى ألفاظا فى المقامة فنقتصر فيها على شرحه إلاّ بقدر ما يزيد الكلام بياناً، مثل قوله: آخذ أخذ نفوسهم، أى أتخلّق بأخلاقهم وطباعهم، ويقال: لو كنت مثلنا لأخذت بإخذنا، بكسر الهمزة وفتحها، أى بخلائقنا وشكلنا، واستعمل فلان على الشأم وما أخذ أخذه، أى وماوالاه وكان حيّزه. وقوله: إرداف أقيال؛ يفسّر القيْل بالملك وبردف الملك، وقيل: القيْل بالمشرق كالقائد

بالأندلس والرِّدافة في الجاهلية كالوزارة في الإسلام ، والرِّدافة : بأن يرتدف مع الملك على مركوبه ، وأن يستخلفه في موضعه متى غزا . أويت : رجعت واتخذته مأوى . أوطنوني : أنزلوني . جناب : جانب . فَلّوا : كسروا . ناب : ضرس . تأوَّبني : أتاني ليلا ولا قرع صفاتي سهم ، أي لم ينلني ضرّ .

* * *

إلى أَن أَضْلَلْتُ في لَيْلَةٍ مُنيرَةِ الْبَدْر ، لِقْحَةً غَزيرَةَ الدّرّ ؛ فَلَمْ أطِبْ نفساً بإلغاءِ طَلَبِهاَ ، وإلْقَـــــاءِ حَبْلِهَا عَلَى غاربِهاَ ؛ فتدثَّرْتُ فرَسًا مِحْضَارًا ، واعْتَقَلْتُ لَدْنًا خَطَّارًا ، وَسَرَيْتُ لَيْلَتِي جَمْعَاء ، أَجُوبُ البَيْدَاء ، وأقترِى كُلَّ شجراءَ ومَرْدَاء ، إلَى أَنْ نَشَرَ الصُّبْحُ راياتِه ، وحَيْعَلَ الدَّاعِى إلى صَلاته ، فنزلْتُ عَنْ مَتْنِ الرَّكوبة ، لأداءِ المكتوبة . ثم حُلْتُ في صَهْوَتِها ، وفررتُ عَنْ شَحْوَتِها ، وسِرْتُ لا أَرَى أثراً إلاَّ قَفَوْتُهُ ، وَلاَ نشزًا إلاَّ عَلَوْتُهُ ، ولاَ وادِياً إلاَّ جَزَعتُهُ ، ولا راكباً إلاَّ اسْتَطْلَعْتُهُ ، وجدِّى مع ذلك يذهَبُ هَدَرًا ، وَلاَ يجِدُ وِرْدُه صدَرًا ، إلَى أن حَانَتْ صَكَّةُ عُمَىّ ، ولَفحُ هَجِيرٍ يُذْهِلُ غَيْلاَنَ عَنْ مىّ .

• • •

أضللت: أتلفت ، وضلّت الناقة وأضلّها ربُّها . منيرة : مضيئة . اللِّقحة : الناقة لها لبن . غزيرة الدرّ : كثيرة اللبن . إلغاء : ترك . غاربها : أعلى سنامها . اللدن : الرمح الليّن . الخطّار : الطويل المضطرب . واعتقلت الرمح : جعلته ما بين سرجك ورجلك . أجوب البيداء : أقطع القفر . وفسر « حيعل » بأنّه قول المؤذن: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، وشاهده :

ألا ربّ طيف بات منكِ معانِقى إلى أن دعا داعى الصلاة فحيَّهلاَ

وقال آخر :

أقول لهـا ودمع العين جارٍ ألم تحزِنْك حيعلةُ المنادى

ومعنى حىّ ، هلمّ وأقبلْ ، والفلاح : الفوز ، وأفلح الرجل ، إذافاز وأصاب خيرا ، والمفلحون : الفائزون ، وقيل : الفلاح البقاء ، أى أقبلوا على بيت البقاء فى الجنة. والمفلحون : الباقون . والصلاة : المعلومة ، والصلاة : الرحمة كقوله تعالى : ﴿أولئك عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمةٌ﴾ ، وكقوله عليه الصلاة والسلام : «اللهمّ صل على آل أبى أوفى » ، والصلاة بمعنى الدعاء كالصلاة على الميت ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : «إذا دُعِىَ أحدكم إلى طعام فلْيجِبْ فإن كان مفطرا فليأكُلْ وَمَنْ كان صائما فليصلْ» . أداء : قضاء . حُلْت فى صهوتها : ركبت ظهرها ووثبت عليها . فررت : كشفت . قفوته : اتبعته . نشَزا : مرتفعا . اسطامتة : استخترته وسألته . جِدّى : عزمى واجتهادى . هدراً : باطلا . وردُه صدَراً ، أى سؤاله خبرًا ، والورد إتيان الماء ، والصدر : الرجوع عنه . لَفْح : تحرّك . هجير : حرّ . يذهل : يشغل .

[أخبار ذى الرمة مع مىّ]

غيلان اسم ذى الرُّمة ، وهو غَيْلان بن عُقْبة بن بيهس بن مسعود بن حارثة ، عداده فى الرِّباب ، والرباب : عدىّ بن عبد مناة وتيم بن عبد مناة وعُـكْل ، وهو عوف بن عبد مناة ، وثور بن عبد مناة ، وضبة بن أدّ وهو عمهم ، وأد بن طابخة ابن الياس بنُ مضَر ، وسمى ذا الرُّمة ، لِقوله يصفُ وتِدًا :

وغير مرضوخ القفـا موتود أشعثَ باقى رُمّةِ التقليـد[1]

نعم فأنُت اليوم كالمعمودِ[2] من الهوى أو شبه المورودِ

---

(١) ديوانه ١٠٥ . مرضوخ القفا : مدقوق ، يعنى الوتد . والرمة : القطعة من الحبل .

(٢) الديوان : « كا لعمود » ، قال فى شرحه : العمود ما انضمت عليه الضلوع .

بمىّ ذات المبسم المبرودِ [(١)] والمقلتين وبياض الجيدِ

وقيل: سُمّى به لأنه خشى عليه من المسّ، فأتى به رجل من الحىّ فكتب له معاذة علّقت فى عنقه، وشُدّت بحبل. وقيل: سمته بذلك خرقاء التى يذكرها فى شعره، وذلك أنه رآها وهى فى جوارٍ على سنّها فأعجبته وأدام الالتفات إليها، ثم قال لها: يا جارية أُخرزى لى هذه القربة. فعلمت مراده، فقالت له: إنى خرقاء، فولّى وفى يده قطعة حبل بالٍ فنادته: ياذا الرّمة إن كنتُ خرقاء، فجاريتى صناع، فاذهب إليها، فمضى عليه ذو الرمة، وسمّاها فى شعره خرقاء، فمضت عليها [(٢)].

وهى مىّ بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، وتُكْنى أم ثور، وغلبت عليه حتى عرف بها، فقيل غيلان مىّ كما قيل كثيّر عزة.

وأول أمره مع مىّ - فيما حكى الأصبهانى عن أمة لأمّ مىّ - قالت [(٣)]: كنا نازلين بأسافل الدّهناء ورهط ذى الرُّمة مجاورون لنا، فجلست مية تغسل ثيابا لها ولأمها، فى بيت رثّ فيه خروق، وهى فتاة أحسن مَنْ رأيته حين بدا ثدياها، فلما فرغت لبست ثيابها وجلست عند أمها، وأقبل ذو الرُّمة يُنشد ضالة، فدخل وجلس ساعة ثم خرج، فقالت مية: إنى لأرى أنّ هذا العذرىّ قد رآنى منكشفةً واطّلع علىّ من حيث لا أشعر، فإنّ بنى عذرة أخبث قوم فى الأرض. فاذهبى

---

(١) فى الديوان: « يامى ذات المبسم »

(٢) الخبر فى الأغانى: « .. وكان اجتاز بخبائها وهى جالسة جنب أمها فاستسقاها ماء، فقالت لها أمها: قومى فاسقيه. وقيل بل خرق إداته لما رآها وقال لها اخرزى لى هذه، فقالت: والله ما أحسن ذلك فإنى لخرقاء — قال: والخرقاء التى لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على قومها — فقال لأمها: مريها أن تسقينى ماء، فقالت لها: قومى ياخرقاء، فاسقيه ماء، فقامت فأتته بماء؛ وكانت على كتفه رمة، وهى قطعة من حبل، فقالت: اشرب ياذا الرمه.. فلقب بذلك. الأغانى ١٨: ١

(٣) الأغانى ١٨: ١

فقصّى أثره ، فقالت :قصصتُ أثره فوجدته قد تردَّد أكثر من ثلاثين مرة، كل ذلك يدنو فيطلّع عليها،ثم يرجع على عقبه ثم يعود.فأخبرتها بذلك ، ثم لم ينشب أن جاءنا شعره فيها من كلّ وجه ومكان .

وحدّث أيضا بسنده عن عُمارة بن ثقيف،[١] أنّ ذا الرُّمة حدَّثه أن أوّل أمره معها أنه خرج مع أخيه وابن عمّه فى بغاء إبل لهم ، فوردوا على ماء ، وقد جهدهم العطش . قال : فأتيت خباء عظيما أستسقى لهما ماء ؛ فإذا عجوز جالسة فى رواقه ، فالتفتت وراءها وقالت : يامىّ ، اسق الغلام ، فدخلت عليها وهى تنسج شُقّة ، فقالت لى : لقد كلّفك أهلك السفر ، على ما أرى من حَداثة سنك ، ثم قامت تصبّ لى ركوتى ماء وعليها شوذب[٢] ، فلما انحطّت على القربة رأيت مرأى لم أر أحسَن منه ، فلهوت بالنظر إليها ، وهى تصبّ الماء فيذهب يمينا وشمالا.فقالت العجوز: يابنىّ ألهتك مىّ عما بعثك له أهلك،أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا ؟ قلت : أما والله ليطولنّ هُيامى بها، ثم أتيت بالماء أخى وابن عمى فلففت رأسى ، وانتبذت ناحية وقلت :

قد سَخِرتْ أخت بنى لبيدِ منّى ومن سَلْم ومن وَليدِ
رأت غلامىْ سفر بعيد يدّرعان الّليل ذا السدود
* مثل ادّراع اليلمق الحديد *[٣]

وهى أول قصيدة[٤] قلت: ثم مكثتُ أهيم بها فى ديارها عشرين سنة .
وأما ابن[٥] قتيبة فقال : مكثت مىّ تسمع شعر ذى الرّمة ولا تراه ،

---

(١) الأغانى ١٨ : ١٨ (٢) الشوذب : الثوب الطويل (٣) اليلمق : القباء
(٤) ديوانه ١٥٥ ـ ١٦٣ ،ومطلعها:
هل تعرف المنزلَ بالوحيدِ قفرًا محاه أبدُ الأبيدِ
(٥) الشعر والشعراء ٥٠٩

فجعلت لله أن تنحر بَدنَه يوم تراه ـ وكانت من أجمل الناس ـ فلما رأته دميما أسود صاحت : واسوءتاه ! واضيعة بدنتاه ! فقال :

على وجه ميّ مَسْحةٌ من مَلاَحَةٍ وتحت الثياب الشَّينُ لو كان باديا

فكشفت عن جسدها، وقالت : أشيئاً ترى لا أمّ لك ! فقال :

ألم تر أن المـاء يخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيضَ صافِياَ

فقالت له : قد رأيتَ ما تحت الثياب ، فلم يبق إلاّ أن أقول لك : هَلُمّ فَذُقْ ما وراءه ، فوالله لاذقت ذلك أبدا[1] . ثم صلح الأمر بينهما ، فعادا لما كانا من حبّهما .

وهو شاعر مجيد مكثر وصّاف للأطلال والديار والصبر على قطع القفار .

أبو الفرج[2] : كان سليمان بن أبي شيخ ، رواية لشعر ذى الرّمة ، فأنشد يوما قصيدة له وإعرابىّ من بنى عدىّ بسمعُه فقال : أشهد أنك فقيه تحسن ما تلوته ، وكان يحسبه قرآنا .

وكان أهل البادية يعجبهم شعره ، وكان جرير والفرزدق يحسدانه . وقال حماد الراوية : ما أخّرَ القوم ذكره إلا لحداثة سنه ، وأنهم حسدوه .

وقال أبو المطرّف: لم يكن أحد منهم فى زمانه أبلغ منه، ولا أحسن جوابا، وكان كلامه أحسن من شعره .

وقال مولى لبنى هاشم : رأيته بسوق المِرْبد وقد عارضه رجل فقال : يا أعرابىّ ـ يهزأ به ـ أتشهد بما لم تر ؟ قال: نعم، قال : بماذا، قال : أن أباك ناك أمك .

---

(١) فى خبر الأغانى ١٨ : ٢٨ فقال :

فياضيعة الشّعر الذى لجّ فانقضى بميّ ولمْ أمْلِكْ ضلال فؤاديا

(٢) الأغاني ١٨ : ٧.

الأصمعىّ ما أعلم أحداً من العشاق شكا أحسن من شكوى ذى الرُّمة، مع عفّة وعقل .

أبو عبيدة: يخبر ذو الرُّمة فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه فيحسن الرّد، ثم يعتذر فيحسن التخلّص، مع حسن إنصاف فى الحكم وعفاف .

وقال ذو الرّمة: من[1] شعرى ماساعدنى فيه القول، ومنه ما أجهدت نفسى فيه . ومنه ما جننت فيه جنوناً، فأما الذى طاوعنى فيه القول فقولى :

خليلىّ عوجَا فى صُدور الرواحلِ بجمهور حُزْوى فابْكيا فى المنازل[2]

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفى نجىَّ البلابل

وأما ما أجهدت نفسى فيه فقولى :

أأن توسَّمت من خرقاء منزلةً ماء الصبابة من عينيك مسجومُ[3]

كأنها بعد أحوالٍ مَضينَ لَهَا بالأشيمَيْن يمانٍ فيه تسهيمُ

وأما الذى جننت فيه جنونا فقولى :

ما بال عينك منها الماء يَنْسَكِبُ كأنه من كُلَى مفرّيةٍ سربُ[4]

براقة الجيد واللبّات واضحةٌ كأنها ظبية أفضَى بها لببُ[5]

زَيْنُ الثياب وإن أثوابها استُلِبَتْ فوق الحشية يوما زانها السلبُ

إذا أخُو لذة الدنيا تبطّنَهَا والبيتُ فوقهما بالسّتر محتجبُ

ساقت بطيّبة العِرْنين مارنُها بالمسك والعنبر الهندىّ مختضب

لمياء فى شفتيْها حُوّة لَعَسٌ وفى اللّثات وفى أنيابها شَنَبُ

كحلاء فى برَجٍ ، بيضاء فى دَعَجٍ كأنها فضة قد زانها ذهبُ

وهذه القصيدة من المطولاَت التى نيّفتْ على المائة وربعها ، وتصرّف فيها

---

(١) الأغانى ١٨ : ٢٢ (٢) ديوانه ٤٩١ . والجمهور : العظيم من الرمل

(٣) ديوانه ٥٦٧ والأشيمان جبلان من جبال الرمل

(٤) ديوانه ١ (٥) اللبب: منقطع الرمل .

ماشاء من أوصاف الأطلال والديار والثور والحمار والكلاب والظبي وغير ذلك، وفي خلال ذلك يأتي بتشبيهات بديعات. وهو أشعر الشعراء الإسلاميين في التشبيه، وكان يقول: إذا قلت « كأنّ » فلم أجد مخرجا فقطع الله لساني.

واحتذى في ذلك حذوه من المولدين ابنُ المعتز، وقصده الحريري في هذا الموضع لمعنيين: أحدهما لأنه كان صادقاً في حبّ مية فكان لا يشغله عنها شيء، لامثل كثير عزة وغيره ممن لا يصدُق في حبه، والثاني أنه يكثر في شعره صبره على قطع الهواجر لمية مثل قوله:

وهاجرةٍ من دون مَيّة لم تقلْ قَلوصي بها والجندب الجوْن يَرْمَح[1]
إذا جعل الحرباء مما أصابه من الحرّ يلوى رأسه ويُرَنِّحُ
لئن كانتِ الدنيا عليّ كما أرى تباريح من ميّ فَلَلْمَوتُ أروحُ
ولما شكوت الحب كيما تثيبنى بودّى قالت إنما أنت تمزحُ

فذكر الحريري أن هذه الهاجرة شغلته عن ذكر ميّ حتى طلب ظلاًّ يلوذ به

* * *

وكان يومًا أطول من ظِلّ القناة، وأحَرّ من دمـــعِ المقْلاَت فأيقنتُ أني إنْ لَمْ أستكنّ من الوقْدَة، وأستحمّ بالرَّقدة، وأدْنفني اللغوب، وعَلِقَتْ بي شَعُوب. فعجتُ إلى سَرْحةٍ كثيفة الأغصان، وَريقةِ الأفنان، لأغوِّر تحتَهَا إلى المغَيْربان؛ فوَاللهِ ما استَرْوحَ نفسِي، ولا استراحَ نَفَسِي؛ حَتَّى نظرتُ إلى سَانِحٍ، في هيئة سَائح؛ وهُوَ ينتَجِعُ نُجْعتِي، ويشتَدُّ إلى بُقْعتِي، فكرِهْتُ انعياجَهُ إلى مَعَاجي؛ فاستعذتُ باللهِ مِنْ شَرِّ كلِّ مُفاجي. ثمّ

(١) ديوانه ٨٦. لم تقل، من القيلولة والقلوص: الناقة الفتية. والجون: الأبيض أو الأسود، من الأضداد. يرمح: يضرب الأرض برجله من شدة الحر.

ترجّيتُ أن يتصدَّى منشدًا ، أو يتبدّى مُرشداً . فلمّا اقتربَ من سَرْحتِي ، وكادَ يُحلّ بساحتِي ، ألفيتُه شيخنا السّرُوجيّ ، مُتّشِحًا بجرابِهِ ، ومضطغنًا أُهْبَةَ تَجوابه ، فآنسني إذْوَرَد ، وأَنْسَانِي ماشرَدَ ، ثمَّ استوضحتُه مِنْ أين أثرُه ، وَكَيْفَ عُجرُهُ وبُجَرُه .

* * *

أستكنّ : أستتر وأطلب كِناًّ . الوقدة : شدة الحرّ . أستجمّ : أستريح فأتقوّى . أدنفني : أمرضني . اللّغوب : التعب .

وذكر طول اليوم وأنشدعليه فى الشرح: « ويوم كظل الرمح... » ، وذكر أنَّ اليوم القصير يوصف بإبهام القطاة ، ولم ينشده عليه شيئاً . وقال جرير :

ويومٍ كإبهام القطاة محبّبٍ إلىّ صِبــاه غالب لِىَ باطُلُه ،[1]
رزقنا به الصّيد الغزير فلم يكنْ كمن نبلُه محرومــةٌ وحبائلُهْ
وذلك يَوْمٌ خيرُه قبل شرّه تغيّب واشِيه وأقصر عاذِلُهْ

قال الأصمعيّ : قال لى خلف الأحمر : ويحه فما ينفعه حين يئولُ إلى الشرّ ! قلت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : خيره دون شره ، قلت : والله لا أرويه بعدها إلا هكذا .

عُجْتُ : ملت . مَرْحة : شجرة . كثيفة: ملتفة الأغصان. وريقة : كثيرة الورق . والأفنان : الأغصان ، أو ما تفرّع منها . وما أحسن ما نظم فى الفرار من الحرّ الى الظل المنازى كاتب مروان صاحب ميا فارقين حين قال :

وَقَانَا وَقْدةَ الرَّمْضاء روضٌ سقاه مضاعف الطّل[3] العميمِ

(١) ديوانه : ٤٧٩ ، مع اختلاف في الرواية . (٢) نفح الطيب ٤ : ٢٨٨ .
(٣) نفح الطيب : الغيث .

قصـــدنا دَوْحَهُ فحنا علينا   حُنُوَّ الوالداتِ على الفطيمِ
يراعى الشمس أنَّى قابلَتْنا   فيحجبها ويأذنُ للنسيمِ

وهذا ما يتعلق بالغرض ، وزاد فيه معنى بديعا بقوله :

ويسقينا على ظمإٍ زلالاً   ألذَّ من المدام مع الـكريمِ[٢]
يَرُوع حصاه حالية الغَوانِى   فتلمس جانب العقد النظيمِ

تأمّل هذه الصفة تجدها غاية فى بابها ، وتخَيّلْ هذه الجارية كيف نظرت بياض الحصَى فى المـاء ، فارتاعت وحسبت عقدها تناثر ، فالتمسته بيدها .

وقال الد بى فأحسن :

أدِرْها ففقد الّلوم إحدى الغنائمِ   ولا تخش إنمَّا لستَ فيها بآثمِ[١]
ولا عيش إلا فى اعتصامٍ بقهوة   يرُوح الفتى منها خضيبَ المعاصِمِ
ولا ظل إلا ظلّ كرْم معرّشٍ   تغنِّيك من قُطْرَيْه وُرْقُ الحمائمِ
سماءغصونٍ تحجب الشمس أن ترى   على الأرض إلاَّ مثل نثرِ الدَّراهِمِ

وقال ابنُ لُبّال فى متنزَّهٍ بشَريش يسمى أجّانة :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدتْ   زمان ربيع أو زمان عصيرِ[٢]
مذانب ماء كاللّجين على حصًى   كـدرٍّ بلا ثقب أغرَّ نثيرِ
ورمل إذا ما ابتلّ بالمـاء عِطفُه   غنِينا به عن عنـــبر وذَرور
وتين كما قامت على حَلَماتهـا   نهودُ عذارى الزنج فوق صدورِ
كأن القباب الخزّ فيها عرائسٌ   على سُرُرٍ مفروشة بحريرِ

وله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

كأنّ جنَى القوطىّ فى رونَق الضُّحَى   وقـد حملته راحـة الورَقَاتِ

---

(١) ديوانه ٢٤٢ ، ٢٤٣

(٢) النفح : من المدامة للنديم .

نهود عذارى زُحزحت عن مقرّها فقامت على الأطراف والحلمات

قوله : استروح نفسى ، أى استنشقت الريح فتنفّست فيه من التعب ، أى ما سكنتْ عنّى أنفاس التعب ، واستروحت الشىء ، وجدتَ ريحه . سائح : عابر يسيح فى الأرض ، أى يمشى فى جهاتها ، ويقال للمكدى : سائح ، لأنه يسيح فى طلب الكدية . ينتجع نجعتى ، أى يقصد قصدى فى طلب الراحة . والانتجاع : طلب المرعَى . يشتدّ : يجرى . بُقعتى : موضعى . انعياجه : انعطافه . معاجى : مكانى الذى عجت إليه . مفاجى : آتٍ على غفلة . يتصدّى: يتعرّض . منشدا : دالاً على الشىء . تقول : نشدت الضالة: طلبتَها ، وأنشدتها: دللت عليها طالبها . مرشدا : هادياً للطريق . ساحتى : موضعى الذى أنا فيه . ألفيته : وجدته . متّشحًا بجرابه ، أى جعل جرابه موضع الوشاح . أهبة تجوابه ، أى عدة جوَلانه . ورد : وصل . ماشرد : ما نفر ، يعنى الضالّة . استوضحته : سألته أن يوضّح لى أمره .

* * *

فأنشد بديهاً ، ولم يَقُلْ إيهاً :

قُلْ لِمُستَطْلعٍ دَخِيلةَ أَمْرِى لكَ عِنْدِى كرامَةٌ وَعَزازهْ

أنا ما بين جوبِ أرضٍ فأرْضٍ وَسُرَى فِى مفـــازةٍ فَمَفَازَهْ

زادِىَ الصَّيدُ والمطية نَعْلِى وَجهَازى الجرابُ والعُكَّازهْ

فإذا ماهبطتُ مصراً فَبيْتِى غُرْفَةُ الخانِ والنَّدِيمُ جُزَازهْ

لَيسَ لي ما أساءِ إن فاتَ أو أحزنُ إن حَاوَلَ الزَّمانُ ابْتِزَازهْ

غير أنى أبيتُ خِلْوًا مِن الهَمِّ ... وَنَفْسِى عن الأَسَى مُنحازَهْ

أرقدُ اللَّيْلَ ملءَ جفنى وقَلبى ... باردٌ من حَرارَة وَحزَازهْ

لا أبالى من أىِّ كأْسٍ تفوّقـتَ ولا ما حلاوَةٌ من مَزَازَهْ

لا ولا أستجيزُ أنْ أجعل الذلَّ ... مجازاً إلى تَسَنِّى إجازهْ

وإذا مَطْلَبٌ كسَا حُلّةَ العا ... رِ فبُعدًا لِمَنْ يَرُومُ نجاَزه

وَمتى اهتزَّ للدناءةِ نِكسٌ ... عَافَ طبعى طباعَهُ واهْتِزَازهْ

فالمنايا ولا الدنايا وخيرٌ

مِنْ ركوبِ الخنا ركوبُ الجِنَازهْ

* * *

بديهاً : مرتجلا من غير فكرة . المستطلع: الذى يحب أن يطّلع على الأمر دخيلة أمرى : باطنه . عزازة : عزة ورفعة . جوب : قَطْع . سرى: مشى الليل . مفازة ، قال الأصمعى : هىَ المهلكة سميت بذلك تفاؤلا لسالكها بالفوز ، كما سُمِّىَ اللديغ سليما تفاؤلاً بالسلامة ، قال ابن الأعرابى: هى مأخوذة من فوّز الرجل ، إذا هلك ، والعرب تسمى النعل مطيّة مجازاً حيث يستعان بها على قطع المفازة . وأنشد أبو علىّ الفارسى رحمه الله :

رَوَاحِلُنا ستٌّ ونحن ثلاثة ... نجنِّبهنّ الماء فى كلِّ مَشْرَبِ(١)

وقال أبو نواس :

إليك أبا العباس ياخيرَ مَنْ مشى ... عليها امتطينا الحضرمىّ الملسَّنَا(٢)

قلائِصَ لم تعرف حنيناً إلَى طَلاً ... ولم تدْرِ ماقرع الفنِيق ولا الهِنَا(٣)

---

(١) شرح العكبرى ١ : ٣٠٣ من غير نسبة . وفيه : « من غير منهل » .

(٢) ديوانه ٧٦ ، شرح العكبري ١ : ٣٠١ . (٣) الهنا : القطران .

وأخذه أبو الطيب فقال :

لا ناقتى تقبل الرديف ولاَ بالسَّوْط يوم الرّهان أُجْهِدُها[1]
شِراكها كُورها ومِشْفَرُها زمامُهـا والشُّسُوع مِقْوَدُها
أشـدّ عصف الرياح يسبقه تحتِيَ من خَطْوِها تأيُّدُها

وكان السَّروجىّ أكثرَ عدّة من أبى الشمقمق[2] فى قوله :

كلّمَا كنتُ فى جموع فقالوا قرّبوا للرّحيل قرَّبْتُ نعلى[3]
أترى أنّنى من الدهر يوماً لى فيه مطية غـير رِجْلِى
حَيثما كنتُ لا أخلف رَحْلاً مَنْ رآنى فقد رآنى ورحلى

ومن أبيات المعانى فى نعل :

وسوداء المناسب يمتطيها أخو الحاجات ليس له نَكيرُ
فيحملُها وتحمـله وفيهـا منافع حيث يبتدر السَّفِيرُ
على أن السّفار ينال منها فيرقعها إذا جَدّ المسيرُ

السفير : ورق الشجر ، والمِسْفَرة المكنسة . والجهاز : مايحتاج إليه المسافر من العِدّة . والعُكّازة : العصا . مصرا : بلدا . الخان : الفندق . والنّديم : الصاحب على الشّراب، وجُزازة، قيل : إنه خليعٌ مشهور عندهم ، وهذا لا يبعد . وأخبرنى الأستاذ أبو ذرّ وغيره أنها القراطيس الصغار، يكتب للناس فيها صفة حاله فيستجديهم بها ، فيريد أن نديمه إذا دخل بلدة قطع من قرطاس يجزّها ورقةً كبيرة، يكتب فيها بما يجلب ممّا يُؤكل ويشرب، والجزازة: مايسقط من الشىء تجزّه، كالقصاصة ما يسقط مما يُقصّ ، والنُّحاتة والقُلاَمة وغير ذلك ، فلما كانت القطعة الصغيرة تسقط من الورقة سمَّوْها جُزازة ، ثم اشتهر عندهم ماصغر

(١) ديوانه ١ : ٣٠١
(٢) اسمه مروان بن محمد.
(٣) كتاب « شعراء عباسيون ٣٥ ، والعقد ٣ : ٤٤ / ٤ : ٢٥٥ .

من القراطيس بهذا الاسم . قال الفنجديهى : جزازة ، أى قطعة كاغد عليها شىء مكتوب ، والجزازة : ما يقطع من الشىء . قال : وأنشد بعضهم :

وقالوا كيف حالُك قلتُ حالِى ... تُقضى حاجتى وتفوت حاجِى
نديمى هرَّتى وسميرُ أنسى ... دفاتيرى ومعشوقِى سراجى

أساء : أصاب فيه بسوء ، وأحزن عليه . حاول : طلب . ابتزازه : تجريده وإزالته . خِلْو : فارغ البال الأسى : الحزن . منحازة : متنحية ومنعزلة ومنقبضة . وانحاز : انعزل . ملء جفنى : أى أرقد هنيئاً لقلة همى، فتمتلىء عينى بالنوم ، وهو من قول المتنبى :

* أنام مِلْءَ جُفونى عن شوارِدِها[1] *

والحزَازة فى القلب : تأثير الهمِّ كأنه يحزّ فيه ، أى يقطع . وقال الشاعر :

إذا كان أولاد الرجال حزازةً ... فأنتَ الحلالُ الحلو والبارد العذبُ

والحزازة هنا : الولد السوء ، ولا شىء أنكى للقلب من همّه ، والحزازة أيضاً الحِقْد والغيظ ، وفى قلبى منه حزازة ، أى حرقه وحزن . تفوّقت ، أى شربت فُواقها ، وهو أخذه مافيها شيئاً فشيئاً ، ومابين عَبّة وعَبّة فواق ؛ وأصله مابين حَلْبة من الضّرع وحلْبة . مزازة : بين الحموضة والحلاوة . مجازاً : طريقا يجاز عليه . تسنّى : تيسر . إجازة : عطية وصلة . يروم : يطلب . نجازه : قضاؤه وتمامه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

أشدُّ من عَيْلَةٍ وجُوع ... إغضاء حرّ على الخضوعِ
فقنع من الدّهر قوتَ يوم ... وأنت بالمنزلِ الرفيعِ
ولاَ ترد ثروة بمالٍ ... يُنالُ بالذلِّ والخشوع

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٧ ، وبقيته .

* ويَسْهَرُ القَوْمُ جرّاها ويختصِمُ *

وارْحَلْ إذا أجدبَتْ بلاد   منها إلى الخِصْب والربيع

الدناءة : الفعل القبيح. نِـكس: دنىء . عاف : كرِه. اهتزازه: طربه وخفته .
ولبعضهم فى هذا المعنى :

ويجتنب اللبيبُ ورود ماء   إذا كان الـكلابُ يَلغنَ فيهِ
كما سقط الذباب على طعامٍ   فتتركه ونفسُك تشتهيـــه

وقال أبو محمد المصرىّ يخاطب المعتمد وقد فرّ منه :

رحلتُ وفى القلب جَمْرُ الغَضَى   وهجرِى لـكمْ دُون شكٍّ صوابُ
كما تهجرُ النفسُ حُرَّ الطعام   إذا ما تساقط فيـــه الذبابُ

المنايا ولا الدنايا ، أى إتيان المنية ولا فعل الدنية ، قال أوس بن حارثة :
مَلَك المنيّة ولا الدنية ، فى وصية طويلة ، والمنية معناها المقدورة المحـكوم بها ،
وهى مفعولة من المُـنَى وهو المقدَّر والقدَر ، يقال : مَنَّاك الله بما يسرّك ، وأصلها
ممنووة فصُرفت مفعولة فعيلة ، كمطبوخ وطبيخ ، وأدغمت الياء فى الياء . الخنا :
الفساد . الجنازة : النعش .

* * *

ثمَّ رَفعَ إلىَّ طَرْفَهُ ، وَقَالَ : لأمرٍ ماجَدَعَ قَصيرٌ أنفَهُ ، فأخبرتُهُ
خبَر ناقتى السَّارِحَة ، وما عَانيتُهُ فى يَوْمِي وَالبَارِحَه ، فقال : دَعْ
الالتفات ، إلى مافات ، والطِّمَاحَ إلي ماطَاحَ ، وَلاَ تَأْسَ عَلَى ما ذَهبَ ،
ولو أنَّهُ وادٍ مِن ذَهبٍ ، وَلاَ تَستَمِلْ مَنْ مَالَ عن رِيحك ،
وأضْرِمْ نَارَ تبارِيحكَ ، ولو كانَ ابْنَ بُوحِكَ ، أَو شقيقَ رُوحِكَ ،
ثمَّ قَالَ : هَلْ لَكَ فِي أن تَقيلَ ، وتتحامَى القالَ والقيل ؟ فإنْ

الأبْدَان أنضاءِ تَعب ، والهاجرةَ ذاتُ لَهَبٍ ، ولَنْ يَصْقُلَ الْخاطِر ، وينَشِّطَ الْفَاتِرِ ، كَقَائلَةِ الْهَوَاجر، وخصوصاً فى شَهْرَىْ نَاجِر، فقلْتُ : ذاكَ إليكَ ، وما أريدُ أَنْ أشُقَّ عليك ، فافترشَ التُّرْب واضطجَعَ ، وأظهَرَ أن قَدْ هَجع، وارتفقْتُ عَلَى أنْ أحْرُس ، ولا أنعَس ، فأخذَتْني السِّنَة ؛ إذْ زُمَّتِ الألْسِنة ، فَلَمْ أُفِقْ إلاَّ واللَّيْلُ قَدْ تولّج ، والصُّبْحُ قَدْ تبلّجَ ، ولا السَّرُوجىَّ ولا المُسرَج .

* * *

قوله: «لأمرٍ مّا جَدَع قصيرأنفه» أى ماجدع قصيرأنفه إلا لمعنى ، وكذلك أنت ماخرجت فى هذا الوقت لشدّة حرّه إلى هذه القفار المخوفة إلاّ لمعنى ، فأخبرنى به ، فلذلك قال: «فأخبرتُه خبر ناقتى»، وأيضاً فإنّ أوّل الكلام يدلّ عليه ، لأنه قال : فاستوضحته من أين أثره ، فأخبره السَّروجى فى الشعر بقصته ، فلما أكملها سأل ابنَ همام عن قصته ، فأخبره بالناقة الضائعة. والسارحة : التى سرحت ، أى مشت حيث شاءت . عاينته : شاهدته ورأيته . الالتفات : النظر إلى جهة . والطماح : ارتفاع العين بالنظر وطاح : ذهب وتلف . لا تأس : لا تحزن . ولاتستمل : تستدع حبّه وأن يميل إليك بودّه . مال : انحرف . عن ريحك : عن طريقك وهواك . أضرم : أوقد . تباريحك : أحزانك . تقيل : تنام فى القا تتحامى : تتباعد عنها . أنضاء : جمع نِضْو وهو المهزول ، أى قد أهزل التعب أبداننا . الهاجرة : القائلة سُمّيت هاجرة لأنها تَهْجُر البرد ، أو لأنها أكثر حرًّا من سائر النهار ، يقال:فلان أهجر من فلان ، إذا كان أضخم منه . لهب : نار .

وشهرىْ ناجر: يونيه ويوليه ، وهماأشد الحرّ. قال الأزهرىّ: هما حَزيران

وتمّوز ، النّجران : العطشان . ابن سيده : ظن قوم أنهما حَزيران وتموز ، وهذا غلط ، وإنما هما وقت طلوع نجمين من نجوم القيظ .

الليث : كل شهر فى صميم الحرّ فاسمه ناجر ، لأن الإبل تنجرّ فيه ، أى تشتدّ عطشاً حتى تيبس جلودها ، فلا تـكاد تروى من المـاء .

هجع : رقد . وارتفقت : توكأت على مرفقى . السِّنة : النوم القليل . زُمّت : ربطت ومنعت . فأولج: دخل . تبلّج : أضاء وظهر . المسرج : الفرس عليه سرجه .

* * *

فبتّ بَلَيْلَةٍ نابغيّة ، وأحزانٍ يَعقُوبيَّة ، أُساوِرُ الوُجُوم ، وأساهِرُ النُّجوم ، أفـكِّرُ تارَةً فى رُجْلَتى ، وأخرَى فى رَجْعَتى ، إلى أنْ وَضحَ لى عِنْدَ افترارِ ثَغرِ الضَّوْء فى وَجْه الجوّ ، راكِبٌ يخِدُ فى الدّوّ ، فألمتُ إلَيْهِ بثوْبى ، وَرَجَوْتُ أنْ يُعرِّج إلى صَوْبى ، فلَمْ يَعْبَأْ بالماعِى ، ولا أوَى لالْتِياعِى ، بَلْ سارَ على هِينَتِهِ ، وأصْمانى بسَهْمِ إهانَتِهِ ، فأوفضتُ إلَيْهِ لأسْتَرْدِفَه ، وأحْتَمِلَ تَغطرُفَهُ . فلمّا أدْرَكْتُهُ بَعْدَ الأيْن ، وأجلْتُ فيه مَسرَحَ العَيْنِ ، وَجدْتُ ناقتى مطيتَه ، وضالّتِى لُقْطتَه ، فمَا كـذَّبْتُ أنْ أذرَيْتُه عَنْ سَنامِهاَ ، وجاذَبْتُه طرَفَ زمامِها ، وقلتُ له : أنا صاحِبُهاَ وَمُضِلُّهاَ ، ولِى رِسْلُهاَ ونَسْلُهاَ ، فلا تـكُنْ كأشعب ، فتُتْعِبَ وَتَتْعب .

* * *

أساور : أواثب . الوجوم : السكوت على غيظ ، والمعنى : أنّ الغيظ إذا اشتدّ عليه عالج كَظْمَه ودفعه عن نفسه ، فكأنه يواثبه . أساهر : أسامر ، والسهر امتناع النوم . الرُّجْلة ، بضم الراء : القُدْرة على المشى ، ورجل يرجل رجلاً ورجلةً، إذامشى فى السفر وحده بلا دابة. وضح :تبيّن. افترار:انكشاف، وافترّ كشف أسنانه عندالضحك . يخد : يسرع . الدوّ : الصحراء، والراكب: من يركب البعير . والجوّ : نواحى السماء . يعرّج إلى صوبى : يميل إلى جهتى وقصدى . يعبأ : يبال . إلماعى : إشارتى، وهومصدر ألمعت إليكّ ،أى أشرت إليك ، فإذا بعد عنك الرجل فلم يسمع صوتك جردت ثوبك وأشرت إليه ، والإشارة بالثوب هى الإلماع . أوى : أشفق . التياعى : تحرّقى وتوجعى . هينته : سكينته . أصمانى : أصاب مقتلى . إهانته : احتقاره . أوفضت : أسرعت. أستردفه: أطلب إليه أن يُرْدفنى . تغطرفه :تكبّره ، والغِطْريف: السيّد العظيم. الأبن : الفتور . أجلت : صرفت . مسرح : موضع تسرحها وجَو لانها بالنظر . واللقطة : ما يجده الإنسان قد سقط لغيره ، فيأخذه ويلتقطه . أذريته : رميت به عنها . مضلّها ، أى الذى ضلّت له . رِسْلها : لبنها .

[ذكر أشعب وبعض نوادره]

أشعب : الطماع ، رجل مدنىّ صاحب نوادر وملاهٍ وله صنعة فى الغناء ، وكان أبخل الناس وأكثرهم طمعاً. ويقال فى المثل . أطمَع من أشعب ، ولهذا قال الحريرىّ : فلا تك كأشعب، أى لا تطمع فى أخذ الناقة فتكون مثله فى طمعه فى مال غيره . فتتعب من تعلقت له بشىء ، وتتعب،أنت معه فى المخاصمة .

ومن حكايات أشعب : قال سالم بن عبد الله بن عمر لأشعب : ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتسارّان فى جنازة إلا قدّرت أن الميت أوصى لى بشىء .

وقال له ابن أبى الزناد : ما بلغ من طمعك ؟ قال : ما زفّت بالمدينة امرأة ، إلا كنست بيتى رجاء أن يُغلط بها إلىّ.

وكانت عائشة بنت عثمان كَفَلَتْه مع ابن أبى الزناد ، فقال أشعب : تربّيت معه فى مكان واحد ، وكنت أسفل ويعلو حتى بلغنا ما ترون .

وقيل لعائشة : هل آنستِ من أشعب رشداً ؟ فقالت : أسلمته منذ سنة فى البزّ ،فسألته بالأمس : أين بلغت فى الصناعة ؟ فقال : يا أمّه ، قد تعلمت نصف العمل وبقى نصفه ، تعلّمت النّشر فى سنة ، وبقىَ علىّ تعلّم الطىّ .

وسمعته اليوم يخاطب رجلا وقد ساومه قوس بندق ، فقال : بدينار ، فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت عليها طائراً وقع فى حجرى مشويًّا مع رغيفين ، ما اشتريتُها بدينار، فأىّ رشد يؤنس منه !

ونظر إلى رجل يعمل طبقاً ، فقال له : أسألك بالله إلاّ ما زدتَ فى سَعته طوقا أو طوقين ، فقال له الرجل : ما معنى ذلك ؟ فقال : لعلّه أن يُهْدَى إلىّ يوما فيه شىء :

وقيل له : أرأيت أطمع منك ؟ قال : نعم ، خرجت إلى الشأم مع رفيق لى ، فتلاحينا عند دير فيه راهب ، فقلت له : الكاذب منّا ، أيْرُ الراهب فى استه ، فنزل الراهب من صومعته وقد أنعظ ، فقال : أيكما الكاذب ؟ ثم قال: دعوا هذا ، امرأتى أطمع منى ومن الراهب ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إنها قالت : ما يخطر على قلبك شىء يكون بين الشك واليقين إلاّ وأنا أتيقّنه ، ودعوا هذا ، شاتى أطمعُ منّى ومنها ، قيل : وكيف ؟ قال : صعدت على سطح، فنظرت إلى قوس قزح فظنّته حبل قتّ ، فأهوت إليه فسقطت فاندقت عنقها .

وقيل له : هل رأيت أطمع منك ؟ قال : كلبة آل فلان ، رأت رجلا يمضغ عَلَـكاً فتبعته فرسخين ، تظن أنه يأكل شيئاً .

وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ قال : أضجرنى الصبيان يوماً ، فأردت أن أشغلهم عنّى ، فقلت لهم: إن بموضع كذا عرساً، فامضوا نحوه . فلما ذهبوا ظننت أن ثَمّ عُرْساً ، فتبعتهم .

وقال ابن شرف :

وما بلوغ الأمانى فى مواعدها إلا كأشعب يرجو وعدَ عرقوبِ [(١)]
وقد تخالف مكتوب القضاء به فكيف لى بقضاء غير مكتوبِ .

وقال ابن حجّاج :

فديتُ مِنْ نفسىَ مَنْ كلّما لقيته والحق لا يغضبُ
فقلت : يا عرقوب أطمعتَنى فقال: لُمْ نفسك يا أشعبُ

* * *

فأخذَ يَلْذَعُ ويَصِى ، ويَتّقِحُ ولا يَستَحْيِى ، وبينا هو ينزو ويَلِين ، ويَستأسِدُ ويَستكين ؛ إذ غشينا أبو زيد لابساً جِلْدَ النّمِر ، وهاجماً هجوم السَّيْلِ المنهمر ، فخفتُ واللهِ أن يكون يَوْمُه كأمسه ، وبَدْرُه مثلَ شَمْسه ، فألحقَ بالقارظيْنِ ، وأصيرَ خبَراً بَعْدَ عَيْنٍ . فلَمْ أرَ إلاّ أنْ أذكّرْتُهُ العهود المنسيّة ، والفعلة الإمسيّة ،

---

(١) نقله فى التنف ٩٣

وناشَدْتُه اللهَ : أَوَاقَى للتّلافى ، أم لما فيه إتْلافِى ؟ فقال معاذ الله أن أجْهِزَ عَلَى مَكْلومِى ، أو أصِلَ حَرُورِى بِسَمُومِى ؛ بل وافيتُك لأخبُرَ كُنْه حالك ، وأكون يمينا لشمالك . فسكن عند ذلك جَاشى ، وانْجَاب استيحاشِى ، وأطلعتُه طِلْعَ اللِّقحة ، وَتَبَرْقَعَ صَاحِبِى بالْقِحَة .

* * *

قوله : يتّقِح ، أى يبدى الوقاحة : ينزو : يقفز . يستأسد : يتشبّه بالأسد فيتقوّى . يستكين : يذلّ ، يريد أنه كان مرة يتقوّى ومرّة يذلّ . غشينا : جاءنا فجأة . لابسا جلد النمر ، أى وقحا شجاعا . هاجما : آتيا على غفلة . المنهمر : الكثير الانصياب ، وتقدّم أثر خبر بعد عين ، الإمسية : المنسوبة إلى أمس . ـ الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ النسبة إلى أمس إمسىّ ، وهو من شاذ ـ النسب ـ ناشدته : حلفته . أُوافَى : أجاء وأوتَى . التلافى : التدارك قبل فوته . معاذ الله ، أى أستجير بالله مما ذكرت . أجهز : أتم عليه . مكلومى : مجروحى ، وفى أخبار علىّ رضى الله عنه أنه ما أجهز على مكلوم قط . أخبر : أعلم . كنه : حقيقة جاشى : نفسى ، قاله ابن سيده : وقيل : الجأش القلب ، وقيل : رباطته وشدّته عند الشىء يسمعه ، ما يدرى ما هو . وقيل : جاشى : رَوْع قلبى واضطرابه عند الفزع . واستوحش من الشىء : لم يأنس به . انجاب : انقشع وزال . أطلعته طِلْعها ، أخبرته سرها وعلوت طِلْع الأكمة ، أى مكانا يطلع منه على ما حولها ويُشرف عليه والقحة : صلابة الوجه ، كأنه جعل منها بُرقعا على وجهه .

* * *

فنظر إليه نَظَرَ ليث العرِّيسة ، إلى الفريسة . ثمّ أشرع قِبَله الرّمح ، وأقسم له بمن أنار الصُّبح ، لئن لم ينجُ منجى الذُّبَابِ ، ويَرْضَ مِنَ الغَنِيمة بالإيابِ ، ليوردَنّ سِنانه وَرِيدَه ، وليفجعَنّ به وليدَه وَوَدِيدَه . فنبذ زمام الناقة وحاصَ ، وأفلت وله حُصاص ، فقال لى أبو زيد : تسلّمْها و نسنَّمها ، فإنها إحدى الْحُسْنَيَيْن ، وويلٌ أهون من وَيْلَيْنِ .

قال الحارث بن همام : فحِرْتُ بين لومِ أبى زيدٍ وشُكرِه ، وزنة نفعِه بضرّه . فكأنه نُوجىَ بذاتِ صدرِى ، أو تكهّن ما خامرَ سرّى . فقابلنى بوجهٍ طلِق ، وأنشد بِلسانٍ ذليق :

يا أخى الحاملَ ضَيْمِى دون إخوانى وقَوْمِى
إن يكن ساءك أمسى فلقد سرّك يومى
فاغتفر ذاك لهذا واُطرّحْ شُكرِى ولَوْمى

ثم قال : أنا تَئِقٌ ؛ وأَنت مئِق ، فكيف نتّفق ! وولّى يفرى أديم الأرض ، ويركضُ طَرْفَه أيّما ركْض ، فما عددْتُ أن اقتعدت مَطيَّتِى ، وعُدْت لِطيّتى ، حتى وصلتُ إلى حِلّتى ، بعد اللَّتيّا والّتى .

* * *

العرِّيسة : مأوى الأسد . والفريسة : الصيد يفترسه ، أى يكسر عنقه ، وهى أكيلة الأسد . أشرع : صوّبَ . أنار : نوّر . ينج منجَى : يخلص مخلص ، وشبه خلوصه بخلوص الذباب ، لأنه يقع على الجسد أو الطعام فيتقذّرُ الإنسان

بقرْه فيشرده ، وهو واجد عليه ، فينجو الذباب ، سالما بعد أذايته .

[مما قيل من الشعر فى الذباب والبعوض]

وأخذه من قول إبراهيم بن العباس الصولى لمحمد بن الزيات :

كنْ كيف شئت وقُلْ ما تشا ... وأبرِقْ يمينا وأرعِدْ شمالا [1]
نجا بك قومك مَنْجَى الذباب ... حمَتْه مقاذِيره أن يُنَالا

وأخذه إبراهيم من قول الآخر :

أسمعنى عبدُ بنى مسمعٍ ... فصنْتُ عنه النَّفْسَ والعِرْضا [2]
ولم أُجبْه لاحتقارى له ... ومَنْ يَعَضّ الكلب إن عضا !

ومن قول الآخر :

قوم إذا ما جنى جَانيهمُ أمنوا ... لِلُؤْمِ أحسابهم أن يُقْتَلُوا قَوَدا

وهو كثير، وإنما اخترع إبراهيم لفظ الذباب .

وعرّض ـ أى بعض الأدباء ـ على صاحب له بمحضر جماعة شعرا ، فجعل يعرِض عن محاسن الشعر ويتتبع مواضع النقد حسدا ، فقال له صاحب الشعر : أراك كالذباب تُعرِض عن المواضع السليمة ، وتتبع قروح الجسد .

وقال ابنُ الرومىّ :

تأمَّل العيبِ عيبُ ... ما بالذى قلتَ ريبُ
والشِّعر كالشَّعر فيه ... مع الشَّيْبَة شيبُ

---

(١) ديوانه ١٦٣ .

(٢) إنباه الرواة ١ : ١٤٠ وفيه : « شاتنى » .

فليصفح الناس عنـه   فطعنهمْ فيـه عيبُ

ومنكيات الذباب لابن آدم كثيرة ، منها نزوله على الوجه عند النوم ، فيلاقَى منه بلاء ، أو فى الصلاة فيصير أضرّ من إبليس للتشاغل ، وأما إذا تساقط فى الطعام فتنغيصه وتنفيره للطباع أضرار لا تخفى ،وقد قدّمت آنفا فى ذلك من الشعر شيئاً ، ولذلك تضرب به العرب المثل فتقول : أجرأ من ذباب ، لأنه ينزل على الأسد والأمير .

ونذكر هنا ما هو أشدّ أذاية منه وهو البعوض ، ولولا أنّ أيامه قلائل لأخلى البلاد ، قال ابن رشيق يتشكّاه :

يا ربّ لا أقوى على دفع الأذى   وبك استعنت على الضعيف المؤذِى[1]
مـالى بعثتَ إلىّ ألفَ بعوضـة   وبعثتَ واحـدةً إلى نمروذِ !

وقال ابن شرف :

لك منزل كملت بشارته لنـا   للّهو لـكن تحت ذاك حديث[2]
غنّى الذباب وظلّ يزمِر حـوله   فيه البعوض ويرقص البرغوث

وقال آخر :

ليلُ البراغيث والبعوضِ   ليلٌ طويلٌ بلا غموض
فذاك ينزو بغـير رقصٍ   وذا يُغَنِّى بلا عروضِ

وقوله : ويرضى من الغنيمة بالإياب ، منقول من قول امرىء القيس ، وقد

---

(١) نقله فى التنف ٣٠

(٢) نقله فى التنف ٩٤ . وينسبان لابن رشيق أيضاً .

طوّفت ... [1] البيت . وهومشهور . يوردنّ : يُدْخلنّ . وريده : صفحة عنقه ، والوريدان : العرقان يجرى فيهما النَّفَس ، وهما فى مقدّم العنق ، وفجعته المصيبة فجعاً : أوجعته فهو فجيع ومفجوع ، وموت فاجع ، والفجيعة : الرزيّة الموجعة . يفجعنّ : يحزنّ . وليده : ابنه . وديده : صاحبه . نبذ : رمى . حاص مال إلى الهرب ، ويقال : حاص يحيص حيصاً ، إذا عدل ، ومنه ﴿ ما لهمْ مِنْ مَحِيص ﴾ [2] ، أى من ملجأ ومحيد . تسلّمها : خذها . تسنّمها : اركب سنامها . إحدى الحسنيين ، أى المسرتين ، ولو رجع له الفرس لـكملتاله ، فالناقة إحداهما . بذات صدرى : علم بحاجة نفسى و بحقيقة ما أضمرته فى صدرى . تكهّن : علم . خامر : خالط . طليق : مستبشر . ذليق : حديد . ضيمى : ذلّى وضرّى : ساءك : أحزنك . اطّرِحْ : اترك ، وقد أعاد هذا فى السابعة والثلاثين فقال : وهبها لا خطأ ولا إصابة .

وسأل الحطيئة عتيبة النهّاس العجلىّ فردّه ، فقال له قومه : عرّضتنا ونفسك للشر ، هذا الحطيئة ، وهو هاجينا أخبث هجاء ، فقال : ردّوه ، فردّوه ، فقال : كتمتَنا نفسَك ولك عندنا مايسرّك ، ثم قال له : مَنْ أشعرالناس ؟ فقال : الذى يقول :

ومَنْ يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِه
يَفِــــرْهُ ومنْ لا يتّق الشتْمَ يُشتَمِ [3]

فقال له : وهذه من مقدمات أفاعيك . ثم قال لوكيله : اذهب به إلى السوق فابتعْ له كلَّ ما أحبّ ، فعرض عليه الخزّ ورقيق الثياب ، فعرض هو إلى

---

(١) وهو فى ديوانه ٩٩ ، والبيت بتمامه :

وقدْ طوّفتُ بالآفاقِ حتّى رَضِيتُ من الغَنيمةِ بِالإيابِ

(٢) سورة إبراهيم ٢١ . (٣) ديوانه ٣٠ .

الأكسية الغلاظ فاشترى له ما أراد ، فرجع إلى عتيبة ، فقال له اسمع :

سُئِلْتَ فلم تبخلْ ولم تُعطِ طائلاً فسيان لاذمٌّ عليك ولا حَمْـدُ
وأنت امرؤ لا الجود منـــه سجيّة
فتُعْطِي وقد يُعْدِي على النّائل الوُجْدُ[1]

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهديّ ، فوجده عليلا ، فقبل منه المدحة وأناله ما يصلحه ، وقال له : عسى أن أقوم من مرضى فأكافئك ، فأقام شهراً ثم كتب له :

إنّ حراما قبــول مدحتنا وتركَ ما نرتجى من الصَّفَدِ[2]
كما الدنانير والدراهم فى الـــبيع[3] حرام إلاّ يداً بيـد

فقال لحاجبه : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

عاجلتَنا فأتاكَ عاجلُ برّنا قُلاًّ ولو أمهلتَنا لم نُقَلِّـلِ
فخذ القليل وكن كأنكَ لم تقُلْ ونكون نحن كأنّنا لم نفعل

وقال الخوارزمى :

ولمّا أن رأيت ابنىْ وليدٍ وبينهما اختلافٌ فى الفَعالِ
وهبت قبيح ذا لجميل هذا وأسلمت العواقب لّلليالى
إذا اليدُ أحسنت منها يمينٌ تسوّغنا لها ذنب الشّمال

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٢ : ١٦٨
(٢) الخبر فى زهر الآداب ٣٧٦ ، وفيه : « دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبي دواد »
(٣) زهر الآداب : « فى الصرف »

قوله يفرى : أى يقطع . أديم الأرض : وجهها . يركض طِرْفه : يجرى فرسه . أيّما ، صفة لمصدر محذوف ، وفيه معنى التعجب من كثرة جريه ، تقديره : يركض ركضاً ، أىّ ركض . اقتعدت : ركبت القَعُود ، وتقدمت في الأولى . ماعدوت : ماجاوزت ، أى ما عملت شيئاً قبل القعود على الناقة. حِلّتى: موضعى الذى هو سكنى ونزولى . وحلّ : نزل .

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربيــة

قوله : « ريّق زمانى وراثقه » يعنى أوله ، وقد يخفف فيقال « ريْق » .

وقوله : « آخذ أَخْذَ نفُوسِهِم الأبيّة » ، يعنى أقتدى بهم ، يقال : أخذه ، بكسر الهمزة وفتحها .

والهجْمة ، نحو المائة من الإبل .

والثلّة : القطيع من الغنم .

والراغية : الإبل . والثاغية : الشاء ، ومنه قولهم : ماله راغية ولا ثاغية ، أى لا ناقة له ولاشاء .

وقوله : « أرداف أقيال » ، أى يخلفُون الملوك إذا غابوا .

وقوله : « أبناء أقوال » ، أى فصحاء ، يقال للمِنْطِيق : إنه ابن أقوال .

وقوله : « فتدثّرت فرساً محضاراً » ، التـدثُّر : الوثوب على ظهر الفرس،والمِحْضار والمِحْضير : الشديد العَدْو ، مأخوذ من الُحضْر ، وهو العدو .

وقوله : « أقترى كلّ شجراء مرداء » الاقتراء : تتبّـع الأرض . والشجراء : ذات الشجر ، والمرادالخالية من النبات ، ومنه اشتقاق الأمْرَد ، لخلوّ وجهه من الشّعر .

وقوله : « حَيْعل الدّاعى إلى صلاته» ، يعنى قول المؤذن : حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح ، والمصدر منه الحيعَلة ، ومثله من المصادر الهيلَلة والحمْدلة .

والحوْقلة والبسْملة والحسْبَلة والسَّبْحلة والجعْلَفة ؛ فالهيللة حكاية قول : لا إله إلاّ الله . والحمدلة : حكاية قول : الحمد لله . والحسبلة حكاية قول : حسبنا الله ، والسبحلة حكاية قول : سبحان الله . والجعلفة حكاية قول : « جُعلت فداك ».

وقوله : « فنزلت عن مَتْن الرّكوبة ، يعنى المركوبة ، يقال : ناقة رَكوب ورَكوبة وحَلوب وحَلوبة ، وقد قرىء : ﴿فمنها ركوبتهم﴾ .

والصَّهْوة : مقعد الفارس . والشَّحْوَة : الخطوة . والجزع : قطع الوادى عَرْضاً . وقوله : « صكّة عميّ » يعنى قائم الظهيرة ، وقد اختلف فى أصله ، فقيل: كان عمّى رجلا مغواراً ، فغزا أقواماً عند قائم الظهيرة ، وصكّهم صَكّةً شديدة ، فصار مثلاً لكل مَنْ جاء ذلك الوقت ، وقيل : المراد به الظّبى ، لأنه يسْدِر فى الهواجر ، ويذهب بصرُه ، فيصطك ، وكذلك الحية ، واصْطكاك الظبى بما يستقبله كاصطكاك الأعمى ، ثم صُغّر الأعمى تصغير الترخيم ، فقيل : عُمَىّ ؛ كما صغّروا أسْوَد وأزهر ، فقالوا : سويد وزهير .

وقوله : « وكان يوماً أطْوَلَ من ظلّ القناة » ، يوصف اليوم الطويل بظلّ القناة ، كما يوصف اليوم القصير بإبهام القطاة ، والعرب تزعم أنّ ظل الرّمح أطول ظلّ ، ومنه قول شبرمة بن الطفيل :

ويومٍ كظلّ الرمح قصّر طوله دم الزقّ عنا واصطفاق المزاهر[1]

وقوله : « أحرّ من دمع المقلات » المقلات هى المرأة التى لا يعيش لها ولد ، فدمعها أبداً حارّ لحزنها ، لأنه يقال : إن دمعة الحزن حارة ودمعة السرور باردة ، ولهذا قيل للمدعوّ له : أقرّ الله عينه ، مأخوذ من القرّ وهو البرد ، وقيل للمدعوّ عليه : أسخن الله عينه ، مأخوذ من السّخنة ، وهى الحرارة ، وقيل: إن إقرار العين مأخوذ من القرار ؛ فكأنه دعا له أن يُرزق ما يقرّ عينه حتى

---

(١) البيت فى المضاف والمنسوب ٦٢٦ ونسبه إلى ابن الطثرية .

لا تطمح إلى ما لغيره . وكانت الجاهلية تزعم أن : إن المقلات إذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدها ، ولهذا أشار بشر بن أبى خازم فى قوله :

تظلّ مقاليتُ النساء يطأنه يَقُلْن : ألا يُلْقَى على المرء مِئْزَرُ[1]

وقوله : « عَلِقَتْ بى شَعوب » يعنى المنية ، ولا يدخل هـذا الاسم أداة التعريف ، مثل دجلة وعرَفة .

وقوله : «لأغوّر تحتها إلى المُغَيربان» ، التقدير : النزول إلى القائلة ؛ كما أن التعريس : النُّزول آخر الليل للتهويم أو الاستراحة .

والمُغَيْربان ، تصغير المغرب ، وكان قياس تصغيره المُغيرب ، إلاّ أنّ العرب ألحقت آخره ألفاً ونوناً على طريق الشذوذ .

وقوله : « مضطغناً أهبة تَجْوابه » ، الاضطغان : أن يحمل الشىء تحت حضنه ، والاضطبان أن يحمله تحت ضِبْنه ، والضِّبْن : ما بين الإبط والكشح ، وكلاهما متقارب . ويقال : أول مراتب الحمل الإبط ثم الضّبن ، وهو أسفل الإبط ثم الحضن ، وهو عند الجنب .

والتجواب مصدر جاب ، وجميع المصادر التى جاءت على « تَفعال » هى بفتح التاء إلاّ قولهم : تِبْيان وتِلْقاء لاغير ، وزاد بعضهم : تِيصال .

وقوله: « عُجَرِى وبُجَرِى » يريد به جميع أمرى الظاهر والباطن ، وأصل العجر العُقَد الناتئة فى العصب ، والبجر : العُقد الناتئة فى البطن .

وقوله : « ولم يقل إيهاً» ، أى لم يأمرْنى بالكفّ، يقال : للمستزاد : إيه . وللمستنكف : إيهاً .

وقوله : « لأمرٍ ما جدع قصير أنفه » ، قصير هو مولى جذيمة الأبرش ، وكان جَدَع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ، ثم أتاها وأوهمها أن عمرو بن

(١) ديوانه ٨٨

عدىّ ابن أخت جذيمة ، هو الذى جدَع أنفه اتهاماً له بأنّه غشَّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصْدها ، فَحَظِىَ بهذا القول عندها حتّى جهّزته مراراً إلي العراق ؛ فكان يأتيه بالطُّرف منه إلى أن استصحب فى آخر نوبة الرجال فى الصناديق ، وتوصَّل إلى قتلها ، والأخذ بثأر مولاه منها . وقصته مشهورة .

وقوله : « ولو كان ابن بُوحك » يعنى ولد الصُّلب ، إشارة إلى أنه ولد فى باحة الدار؛ وهى عرْصتها ، وجمعها بُوح . وقيل : إن البوح من أسماء الذكَر.

وقوله . « فى شهرىْ ناجر» هماشهرا الحرّ ، وقيل : إنها حَزيران وتمُّوز . وأنكر ابن دريد هذا القول ، وقال : هما طلوع نجمين .

وقوله : « بت بليلةِ نابغية » أومأ به إلى قول النابغة :

فبتّ كأنّى ساورتنى ضَئيلة   من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقع[1]

وقوله : «فألمعت إليه بثوبى» يعنى أشرت إليه، يقال منه :ألمع ولمع بمعنى .

وقوله : « يلدغ ويصىء » ، هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو ، يقال : صاءت العقرب تصىء صِيئاًوصَيئاً بفتح الصاد وكسرها ؛ إذا صوّتت، وكذلك الفرخ ، وما أحسن قول ابن الرومى فى هذا المعنى :

تشكى المحبّ وتشكو وهى ظالمة   كالقوس تُصْمِى الرّمايا وهى مِرْنانُ[2]

وقوله : « ينزو ويلين» ؛ هذا مثل يضرب لمن يتعزز ثمّ يذلّ، ويقال : إن أصله أن الجدى ينزو وهو صغير فإذا كبر لان .

وقوله: « لابسا جلد النمر » ،هذا مثل يضرب للمتّقح الجرىء، لأن النمر أجرأ سَبُع وأقله احتمالاً للضيم ، ومن هذا اشتقاق قولهم : تنمّر ، أى صار مثل النَّمِر .

وقوله : « فألحق بالقارظين » الأصل فى القارِظ الذى يجنى القرَظ ، وهو النبات المدبوغ به ؛ والقارظان المشار إليهما أحدهما من عَنزة والآخر من النَّمِر

---

(١) ديوانه ٥٥   (٢) تمام المتون ٢٤٦ ، ٣٧٧

ابن قاسط ، خرجا يجنيان القَرَظ فلم يرجعا ، ولا عُرف لهما خبر ، فضُرِب بهما المثل لكل غائب لا يُرْجَى إيابه ، وإليهما أشار أبو ذؤيب فى قوله :

وحتّى يئُوب القارظان كِلاهما ويُنْشَرَ فى القتلى كليبٌ لوائِلِ[1]

وقوله : « حَرورى بسَمُومى » ، الحَرور : الرّيح الحارة ليلا ، والسَّموم : الريح الحارة نهاراً ، وقد يقام أحدهما مقامالآخر مجازاً . وقال بعضهم : الحرور يكون ليلا ونهاراً ، والسموم يختصّ بالنهار .

وقوله : « لَيْث عِرّيسة » يعنىمأْوَى السبع ، ويقال فيه . عرّيس وعِرّيسة بإثبات الهاء وحذفها ، كما يقال : غاب وغابةوعَرين وعَرينة . فأمّا الغِيل والخِيس فلم يلحقوا بهما الهاء .

وقوله : « أفلت وله حُصاص » هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد ما كاد يَهوِى فيها . وَالحُصاص : العَدْو ، وقيل إنه الضراط .

وقوله : « ويلٌ أَهْوَن من ويلين » ، .هذا المثل يضرب تسلية لمن ناله بعض المكروة ، ومثله قول الراجز[2] :

أبا منذرٍ أفنيت فاسْتَبْقِ بعضنا حنَانَيك بعضُ الشرّ أهون من بعض

وقوله : « أنا نئق ، وأنت مئق ، فكيف نتفق » ، هذا المثلُ يضرب للمتنافيين فى الخلق ؛ فإنّ النّئق هو الممتلىء غيظا ؛ مأخُوذٌ من قولهم : أتأقت الإناء ؛ إذا ملأْته . والمئق هو الباكى ؛ فكأن النئق ينزع إلى الشرّ لغيظه ، والمئق يضيق ذرعاً باحتماله ، ومثله قول بعضهم : أنا كلِف ، وأنت صلِف ، فكيف نأتلف !

وقوله : « لطيّتى » يعنى لقصدى ووجْهتى ، وقد يقال فيها : طِيَة ، بالتخفيف .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٤٤ .

(٢) البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ ـ هو من بحر الطويل ، وليس رجزا .

وقوله : « بعد اللَّتَيَّا والتى » اللَّتيا تصغير الَّتى، وهو على غير قياس التصغير المطرد ؛ لأنّ القياس أن يضمّ أول الاسم إذا صُغِّر ، وقد أُقِرّ هذا الاسم على فتحته الأصلية عند تصغيره ، إلاّ أنّ العرب عوّضته عن ضمّ أوله ، بأن زادت ألفا فى آخره ، وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه ، فقالت فى تصغير الذى والَّتى : اللَّذيا واللَّتيا ؛ تصغير ذا وذاك . وقد اختلف فى معنى قولهم : بعد اللتيا والتى ، فقيل : هما من أسماء الداهية . وقيل : المراد بهما بعض صغير المكروه وكبيره .

المقامة الثامنة والعشرون وهي السَّمَرْقَنْدِيَّة

حدّث الحارث بن همام قال : استَبْضَعْتُ فى بَعْضِ أسفاري الْقَنْد، وقصدتُ به سَمَرْقَند ؛ وكنت يومئذٍ قويمَ الشَّطاطِ ، جَمُومَ النّشَاطِ ، أرمي عَنْ قوْسِ المِرَاحِ ، إلى غَرضِ الأفراح ، وأستعينُ بماء الشّباب ، على مَلامِحِ السّراب ، فوافيتُها بُكْرة عَرُوبة ، بعد أن كابدتُ الصُّعوبة ، فسعيتُ وَما وَنَيتُ ، إلى أن حَصَل البيت . فلّما نقلت إليه قَنْدِى ، وملَكتُ قول عِنْدِى ، عُجت إلى الحمّام على الأثَر ، فأمطتَ عَنِّى وَعْثَاء السّفَر ، وأخذت فى غُسْلِ الجُمْعة على الأثَرِ .

٭ ٭ ٭

استبضعتُ : اتخذت بضاعة . القَنْد . عسل السكر .

[ذكر سمرقند]

و سَمَرْقَنْد : بلد عظيم من بلاد خراسان ، غزاها ملك من ملوك اليمن اسمه شمر ، فملَكها وهَدمها فسمِّيت شمر كند، بمعنى خرابة شمر ، ثُم عرِّبت فقيل : سمرقند ، وأهلها السُّغد . وفى رواية أنه لما انتهى إلى السُّغد قاتلهم أياماً تحوّلوا إلى مدينتهم نخاصرهم حولاً حتى افتتحها عنوة ، فقتَل منهم وسباً وهدمها ، ثم ثاب له رأى، فأمرَ ببنائها ، فبُنِيَتْ خيراً مما كانت ، ثم أمر بصخرة فبُنيت عند بابها ، وكتب عليها : هذا بناء ملك العرب لا العجم ، شَمِر الملك الأشمّ . ووُجد فى سورها لوْح من نحاس فيه كتاب ، وهو: «هذا ماأمر ببنائه شمر» ، وقد تقدّمَ

أن فرغانة من أعمالها التى هى آخر خراسان ، وبين سَمَرْقند وبغداد ستة أشهر، وتقدم أن مدينة سمرقند من أحسن بلاد الله تعالى ، ولما أشرف قتيبة بن مسلم عليها ، فرأى ما أدهشه لإفراط حسنها . قال : كأنها السماء فى الخُضْرة ، وكأنّ قصورها النجوم والزهرة ، وكأن أنهارَها المجَرّة .

* * *

قوله : قويم الشَّطَاط ، أى معتدل القامة : جموم النّشاط ، أى كثير القوة والخفة . والمراح : النشاط . و الأفراح : جَمع فرح ، و ماء الشباب : نَضارة الفتوّة و نعمة الصبا . ملامح السراب : مواضع يلمح السراب فيها ، أى يلمَع ويظهر ، فأراد أنه استعان بقوّة فتوّته على قطع الصحراء . وافيتها : أتيتُها .

[يوم عَروبة]

عروبة ، اسم يوم الجمعة ،سُمِّىَ بذلك لحسنه حيث كان موسما ، وهو من قولهم : جاريةٌ عَروب أى حسناء ، وكانت العرب تسمّى أيام الأسبوع بأسماء يجمعها بيتان وهما :

أؤمل أن أعيش وأنّ يومى ... بأوّلَ أو بأهْوَن أو جُبارِ (١)
أو التّالى دُبار فإنَ أُفُتْهُ ... فمؤنس أو عَروبة أو شِيارِ

وعَروبة من الأسماء التى تدخلها الألف واللام مرّة وتسقط منها أخرى ، قال الشاعر :

* يوم كيوم عَروبة المتطـــــــاولِ *

(١) البيتان فى اللسان : جبر ، دبر ، شير ، أنس ، هون . أول : الأحد. أهون : الاثنين. جبار : الثلاثاء : دبار : الأربعاء ، مؤنس : الخميس . عروبة : الجمعة . شيار : السبت .

وقال آخر :

* يوم العَروبة أورادا بأورادِ *

وحكوا أن سيبويه ، كان فى حلقة بالبصرة فتذاكروا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر سيبويه حديثا غريباً ، وقال : لم يرو هذا إلاّ سعيد بن أبى العَروبة ، فقال له بعض الفضلاء : ماهاتان الزيادتان ؟ - يعنى الألف واللام فى العروبة - فقال سيبويه : هكذا ينبغى أن يقال ، لأن العَروبة هى يوم الجمعة ، فَمنْ قال : عَروبة فقد أخطأ . قال محمد بن سلاّم : فذكرت ذلك ليونس بن حبيب ، فقال : أصاب : سيبويه لله درّه .

وسُمِّىَ يوم الجمعة لما جاء فى حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله لِمَ سُمِّىَ يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : لأن فيه جَمع أبوك آدم » . وقال بعضهم فذكر عروبة :

يا فرْحتى بثلاثة الأعيادِ فى العيد زار، وكان يوم عَروبةٍ

وكان المتوكل صاحب بطلْيُوس ينتظر وفود أخيه عليه من شنتْيرين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت ، فلمّا تلقاه عانقه ، وأنشد :

تخيّرتِ اليهودُ السبت عيداً وقلنا فى العَروبة يوم عيدِ
فلما أن طلعتَ السبت فينا أطلت لسَانَ محتجِّ اليهود

وقال ابن الرومى :

وَحبَّب يومَ السَّبت عندى أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن عجب الأشياء أنِّىَ مسلم حنيف ولكنْ خير أيامىَ السبتُ

* * *

(١) الخبر والشعر فى نفح الطيب ٣ : ٤٤٨

قوله : كابدت ، أى قاسيت . سَعَيْت وما ونيت : خرجت وما فترت ، ويقال: ونى يني ، أى ضعف ، والونى الضعف والفتور والإعياء . ملكت قول عندى ، يريد أن المسافر فى الطريق لا يحسب ماله مِلْكا له حتى يدخل المدينة ، لأنه متعرّض للهلاك فى الطريق ، فإذا دخل المدينة وحصل فى بيته ملكه فصار « ملكت قول عندى » عبارة عن سلامة ماله وخلاصِهِ من حوادث الأسفار نحو الغرق والنهب والغرق والغضب ، أو يكون عبارة عن الحصول فى البيت يقول : عندى كذا ، أى فى بيتى .

عُجتُ ، أى ملت على الأثر ، أى فى الحين ، ورجع على الأثر أى أتى مستعجلا ، كأنه مشى على أثره فى طريقه قبل غيره ، فمعنى عجت إلى الحمام على الأثر ، أى دخلته على الفور فى الحال. وقد ذكرنا بابًا أدبيا من الشعر فى الحمام فى الرابعة ، ونذكر هنا فيه فنا آخر من الأدب .

[ذكر الحمّام وماورد فيه من الشعر والحكايات]

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم أرض الأعاجم ، وتجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات ، فلا يدخلها الرجل إلا بإزار، وامنعوا النساء أن يدخلنها إلا مريضة أو نفساء » .

وروى أن عبيد بن قرط الأسدىّ ، دخل مع صاحبين له بلدا فيها حمام فأحب صاحباه دخوله فيها ، فنهاهما عبيد ، فأبيا إلا دخوله ، فلما دخلاه رأيا فيه رجلا يتنوّر، أى يستعمل النُّورة فسألاه عنها. فأخبرهما بإذهابها الشّعر، فاستعملاها فلم يحسنا فأحرقتهما وأضرّت بهما ، فقال عبيد :

لعمرى قد حذّرتُ قرطا وجاره ولاينفع التحذيرُ من ليس يحذرُ
نهيتهما عن نورةٍ أحرقتهما وحمام سوء نارُه تتسعّرُ
فما منهما إلا أتانى موقعاً به أثر من مسها يتقشّرُ
أحدّكما لم تعلما أنّ جارَنَا أبا الحِسْل بالبيداء لايتنوّرُ
ولم تعلما حمّامنا فى بلادنا اذا جعل الحرباء فى الجدب يخضُر

ورد أعرابىّ البصرة ، فنزل على ابن عمّ له ، فلما رأى البصرىّ شَعَثَ الأعرابىّ ، أراد أن ينظّفه ، فقال له يوم جمعة : إنّ الناس يتطّهرُون للجمعة ، ويتنظّفون ، ويلبسون أحسن الملابس ، فتعال أدخلك الحمّام لتتنظّف من قشَف السفر والبادية ، وتتطهّر للصلاة ، فدخل معه الحمام ، فعندما وطىء الأعرابىّ فرش أوّل بيت فى الحمام ، لم يحسن المشى عليها لشدة ملاستها فزلق ، وسقط لوجهه ، وصادفت جبهته حرف مدخل البيت ، فشجّه شجّةً منكرة فخرج مرعوباً وهو ينشد ، ودماؤه تسيل :

وقالوا تطهّرْ إنّه يومُ جمعةٍ فأبتُ من الحمّام غيرَ مطهّرِ
تزوّدتُ منه شَجّةً فوق حاجبى بغير جهاد بئسما كان متجرى
يقول لىَ الأعراب حين رأيتَنى به لابظبى بالصَّريمة أعفَرِ[1]
وما تعرف الأعراب مشيا بأرضها فكيف ببيتذى رخام ومرمَرِ !

وقال ابن سكّرة : دخلت حماما ، فخرجت وقد سُرِق مداسى ، فعدت إلى دارى حافياً وأنا أقول :

(١) نظر فى ذلك إلى المثل : « به لا بظبى أعفر » ، والأعفر : الأبيض ، يضرب للشماتة . وانظر مجمع الأمثال ١ : ٩٠

إليك أذمّ حمّام ابن موسَى ... فإن فاق المُنَى طيباً وحرّا
تكاثرت اللّصوص عليه حتى ... ليحفى من يطيفُ به ويعرَى
ولم أفقد به ثوبا ولكن ... دخلت محمداً وخرجت بشْرَا

— يريد بشْرًا الحافى ، وكان من كبار الزهاد ، ولزم المشى حافيا فلقّب به .

* * *

وقوله : أمطت ، أى أزلت . وعثاء السفر : شدته ومشقته ، وفى الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب » ، وأصله من الوعث ، وهو الدَّهَس ، أى الرمل الدقيق . وقيل : الوعث الرمل تغيب فيه القوائم ، وقيل : هو الطريق الخشن الصعب . بالأثر ، أى بالحديث المرويّ . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من اغتسل يوم جمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرّبَ بدَنة ، ومَنْ راح فى الثانية فكأنما قرّب بقرة ، ومن راح فى الثالثة فكأنما قرّب كبشا ، ومَنْ راح فى الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومَن راح فى الخامسة فكأنما قرّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

* * *

ثمّ بادَرْتُ فى هيئة الخاشِع ، إلى مَسجِدِها الجامِع ، لأَلْحَقَ بمَنْ يَقْرُبُ من الإمام ، ويُقرِّب أفْضَلَ الأنعام ، فحظِيتُ بأن جلّيتُ فى الحَلْبة ، وتخيّرْتُ المركز لاستِماعِ الخطبة ، ولم يَزلِ النَّاسُ يدْخُلونَ فى دِينِ اللهِ أفْوَاجًا ، ويَرِدُونَ فرادَى وأَزْوَاجًا ؛ حتَّى إذا اكْتَظَّ الجامع بحفلِهِ ، وأَظَلّ تساوِى الشَّخْصِ وَظِلّهِ ، برَزَ الخطيبُ فى أُهْبَتِهِ ، متهادِيًا خلْفَ عُصْبَتِهِ ، فارتقَى فى منبر الدّعْوَة ، إلى أَنْ

مَثَلَ بَالذِّرْوة ؛ فسلَّمَ مشيراً باليمين ، ثم جَلَس حتَّى خُتِمَ نظمُ التأذين .

* * *

الأنعام : هى الإبل والبقر والغنم . وقال فى الدرة : فرّقت العرب بين النعم والإنعام ، فجعلت النّعم اسما للإبل خاصة وللماشية التى فيها الإبل، وتذكر وتؤنث، وجعلت الأنعام اسما لأنواع المواشى مثل الإبل والبقر والغنم . حظيت: سعدت . جلّيت : سبقت. والحلبة : جماعة الخيل ، وأراد بها الناس المبادرين للصلاة ، وأنه سبقهم . المركز : الموضع تنتظر فيه الصلاة . دين : طاعة . أفواجاً : جماعات . يردون : يأتون الجامع . اكتظّ : امتلأ وضاق بأهله . حفله : اجتماع الناس فيه . أظل: دنا قرب. تساوى الشخص وظِلّه، يريد حديث عمر رضى الله عنه : أن صلّ الظهر إذا صار ظلك مثلك . برز : خرج . أهبته : عدّته للصلاة . متهاديا : متمايلا لوقاره . عصبته : جماعة المؤذنين . ارتقى : طلع . مثَل بالذروة : جلس بأعلى المنبر أو ظهر بأعلاه . والماثل : اللاطىء بالأرض أو القائم المنتصب ، وهو من الأضداد ، وسمى المنبر منبر الارتفاعه وعلوّه من النبر ، وهو ارتفاع الصوت ، ونبر الرجل نبرة : تكلم بكلمة فيها علوّ ، وأنشد أبو الحسن بن البراء :

إنى لأسمع نبرةً من قولها فأكاد أن يُغْشَى علىّ سرورا[1]

مشيراً باليمين ، مذهب الشافعى رضى الله عنه أن الخطيب إذا جلس على المنبر ، أشار إلى الناس بيمينه مسلّما من غير كلام . قال ابن عمر رضى الله عنهما :

---

(١) البيت فى اللسان ــ نبر من غير نسبة .

انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قُباء ، فصلّى فيه ، فخرج عليّ صهيب ، فقلتُ : ياصهيب ، كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ مَنْ يسلّم عليه ؟ قال : يشير بيده .

قوله : جلس ، قال الخليل : يقال لمن كان قائماً : اقعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس ، وهذا صحيح لأنّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفل ، ولهذا يقال لمن أصيب برجله : مُقْعَد ، والجلوس هو الانتقال من سُفل إلى علو ، ورجل جالس: آتٍ نجداً ، وهو المكان المرتفع . وذكره الحريرى فى الدرّة[1] .
ختم : أ كمل .

* * *

ثُمّ قام وقال : الحمدُ لِلّهِ الممدوحِ الأسماء ، المحمود الآلاءِ ، الْوَاسِعِ الْعَطَاءِ ، المدْعُوِّ لحسْمِ اللأْوَاءِ ، مَالِكِ الأُممِ ، ومُصوِّرِ الرِّمَم ، وأهل السّمَاحِ والكرَم ، ومُهلكِ عادٍ وإرَم ، أدْرَكَ كلّ سِرّ عِلْمُه ، ووسِعَ كُلَّ مُصِرٍّ حِلمُه ، وعمَّ كلّ عالمٍ طَوْلُه ، وهَدَّ كلّ ماردٍ حولُهُ . أَحْمَدُه حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْلِم ، وأدْعُوه دعاءَ مؤمّلٍ مُسَلِّمٍ ، وهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الواحِدُ الأَحَد ، العادِلُ الصَّمَد ، لاَوَلَدَ لَهُ وَلاَ والِدٍ ، ولاَ رِدْءَ مَعَهُ وَلاَ مُسَاعِد . أرسل محمداً للإِسلامِ مُمَهِّدًا ، وللملّةِ مُوَطِّدًا ، وَلِأدِلَّةِ الرُّسُلِ مؤكِّدًا ، وللأَسْوَدِ والأَحْمَرِ مسدّدًا .

. . .

[1] درة الغواص ٨٨

قوله : الآلاء ، أى النعم الواسعة الكثيرة . حسم اللأواء : قطع الشدة . الرّمم : العظام البالية . مصورها : منشىء صورها ، وأراد قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أوّل مرّة﴾[1] ، عاد وإرم: أمّتان قديمتان ، وقيل : إرم قبيلة من عاد فيها مملكة عاد . وقيل إرم : اسمٌ لقبائل كثيرة ، كالعماليق وطسْم وجديس هلكوا ، وهم من ولد إرم بن سام بن نوح ، ومن لم يصرف إرم جعله اسماً للقبيلة . وقال سابق البربرىّ فى ذهاب الأمم :

وكيف يأمَنُ ريبَ الدهر مرتهَنٌ ... بعدْوة الدّهر إن الدهر عدّاء[2]
ألقى على الجيل مِنْ عادٍ كلا كِلَهُ ... وقوم هود فهم هامٌ وأصداء

وقال أيضاً :

أين الملوكُ التى عن خَطْبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأس الموت سَاقِيها
غرّت زمانا بملك لادوامَ له ... جهلا كما غرَّ نفساً مَنْ يمنّيها
وصبّحت قوم عاد فى ديارهمُ ... بمقطع يوم عادتهمْ عواديها
وتُبّعا وثمود الحِجْرِ غادرهمْ ... ريب المنون رميا فى مغانيها
فكيف يبقى على الأحداث غابرنا ... كأننا قـــد أظلّتنَا دواهيها

وقال الألبيرىّ :

أين الملوكُ وأين ماجمعوا وماَ ... ذخَرُوه من ذهب المتاع الذاهبِ
ومن السوابغ والصّوارم والقنا ... ومن الصواهل : بُدّنٍ وشوازبِ
كانتِ سوابقها تحمّل منهم ... أقمار أندية وأسد كتائبِ
كانوا ليوثَ خفِيّةٍ لكنّهم ... سكنوا غياض أسنّة وقواضبِ
قصفتهمُ ريحُ الرّدى ورمتهمُ ... كفّ المنون بكلّ سهم صائب

---

(١) سورة الأنعام ٦ .

(٢) الشوازب : الضامرة .

قوله : مصرّ ، أى مقيم على الذنب . والعالم : كل مخلوق ، وأراد به الحيوان . طوْله : فضله . هدّ : أذلّ وأهلك ، وهد البناء : كسرَه وهدمه . والمارد : العاتى وهو المبالغ فى الطغيان والفساد ، والكثير الشرّ . حوله : قوته ، مؤمّل : راجٍ . مسلّم : مفوّض . الصمد ، من أسماء الله تعالى والسيّد المطاع ، والصمد : الذى لا يولد له ، وقيل : الصمد الذى لا جوف له .

وقال ابن الأنبارىّ : أجمع أهل اللغة بلا خلاف على أنّ الصمد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى أمورهم ، وأنشد لورقة بن نوفل :

سبحان ذى العرش سبحانا يدوم لهُ ربّ البرية فردٌ واحد صمدُ

وأنشد : * بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد [1] *

وأنشد : * ولا رهينة إلا سيّد صمدُ *

وأنشد : * خذها حُذيف فأنت السيّد الصمَدُ [1] *

قوله : ردء : معين ، وأردأتك على الأمر : أعنتك . مساعد : موافق لمراده . ممهداً : باسطاً . والملّة : الدين . الأحمر ، أراد به الأبيض وأراد لكلّ الناس ، وقيل : الأحمر العجم مثل الروم والفرس ، لأنهم بيضٌ تعلوهم حمرة ، والأسود العرب ، لأنهم لسكناهم الصحارى تغلِب السمرة على ألوانهم .

* * *

وَصَلَ الأرْحَامَ ، وعَلَّمَ الأحكامَ ، وَوَسَمَ الحلاَلَ والحرَام ، وَرَسم الإحلال والإحرام ، كرّم الله مَحَلَّهُ ، وكَمَّلَ الصلاةَ والسّلاَمَ له ، ورحم آلَهُ الكُرَماء ، وَأَهْلَهُ الرُّحَمَاء ، ما هَمَرَ

---

(١) اللسان ــ صمد .

رُكَام ، وَهَدَر حَمَام ، وَسَرَحَ سوام ، وسطا حُسَام . اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ الله عَمَلَ الصُّلَحَاء ، واكْدَحوا لَمِعَادِكُمْ كَدْحَ الأصِحَّاء ، وارْدَعُوا أهواءكُمْ رَدْعَ الأعداء ، وأعِدُّوا لِلرحلَةِ إعدادَ السُّعَداء ، وادَّرِعوا حُلَلَ الْوَرَع ، وداووا عِلَلَ الطمَع ، وسَوُّوا أَوَدَ الْعَمَلِ ، وعاصوا وَساوس الأمل ، وصوِّرُوا لأوْهامِكُمْ حُئُولَ الأحْوال ، وَحُلولَ الأهوالِ ، ومُساورة الأعلال ، ومصارَمة المآلِ والآل .

* * *

الأرحام فى الأصل: الفروج ، ثم يكنى بها عن القرابات لِلَّذِين بينهم رَحِم. وسم : بيّن ، وجعل له علامة ، والسِّمة : العلامة . رسم : كتب وبيَّن وأصل الرسم الأثر ، ورسمت الشيء : أثرت به أثرا . الإحلال : الدخول فى الحِلّ . الإحرام : الدخول فى الحَرَم ، وأراد أنه على موضع الحِلّ والحرم . آله : أهله . هَمَر رُكام : انصبَّ سحاب . هَدَر : صوَّت . وسرح : تفرَّق فى المرعَى ، سوام إبل راعية . سطا : اهتزّ ليقطع . اكدحوا : اعملوا ، والكدح عمل الإنسان من خير وشرّ ، واكتسابه للدنيا والآخرة . لمعادكم ، أى ليوم بعثكم ، والمعاد المرجع . الأصِحَّاء : جمع صحيح . اردعوا : كُفُّوا . ادّرعوا : البسوا الخوف . أَوَد : اعوجاج . وساوس الأمل: أحاديث الطمع والرجاء . أوهامكم : نفوسكم . حئول: تغير . حلول: نزول . الأهوال : المخاوف . مساورة : مواثبة . الإعلال: الإصَابة بعلّة ، مصارمة : مقاطعة . الآل : الأهل والقَرابة .

* * *

وادّكِرُوا الحِمَامَ وسَكْرَةَ مَصْرَعِهِ ، والرَّمْسَ وهَوْل

مَطْلَعِه ، واللَّحْدَ ووحْدَةَ مُودَعِهِ ، والمَلَكَ وَرَوْعةَ سُؤالِهِ وَمَطْلَعِه . والمَحْوُا الدَّهْرَ وَلُؤْمَ كَرِّه، وَسُوءَ مِحَالِهِ وَمَكْرِه . كَمْ طَمَسَ مَعْلَمًا ، وأمَرَّ مَطْعَمًا ، وطَحْطَحَ عَرَمْرَمًا ، وَدَمَّرَ مَلِكًا مُكَرَّمًا .

* * *

ادّكروا الحِمام : اذكروا الموت . الرَّمس : تراب القبر . هول مطلعه : خوف مايراه الإنسان فيه . اللّحد : الحفيرة فى جانب القبر . مُودَعه : المجعول فيه ، كأنه وديعة فيه . الملَك : منكر ونكير ، اللذانِ يفتِنان الناس فى قبورهم روعة : تقريع وتخويف . المطلع: المأتى .

قال الجوهرىُّ ، رحمه الله تعالى : يقال : أين مطلع هذا الأمر ؟ أى مأتاه ، وهو موضع الاطِّلاع من إشراف إلى انحدار ، وجاء هول المطلع فى الحديث ، حَدَّث واثلة بن الأسقع وغيره قالوا : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: «يأيها الناس ، اذكروا الموتَ وهولَ مطلعه وماتقدمون عليه من أعمالكم ، فإنما أنتم عابرو سبيل إلى دار الخلود . ازهدوا فى دنيانا قصة غير زائدة ،مفرقة غير مجمعة ، وارغبوا فى دار لاتخرَب قصورُها ولا يبلى سرُورها ، ولايموت ساكنها. أعمار أهل الجنة : أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، مكحّلون يأكلون ويشربون ، لايخرج من أجوافهم شىء إلا يعرقون ، عرقهم ذلك مسك ، فلم أر مثل الجنة ، نام طالبها ، ولم أر مثل النار ، نام هاربها » .

وقال ابن سُكَّرة :

مُحَمَّدُ ما أعددتَ للترب والبِلَى ولِلمَلَكين الواقفَيْن على القبرِ[1]

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٤

وأنت مصرٌّ لا تراجع توبةً ولا ترعوى عما يُذمُّ من الأمر[1]

سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعه فقدِّم له زاداً إلى البعث والحشرِ

وتقدَّم البابُ موفَّى حقه فى الحادية عشر .

[مما قيل فى الأمل والطمع من الشعر]

نذكُرُ هنا بعض ما قيل فى الأمل والطمع المانعين للناس من أعمال البر .

قال أبو العتاهية :

تعلّقتُ بآمال طوالٍ أىِّ آمال[2]

فأقبلت على الدهر ملحًّا أىَّ إقبالِ

أيا هذا تجهز لـ فراقِ الأهلِ والمالِ

فلا بدَّ من الموت على حالٍ من الحال

وقال أبو تمام :

أتأمُل فى الدنيا تجـدّ وتعمُرُ وأنت غداً فيها تموتُ وتُقْبَرُ

تُلقِّحُ آمالاً وترجو نتاجَهـا وعمرك مما قد ترَجّيه أقصرُ[3]

وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه وليلته تنعاكَ لو كنت تشعرُ

تحُوم على إدراك ما قد كفيتَه وتقبل بالآمال فيهـا وتدبرُ

---

(١) بعده فى اليتيمة :

تَبيتُ على خمرٍ تعاقِرُ دَنَّها وتصبح مخمورًا مريضاً من الخمْرِ

(٢) ديوانه ٢١٣ ، وفيه :

تمسّـكت بآمالٍ طوالٍ أىّ آمالِ

(٣) ديوانه ٤٨٢ .

رزقك لا يعدُوك إمّا معجّلٌ على حاله يوماً وإمّا مؤخّر

وقال محمود الوراق :

علام يسعى الحريص فى طلب الرزق بطولِ الرواح والدَّلَجِ
يا قارع البـاب ربّ مجتهـد قد أدمن القَرْع ثم لم يلجِ
فاطوِ على الهمّ كفَّ مصطبرٍ فآخرُ الهــــم أوّل الفرجِ

وقال عبد الصمد بن المعذّل :

وأعـلم أنَّ بنـات الرجا تحلُّ العزيز محلّ الذليلِ
وأنَّ ليس مستغنيا بالـكثـ ـير مَنْ ليس مستغنيا بالقليلِ

قوله : الحوا : انظروا . كرّه : رجوعه . محاله : شدّته ومماداته وخداعه . طمس: محا وأذهب . معلما : موضعاً مرتفعاً ، تعلم به الجهة التى هو فيها. طحطح : أهلك وفرّق . عرمرماً : جيشاً كبيراً . دمّر : أهلك ، والدمار : الهلاك .

[ذم الدهر وما قيل فيه من الشعر والحـكايات]

ونذكر بعض مَنْ ذمّ الدهر من ملوك الإسلام .

من ذلك أنَّ سليمان بن عبد الملك لبس فى يوم الجمعة لباساً شهر به ، ودعا بتخت فيه عمائم ، وبيده مرآة، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى ، وأرخى سدولها، وأخذ بيده مخصرة ، واعتلى منبره ناظراً فى عِطْفَيْه ، وجمع حشمه ، وقال : أنا الملك الشاب، السيد الحبحاب ، الـكريم الوهاب . فتمثّلتْ له إحدى جواريه ، فقال : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ فقالت : أراه مُنَى النفس وقُرَّة العين ، لولا ماقال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقَى غـير أن لا بقـاء للإنسانِ
أنت خِلْوٌ من العيوب ومما يكره الناس غـير أنك فانى

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من صلاته رجع ودعا الجارية ، وقال لها : ماحملك على ماقلت؟ قالت : والله مارأيتك ولادخلت عليك . فأكبر ذلك ، ودعا بقية جواريه فصدَّقْنها على ذلك ، فراعه ذلك ولم يبق إلا مُديدة حتى مات(١) .

الفضل بن الربيع ، قال : كنت مع المنصور فى السفر الذى مات فيه ، فنزلنا بعضَ المنازل ، فدعا بى وهو فى قُبَّته إلى حائط ، وقال : ألم أنهكم أن تدَعُوا العامة تدخل هذه المنازل : فيكتبون فيها ما لاخير فيه ، قلت : وما هو ؟ قال : ألا ترى ماعلى الحائط مكتوبا :

أبا جعْفرٍ حانتْ وفاتك وانقضتْ سنوك ، وأمر الله لابدَّ نازلُ
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجّم يردُّ قضاء الله أم أنت جاهل ؟

فقلت : والله ماعلى الحائط شىء ، وإنه لنقىٌّ أبيض ، قال: والله ، قلت: والله. قال : إنها والله نفسى نعت إلىّ الرحيل ، بادر بى إلى حرم الله وأمنه هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى ، فرحلنا ، وثقل حتى بلغ بئر ميمون ، فقلت له : قد دخلت الحرم ، قال : الحمد لله ، وقُبِض من يومه ، ولمّا حضرته الوفاة ، قال : هذا هو السلطان ، لاسلطان من يموت (٢) .

علىّ بن يقطين ، قال : لمّا كنا مع المهدىّ بما سبذان ، قال لى : أصبحت جائعاً فائتنى بأرغفة ولحم بارد ، فأكل ونام فى البهو ، فما استيقظ إلا لبكائه ، فبادرنا فقال : أما رأيتم ما رأيت ، وقف علىّ رجل لو كان فى ألفٍ ما خَفِىَ علىّ ، فقال :

(١) الخبر والشعر فى العقد ٤ : ٣٢٥ . (٢) الخبر والشعر فى المسعودى ٣ : ٣١٧

كأنّي بهـذا القصرِ قد باد أهلُه ... وأوحش منه رَبعُهُ ومنازِلُهْ
وصار عميد الملك من بعد بهجةٍ ... إلى قبرِه تُحثَى عليـــه جنادلُهْ
فلم يبقَ إلا ذكرهُ وحديثه ... ينادى عليه معولاتٌ حلائلُه

فما أتت عليه عشرة أيام حتى توفّى.

قال الأصمعىّ : دخلت على الرشيد يوماً ، وهو ينظر فى كتاب ، ودموعه تنحدّر على خده ، فالتفت وقال : اجلس ، أرأيت ما كان منّى ؟ قلت : نعم ، قال: أما إنه لو كان من أمر الدنيا ما رأيت هذا ، ثم رمى إلىّ به ، فإذا فيه مكتوب لأبى العتاهية :

يا مؤثرَ الدنيـا بلذّتها ... والمستعدّ لمن يفاخرُهُ(١)
نِلْ ما بدَا لك أن تنال من الـدّنيا ... فإنّ الموتَ آخرُه
هل أنت معتبر بمن خَربتْ ... منه غداة قضَى عساكرُه(٢)
وبمَنْ خلتْ منه أسرّته ... وبمن خلْت منه منابرُهُ
أين الملوك وأين غيرهُمُ ... صاروا مصيراً أنت صائرُهُ

ثم قال : كأنّى أخاطَب بهذا دون كلّ الناس ، فلم يلبثْ إلا قليلا حتى مات.

ولمّـا رجع المأمون من غزوته التى افتتح فيها أربعة عشر حِصْناً نزل على عين تعرف بالعشيرة ، ينتظر رجوعَ رسُلِه من الحصون ، فأعجبه برْدُ مائها وصفاؤه ، وحسن بياضه وكثرة الخضرة والخِصْب بالموضع ، وجلس على خشب بُسِط له على الماء ، وطُرِحَ فيه درهم ، فقرأ كتابته فى قرار الماء لصفائه ، ولم يقدر أحدٌ يدخل الماء لشدّة برده ، فلاحت سَمَـكَةٌ نحو الذراع ، كأنها سبيكة فضة ، فنزل بعض الفرّاشين فأخذها ، فاضطربتْ فى يده وتململتْ ، ووقعت فى الماء ، فنضح منه على صدر المأمون ، ثم أخذها ووضعها بين يديه فى منديل ، تضطرب ، فأمر

(١) ديوانه ١٢٣ والمسعودى ٣ : ٣٧٦ .
(٢) الديوان : « دساكره » .

بأن تُقْلَى الساعة ، فأخذته رعدة من ساعته ، ولم يقدِرْ يتحرّك ، فَغُطِّيَ باللحف، وهو يرتعد ، ويصيح : البرد ، فأُتِيَ بالسمكة فلم يقدر عليها ، وسال على جسمه عرق كالرّب لم يعرفه الأطباء ، فلما ثقل قال : أخرجونى أنظر إلى عسكرى ، وأنظر إلى مالي وملكى ، وذلك ليلا ، فأشرف على الجيش وانتشاره ونيرانه ، فقال : يامَنْ لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ، فلما ثقلَ رنا بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعاً ، فقال : يامن لا يموت ارحم مَنْ يموت ، وقُضِيَ عليه من ساعته [(١)] .

وكان كثيراً ما ينشد:

ومَنْ لم يزلْ غرضاً للمنو ... ن تتركُه ذات يوم عميدَا[(١)]
وإن أخطأتْ مرة نفسُه ... فيوشك مخطئها أن يعودَا
فبينـا يحيـد وتخطئْنَه ... قصدن فأعجلنه أن يحيدَا

وذكر أبو المواريث قاضى نصيبين ، أنه رأى فى المنام ليلة قائلا ، يقول :

يا نائم الليل فى جثمان يقظانِ ... ما بالُ عينيك لا تبكى بتَهتَانِ[(٢)]
إن الليالىَ لم تُحسِن إلى أحدٍ ... إلا أساءتْ إليه بعد إحسانِ
هلا رأيتَ صروفَ الدهر مافعلتْ ... بالهاشِمِيِّ وبالفتح بن خاقانِ

ـ يعنى المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ـ قال : فأتى البريد بقتلهما فى تلك الليلة .

وقال سابق البربرىّ :

وربَّ أغيدَ ساجِى الطّرْف معتصبٍ ... بالتـاج نيرانه للحرب تستعرُ
يظلّ مفترشَ الدّيبـاج محتجباً ... إليه تبنى قباب الملك والحجرُ
قـد غادرته المنايا فهو مستلَبٌ ... مجنـدل ترِب الخدّين منعفِرُ

* * *

(١) المسعودى ٤ : ٤٥ .

(٢) الأبيات للحسين بن الضحاك ، ديوانه ١١٣ .

هَمُّه سَكُّ المَسَامعِ ، وَسَحُّ المَدَامعِ ، وإكداءُ المطامعِ ، وإردَاءُ المُسْمِعِ والسَّامعِ . عَمَّ حُكْمُهُ المُلُوكَ وَالرِّعاعَ ، وَالمسُودَ وَالمُطَاعَ ، وَالمحسُودَ وَالحُسَّاد ، وَالأساوِدَ وَالآساد ، ما مَوَّل إلاّ مالَ ، وَعَكَسَ الآمال ، وَمَا وَصَل إلاَّ وَصَالَ ، وَكلَمَ الأوْصالَ ، وَلاَ سَرَّ إلاَّ وَسَاءَ ، وَلَؤُمَ وَأَساءَ ، وَلاَ أَصَحّ إلاّ وَلَّدَ الدّاء ، وَرَوَّع الأودَّاء .

اللهَ اللهَ ، رَعاكُمُ اللهُ ! إلاَمَ مُدَاوَمَةُ اللّهْو ، وَمُوصَلَةُ السّهْو ، وَطُولُ الإصْرَار ، وَحَمْلُ الآصَار ، وَاطّرَاحُ كلاَمِ الحُكَمَاء ، وَمُعَاصاةُ إلهِ السَّماء !

* * *

همّه : مراده . سك المسامع : قطع الآذان ، وقد سك أذنه ، إذا استأصلها بالقطع ، والمقطوع الأذن ، يقال له : أسَكّ ، وسككتُ الشيء فاستكّ ، أى سددته فانسدّ . سحّ : صبّ . إكداء : قطع ومنع . إرداء : إهلاك . الرعاع : سقط الناس . المسُود : مَنْ ليس بسيِّد . المطاع : الذى يقول ماأراد فيطاع ولا يعصى ، الأساود : الحيّات . والآساد : جمع أسد . موّل : أعطى مالا . مال : انحرف وخرج عن طريقه . عكس : قلب . الآمال : جمع أمل وهو الرجاء ، وقال مسلم بن الوليد :

الدَّهر آخذُ ما أعطى مكدِّرُ ما أصفَى ومفسِدُ ما أهوَى له بيدِ[1]
فلا يغرَّنْك مِنْ دهر عطيّتُهُ فليسَ يَترُكُ ما أعطى على أحد

---

(١) ديوانه ٢٩٧ .

وقال أبو تمام :

أقول لنفسي حين مالت بصفوها ... إلى خطرات قد نتجن أمانيا[1]

فهبني من الدنيا ظفرت بكلّ ما ... تمنّيت أو أعطيت فوق مُنائيا[2]

أليس الليالى غاصباتى مُهجتى ... كما غصبت قبلى القرون الخواليا

قوله : صَال : صاح وهدر. كَلَمَ : جرح . الأوصال : المفاصل ، وهو موصّل نظم عضو فى عضو. لؤُم : صار لئيما . روّع الأودّاء : أفزع الأحباب . السَّهْو : الغلط . الإصرار : الإقامة عَلَى الذنب . الآصار : الأثقال ، يريد إثقال الذنوب . اطّراح : تَرْك ورمى .

* * *

أَمَا الْهَرَمُ حَصَادُكُمْ ، والْمَدَرُ مِهَادُكُمْ ! أما الحِمَامُ مُدْرِكُكُمْ ، والصِّرَاطُ مسلكُكُمْ . أمَا السَّاعَةُ مَوْعِدُكُمْ ، والسَّاهِرَةُ مَوْرِدُكُمْ ! أمَا أهْوَالُ الطَّامّة لَكُمْ مُرْصَدَة ! أمَا دارُ الْعُصاةِ الْحُطَمَةُ المؤْصَدَة ، حَارِسُهم مَالِك ، وَرُواؤهم حَالِك . وطَعَامُهُمُ السُّمُوم ، وهَوَاؤُهم السَّمُوم . لاَ مَالَ أسْعَدَهم وَلَا وَلَد ، ولا عَدَدَ حَمَاهُمُ وَلاَ عُدَد . أَلا رحِمَ اللهُ امرأً مَلَكَ هَوَاهُ ، وأمّ مَسالِكَ هُدَاه ، وأحْكَمَ طاعة مولاه ، وكدّ وكدَح لِرَوْحِ مأواه ، وعَمِلَ مادامَ العُمرُ مُطَاوِعاً ، والدَّهر موادِعاً ، والصِّحّة كامِلَة ، والسَّلاَمَةُ حَاصِلة ، وإلّا دَهَمَه عدمُ المرام ، وحَصَرُ

---

(١) ديوانه ٤٨٤ ، وفيه : « قد فتحن » .

(٢) فى الديوان : « هبينى ... أمانيا » .

الـكَلاَم ، وإلمام الآلاَم ، وحُموم الحِمام ، وهُدوء الحواس ، ومِراس الأرْماَس .

* * *

مسلـكـكم : طريقـكم . السَّاهرة : وجه الأرض ، وقيل الأرض البيضاء . المورد : موضع الماء الذى يَرِدُه الناس والبهائم ، ولا غناء لأحد عن قصد الماء ، فجعل الساهرةَ مورداً على هذا المعنى . أهوال الطّامَّة : مخاوف القيامة ومافيها من الهَوْل والخوفِ ، وأصابت الناس طامَّة أى داهية وأمر عظيم ، وقد طَمّ الأمر ، إذا عظم وجاوز الحدّ . مؤْصَدة : مُعَدَّة ينتظرون بها والحُطَمة : التى تحطم الناس ، أى تَـكسِيرُهم ، يعنى جهنم أعاذنا الله منها ، وهو اسم علم من أسماء جهنم دخلته اللام إيذاناًبالصفة . المؤصَدة : المغلقة . رواؤهم : منظرهم الحسن. حالك : أسود . السُّموم : جمع سَمّ . والسَّمُوم : الريح الحارة . أمّ : قصد . أحكم : أتقن . كدح : عمل . رَوْح مأواه : راحة مسكنه . موادعا : متاركا ومصالحاً . قال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل يعظه « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتَك قبل سَقَمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغِناَك قبل فَقْرِك ، وحيَاتك قبل موتك » .

دهمه : غشيه وأتاه فجأة ، ودهمه يدهَمه لغة . المرام : المطلب . حصر : حبس . إلمام : نزول . الآلام : الأسقام : حُمُوم الحمام : دنوّ الموت . هدوّ : سكون . الحواس : الإدراكات ، وهى التى يحسّ بها الإنسان الأشياء ويدركها وهى خمسة : العين يدرك بها النظر ، والأنف والأذن يدرك بها الشم ، والسَّمع واللسان واليد يدرك بهما الذوق ، واللّمس ، فيريد أن هذه الجوارح تَسْكُن بالموت ولا تتحرّك .

[مما قيل فى عجز الأطباء حين يجىء الأجل]

وننشد هنا أبياتاً لها بالموضع بعض تعلّق ، ونذكر فيها الأطباء الذين لا حيلة لهم فى الموت ، قال عدىّ بن زيد :

أين أهل الديار من قوم نوحٍ ... ثم عادٌ من بعـــدهم وثمودُ[1]
بينما هُمْ على الأسرّة والأنمـــاط أفضت إلى التّراب الخدودُ
والأطباء بعـــدهم لحقوهمْ ... ضلّ عنهم سَعوطهم واللدودُ
وصحيحٌ أضحى يعــود مريضاً ... وهو أدنى للموتِ ممن يعودُ

وقال الخليل بن أحمد :

فكن مستعداً لداعى الفنــاء ... فإن الذى هو آت قريبْ[2]
وقبلك داوَى المريضَ الطبيبُ ... فعــاش المريض ومات الطبيبْ

ولابن الرومىّ ـ وفصده بعض الأطباء ، فزعم أن الفصد زاد فى علّته ، فقال :

غلِط الطبيبُ علىّ غلطة مُوردٍ ... عجزت مواردُه عن الإصدار[3]
والنّاس يلحَوْن الطبيب وإنّما ... غَلَطُ الطبيب إصابة المقـــدارِ

وقال غيره :

قد قُلْتُ لـما قال لى قائلٌ ... قد صار نُعمان إلى رمسِهِ
فأين ما يُذكَرُ من طبِّه ... وحــذقه بالمـاء مع جسِّهِ !

---

(١) ديوانه ١٢٢ .
(٢) نزهة الألباء ٤٧ .
(٣) ابن خلـكان ١ : ٣٥٢ .

هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسِهِ

ومنه قول الآخر :

أقول لنعمان وقد ساق طِبُّه ... نفوساً نفيسات إلى باطن الأرضِ

أبا منذرٍ أفنيت فاستبقِ بعضَنَا ... حَنَانَيك بعضُ الشرِّ أهون من بعضِ (١)

ويحكى أن القاضى ابن منظور بلغه أن أبا العلاء بن زهر مرض فضحك ، وقال : فأين طبُّه ؟ فبلغت أبا العلاء فقال :

قالوا ابن منظـورٍ تبسَّم هازئا ... لمّا مرضت فقلت يعثر من مشَى

قد كان جالينوس يمرض دائمـاً ... فمن الإمام المرتضى قبل الرّشا

وقال المتنبي :

لا بُدَّ للإنسان مِن ضَجْعَةٍ ... لا تقلب الإنسان عن جَنْبِهِ (٢)

ينسى بها ما مرَّ من عُجبهِ ... وما أذاق الموت من كربهِ

نحن بنو الموتَى فما بالُنَا ... نعافُ مالاَ بدَّ من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنـا ... على زمانٍ هى من كَسْبِهِ

فهذه الأرواح من جَوِّهِ ... وهـذه الأجساد من تربه

يموت راعى الضأن فى جهله ... موتة جالينوسَ فى طِبِّهِ

أصيب الجرمى فى عينيه فقال :

إذا ما مات بعضُك فابْكِ بعضاً ... فبعض الشيء من بعض قريبُ

يمَنِّينِيَ الطبيبُ شفـاء عيني ... وما غـيرُ الإله لهـا طبيبُ

* * *

قوله : مِراس ، أصله معالجة الشيء الشديد ، وكل شيء التصق بشيء

---

(١) هذا البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ .

(٢) ديوانه ١ : ٢١٠ .

واحتكّ به فقد مارسه . ومرست الدواء بالماء : دلكته . والأرماس : القبور ، واحداها رمْس ، فيريد بها ما يَلْقاه الإنسان فى قبره من الدواهى ، وتقدّمت فى الحادية عشر ، ويروى : الأمراس : جمع مرس ، وهو حبل من ليف يُفتل على ثلاثة . مراسه : جريانه على البَكْرة ، فالبكرة تأكل قوته كلّ يوم فتقطعه ، كما أن الأيام تأكل قوة ابن آدم فتقطعه ، فإذا مات أكل بدنه القبر .

* * *

واهاً لها حَسْرةً ألَمُهَا مؤكّد ، وأمَدُها سَرْمَد ، ومَمَارِسُها مُكْمَد ، مالولَهِهِ حاسم ، وَلاَ لِسَدَمِهِ راحم ؛ ولا مِمّا عَرَاه عَاصِم ، ألهمَكم اللهُ أحْمَدَ الإلْهَام ، وردّاكُمْ رِدَاءِ الإكرام ، وأحلّكم دَارَ السَّلاَم ، وأسْأَلُهُ الرّحمةَ لَكُمْ ولِأهْلِ مِلّةِ الإسْلاَم ، وهُوَ أسْمَحُ الكِرَام ، والمسلِّم والسَّلاَم .

. . .

آها : كلمة توجع . حسرة : فجيعة ، والهاء فى «لها» كناية عن الحسرة أضمرها بشريطة التفسير ، أى ماأعظمها من حسرة ، آها ، أى تأوّها . ألمها مؤكد ، أى وجعهاشديد متتابع . سرمد : دائم . ممارسها : معالجها ومخالطها . مكمد : مهموم محزون . ولهه : حزنه . حاسم : مزيل قاطع . سدمه : حيرته ، عراه : قصده . عاصم : مانع . ألهمكم : ذكّركم ونبّهكم . أحلّكم : أنزلكم . دار السلام : الجنة ، من دخلها سلم من العذاب وبقى فى سلامة . ملة : دين . أسمح : أكرم . السلام : الذى هو من أسماء الله سبحانه وتعالى ، ومعناه المسلم لعبده أو هو على حذف المضاف ، ومعناه ذو السلام ، أى صاحب السّلام ، ويحتمل أن يريد به

اللفظة التى يقطع بها الكلام ، كما تقول لمن تقطع كلامه : والسلام ، أى لا زيادة عندى على هذا ، أو أردت: والسلام عليكم .فحذفت اختصارًا .

وفى تأويل «السلام عليكم » وجهان : أحدهما أنه اسم الله بمعنى « الله تعالى عليكم » ، أى على حفظكم ، أو بمعنى السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة

قال ابن الأنبارىّ : السلام فى كلام العرب على أربعة أقسام: السلام التسليم، تقول : سَلَّمت سلاما ، والسلام الله تعالى ، والسلام جمع سلامة ، والسلام شجر عظام واحدها سَلَامة قال الأخطل :

ورابيةُ السكران قفرٌ فما بها   لهم شبحٌ إلاّ سلامٌ وحَرْملُ[(1)]

* * *

قَالَ الحارثُ بن هَمَّام : فَلَمَّا رأيت الْخُطْبَةَ نخبةً بِلَا سَقَط ، وَعَرُوساً بِغَيْرِ نُقط ، دَعَانى الإعْجَابُ بِنَمَطِهاَ العجيب ، إلى استِجْلَاءِ وجْهِ الخطيب ، فأَخذْتُ أَتَوَسَّمُهُ جِدًّا ، وأَقَلِّبُ الطَّرْف فِيهِ مُجِدًّا ، إلَى أنْ وَضَحَ لِي بِصِدْقِ الْعَلَامات ، أنَّهُ شيخناَ صاحب الْمَقَامات ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ من الصَّمْت ، فى ذلك الْوقتِ ؛ فأمسكتُ حَتَّى تَحَلَّلَ من الْفَرْضِ ، وحَلَّ الانتشارُ فى الأرضِ ، ثمَّ واجَهْتُ تِلْقَاءه ، وابْتَدَرْتُ لِقَاءه .

فلَمَّا لَحَظَنِي خَفَّ في القيام ، وأحْفَى فى الإكرام ؛ ثمَّ استَصْحَبَنِي إلى دارِه ، وأوْدَعَنِي خصائِصَ أسرارِه ، وحِينَ انتشَرَ جَناحُ الظَّلَام ،

---

(١) ديوانه ٢   (٢) السكران : موضع بالشام . والحرمل : نبت .

وحانَ ميقات الأنام ، أحْضَرَ أباريقَ المُدام ، مَعْكُومَةً بالفِدَامِ .
فقلتُ : أتَحْسُوهاَ أمام النّوم ؛ وأنتَ إمَامُ القوم ! فقال : مه ؛ أنا بالنَّهَار خطيب ، وباللّيلِ أطيب ، فقلتُ : واللهِ ما أدرى : أأعجبُ من تسلِّيك عَنْ أناسِك ، ومسْقَط رَاسِك ، أم من خطابتِكَ مع أدْناسِك ومدَارِ كاسِك .

* * *

نخبة : مختارة . سقَط : لفظ ردىء . استجلاء : نظر . أتوسمه : أنظر سِمَتَهُ ، أى علامته التى يعرف بها . جدّا : كثيرا . مجداً : مجتهداً . وضح : تبيّن . ذو المقامات : صاحب المجالس . البُدّ : الفرار ، قال الفراء رحمه الله تعالي : يقال: لابُدّ اليوم من قضاء حاجتى ، أى لا فرار ، ويقال: ليس لهذا الأمر بدٌّ ، أى لا محالة . الصمت : السكوت والإنصات لاستماع الخطبة فرض عند الشافعى رضى الله عنه لقوله تعالى : ﴿ وَإذَا قُرِئَ القرْآنُ فاستمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا ﴾(١) أى لاستماع الخطبة .

وقال جماعة من المفسرين: إنه إنما نزلت الآية فى السكوت لاستماع الخطبة .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب : أنصت فقد لغوْت » .

أبو هريرة وأبو سعيد ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ خرج إلى الجمعة وعليه الوقار ، ثم رجع ، ثم أنصت إلى أن جلس الإمام ، فلم يتكلم حتى ينزل ، ثم صلّى الجمعة غفر الله له ما بينه وبين الجمعة التى تليها » .

(١) سورة الأعراف ٢٠٤

تحلّل من الفرض : تخلّص من الصلاة . الانتشار : انحلال الجموع من الصلاة وانبساطهم على الأرض . ميقاته : وقته . معكومة : مشدودة ، وعكمت البعير شددت فمه ، والوعاء : شددت رأسه . الفِدام : خرقة يشدّ بها فم الإبريق ليصفّى ما فيه . تحسوها : تشربها . وأنت إمام القوم : توبيخ له على قبح فعله مع الفضل الذى سَبق له ، والعيب الكبير يصغر فى حق أهل الريب ، كما أنَّ الصغير يعظُم فى حق أهل المروءات ، وقال المتنبى فى المعنى وإن كان من غير الباب :

وما يُوجع الحرمان من كف حازمٍ كما يوجع الحرمانُ من كف رَازِقِ[1]

وقال المخزومى :

والعيبُ فى الجاهل المغمورِ مغمورُ وعيبُ ذى الشَّرف المذكور مذكورُ
كفوفةِ الظّفر تخفَى من حَقارتها ومثلها فى سواد العين مشهور

وقال إبراهيم بن المهدىّ :

لولا الحياء وأننى مشهورُ والعيب بالرجُلِ الكبير كبيرُ
لحللتُ منزلةَ الذى يحتـلّه ولكان منزلُنَا هو المهجورُ

مه : اسكت ، ومعنى قوله : أنا بالنهار خطيب ، وبالليل أطيب ، مما وقع فى كتاب مفتاح السرور والأفراح ، حكاية عن بعضهم أنه قال : رأيت قاصًّا يقص غداةَ يوم ، ثم رأيته بالعشىّ فى حانة والقدَح فى يده ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أنا بالغداة قاصّ ، وبالعشىّ عاص .

ومن ذلك ما كتب به يحيى بن خالد لابنه الفضل حين بعث فيه أهلُ خُراسان كتاباً إلى الرشيد : إنه مشتغل بالصيد وإدمان اللذات ؛ فرمى به إلى يحيى وقال : ياأبتِ اكتب إليه بما يردعه ، فكتب على ظهر الكتاب :

(١) ديوانه ٢ : ٣٤٢ .
(٢) الفوف : البياض الذى يكون فى أظفار الأحداث .

حفظك الله يابنيّ ، وأمتع بك . فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التّشاغل بالصيد وإدمان اللذات ، فعاودْ ماهو أليَقُ بك وأزين لك ، فإنه من عاد إلى ما يزِينه ، وترك ما يشينه ، لم يعرفه أهل دهره إلا به . وقد قلت أبياتاً فالتزمها ، وإن جاوزتَها عزلتك عن سخط ، ولم أكلمك حولاً ، وكتب إليه :

انصب نهاراً فى طلاب العُلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليل أتى مقبلاً ... واستترتْ فيه عيونُ الرقيب
فباشِرِ الليل بما تشتهى ... فإنّما الليلُ نهار الأريب
كم من فتى تحسبه نَاسِكاً ... قد لقىَ الليل بأمر عجيبِ
ألقى عليه الليلُ أثوابه ... فبات فى لهوٍ وعيش خصيب
ولذة الأحمق مشهورة ... يرصدها كلّ حسود رقيب

فامتثل ما فيها حتى عزِل عنها .

وقال الحلوانى فى ضده :

أنت الّذى قسَم الزمان لنفسِه ... قسمين بين رياسة ومَتابِ
أعطى لمرتبة العلاء نَهارَه ... منها وجنْح اللّيْلِ للمحراب

وقال الفنجديهى فى قوله : أنا بالنهار خطيب وبالليل أطيب ، معناه أنا صالح المنظر ، فاسد المخبَر ، أنظر فى مرآة المراءات ، وأسترِ مساواة المساءات ، وأديم المناجاة جلْوة ، وأقيم المداجاة خلوة ، آمر الناس بالرّشاد ، وأنا أتوسَّد وسادة الفساد .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحسن الصلاة حين يراه الناس ، ثم أساءها حين يخلو ، فتلك استهانة يستهين بها ربه» .

قوله : تسلّيك عن أناسك ، أى اشتغالك عن أهلك وبلدك ، وهو مسقط رأسه ، أى الموضع الذى سقط فيه رأسُه عند ولادته . خطابتك : فصاحتك فى خطبتك . إدناسك : عيبك وتلطيخ عرضك . مدار : دورانه فى أيدى الشاربين .

* * *

فأشاحَ بِوَجْهِهِ عَنِّى ، وقال : اسْمَعْ مِنّى :

لَا تَبْكِ إِلْفاً نأى ولا دَارَا ... ودُرْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْفَما دارَا

واتّخِذ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَناً ... وَمَثِّلِ الأرْضَ كُلَّهَا دارَا

واصْبِرْ عَلَى خُلْقِ مَنْ تُعَاشِرُه ... وداره فاللَّبيبُ مَنْ دَارَى

وَلاَ تُضِعْ فُرْصَةَ السُّرُور فَمَا ... تَدْرِى:أَيوماً تعيش أم دارَا

واعْلَمْ بأنّ المنونَ جائِلَةٌ ... وقَدْ أدارَتْ على الْوَرَى دارا

وأقسَمَتْ لاتزال قانصةً ... ما كَرَّ عَصْرُ المحْيَا ومادَارَا

فكيفَ تُرْجَى النَّجاةُ من شَرَكٍ

لم يَنْجُ مِنْــــهُ كِسْرَى ولا دارَا

* * *

أشاحَ : نحّى معرضا ، وأشاح فى الأمر : صمم عليه .

إلفاً : صاحبا . نأى : بَعُدَ ، يقول له جوابا لِلَومة : لا تبك صاحباً بَعُد عنك ، ولا منزلاً تغرّبتَ عنه ، وتقلّبْ مع الدهر كما يتقلّب مع أهله . ودُرْ ، من الدوران . سكنا : أهلا وإلفا تسكن إليه . ومَثّل الأرض كلها دارا ، أى

بلدا ، والدار البلد فى قوله تعالى : ﴿ فأصْبَحُوا فى دارِهِمْ جاثمين ﴾[١] ﴿ وتمتّعُوا فى داركم ﴾[٢] . داره : لايَنَهْ وسايسْه . اللبيب : العاقل . دارَى : أحسن مخالطة الناس ، وأصلُها الخداع ، تقول العرب : دريت الصيد أدريه دريًا ، وداريته أداريه مداراةً ، والدريَّة بعير يقعد عنده الصائد ، يستتر به فيجىء الصيد فيأنس بالبعير ، فيرميه من قرب . وكان الحسن يقول : المداراة تستحلب مودة القلوب فتخدعهم فى عقولهم . وفى الحديث : « أحبُّ الناس تحبُّباً إلى الله أكثرهم تحبُّبا إلى الناس » وفيه : « إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلى الناس » .

وقال ابن عبد ربه :

وجهٌ عليه من الحياء مهابةٌ ... ومحبَّةٌ تجرى مع الأنفاسِ[٣]
وإذا أحبَّ الله يوماً عبْدَه ... ألقى عليه محبـــة للنـاس

كتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبى وقاص : إن الله إذا أحبَّ عبداً حببَّه إلى الناس ، واعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتِك من الناس ، واعلم أنَّ مالك من الله بمنزلة ما للناس عندك .

وقال بعضهم : أتيت الخليل فوجدته على طِنفْسةٍ صغيرة ، فوسَّع لى ، فكرهت أن أضيّق عليه فتأخرت ، فأخذ بعضدى ، وقدّمنى إلى نفسه ، وقال : لايضيق سمّ الخياط بمتحابين ، ولا تسع الأرض متباغضين ، أخذه ابن عبد ربه فقال :

صِلْ مَنْ هويت وإن أبدَى مباغضةً ... فأطيب العيش وصلٌ بين إلفَيْنِ[٣]
واقطع حبائل خدنٍ لا تلائمه ... فقلَّما تســع الدنيا بغيضينِ

---

(١) سورة العنكبوت آية ٣٧ (٢) سورة هود ٦٥ .
(٣) العقد ٢ : ٣١٦

ولأبى محمد بن أبى الوليد المالقى :

صيّر فؤادك للمحبوب منزلةً سَمُّ الخياط مجال للمحبّين
ولا تسامح بغيضا فى معاشرة فقلّما تسع الدنيا بغيضَيْنِ

ولابن الزقاق :

ألا ادْنُ وإن ضاق الندىّ فإنه رحيب بودّ ضُمّنتْه الأضالع،[1]
يضيق الفضاعن صاحبين تباغضاً وسمّ خياطٍ بالحبيبين واسع

وقال التهامى :

بين المحبّين مجلسٌ واسعْ والودّ حال يقرّب الشاسع،[2]
والبيت إن ضاق عن ثمانية متّسِع بالوداد للتاسِعْ

فرصة : نهزة وغنيمة . دارا : دهراً وقال السَّرِىّ[3] .

قم فانتصفْ مِنْ صروف الدَّهْرِ والنَّوَبِ
واجمع بكأسِك بين اللّهو والطرَبِ[4]
واخلع عذارك واشربْ قهوة مُزِجت بقهوة الفَلَجِ المعسول والشَّنبِ
تَوِّج بكأسك قبل الحادثات يدِى فالكأس تاج يدِ المثرِى من الأدبه

جائلة : دائرة .

[ذكر كسرى]

كسرى ، اسم ملك الفرس ، وكسرى ملك الملوك أنوشروان بن قُباذ بن

(١) ملحق ديوانه ١٤١ . (٢) لم أجدها فى ديوانه
(٣) ديوانه ٢٦ (٤) بعده فى الديوان

أما ترى الصُّبْح قد قامت عساكرُهُ فى الشَّرْقِ تنشر أعلاماً من الذَّهبِ
والجوّ يختالُ فى حجبٍ مُمَسَّكَةٍ كأنما البرقُ فيها قلب ذى رُعُبِ

فيروز بن يزدَجرد بن بهرام ، الملك العادل ، ملك العرب والعجم ، كان موصوفاً بالعدل ، معروفاً بحسن الرعاية والفضل ، وشهرته فى كتب الآداب مغنية فى ذكره عن الإطناب . قيل : كان مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة مَضَتْ من ملكه ، وملك تسعاً وأربعين سنة .

وكسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، كان ملكا شديد البطش ، نافذ الرأى ، قد بلغ من الظّفر ومسالمة الدهر حدًّا لم يبلغه ملك من الملوك ، كان ملكه ثمانى وثلاثين سنة .

وفى سنة ثلاثين مِنْ مُلْكه بُعِث نبينا صلى الله عليه وسلم .

وحدّث خالدبن ربوة ـ وكان رأساً فى المجوس ، فأسلم ـ قال : كان كسرى إذا ركب ركب معه رجلان ، فيقولان له ساعتئذ : أنت عبدولست برب ، فيشير برأسه أن نعم ، فركب يوماً ، فقالا ذلك له فلم يُشرْ برأسه ، فشكواه إلى صاحب الشرطة ، فركب ليعاتبه . وكان كسرى قد نام فلما وقع صوت حوافر الدوابّ فى أذنه استيقظ ، فدخل عليه صاحب الشرطة ، فقال : أيقظتمونى ، إنى رأيت كأنه رُقِىَ بى فوق سبع سموات ، فوقفت بين يدى الله تعالى ، وإذا رجل بين يديه ، عليه إزار ورداء ، فقال لى : سلِّم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا ، ألست المأمور بكذا فلم تفعل ! وإنى أردت أن أقولها فاستردَّها منه فأيقظتمونى . وصاحب الإزار والرداء هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعَث له رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس ، وكتب له : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبىّ إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عزّ وجل فإنى

رسولُ الله إلى الناس كافة لأنذِر مَن كان حيًّا ويحق القول على الـكافرين ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

فلما قرأ الـكتاب شقّه ، وقال : يكتب إلىّ بهذا وهو عبدى ! فبلغ الخبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مزّقه مزّق اللهُ ملـكه » . أو قال : « اللّهم مزّقهم كل ممزّق » .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمين : أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجُلين جَلْدَين يأتيانى به . فبعث باذان قهرمانه ـ وكان كاتباً حاسباً ، وهو بابومة ، وبعث معه برجل من الفُرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبابومة : وَيْلك ! انظر مَن الرجل ، وكلّمه ، وائتنى بخبره . فخرجا حتى قدما الطائف ، فسألا عنه فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشرَ أهلُ الطائف ، وقالوا : نصب له كسرى ، كفيتم الرجل ، فخرجا حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فـكلّمه بابومة وقال : إنّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتبَ إلى باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلق معى ، فإن فعلتَ كتبت فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعُك ، ويكفُّ عنك به ، وإن أبيتَ فهو مَنْ قد علمت ، وهو مُهلـكك ومهلك قومك ، ومخرّب بلادك . فقال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غداً .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبرأن الله تعالى قد سلَّط على كسرى ابنَه شيرويه ، فقتله فى ليلة كذا فى شهر كذا ، بعد مامضى من الليل كذا ، سلّط الله عليه ابنه ، فقتله . فقالا : هل تدرى ماتقول ؟ فإنا قد خفنا منك ما هو أيْسر من هذا ، أفنـكتب به عنك ونخبر الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عنى وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وقولا له : إن أسلمتَ أعطيتك الناس تحت يدك ، وملّـكتك على قومك من الأبناء . فخرجا مِنْ عنده حتى قدما على بَاذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ماهذا بكلام ملِك ، وإنى لأرى الرجل

نبيًّا ، فإن كان ما قال حقاً ، فهو نبيّ مرسل ، فإن لم يكن فسأرى فيه رأياً . فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه ، وفيه : أمّا بعد ، فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس ، ممّا كان استحلّ من قتل أشرافهم ؛ فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممّن قبلك ، وانظر إلى الرجل الذى كتب لك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فقال باذان : إنّ هذا الرجل لَرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس .

وكسرى أنوشروان هو الذى بنى سورَ الأبواب وهو من عجائب الدنيا فلما بناه هادته الملوك وكاتبته . وهو الذي افتتح كثيراً من بلاد الشأم الرومية ، ونقل منها الرخام إلى العراق . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم ولد لاثنتين وعشرين سنة من ملكه ، وقيل : إنه ولد فى آخر ملكه كما قدّمنا .

ثم ولىَ من بعده ابنه هرمز ، وكان مضعَّفا ، غزته الملوك وطمعت فيه ، ثم خلعتْه الفرس ، وسملَت عينيه .

وعقد الملك لابنه أبرويز فى حياته ، فبعد حروب شديدة اجتمع لأبرويز أمره ، وكان وزيره بُزُرْجمهر أكثر الفرس حكما ومواعظ .

وفى ملكه كانت وقعة ذى قاربين بكر بن وائل ، والهرمز صاحب أبرويز ، لأربعين سنة لمولد النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل إنها كانت فى غزوة بدر ـ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نُصِرت » .

وكان على مربط أبرويز خمسون ألف دابّة وألف فيل ، فخرج فى أحد أعياده ، وقد صفّت له الجيوش وأحدقت به مائة ألف فارس دون الرجّالة ، وصُفّت له الفِيَلة ، فلما بَصُرت به سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى رفعت خراطيمها بالمحاجن ، فأعلم بذلك وقال : وددت أنها فارسية، ولم تكن هندية ، انظروا إلى

أدبها من بين سائر الدواب . ثم هدم الله تعالى هذا الملك العظيم بالإسلام .
قال الألبيرى :

فطفِ البلاد لكى ترى آثارَ مَنْ قد كان يعمرُها من الأقيالِ
عصفت بهم ريحُ الرَّدَى فذرتهمُ ذَرْوَ الرياح المُوج حقف رمالِ
فتقطعت أسبابهم وتمزَّقتْ ولطالما كانوا كنظم لآلى

قيل لأبرويز ـ وكان حكيما : ماشهوةُ ساعة ؟ قال: الجماع ، قيل : فما شهوة يوم ؟ قال : دخول الحمام ، قيل : فما شهوة جمعة ؟ قال : غسل الثياب ، قيل : فما شهوة شهر ؟ قال : تجديد الثياب، قيل فما شهوة سنة ؟ قال : تزوج الأبكار. قيل : فما شهوة الأبد ؟ قال : أمَّا فى الدنيا فمشاهدة الإخوان ، وأما فى الآخرة فنعيم الجنة .

ونظر إلى قذاة فى طعام ، فدعا الطباخ فقال : ماهذا ؟ فقال : حاولته بالليل فى وقت لم يكن فيه ماء معين ، فأمر بضرب عنقه ، فغضب الطباخ ؛ وقال : يابن الأشتوربان ـ تفسيره يابن سائس الدواب ـ فعفا عنه ، وقال : إنا معشر الملوك نعاقب فى الصغير ، ونعفو عن الكبير .

[ذكر دارا]

وأما دار بن دارا بن بهمن ، وهو آخر ملوك الفرس الأول ، فإنه كان ضخم الملك ، ذا قدرة ومكانة ، وهو الذى بنى بأرض الجزيرة مدينة دارابجرد ، وكانت جنده ستمائة ألف ، ولقيه الإسكندر بالجزيرة ، فدارتْ بينهم الحروب أربعين يوماً، وخندق دارا على عسكره خَمْس خنادق ، وجعل على كلّ خندق اثنى عشر ألف رجل ، وكانت النوبة لاتصيب الرجل إلا يوماً فى كل خمسة أيام ، فوجد الإسكندر من ذلك وجداً شديداً ، فبعث إلى دارا : إنّا كدنا نتفانى ، ورأيت

رأياً فيه البقاء لنا ولك ، وذلك أن تفرج لى ، فأخرق صفّك خرقا إلى جانب بلادك ، وأرجع إلى بلادى ، فإنا لا نرى الفرار من الزحف ، وهو عار لا يغسل. فأجابه دارا : لا سبيل إلى ذلك . فلما رأى الإسكندر ذلك وضع البرنس ، وحسر عن رأسه ، وقال : يامعشر الروم،هذا هو العجز والذلّ عن الانتصار ، هل فيكم من يحتال لى فى هذا الأمر ، وله نصف مال الروم والعجم ، ونصف مافى بيوت الأموال ؟ فقد أدركتنى الحمّية . فبلغ الخبر إلى صاحب حرس دارا فقال : أنا أفعل ذلك وآخذ مالا عظيما . فلما التحم القتال حمل على دارا فطعنه بحربة فى ظهره ، فوقع على الأرض وانهزم عسكر دارا . فجاء الإسكندر ووضع رأس دارا فى حجره ، ومسح التراب عن وجهه ، وقبّله وبكى ، وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قتلك على يدى ، ولا على يد أحد من جندِى ؛ فسلْ ما بدا لك أقضِه ، فقال له دارا : من حاجتى عندك ألاّ تخرب بيوت النيران ، وأن تنصفَنى مِنْ قاتلى قبل موتى ، فإنه إن بقى عندك سيكفر معروفك ، كما كفَر معروفى . فقال له الإسكندر : حاجتى عندك أن تزوّجنى بنتك روشنك ، فقال دارا : على أن تجعل الملك من بعدك لولدك منها ، فأجابه إلى ذلك وزوّجه ابنته ، وأخذ الإسكندر قاتله وقطعه أربع قطع ، واستولَى على جميع مملكته .

وملك دارا أربع عشرة سنة ، وقيل : ست سنين ، وقسم الإسكندر غنائم عسكره فى ثلاثين يوما . وشاور الإسكندر معلّمه أرسطاطاليس فى أن يقتل من بقى من الفرس ، فقال له : لاتفعل ، ولكن ولّ على كلّ جهة شريفاً من أهلها فيتنافسون ، فلا يجمعهم مُلك أبداً ، ففعل فهم ملوك الطوائف ، حتى انتزع أردشير منهم الملك ، وقال : إنّ كلِمةً فرقتنا خمسمائة سنة وتسع عشرة سنة ــ يعنى كلمة أرسطاطاليس ــ لكلمة بالغة .

وملوك الفرس الأول ستة عشر ملكا ، وملوك الفرس الثوانى اثنان وثلاثون ،

منهم امرأتان . وملك بعد أردشير سابور ، وهو من عظمائهم ، ففتح الحصونَ ومدنَّ المدن ، وبنى الإيوان وهو بالجانب الشرقىّ من المدائن ، وهو من عجائب البنيان ، وعجائب الفرس كثيرة ، وفى هذه النبذة غُنية توافق ما شرطنا .

* * *

قَالَ : فلمَّا اعْتَوَرتْنَا الـكئوس ، وَطَربتِ النُّفوس ، جَرَّعَنى الْيَمِينَ الغَمُوس ، عَلَى أنْ أحْفَظ عليهِ النَّاموس. فاتَّبعتُ مَرامَه ، ورَعَيْتُ ذمامَه ، ونَزَّلتُه بين الملاِ مَنْزِلَةَ الْفضَيل ، وسَدَلْتُ الذَّيَل عَلَى مَخازِي اللَّيل ، ولم يَزَل ذلِكَ دابَه ودابى ، إلى أنْ تهيَّـأَ إيابى .فوَدَّعْتُهُ وَهُوَ مُصرٌّ عَلَى التَّدْليس ، وَمُسِرٌّ حَسْوَ الخَنْدرِيس .

* * *

قوله : اعتورتنا ، أى قصدتنا ودارت علينا .

الغَموس : الشديدة ، وهى فى الجاهلية التى تغمس صاحبها فى العار ، وفى الإسلام تغمس صاحبها فى الأوزار ، والغَمْسُ ارتباط الشىء فى ماء ، أو صِبْغ حتى اللقمة فى الخلّ .

والغَموس قيل إنها اليمين التى يقطع بها الرجل حق غيره فيحلف كاذبا . الليث رحمه الله : هى اليمين التى لا استثناء فيها ، وفى الحديث : « اليمين الغَموس تدع الديار بلاقع » ، أى قفراً فارغة مِنْ كلّ رزق .

والناموس : إظهار فعل الخير ، وتنامس الرجل إذا ظهر بما لا يعتقد ، وأصل النَّمس الستر ، وكلّ شىء سترت به شيئاً فهو ناموس له ، وناموس الرجل صاحب سره ، ويقال : لصاحب سرّ الخير ناموس ولصاحب سر الشر جاسوس . قال أبو عبيدة : هما بمعنى .

غيره: الناموس: صاحب سر الملك، وقد نمس ينمس نمسا، ونامسته منامسة.
مرامه: مطلبه ومراده. رعيت ذمامه: حفظت حقّه، وما بيني وبينه مما يجب أن يراعى. الملأُ: الجماعة.

[ذكر الفضيل]

الفضيل: هو ابن عياض التميميّ، كنيته أبو عليّ، وهو ممَّنْ شهر بالزهد والخير، وهو من رجال رسالة القشيرى، قال صاحبها أبو على: خراسانى من ناحية مَرْو، ولد بسمرقَنْد، ومات فى الحرم سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكان شاطراً يقطع الطريق، وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو ذات يوم يرتقى الجدار إليها، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿ألمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشَع قلوبهم لذكرالله وما نزل من الحق[1]﴾، فقال: يارب قد آن، فرجع فأوى إلى خربة، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلا فى الطريق فيقطع علينا، فأمَّنهم وسار معهم حتى بلغوا، وجاور الحرم.

قال الفضيل: إذا أحبّ الله عبدا أكثر همَّه، وإذا أبغض عبدا وسَّع عليه دنياه.

وقال: الكامل المروءة من برّ والديه، وأصلح ماله، وأنفق ماله وأنفق من فضله، وأكرم إخوانه، وحسَّن خلقه، ولزم بيته.

وقال: إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحت، وقلت: أخلو بربى، وإذا أبصرت الصبح استرجعت كراهة أن يجىء مَنْ يشغلنى.

واطلع عليه بعض إخوانه من كوَّة ولحيته تقطر دموعا، فقال: يا هؤلاء،

(١) سورة الحديد ١٦.

ليس هذا زمن حديث إنما هو زمن : احفظ لسانك ، وعالجْ قلبك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر .

وقال : لوأنَّ الدنيا بحذافيرها عُرضت عليَّ لا أحاسب بها لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثيابه .

وقال : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس هو الشرك .

قال أبو عليّ سليمان الدارانيّ : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكا ولا متبسِّما إلا يوم مات ابنه عليّ ، فقلت له فى ذلك ، فقال : إن الله تعالى إذا أحبَّ أمراً ابتلاه .

وقال : إنى لأعصى الله فاعرف ذلك فى خلق حمارى .

وأخباره كثيرة ، وهذه اللمعة دالة عليها .

قوله : سدلت ، أى أرخيت . مخازى : قبائح ، وما يخزى عليها فاعلها . لو اطَّلع على فعله . دأبه ودأبى : عادته وعادتى . إيابى : رجوعى . مصر : مقيم التدليس : تلبيس الأمر وكتمان العيب .

ويشبه عذل ابن همام السروجى فى شرب الخمر ثم مساعدته إياه بعد لومه وشربه معه،قول ابن أبى ربيعة[1] ، وهو أحسن ما قيل فى المساعدة :

وخلٍّ كنتُ عينَ النصح منه	إذا نظرْت ومستمعا سميعَا
أطاف بغيَّه فنهيت عنها	وقلت له : أرى أمراً شنيعا
أردت رشادَه جَهْدى فلمّا	أبى وعصى أتيناها جميعا

(١) ديوانه ٤٩٥ .

وقال أعرابى :

وكنت إذا علقت حبال قومٍ صحبتهمُ وشيمتى الوفاء
فأحسنُ حين يحسِن محسنوهم وأجتنب الإساءة إن أساءوا
أشاء سوى مشيئتهم فآتى مشيئتَهم وأترك ما أشاءُ

المقامة التاسعة والعِشرُون وهى الواسطيَّة

حكى الحارث بن همَّام قال : ألجأنى حُكْمُ دَهْرٍ قاسطٍ ، إلى أنْ أَنْتجعَ أَرْضَ وَاسِط ، فقصدْتُها وأنا لا أعرفُ بها سَكَناً ، وَلاَ أَمْلِكُ فِيها مَسْكَناً . ولمَّا حَلَلْتُها حُلول الحوتِ بالبيداء ، والشَّعرة البيضاء فى اللِّمَّةِ السوداء ، قادنى الحظُّ النَّاقِص ، والجَدُّ النا كِص ، إلى خانٍ يَنزِل له شُذَّاذ الآفاق ، وأخلاطُ الرِّفاق ، وهو لِنظافةِ مَكانِهِ ، وظَرافةِ سُكَّانِهِ ، يرغِّبُ الغَرِيبَ فى إيطانِهِ ، ويُنْسِيهِ هَوَى أوطانِهِ . فاستفردْتُ مِنه بحجْرَة ، ولمْ أنافس فى أُجْرَة ، فما كانَ إلاَّ كلَمْحِ طَرْف ، أو خَطِّ حرف ؛ حتَّى سمعتُ جارِى بيتَ بيْت ، يقول لنزيله فى البيت :

. . .

ألجأنى : اضطرنى : قاسط : جائر . أنتجع : أقصد لطلب الرزق .

[ذكر واسط]

واسط : بلد معروف بناه الحجاج وسط المسافة التى بين البصرة والكوفة ، منها إلى كل واحدة منهما خمسون فرسخاً ، وسكنه ، ومات فيه .

قال اليعقوبى : واسط مدينتان على حافتى دجلة ، فالمدينة القديمة التى هى :

منازل الدهاقين هى الشرقية من دجلة ، وهى مدينة كَسْكَر. وابتنى الحجاج مدينة فى الجانب الغربى، وجعل بينهما جسرا من السفن، وبنى بها قصره والقبة الخضراء التى يقال لها خضراء واسط والمسجد الجامع ، وعليها سور ، ونزلها الولاة بعد الحجاج . وهى بين البصرة والكوفة والأهواز متوسطة ، فسمِّيت واسط بذلك .

قال الطبرى خرج[١] الحجاج يرتاد منزلا لأهل الشام ، فأمعن حتى نزل أطراف كَسْكَر ، فبينما هو كذلك ، إذ هو براهب قد أقبل على أتان له ، فعبر دِجْلة ، فلما كان بموضع واسط ، تفاجَّت الأتان فبالت ، فنزل الراهب فاحتفر ذلك البول وحمله[٢] حتى رمى به دجلة ، وذلك بعين الحجاج ، فقال : علىّ به، فلما أتاه[٣] قال : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : إنا نجد فى كتبنا أنه يُبنى فى هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه[٤] ما دام أحد فى الأرض يوحّده ، فاختط الحجاج مدينة واسط ، وبنى المسجد فى ذلك الموضع ، وذلك سنة ثلاث وثمانين .

* * *

قوله . سكنا ، أى صاحبا يُسكن إليه ويُؤنس به ، والمسكن : المنزل الذى يُسكن فيه . البيداء : الصحراء ، أراد أنه غريب ليس له صاحب ولا منزل كالحوت فى الصحراء . واللمّة : الجُمَّة من الشعر تُلِمّ بالمنكب . قادنى : ساقنى . الحظ : النصيب . والجَدّ : السعد . الناكص : الراجع إلى خلفه ، يريد أن سعده يمشى إلى جهة خَلْف ، ونكص ينكُص : رجع القهقرى . خان : فندق . والشذّاذ : الغُرباء الذين شذّوا عن أوطانهم ، أى فروا منها وبعدوا ، والشَّذّاذ التفرق ، وكلمة شاذة : مفترقة من جنسها ، وشذّ الرجل : انفرد عن أصحابه .

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ : ٣٨٤
(٢) الطبرى : «احتمله»
(٣) الطبرى : «فأتى به»
(٤) ط : «يوجد» تحريف

والآفاق : النواحى . أخلاط الرفاق : من لا يتخصص منهم ولا يتعين . إبطانه : سكناه . هوى أوطانه : حب بلاده . استفردت : سكنتها منفرداً . والحجرة : البيت . أنافس : أغالى ، من قولهم : نفستُ عليه بالشىء ، إذا ضننتَ به، ولم تحبّ أن يصير إليه . لمح الطرف: نظر العين . بيت بيت ، أى بيته ملاصق بيتى ، وهما اسمان جعلا كاسم واحد ، وبنيا على الفتح . نزيله : النازل معه .

* * *

قمْ يا بُنَىّ ،لَا قَعَدَ جَدُّكَ ، وَلَا قام ضِدُّكَ ، واستَصْحِبْ ذا الوجْهِ البَدْرِىّ ، واللَّونِ الدُّرّىّ ، والأصْلِ النقىّ ، والجِسْمِ الشقىّ ، الَّذِى قُبِضَ ونُشِر ، وسُجِنَ وشُهِرَ ، وسُقِىَ وفُطِم ، وأُدْخِلَ النَّارَ بَعْدُ ما لُطِمَ . ثم ارْكُض إلى السّوق ، رَكْضَ المشوق ، فقَايِضْ به اللَّاقِحَ المُلْقِح ، المُفسدَ المُصْلِح ، المُكْمِدَ المُفرِّح ، المُعَنّى المُرَوِّح ، ذَا الزَّفيرِ المُحْرِق ، والَحنينِ المُشْرِق ، واللَّفظِ المقْنع ، والنُّبْلِ المُمْتِع ، الّذى إذا طُرِق ، رَعَدَ وبرق ، وباحَ بالُحرَق ، ونفث فى الِخرَق .

* * *

جَدك : سعدك . ضِدّك : عدوك المخالف لك . البدرىّ : الأبيض المستدير كالبدر ، يريد الرغيف ،شبّهه بالبدر فى بياضه واستدارته . وقال ابن الرومى : مررتُ بخباز يبسط الرّقاق كأسرع من رجوع الطرف ، ما بين أن ترى العجين فى يده كالكرة حتى يندحِى فيصير كالقمر ، إلا مقدار لحظة ، فشبّهت سرعة انبساطها ، بسرعة الدائرة فى الماء يقذف فيه بالحجر فقلت :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازا مررتُ به
يدحُو الرّقاق كوشك اللمح بالبصر[١]

ما بين رؤيتها فى كفّه كرةً وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداحُ دائرة فى صفحة الماء يُرمى فيه بالحجر

* * *

[مما قيل من الشعر فى الغلمان]

ويتعلق بهذا ما قيل من الشعر فيمن ليس له نباهة من الغلمان : كان ابن وضاح جالساً مع جملة من الأدباء ، فمرّ بهم غلام نظيف يبيع الخبز ، فلم يتّجه لأحدٍ فيهِ شىء إلاّ ابنُ وضاح ، فإنهُ قال :

خابز الخبزِ ظريفُ عذبت فيه الحتوفُ
خامل الأنساب لكنْ هو فى الحسن شريف
خصره أهيفُ شختٌ[٢] وكذا الغزلان هِيف
من يخاصم مقلتيه حُكِّمت فيه السيوف

ونظر إدريس بن اليمانى إلى غلام وسيم بالحمّام عليه أسمال ، فقال :

توشّح بالظلماء وهو صباحٌ وأمرض بالأجفان وهى صِحاحُ
وظلّ فؤادى طائراً عن جوانحى وليس له إلاّ الغرامُ جناحُ

---

(١) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٧١
(٢) شخت ، أى ضامر .

قضيبُ صباح فى وِشاح دُجُنَّةٍ ألا ليتنى تحت الوشاح وشاحُ
ولا عجب أن أفسدَتْنِي جُفونه فـكلّ فساد فى هواه صَلاحُ

وقال الرَّصافى :

يقولون لى يوما وقد مرّ ضاربًا بمعوَلِهِ ضرْبَ المرجَّمِ بالْغَيْبِ (١)
تعلّمَ صَفَّـارا فقلت : استعـارها غداةَ رَنا من صِبْغة العاشق الصَّبِّ
يعود النحاس الأحمر التّبر عسجدًا
بِـكفّيه عند السبك والمدّ والضَّربِ
فحمرَتُه مشتقَّـة من حَيـائِهِ وصفرتُه مما يخافُ من العَتْبِ

قوله الدرىّ : الأبيض الذى يشبه الدرّ فى لونه ، ويقال : كوكب دُرّىّ منسوب إلى الدرّ ، مشبَّهًا به لصفائه وحسنه ، بضمّ الدال وتشديد الياء ، ودُرى بالضم والهمز ، ودِرىء بكسر الدال مع الياء ومع الهمزة ، ودرّىء بالفتح والهمز ، فمن كسر وهمز فهو فُعِيل ، من درأ الـكوكب ، إذا جرى فى أفق السماء ، ومن كسر بلا همز فلأجل الياء بعـد الراء ، ومَنْ ضم وهمز فخطّأه الفراء ، قال : فُعيل ليس فى أبنية العرب ، وأثبته سيبويه . قال أبو عبيدة : أصله دَروى مثل سَبُوح ، فجعلوا الواو ياء ، وجعلوا الضمة قبلها كسرة ، ومثله عُتوّ وعِتِىّ .

قوله : الأصل النقىّ ، يعنى القمح الذى صنع منه كان نقيًّا من الزبل وغيره. وشقاء جسمه ، قد فسّر فى التاسعة عشر ، وهو الآن يبيّن بعض شقائه ، فقبض ونشر . وقت العجن، أو وقت الخبز ، لأنه يقطع قبضة ثم يُبْسَط للخبز. سجن:

---

(١) ديوانه ٤٨ عن الشريشى

خُزن قمحه فى المخازن . وشُهِر : أبرز منها للسوق وشُهر على الناس ، أو يكون سجنه الغَرْن ، وشهرته البيع فى السوق ، أو عندما يُطاف به على الأسواق : وقال المعرىّ يُلغز فى القمح :

وسمراءَ فى بيضِ الحسان شريتُها   بصُفرٍ من العين الشّبيهة بالشمس
وقد غيِّبت فى الخِدْرِ عصراً مصونة   محجبة عن أعين الجن والإنس
فلمّا بدت عنه بدت سيمةُ النَّوى   عليها ولم تجزع لحادثة الأمس
فأهـلاً بأنثى لم تردّ يد لامسٍ   بسوء ولا أبدت نفاراً من اللّمس

سُقِىَ : جُعل الماء عليه للعجين . فُطِم : قطِع عنه الماء . لطِم : سُوِّىَ بالكفّ ، وعامتنا تشدّد الطاء . اركُض : أسرِع . المشوق : الكثير الشوق ، وشاقك الشىء يشوقك ، إذا هاجك . قايضْ : عاوِض ، وقايضت الرجل فعلتَ معه ما يُفعل معك . اللاّقح فى الأصل : الناقة يعلوها الفحل ، فتحمل منه . ولقحت : حملت ، والملقِح : الفحل يعلوها عند السفاد ، وقد بَيّن أنه يريد حجر الزند ، جُعل لاقحا لأنه حامل بالنار ، وملقِحاً لأنَّ به تخرج النار من الزند ، فكأنه ألقحه بالنار ، أى جعلها فيه . والزّند أيضاً لاقح ملقِح ، لأن النار لا توجد فى واحد منهما على انفراده ، والنار تُصلح فى موضع وتُفسد فى آخر ؛ فلذلك وصفه بهما . والمعنى : المتعِب بإحراقه . المروِّح : المدخل الراحة بإصلاحه ، وإن جعله للزند ، فمعناه إذا شحّ ، ومروّح إذا أورى ، ونحوه . المكمِد ، أى المحزن . المفرّح : ضدّه . والزّفير . التّنفس ، وزفرة الحجَر هى النار ، وهى تحرق كلَّ ما تعلّقت به . وهو الجنين ، أى المستور فى الحجر ، فإذا ظهر أشرق وأضاء . واللفظ : صوت الحجَر فى الزّند ، فإذا أبدى النار أقنعك واكتفيت به . وهو نيله ، أى عطاؤه . والممتِع : الكثير وقليل النار كثير ، وقد قال الأعرابىّ : إنَّ السِّقط يحرق الدوحة ، أراد ما يسقط من الزّند من النار الضعيفة يحرق الشجر

الـكثير الملتف . طرِق : ضُرب . رَعد : صوّت . برق : لمعت ناره . باح : أظهر ما يسرّ فيه . الحرَق : التهاب القلب بالهمّ ، فكنى به عمّا فى الحجر من النار . نفث : بزق . الحرَق : التى تسقط فيها نار الزند ؛ وهذه ألفاظ كلّها متقاربة ، بعضها يفسّر بعضا ، لأنها من مليح الـكلام .

* * *

قال : فلمّا قرّتْ شِقْشِقةُ الهادِر ، ولَمْ يَبْقَ إلّا صَدَرُ الصَّادِر ، بَرَزَ فتى يميسُ ، وَماَ معه أَنِيس ، فرأيتُها عَضْلَةً تَلْعَبُ بالعُقول ، وتُغْري بالدّخُول فى الفضولِ ، فانطلقْتُ في أَثَرِ الْغلام ، لأَخْبُرَ فَحْوَى الـكلاَم ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْعَى سَعْىَ الْعفاَريت ، وينفقَّدُ نَضَائِدَ الْحَوانيت ، حتّى انْتَهى عِنْدَ الرَّواح ، إلى حجارة القدَّاح . فَناَوَلَ بائعَهاَ رَغيفاً ، وتناوَل مِنْهُ حَجَرًا لطيفاً . فعجبت مِنْ فطانةِ المرسِلِ والمُرْسَل ، وعَلِمْتُ أَنَّهاَ سَرُوجية وإن لَمْ أسأل ، وماَ كَذَّبتُ أن بادَرْت إلى الخان ؛ مُنطَلِقَ الْعِنان ؛ لأنظرَ كُنْهَ فَهمِى ، وهَلْ قَرْطسَ فى التّـكهُّن سَهْمِى ؛ فإذا أنافى الفِرَاسةِ قارِسٍ ، وأبو زيدٍ بَوَصِيدِ الخانِ جالس . فتهادَيْناَ بُشْرَى الالتقاء ، وتقارَضنا تحية الأصدقاء .

* * *

قرّت : سكنت . الهادر : الفحل. وشِقْشقته : مايخرج منلهاته . وتقدّمت فى الأولى ، ويزعمون أنها لاتوجد عند نحر الفحل ، وكذلك بيضه لا يوجد ، قال : وأنشد بشر بن المعتمر :

خصيته تطلّ من حظمِه عند حدوث الذّبح والنّحرِ
ماإن يرى الراءون من بعدها شِقْشِقَةً مائـلة الهـدْرِ

وأراد به: سكَت المتكلّم. صدَر الصادر: خروج الخارج من الماء بعد شُرْبه. برز: خرج. يميس: يتبختر ويتثنى. عَضْلة: داهية وأمرٌ صعب. تَغرى: تحرّض وتلصق. فحوى: معنى. يسعى: يجرِى. العفاريت: شرّ الشياطين وأدْهاها. نضائد: ما جعل شيئاً على شيء. الرَّوَاح: العشيّ. القدّاح: حجر الزند تقدح النار منه. ناول: أعطى. لطيفاً: دقيقا. فطانة: ذكاء. وما كذّبت، أى ما خيّبت. منطلق العنان: مسيّب حيث شاء. كنه: حقيقة. قرطس: أصاب الغرَض مرة بعد أخرى، والقرطاس يُجعل غرَضا، فإذا توالى ضربه قيل: قَرْطس. والتكهن: الحديث بما يكون. والفِراسة: النظر بالظّن. وصيد الخان: فناء الفندق، وقيل بابه، من أوصدت الباب، أغلقته، وقيل: عتَبة بابه. تهادينا: أهديته وأهدانى. البشرى: السرور، أى فرح كلٌّ واحد منا بصاحبه. فتهادينا البشرى: تقارضنا: اندفعنا بالسّلام، يريد حالة الصديقين إذا التقيا بعد سفر، فيبالغ كلٌّ واحد منهما فى سلام صاحبه ويتابعه. والتحية: السلام، ومنه التحيات لله، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتمْ بتحيَّة فحَيُّوا بأحسنَ منها[1]﴾، أى سَلِّم عليكم. وقيل: التحية: المُلْك، وكان الملك يُحَيَّا بأنعم صباحا، وأبيت اللعن، وقيل: معناه البقاء لله، وقال زهير ابن جناب:

مِنْ كلّ ما نال الفتى قد نلتُه إلا التحيـة من إله قادرِ

أى البقاء.

---

(١) سورة النساء آية ٨٦

ثمَّ قالَ : ماالَّذِى نَابَكَ ، حَتَّى زايلتَ جنابَكَ ؟ فقلت : دهرٌ هاضَ ، وجَوْرٌ فاض . فقال : والّذِى أنزلَ الْمطرَ من الغمام ، وأخرج الثّمرَ من الأكمام ؛ لَقَدْ فَسَدَ الزَّمان ، وعَمَّ العُدْوانُ ، وعُدِمَ المِعْوَان ، واللهُ المُستَعانُ ؛ فكيفَ أَفلَتّ ، وَعَلَى أىٍّ وَصْفيكَ أجفلت ! فقلتُ : اتخذتُ اللَّيْلَ قميصاً ، وأدلجتُ فيه خميصاً . فأطرقَ ينكتُ فى الأرض ، ويفكّر فى ارتيادِ القرْض والفرْض . ثمَّ اهتزَّ هِزّةَ مَنْ أَكثبهُ قَنَص ، أو بَدَتْ لَهُ فُرَص ، وقال : قَد عَلِقَ بقلبى أن تُصاهِرَ مَنْ يأسُو جِراحَك ، ويَرِيشُ جناحَك ، فقلت : وكيفَ أجمع بَيْنَ غُلٍّ وقُلّ ، ومَنِ الّذى يرْغَبُ فى ضُلّ ابن ضُلّ ! فقال : أنا المشيرُ بِكَ وإليك ، والوكيل لَكَ وعليك ، مع أنّ دينِ القوم جبرُ الكسير ، وفكّ الأسيرِ ، واحترام العَشِير ، واستنصاحُ المُشير ؛ إلاَّ أنهم لو خَطَبَ إليهمْ إبراهيمُ بن أدْهم ، أو جبَلة بن الأيهم ؛ لَمَا زوّجوه إلاّ على خمسمائة دِرْهم ، اقتداءً بِما مَهَرَ الرَّسول صلّى الله عَليْهِ وسلّم زوجاتِه ، وعَقَدَ بِهِ أنكحة بناتِه ؛ على أنك لَنْ تُطالَبَ بِصَدَاق ، ولا تُلْجأَ إلى طلاقٍ . ثمَّ إنّى سَأَخطبُ فى موقفِ عَقْدِك ، ومجمعِ حَشْدِك ، خطبةً لَمْ تفتُق رَتْقَ سَمْع ، ولا خُطِب بمثلها فى جَمْع .

* * *

نابك : نزل بك . جنابك : بلدك وناحيتك، والجناب : فناء الدار . هاض :

كسر . فاض: كثر . الغمام : السحاب . والثمر: الثمار . وأكامها : ما يكون فيها ثمرها ،وكل ماوارى شيئاً فهو كام له وكمّ . عمّ : شمل . العدوان : الفساد . المعوان : ما يستعان به . وقال الشاعر :

لله درّ أبيـــك أىّ زمـانٍ أصبحت فيه وأىّ أهل زمانِ
كلٌّ يدانيكَ المحبة جاهـلاً يعطى ويأخُذُ منك بالميزانِ
فإذا رأىَ رُجْحَانَ حَبّة خردلٍ مالت مودّتُه مع الرجحـانِ

وقال ابن لنـكك (١) :

نحنُ مع الدهر فى أعاجيبِ فنسأل الله صَبْرَ أيوبِ
أقفرتِ الأرضُ من محاسنها فابكِ عليها بـكاء يعقوبِ

وَصَفْقَيْك : حاليْك من الخير والشرّ ، وهى حالة السفر . أجفلْت : هربت مسرعاً ، والإجفال : الهروب ، ثم قال : مشيت فى ظلام الليــل ، فصار لى كالقميص . أدّلجت : مشيت فى السحر . خميصاً : جائعا . أطرق : أمال رأسه ساكنا . ينـكُت : يخطّ فى الأرض . ارتياد : طاب . الفرض من العطية : ما فرضت على نفسك عطاءه ، على ألا تجازَى عليه . والقرض : ما أعطى من غير فرض .

قال الحريرىّ : القرض بالقاف : ما يستعاد عوضه ، والفرض بالفاء : مالا عوض فيه ، وأنشد فى الدرّة (٢) لأبى عبد الله النّمرىّ يرثى أبا عبد الله الأزدىّ :

مضى الأزدىّ والنّمرىّ يمضى وبعض الشَّـكْلِ مقرون ببعضِ
أخى والمجتنِى ثمرات ودّى وإن لم يجزنى قَرْضى وبرضِى

(١) هو محمد بن محمدبن لنـكنك البصرى ، وله ترجمة فى اليتيمة ٢ : ٣٣٠ ـ ٣٢٤ ، وفيها البيتان .

(٢) درة الغواص ص ٤٧ .

وكانت بيننا أبداً هنات ... توفّر عرضَهُ فيها وعِرْضِي
وما هانَتْ رجال الأزد بعدِي ... وإن لم تدنُ أرضهمُ من ارضي

الهنات: كناية عن المنكرات، فأراد أنه أمال رأسه إلى الأرض مفكراً، وجعل يخط فيها بيده أو بعود، وهو فعل المهموم الكثير الفكر، كما قال امرؤ القيس:

ظَلَلْتُ ردائى فوق رأسِى قاعداً ... أعدّ الحصَى ما تنقضى عبراتى[١]

فلم يرد أنه يعدّها ليعلم كم فيها، وحاله من البكاء والحيرة تنفى الثبات على العدد، وإنما أراد أنه كان يعبث فيها بيده اشتغالا، وفى قلبهِ من الهمّ ما غلب على الصبر، وقد بالغ ذو الرمّة فى بيان هذا المعنى بقوله[٢]:

عشيّة مالى همّةٌ غيرَ أنّنِى ... بلقط الحصى والخطّ فى الدار مولَع[٣]
أخطّ وأمحو تارةً وأعيدُه[٤] ... بكفّى والغربان فى الدّارِ وقّعُ

وقال ابن جعيل فى ذلك:

لا ينكتُون الأرض عند سؤالهمْ ... لتطلّب العِلّات بالعيدانِ
بل يبسطون وجوهَهُمْ فترى لهم ... عند السؤال كأحسن الألوانِ

وقال الشريف الرضىّ فأحسن:

تفرى أنامله التراب تعلّلاً ... وأناملى فى سِنِّ المقروع[٥]

(١) ديوانه ٧٨
(٢) ديوانه ٣٤٢، ٣٤٤
(٣) فى الديوان: «فى الترب مولع».
(٤) فى الديوان: «وأمحو الخط ثم أعيده».
(٥) ديوانه ١: ٤٩٧ وفيه: «تفلى أنامله».

قوله : أكثبه ، أى دنا منه . قنَص : صيْد . فرص : جمع فرصة ، وهى كالغنيمة . يأسو : يطبّ . يريش : يجعل عليه الريش . الغُلّ : الزوجة هنا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنما النساء أغلال فلينظر أحدكمُ غلاًّ يجعل فى عنقه .

وتقول العرب للمرأة السّيئة الخلق : غُلّ قمِل [(١)] .

وعوتب الكسائى فى ترك التزوّج فقال : وجدت معاناة العِفّة أيْسر من معاناةِ العيال .

القُلّ : القِلّة . وضُلّ ابن ضُلّ : مجهول لا يعرف ، وفلان ضُلّ إذا كان مجهولا متمكنا فى الضلال . المشير بك وإليك ، يقال : أشار به إذا رفعه وأشار النارَ وأشار بها وتشوّرها ، أى رفعها ، فمعنى أنَا المشير بك ، أى أرفعُ قدرك ، وأعظِم منزلتك ، أى أثنى عليك بخيرٍ فى غيبتك عند إصهارك ، والمشير إليك إذا حضرت ، أشرت إليك أن تتزوّج فيهم إذا رأيتهم أكفاءك .

والوكيل لك عليهم حتى يزوّجوك ، والوكيل عليك ، لتمتثل ما آمرك به من الزواج فيهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قيل فيه : الكافى هو ، قال الفراء : يكون المعنى : كافينا الله ونعم الكافى ، كقولك : رازقنا الله ونعم الرازق . ابن الأنبارىّ وهو أحسن فى اللفظ من قولك : كافينا الله ونعم الوكيل . دينهم : عاداتهم . جبر : إصلاح . فكّ : حلّ . احترام : إعزاز وتقريب ، وهو افتعال من الحرمة ، أى يجعلونه فى حرمتهم ، المشير : الصاحب . استنصاح المشير ، أى مَنْ أشار عليهم بشىء رأوه ناصحاً .

---

(١) قال فى اللسان : «أصله أنهم كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الشعر ، فيتقمل القد فى عنقه» .

[ترجمة إبراهيم بن أدهم]

إبراهيم بن أدهم ، هو من شيوخ الصوفية ، وهو من رجال رسالة القشيرى[١] ، قال صاحبها : فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخىّ من كُورة بلخ ، من أبناء الملوك .

وحدث إبراهيم بن بشار ، قال : صحبت إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخىّ بالشام ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، خبِّرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ فقال : كان أبى من ملوك خراسان، وكنت شابًّا ، فركبت يوما على دابّة ومعى كلب ، وخرجت إلي الصيد فأثرت ثعلبا ، فبينا أنا فى طلبه ، إذ هتف بى هاتف : ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل مثل ذلك ثلاث مرّات ، ثم هتف بى من قَرَبوس السرج : لا والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمِرْت . قال : فنزلت وصادفت راعياً لأبى ، فأخذت منه جُبّة من صوف، فلبستها وأعطيته الفرس، وما كان معى . ثم دخلت البادية متوجِّها إلى مكة ، فبينا أنا يوما فى مسيرى إذا برجل يسير ، وليس معه إناء ولا زاد ، فلمّا أمسى وصلّى المغرب حرّك شفتيه بكلام لا أفهمه ، وإذا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت على ذلك معه أياما ، وعلّمنى اسم الله الأعظم ، ثم غاب عنى ، وبقيت وحدى أنا ذات يوم مستوحش من الوَحْدة ، دعوت الله فإذا أنا بشخص آخذ بحُجْزتى ، فقال لى : سَلْ تُعطَ ، فراعنى صوته ، فقال : لا روعة عليك ولا بأس ، أنا أخوك الخِضر، إنّ أخى داود علّمك اسم الله الأعظم فلا تدعُ على أحد بينك وبينه شحناء فتهلكه ، ولكن ادع الله به أن يقوّىَ ضعفك ، ويؤنس وحشتَك ، وتجدّد به فى كلّ يوم نيّتك ورغبتك ، ثم تركنى وانصرف .

---

(١) رسالة القشيرى ص ٥١ .

وصحبه سفيان الثورىّ والفضيل بن عياض ودخل الشأم ومات بها . وكان يأكل من عمل يده ، مثل الحصاد وحفظ البساتين .

وكان كبير الشأن فى الوَرَع ، وقال : أطِبْ مطعمك ولا عليك،ألاّ تقوم بالليل ولا تصوم بالنهار .

وكان عامة دعائه : اللهم انقلنى من ذلّ معصيتك إلى عز طاعتك .

وقال لرجل فى الطّواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستّ عقبات ، وهى أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، وتغلق باب العزّ وتفتح باب الذلّ ، وتغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، وتغلق باب النوم وتفتح باب السهر ، وتغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر ، وتغلق باب الأمن وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال محمد بن المبارك الصورىّ : كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس ، فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمّان ، فصلّينا ركعات ، فسمعت صوتا من أصل الرمان : يا أبا إسحاق ، أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً ، فطأطأ رأسه فقال ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : يا محمد ، كن شفيعا إليه ليتناول منّا شيئاً ، فقلت : ياأبا إسحاق ، لقد سمعتَ ، فقام وأخذ رمانتين ، فأكل واحدة وناولنى الأخرى ، فأكلتها وهى حامضة ، وكانت قصيرة ، فلمّا رجعنا مررنا بها وهى شجرة عالية ورُمّانها حــلو ، وهى تثمر فى كلّ عام مرتين ، وسمَّوْها رمانة العابدين .

وركب إبراهيم فى مركب ، فهاجت ريح شديدة ، فلفّ إبراهيم رأسه بعباءة وطرح نفسه مع الناس ، فسمعوا صوتا من البحر يقول : لا تخافوا فقيكم

إبراهيم بن أدهم ، وصاح الناس فى المركب : أين إبراهيم بن أدهم ؟ ثم سكنت الريح ، فخرج وما عرفوه .

قال له رجل : من أين كسبك ؟ فقال :

نرقّع دنيـانا بتمزيق ديننـا　　فلا ديننـا يبقى ، ولا ما نرقِّعُ

وأخباره فى كتب التصوّف كثيرة تطول .

[ذكر جبلة بن الأيهم]

وأما جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن جَفْنة ، وفى نسبه اختلاف .

وهو آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثنى عشر شبرا ، فإذا ركب مسح الأرض بقدميه .

ولما أراد أن يُسلِم كتب إلى عمر ليستأذنه فى القدوم عليه ، فسُرّ بذلك وكتب إليه : أن اقدَم ، فلك مالنا وعليك ما علينا ، فخرج فى مائة فارس من عَكّ وجفنة ، فلما دنا إلى المدينة ألبسهم ثياب الوشْى المنسوجة بالذهب الأحمر والحرير الأصفر ، وجلّل الخيل بجلال الديباج ، وطوّقها أطواق الذهب والفضة ، ولبس تاجه وفيه قُرْطا مارية ، فلم يبق فى المدينة إلا من خرج إليه ، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه .

ثم حضر الموسم مع عمر ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من فزارة فحلّه ، فالتفت إليه جبلة مغضَباً ، فلطمه فهشم أنفه ، فاستعدى عليه الفزارىّ عمر ، فقال : ما دعاك إلى أن لطمت أخاك ؟ فقال : إنه وطىء إزارى ، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه عيناه ، فقال له عمر : أمّا

أنت فقد أقررت ، فإما أن تُرضيَه وإما أن أقيدَه منك ، قال : أتقيدُه منى ، وهو رجل سوقة ! قال : قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية ، قال: قد رجوتُ أن أكون فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية ، فقال : هو ذاك ، قال : إذاً أتنصّر . قال : إن تنصّرت ضربت عنقك . واجتمع وفد فزارة ووفد جَبَلة، وكادت تكون فتنة ، فقال جبلة : أنظرنى إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك إليك .

فلما كان فى جُنْح الليل خرج فى أصحابه إلى القسطنطينية فتنصَّر ، وأعظم هِرَقْلُ قدومَه وسُرَّ به وأقطع له الأموال والرّباع ، فلما بعثَ عمر رضى الله عنه رسوله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة ، ثم قال للرسول : أرأيت ابن عمّك الذى أتانا راغباً فى ديننا ؟ يعنى جبلة ، قال : لا . قال : الْقَه ثم ائتنى وخذ الجواب . فذهب فوجد على باب جَبلة من الجمع والحجاب والبَهْجة مثل ما على باب قيصر .

قال : فتلطّفتُ فى الأذن حتى دخلتُ عليه : فرأيت رجلا أصهب اللحية فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرّها على لحيته ، حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير . فلما عرفنى رفعنى معه على السّرير ، وجعل يسائلنى عن المسلمين ، فقلت: قد أُضعِفوا إضعافا على ما تعرف ، وسأل عن عمر رضى الله عنه ، فقلت : بخير حال ، فاغتمّ بسلامة عمر ، فانحدرتُ عن السرير فقال : لِمَ تأبى الكرامة ؟ فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا، قال: نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك من الدّنس ولا تبالِ علام قعدت ، فطمعت فيه عند صلاته على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : ويحك ياجبلة ألا تُسلم ! وقد عرفتَ الإسلام وفضله ؟ قال : أبعدَ ما كان منى ! قلت: نعم ، قد فعل رجل من فزارة أكثر ممّا فعلت ، ارتدّ وضرب أوجه المسلمين

بالسيف ثم أسلم ، وقبِل منه وخلّفْتُه بالمدينة مسلما .

قال : زدنى من هذا ، إن كنت تضمن لى أن يزوّجَنى عمر ابنته ويولّيَنى الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام . فضمنت له التزويج ، ولم أضمن الخلافة . فأومأ إلى وصيف بين يديه، فذهب مسرعاً فإذاموائد الذهب قد نُصبت بصحائف الفضة، فقال لى : كُلْ ، فقبضت يدى ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك ، وكلْ فيما أحببت . فأكل فى الذهب والفضة ، وأكلتُ فى الخلَنج[1] . ثم جىء بطشت من الذهب، فغسل يديه فيها ، وغسلت فى الصُّفر. ثم أومأ إلى خادم عن يمينه ، فذهب مسرعاً ، فسمعت حسّا ، فإذا خدمٌ معهم كراسىّ مرصّعة بالجواهر ، فوُضِع عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره . وإذا عشر جوار فى الشعور ، عليهنّ ثياب الوشى ، مكسّرات فى الحَلْىِ ، فقعدن عن يمينه ، وقعد مثلهن عن يساره ، وإذا بجارية قد خرجت كالشمس حسنا ، وعلى رأسها تاج عليه طائر ، وفى يدها اليمنى جام ، وفيه مسك وعنبر فتيت ، وفى يدها اليسرى جام فيه الورد ، فصفرت للطائر ، فوقع فى جام ماء الورد ، فاضطرب فيه ، ثم وقع فى جام المسك ، فتمرّغ فيه، ثم طارفوقع على صليب فى تاج جبلة ، فرفرف حتى نفض ما فى ريشه عليه ، وضحك جبلة من شدة السرور ثم قال للجوارى اللاّتى عن يمينه : بالله أضحِكْننا فاندفعن يغنين ، تخفق عيدانهنّ يقلـــــــن :

لله درّ عصـــابة نادمتُهمْ يوماً بجلّقَ فى الزمان الأوّلِ[2]

---

(١) الخلنج : شجر تتخذ منه الأوانى .

(٢) ديوان حسان ص ٣٠٨ .

يسقُونَ منْ ورد البريصَ عليهمُ بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل[1]
أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ قبر ابن مارية الكريم المفضلُ
يُغشَوْن حتى ما تهرّ كلابهمْ لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه نقيّةٌ أحسابُهُمْ شمّ الأنوف من الطّراز الأولِ

فضحك ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثمّ قال للاتى عن يساره : بالله أبكيننا ، فاندفعن بعيدانهنّ يغنّين :

لمن الدار أقفرتْ بعُمانِ بين أعلى اليرموك والصَّمّانِ[2]
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدّهْـــر وحقٌّ تعاقبُ الأزمانِ
قد أرانى هناك دهراً مكيناً[3] عند ذى التاج مَجْلِسى ومكانى
ثَكِلَتْ أمّهم وقد ثكِلتْهُمْ يوم حَلُّوا بحارث الجُولان
ودنا الفِصْح فالولائد ينظمــ ن سراعا أكِلّةَ المرجان

فبكى حتى سالت الدموع على لحيته ، ثم قال لى : وهذا لحسان أيضاً ، ثم أنشأ يقول :

تنصّرتِ الأشراف من أجلِ لطمةٍ وما كان فيها لو صبرتُ لها ضَرَرْ
تكنّفنى فيها لجــاج ونخوةٌ وبعتُ بها العينَ الصحيحة بالعَوَرْ
فيــاليت أمّى لم تلدْنِى وليتنى رجعت إلى الأمر الذى قال لى عُمَرْ
وياليتنى أرعى المخاضَ بقفرةٍ وكنت أسيراً فى ربيعة أو مُضَرْ

(١) لحسان بن ثابت ، ديوانه ٣٠٨ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات
(٢) البريص وبردى : نهران بالشام . ويصفق يمزج .
(٣) لحسان ، ديوانه ٤١٤ ، وفيه : « أوحشت بعمان » وفيه أيضاً : « فالخام » بدل « الصمان » قال شارحه : وهى مواضع بأكناف دمشق .
(٤) الديوان « حق مكين »

ويا ليت لى بالشأم أدنى معيشةٍ أجالس قومى ذاهبَ السمع والبصرْ

ثم سألنى عن حسان ، أحىٌّ هو ؟ قلت: نعم . ثم أمر بمال وكسوة ونُوق موقورة برًّا ، وقال : أقرئه سلامى ، وادفع له هذا إن وجدته حيًّا ، وإن وجدته ميّتاً ، فادفعه إلى أهله ، وانحر الجمال على قبره .

قال: فلما قدمت على عمر أخبرته الخبر، فقال : هلاّ ضمنتَ له الأمر،فإذا أسلم قضى الله علينا بحكمه ! ثم بعث إلى حسان ، فأقبل وقد كُفّ بصره ، فلما دخل قال : ياأميرالمؤمنين إنى وجدتُ ريح آل جفنة ، قال: نعم ، هذا رجل أقبل من عنده قال : هات يا بن أخى ما بعث به إلىّ معك ؟ قلت : وما علمك ؟ قال : إنه كريمٌ من عصبة رجال كرام مدحتُهم فى الجاهليّة ، فحلف ألاّ يلقى أحداً يعرفنى إلا أهدى إلىّ معه شيئاً . فدفعته إليه وأخبرته بأمره فى الإبل ، فقال : وددت أنى كنت ميتاً فنحرتَ على قبرى ، ثم أخذها وانصرف وهو يقول :

إنّ ابنَ جفنة من بقيّةِ معشرٍ لم يغذُهم آباؤهمْ باللُّـــوم
لم يَنسنى بالشام إذ هو ربُّها كلاّ ولا متنصِّراً بالـــروم
يعطى الجزيل، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المــذموم
وأتيته يوما فقرّب مجلسى وسقى وروّانى من الخرطوم

وذُكِر أنّ رسول عمر لما أرسله إلى قيصر ، قال : وأمرنى أن أضمن لجبلة ما شرط ، فلمّا قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته ، فعلمت أن الشقا. قد غلب عليه[1].

— وحُدّثت أن صاحب بَرْطونة[2] اليوم من ذرّيته . وذكر الثعالبىّ أنه وجد للصّابى فصلا من كتاب استظرفه جدًّا ، يذكر صلةً وصلت إليه

(١) برطونة : بليدة على الفرات مقابل رجنة مالك بن طوق ــ ياقوت .
(٢) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤١ .

من الصاحب ، وهو : وصل أطال الله بقاء سيدنا أبو العباس أحمد بن الحسين ، وأبو محمد أحمد بن جعفر بن شعيب حاجّين ، فعرّجا إليّ ملمّين ، وعاجا عليّ مسلّمين ، فحيين عرفتهما ، وقبل أن أردّ السلام عليهما مددت اليد إلى مامعهما ، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم ، ثقةً منّي بصلته ، وشوقا[1] إلى تكرمته ، واعتماداً[2] لإحسانه ، وألفا لموارد إنعامه ، وتيقّناً أن الخطرة منى على باله ، مقرونة بالنّصيب من ماله ، وأن ذِكْراه ، مشفوعة بجدواه[3].

رجع ما انقطع . فيريد أنه لو خطب لهؤلاء القوم ابنُ أدهم على زهده وفضله ، أو ابن الأيهم على ملوكيته وعزته لسوَّوْا بينهما فى الصَّداق اقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

[ذكر مغالاة الصّدُقات]

وجاء فى الترمذيّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لاتغالُوا فى صَدُقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة أو تقوى عند الله ، لكان أولاهم بها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ، وما أعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه ، على أكثر من اثنتى عشرة أوقية .

قال ابن عيينة : والأوقية عند أهل العلم أربعون درهما ، واثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانون درهما .

وفى غير الترمذى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «تياسروا فى الصَّداق» وكانت صدقات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم على عظم قدره ، وعلّو مرتبته

---

(١) اليتيمة : « تشوقا » (٢) اليتيمة : « واعتيادا »

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٢٢

اثنتى عشرة أوقية ونشًّا ، والنّش عشرون درهما ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى عن عمر رضى‌الله عنه: أنه حمد الله‌وأثنى عليه، ثم قال: ألا لاتغالوا فى صَدُقات النساء ، فإنه لا يبلغنى عن أحد أنه ساق أكثر من شىء ساقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سيق إليه إلاّ جعلت فضل ذلك فى بيت المال . فعرضتْ له امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، كتاب الله أحق أن يُتَّبع أو قولك؟ قال : كتاب الله تعالى . ثم قال : فيم ذلك ؟ قالت : الله تعالى يقول : ﴿ وآتيتم إحداهنّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾[1] . فقال عمر رضى الله عنه : كلّ أحد أفقه من عمر ! ثم رجع إلى المنبر ، فقال : إنى كنت نهيتكم عن أن تغالوا فى صدقات النساء ، فليفعل كلّ رجل منكم فى ماله ما أحبّ .

فرجع عمر عن اجتهاده إلى ما قامت عليه الحجة فأباحه للناس واستعمله فى نفسه ، فأصدق أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم أربعين ألفاً . والقنطار ألف دينار ومائتا دينار ؛ إلا أن المياسرة فى الصداق أحبّ عند أهل العلم من المغالاة .

ومن الملح فى صداق خمسمائة ، ما حدّث به ابن أبى شيبة قال : كان حجاج جارنا، فسمعته يقول لأبيه: تزوجَتْ أمى على خمسمائة درهم ، وبقيت أنا لك ربحاً ، فقال له أبوه : من سخنة عين هذا الربح أخشى .

* * *

قوله : مَهَرَ : يقال : مَهَرَ المرأة يمهَرها ، وأمهرها : عيّن لها مهراً . لن تطالَب بصداق ، أى أن القصة ليس لها حقيقة . فليس ثَمّ من يطالبك بصداق ولا طلاق. حشدك : جمعك ، وأصله مصدر ، ثم استعمل لجماعة الناس . تفتّق : تشق . رتْق: غلق . والسمع : الأذن .

* * *

(١) سورة النساء ٢٠

قال الحارث بن همّام . فازدَهانى بوصْفِ الْخطبةِ المتلُوّة ، دُونَ الخِطْبة المجلوَّة ؛ حتى قلت له . قدْ وَكَلْتُ إليْكَ هـذا الخطْب ؛ فدبِّره تَدْبير من طبّ لمن حبّ .فنهض مُهَرْولاً ، ثمّ عادَ مُتهَلِّلاً ، وقال : أبْشِرْ بإعْتابِ الدَّهْر ، واحْتِلابِ الدَّرّ ؛ فقدْ وُلِّيتُ العَقْد، وأكفِلْتُ النَّقْد ، وكأنْ قدْ ثم أخذ فى مواعَدَةِ أَهلِ الخان ، وَإعْدادِ حَلْواءِ الخِوان . فلمَّا مَدَّ اللّيلُ أطْنَابه ، وَأغلق كُلُّ ذى بابٍ بابَه ، أَذَّنَ فِى الجماعة : ألاَ احْضُرَوا فِى هذه السّاعَة ؛ فلمْ يَبقَ فيهمْ إلاَّ مَنْ لَبّى صَوْتَه ، وحَضرَ بيتَه. فلما اصْطَفُّوا لَدَيْهِ ، واجْتَمعَ الشاهِدُ والمشهودُ عليه ، جعَل يرفع الأصْطرْلاب ويَضعُه ، ويلحظُ التّقويم وَيَدَعُه ، إلى أن نعس القـوْم ، وغَشِىَ النَّوْم ، فقلتُ له : يا هذا ضع الفاسَ فى الرّاس ، وخلّص الناس من النُّعاس . فنظر نظرَةً فى النُّجوم ، ثمّ انتشط من عُقـلَه الوُجُوم ، وأقسَم بالطُّور ، والـكتاب المسْطـــور ؛ لَيَنْكَشِفَنَّ سِرُّ هَذَا الأمْرِ المسْتُور ، ولَيَنْتشِرَنَّ ذِكْرُه إلى يَوْم النّشور . ثمَّ إنَّهُ جثَا عَلَى رُكْبَتِهِ ، واسْتَرْعَى الأسْمَاعَ لخطْبَتِهِ ،

* * *

ازدهانى : دعانى إلى الزهو ، وهو العُجب والـكبر ، أىأعجبت بوصفها ، المتلوّة : المقروءة . الخِطبة : الزوجة المخطوبة . المجلوّة : التى كشف وجهها لينظر إليها . وكَلت : أسندت إليك ، وجعلتك القائم . الخطب : الأمر .

طبّ : أصلح حال العليل . فيقول : دبّر هذا الأمرَ تدبير الطبيب أمرَ

حبيبه إذا كان عليلا ، وطبّه أى عناه ، وقيل : معنى طبّ حذق بالشيء وجاد فيه ذهنُه ، والطّبّ :الحاذق بالأمر ، فيكون معناه ، دبِّر أمرِى تدبير المميّز الحاذق أمرَ حبيبه .

قال ابن الأنبارىّ : قولهم : مَنْ حبّ طبّ ، أى من أحب حَذَق وفطِن واحتال لمن يحب ، والطّبّ فى اللغة : الحِذْق والفطنة ، ورجل طبيب وطبّ ، إذا كان حاذقاً ، وسمِّى الطّبيب لفطنته .

ومعنى حَبّ أحبّ . وقال البصريون : لا يقال : حبّ يُحِبّ ، وجاء عنهم : محبوب ، على فعلٍ لا يُتكلم به . الكسائى والفراء : يقال : حببت وأحببت ، وحبّ فى المثل يدلّ على صحته . والبصريون يقولون . حبّ إتباع لطبّ .

مهرولا : مسرعاً . متهلّلا : مستبشراً . إعتاب : إرضاء . الدّرّ : اللّبن . ولِّيت العقد ، أى أعطيت النكاح ، أى جعلنى أبو الزوجة وليّا لها . أُكْفِلت النقد ، أى جعلت كفيلا على أخذه ، والكفيل : الضامن ، أو يكون معنى أُكْفِلْت: ضمِن لى وأُعطيت كفيلاً . والنّقد : المال الحاضر . وكأن قد ، أى وكأن قد أحضر المال وتيسّر النكاح . الخوان : المائدة . أذّن : صاح . لبى : أجاب وقال : لبيك . الأَصطرلاب : آلة للمنجّمين يأخذون بها الأوقات . يلحظ : ينظر . التقويم : التعديل . غَشِىَ النوم : غطّى العيون وَخمّرها . ضع الفاس فى الراس ، أى اقصد إلى عين الخبر ، وهى كلمة تقال عند التوكيد فى العزم على الأمر ، ومعناه : اقطع ما تريده من الأمر وافعله .

والذى نظر نظرة فى النجوم ، هو إبراهيم عليه السلام ، لأنه تفكر ما الذى يصرفهم عنه إذا كلّفوه الخروج معهم ، فقال : إنى سقيم . انتشط : انحلّ . والعُقلة : ما ينشب فيها الإنسان فتعقله ، ويقال : لفلان عُقلة يعتقل بها الناس ، وذلك إذا صارعهم عقل أرجلَهم . والوجوم : العبوس والحزن الشديد ، أراد

أنه كان فى تقويمه طالع نحس ، فكان معبّسا حزيناً ، فلما زالت ساعته ودخلت ساعة طالع سعد ، استبشر وزال عبوسه ، وإنما عقد هذا النكاح ليلاً لأن قصدَه المكر ، ولأنهم كانوا يختارون نكاح آخر النهار على أوله . قال بعض العلماء: ذهبوا فى ذلك إلى اتّباع السنة فى الفأل ، فآثر الناس استقبال الليل بعقد النكاح ، تيمّناً بما فيه من الهدوّ والاجتماع على صدر النهار ، لما فيه من التفرق والانتشار، وذهبوا إلى تأويل القرآن لأن الله سمّى الليل فى كتابه «سكَناً» ، وجعل النهار « نشوراً » كما يستحبون النكاح يوم الجمعة للاجتماع ، وقال الشاعر :

ويوم الجمعـــة التنعيم فيه وتزويج الرّجال من النساء

الطور : جبل موسى عليه السلام الذى آنس من جانبه النّار وكلّمه الله عنده . سرّ هذا الأمر ، أراد ما أضمره لهم من الخداع ، أى أنه سينكشف ويتحدّث به إلى يوم القيامة . جثا : يجثو جُثُوًّا : جلس على ركبتيه . استرعى : استدعى . الأسماع : الآذان ، ويقال : أرعنى سمعك ، أى اسمع منى ، وأخلِ أذنيك لاستماع حديثى .

* * *

وقال : الحمد لله الملِك المحمود، المالك الوَدُود ، مصوّرِ كلِّ مولودٍ ، ومآلِ كلِّ مَطْرود ، ساطِحِ المِهاد ، وموطِّدِ الأَطواد ، ومرسل الأمطار ، ومُسَهِّلِ الأوطار ، عالِم الأسرار ومُدْركها ، ومدمِّرِ الأملاكِ ومُهْلِكها ، ومكوّرِ الدّهور ومكرّرها ، ومُورِدِ الأمورِ ومُصْدِرها . عمّ سَماحُه وكَمَل ، وهَطَل رُكامه وهَمل ، وطاوَع

السُّؤل وَالأَمَل. وأوسَع المرْمِل والأرْمَل. أَحْمَدُه حمداً ممدوداً مداه، وَأُوَحِّده كما وَحَدَه الأوّاه، وَهو اللهُ لا إله للأُمم سِواه، وَلا صَادِع لِمَا عدّله وَسوّاه. أَرْسلَ محمداً علماً لِلإسلام، وَإماما للحكّام، وَمُسدِّدًا للرّعاع، ومعطِّلاً أحكام وَدٍّ وسُواع، أعْلَمَ وعلّم، وحَكم وأحْكم، وأصّلَ الأصُولَ وَمَهَّد، وأكّد الوُعود وأوْعَد؛ واصل اللهُ لَهُ الإكرام، وأوْدَعَ روحه دار السَّلاَم، ورحم آلَه وأهلَه الكرام؛ ما لَمع آل، ومَلَع رال، وطلع هلال، وسُمِع إهْلال.

. . .

قوله: مآل، أى ملجأ. مطرود: مَنْفِيّ. ساطح: باسط. المهاد: الأرض. موطّد الأطواد: مثبّت الجبال. والأوطار: الحاجات. مدمّر الأملاك، أى مهلك الملوك، والأملاك: جمع مَلِك.

[أشعار فى التطيّر من الدنيا والزهد فيها]

وهذا كما قال عدّى بن زيد:

أينَ كسرى كسرى الملوكِ أنوشِرْ ... وانَ أم أين قبلَه سابورُ[1]

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّوم ... لم يبق منهمُ مَذكورُ

وأخو الحَضْر إذ بَناهُ وإذ دجْلة ... تجبَى إليه والخابورُ[2]

(١) الأغانى ٢: ١٣٨، ١٣٩ من قصيدة مطلعها:

أيُّها الشامِتُ المعيِّرُ بالدّهـ ... ـر أأنتَ المبرَّأ الموفورُ

(٢) الخابور: اسم لنهر كبير فى أرض الجزيرة، والحضر: قصر بتكريت.

وتفكّر ربّ الخورنق إذ أشـرف يوما وللهدى تذكيرُ[1]
لم يهبْه رَيْبُ المنون فباد الـمُلك عنه فبابُه مهجورُ
ثم بعد القلاع والملك والإمْـرَةِ وارتهمُ هناك القبورُ
ثم راحُوا كأنهم قصبٌ جفّ فألوتْ به الصَّبَا والدَّبورُ

وقال الأسود بن يعفُر :

ولقد علمتُ لو أنّ عِلمِى نافِعِى أن السبيل سبيل ذى الأعوادِ[2]
ماذا أؤمل بعد آل محرّقٍ تركوا منازلهمْ وبعد إيادِ
جَرت الرياحُ على محلِّ ديارهمْ فكأنّهمْ كانوا على ميعادِ[3]
ولقد غنُوا فيها بأكرم غنيـة[4] فى ظلّ ملك ثابت الأوتادِ
فإذا النّعيم وكلّ ما يُلْهَى به يوماً يصير إلى بِلًى ونفادِ

الأصمعىّ: أصيب فى حفير حول الحيرة تابوت ، فيه رجُلٌ عليه خُفَّان ، وعند رأسه لوح فيه : « أنا عبد المسيح بن حيان بن بقيلة .

حلبتُ الدهر أشطرَه حَياتِى ونلتُ من المُنَى فوق المزيدِ
وكافحت الأمور وكافحتْنى ولم أخضع لمعضلةٍ كئودِ
وكدت أنال بالشّرف الثريا ولكن لاسبيل إلى الخلود»

---

(١) بعده الأغانى :

شادَهُ مَرْمـراً وجلّله كِلْـسًا فللطَّيرِ فى ذُرَاه وُكورُ

(٢) المفضليات ٢١٦ ، وروايته : « ولقد علمت سوى الذى نبأتنى »

(٣) المفضليات : « فكأنما كانوا » .

(٤) المفضليات : « عيشة » .

دخل أُرطاة بنُ سهيَّة على عبد الملك ، فقال : كيف حالك ؟ ـ وكان قد أسنّ ـ فقال : ضَعُف حالِى ، وقلّ مالي ، وكثر منىّ ما كنت أحبّ أن يقلّ ، وقلّ منّى ما كنت أحبّ أن يكثر ، قال : فكيف أنت فى شعرك ؟ فقال : والله ما أغضب ، ولا أطرب ، ولا أرهب ، وما الشعر إلا من نتائج هذه ، على أنّى القائل :

رأيت المرء تأكلُه الليالى كأكل الأرض ساقطةَ الحديدِ
وما تبغى المنيّـة حين تأتِى على نفس ابن آدم من مزيدِ
وأعـلم أنّهـا عمّا قليـــلٍ ستُوفِى نذرها بأبى الوليـدِ

فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل تُوفى نذرها بك، مالى ولك ! قال : ياأمير المؤمنين لا ترُعْ ، فما عَنيتُ إلاّ نفسى ، فقال : أما والله لتلمِنّ بى .

وأبو الوليد كنية لعبد الملك ولأرطاة .

* * *

والتكوير : إدخال الليل على النّهار والنّهار على الليل ، وكوّرتُ الشيء رددتَه ، ولويتَ بعضَه على بعض . هطل وهَمَل، معناهما صبّ . الرّكام: السحاب المتراكم . السُّؤل : المطلوب . أوسع : أغنى . المرمِل: الذى نَفِد زاده .الأرمل : الفقير ، أو الذى ماتت زوجته ، أوالتى مات زوجها ، يقال لها أرمل وأرملة ، ومنع قوم أن يقال للفاقد زوجته : أرمل ، وأجازه بعضهم .

مداه : غايته. الأوّاه: إبراهيم عليه السلام ، وهو من التأوّه ، وهو التوجّع والتحزّن والنطق بأوّاه أوّاه ! صادع : مفسد ، والصدع : الشقّ فى زجاجة أو حائط . علمًا ، أى إماما يهتدى به . مسدّداً : مصلحا . والرعاع : السقّاط

والضَّعفة من الناس . وَدّ وسُواع : صنمان . حكم : قضى. أحكم : أتقن . أُصّل: ثبّت الأصول . مَهّد : سوّى ووطّأ . الوعود : جمع وعد . أوعد: هدّد وخوّف. واصل : داوم . أودع روحه دار السلام : أدخله الجنة . آل : سراب . مَلَع : أسرع . رال : فرخ النعام . إهلال : رفع الصوت بالتلبية بمكة .

* * *

اعْمَلُوا رعاكم اللهُ أصلحَ الأعمال ، واسْلُكوا مسالكَ الحلال، واطّرِحوا الحرَام ودعُوه ، واسْمَعُوا أمْرَ الله وَعُوه ، وَصِلُوا الأرحام وراعوها ، وعاصُوا الأهواء وارْدَعُوها ، وصاهروا لُحْمَ الصَّلاحِ والْوَرَع ؛ وصارِمُوا رَهْطَ اللَّهْوِ والطَّمَع . ومُصاهِرُكُمْ أَطْهرُ الأحْرارِ مَوْلِداً ، وأسْرَاهُمْ سؤدُداً ، وَأَحْلاَهُمْ مَوْرِدًا ، وَأَصَحُّهُمْ مَوْعِداً . وَهَاهُوَ أُمَّكُمْ ، وَحَلَّ حُرَمَكُمْ ، مُمْلِكاً عَرُوسَكُمُ المكرّمة ، وماهراً لها كما مَهَرَ الرَّسولُ أُمَّ سلمَة ، وَهُوَ أكرَمُ صِهْرٍ أودِعَ الأَوْلاَد ، ومُلِّكَ ما أَرَادَ ، وماسهَا مُمْلِكُهُ وَلاَ وَهِم ؛ ولا وُكِسَ مُلاحِمُهُ ولا وُصِمَ ، أسأل الله لكم إحماد وصاله ودوام إسعادِه ، وألهمَ كلاً إصلاحَ حالِه والإعدادَ لمعادِه . ولهُ الحمدُ السَّرْمَدُ ، والمدْح لِرسولِه محمد.

* * *

اطّرحوا : اتركوا وارموا به . عُوه : احفظوه. الأرحام : القرابات ، الواحد رَحِم ، والأرحام من النساء الواحد رحم ، راعوها : احفظوها وحاموا عليها . الأهواء : دواعي النفس . ارْدَعُوها : كُفّوها. صاهروا : ناكحوا .

لحم : قرابات ،ولحمة النسب : التحام القرابة وانضمامها . صارموا : قاطعوا . مصاهركم : ختنكم المتزوّج إليكم . أسراهم : أشرفهم وأكثرهم مروءة ، وقد سَرِىَ فهو سرىّ . أمّكم : قصدكم . حلّ : نزل حرمكم : بلدكم وموضعكم، الذى هو كالحرَم فى أمته . مُمْلكا : متزوّجا ، والإملاك : التزويج الذى تُملَك به المرأة .

قال ابن هشام : أمّ سلمة بنت أمية بن المغيرة ، تزوّج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وقعة بدر فى سنة اثنتين من التاريخ ، واسمها هند بنت أمية زاد الركب بن المغيرة ، وفى حديث أنس رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم تزوج أمّ سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم .

سها : أخطأ . مُمْلِكه : منكحه الذى أعطاه وليّته . وَكْس : غبن ، ووَهِم . فى الحساب : غلط فيه ، وملاحه : أى مصاهره . وُصِم : عِيب ، والوصْم :العيب ، وأحمد الرجل احمادًا ، أى صار أمره إلى الحمد ، أراد أنه من أهل الأحساب فلا ينقص مَنْ يصاهره . الإعداد للمعاد ، أى الاستعداد لليوم الذى يعاد فيه إلى نشأته الأولى . السّرمد : الدائم . والرسول : الذى يتابع أخبار الذى بعثه ، أخذا من قولهم : جاءت الإبل أرسالا ، أى متتابعة ، ويثنّى رسولان ، ويجمع رسل . ومنهم من يوحّده فى كل حال ، قال الله تعالى : ﴿ أنا رسولُ رب العالمين ﴾[1] وحّده ، لأنه فى معنى الرسالة ، وأنشد :

فأبلغ أبا بكر رسولا سريعة   فما لك يابن الحضرمىّ وماليا

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠٤

قال الفراء رحمه : الله وحّده اكتفاء بالرسول من الرسولين ، وأنشد :

أَلِكْنِي إليها وخير الرسو ل أعلمُهمْ بنواحى الخبَرِ[1]

أراد الرّسل ، فاكتفى بالواحد عن الجمع .

* * *

[بعض خطَب النكاح]

وإذ كملت الخطبة فلنسق من خطب النكاح ما يحسن بالوضع .

ومن مشاهير الخطب فيه خطبة أبى طالب فى تزويج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله عنها وهى :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل ، وجعل لنا حَرَماً آمنا وبيتا محجوجا ، وجعلَنا الحكامّ على الناس . ثم إن محمد ابن عبد الله ابنُ أخى ، ممّن لايوازن فتى فى قريش إلا رجح به برًّا ، وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قُلّ فإنما المال ظلّ زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصَّداق فعلىّ .

فهذه الخطبة من أفضل خطب الجاهلية .

وعن يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوج ابنته من علىّ الرضا ، فقال : يا يحيى تكلم ، فأجللت أن أقول : أنكحت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :

---

(١) اللسان ــ رسل ، ونسبة إلى أبي ذؤيب .

الحمد لله الذى تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا الله إقرارا بربوبيته ، وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره وعترته . أما بعد ، فإن الله سبحانه قد جعل النكاح دينا، ورضيه حكما ، وأنزله وحيا ، ليكون سببا للمناسله وإنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى الرضا ، وأمهرتها أربعمائة دينار ، اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف الصالح ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر المأمون إملاكا وهو أمير ، فسأله مَنْ حضر أن يخطب ، فقال : الحمد لله، والصلاة على المصطفى رسوله ، وخير ما عُمل به كتاب الله : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم[1] ﴾ ، ولو لم يكن فى المناكحة آية منزّلة ولا سنة متّبعة إلاّ ما جعل الله فى ذلك من تأليف البعيد ، وبرّ القريب ، لَسارع إليه الموفّق المصيب ، وبادر إليه العاقل اللبيب .

وفلان قد عرفتموه فى نسبٍ لم تجهلوه ، خطب إليكم فتاتكم فلانة ، وقد بذل لها من الصداق كذا ، فشفّعوا شافعنا ، وأنكحوا خاطبنا ، وقولوا خيرا تحمدوا عليه وتؤجروا فيه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ، فقال عمر: الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فإن الرغبة منك دعت إلينا ، وإن الرغبة منا فيك أجابت بنا ، وقد أحسن بك ظننا مَنْ أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوّجناك على كتاب الله تعالى، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

---

(١) سورة النور آية ٣٢

وكان الحسن البصريّ رحمه الله يقول فى خطبة النكاح بعد الحمد والثناء.

أما بعد فإن الله تعالى جمع لهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المفترقة، وجعل ذلك فى سنة من دينه، ومنهاج من أمره، وقد خطب فلان إليكم، وعليه وعليكم من الله نعمة، وهو يبذل من الصداق كذا، فاستخيروا الله، وردوا خيرا، يرحمكم الله!

الأصمعى رحمه الله: كانوا يستحسنون من الخاطب أن يطيل ليدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة.

* * *

فلمّا فرغ من خطبته البديعهِ النِّظَام، العَرِيّةِ من الإعجامِ، عَقد العَقْـدَ على الخَمْسِ المئين، وقال لى: بالرِّفاءِ والبنين. ثمّ أحضر الحَلْوَاء التى كانَ أعدَّها، وأبْدَي الآبدَة عندَها. فأقبلتُ إقبالَ الجماعةِ عَلَيْها، وكِدْتُ أهْوِى بيدى إليها، فزجَرَنى عن المُؤَاكلَة، وأنْهضَنِي للمُنَاولة؛ فوالله ما كان بأسْرَعَ من تَصافُح الأجفان، حتَّى خرَّ القومُ للأذقان. فلمّا رأيتُهُم كأعجازِ نخلٍ خاوية، أو كصَرْعَى بنتِ خابية؛ علِمْتُ إنَّهَا لإحْدَى الكُبر، وأمُّ العبَرِ؛ فقلتُ له: ياعُدَىّ نفسِهِ، وعُبَيْدَ فَلْسِه، أَعدَدْتَ للقومِ حلْوَى، أم بلْوَى؟ فقال: لم أعْدُ خبيص البَنْج، فى صِحَافِ الخَلَنْجِ. فقلتُ: أقسِمُ بمَنْ أطْلَعَها زُهْراً، وهَدَى بهاَ السَّارين طُرًّا؛ لَقَدْجئتَ شيئاً نُكرًا، وأبقيت لكَ فى المخزيات ذكراً!

* * *

قوله : البديعة النظام : أى الغريبة التأليف . العرية من الإعجام ، أى العاطلة من النقط . الرِّفاء : السكون والالتحام ، ويُدْعى للمتزوّج ، فيقال له : بالرِّفاء والبنين ، أى بالاتفاق مع الزوجة ووجود البنين مما يكون منها ، وهو من رفأتُ الثوب ، إذا ضممتَ بعضه إلى بعض، ومن رَفَوْتُ الرّجل إذا سكّنته، قال أبو زيد رحمه الله : هو من المرافاة غير مهموز ، وهى الموافقة .

تزوّج عَقِيل بن أبى طالب فقيل له : بالرِّفاء والبنين ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رفأ أحدكم أخاه فليقُل : على الخير والبركة ، بارك الله لك وبارك عليك » .

الآبدة : الداهية ، وجاء بآبدة ، أى بكلمة أو خصلة وحشية منكرة ، واشتقاقه من الأوابد ، وهى الوحش ، وكذلك الآبد ، يقال : أبد الشاعر ، إذا أتى بالعويص فى شعره ، فمعنى أبدى الآبدة ، أى أظهر الداهية التى يبقى ذكرها على الأبد . زجرنى : نهانى . أنهضنى : أقامنى وقدّمنى . المناولة : إعطاء الطعام. تصافح الأجفان: غلقها وفتحها بسرعة ، كقولك: طرفة العيون. خرّوا للأذقان، أى سقطوا على وجوههم ، والذّقن مجمع اللَّحيين يعبَّر به عن الوجه ، لأن العرب تسمّى الشىء ببعض ما فيه ، وإذا خَرّ علىّ وجهه ، فأقرب شىء إلى الأرض ذقنه ، نخصّه بالذِّكر لهذا ، قال الله تعالى : ﴿يخرّون للأذقان سُجَّدًا﴾[1] أعجاز : أصول . خاوية : فارغة متأكّلة ، ويقال: خاوية ساقطة بالية . صرعى: قتلى ، وأراد به السكارى ، . وبنت الخابية : ، هى الخمر ، ومعنى الخابية التى تخبأ فيها الأشياء ، مأخوذ من خبأت، فبُنيت على ترك الهمز، ويقال: خبأت الشىء وخبّأته وخبَّيته ، وقرأت الشىء وقريته . إحدى الكبر : واحدة من الكبائر.

(١) سورة الإسراء آية ١٠٧ .

أم العبر : أى أعظم الدواهى ، وما يُتّعظ به . لم أعدُ : لم أتجاوز . الخبيص : نوع من الحلواء . البنج : نبات يسكر منه ، وهو لبن الخشخاش البرىّ المعروف بالأفيون . والخلنج : ضرب من الخشب . زُهرا : مضيئة ، يعنى الكواكب . السارين : الماشين بالليل . طرًّا : جمعا . نُكْراً : منكرا . والمخزيات : جمع مخزية ، وهى الخصلة الرديئة يختزى صاحبها متى ذكرتْ له ، والخزى الهوان .

* * *

ثمّ جرتْ فِكْرَةٌ فى صَيُّورِ أَمْرِه ، وخيفةٌ من عَدْوَى عَرِّه ، حتى طَارَتْ نَفْسِى شَعَاعًا ، وأُرْعِدَتْ فرائِصِى ارتياعًا . فلمّا رأى استِطَارَةَ فَرَقِى ، واستِشاطةَ قَلقى ، قال : ما هذا الفِكْرُ المُرْمِض ، والرّوْعُ المُومِض ؟ فإنْ يكُنْ فِكْرُكَ فى أَجْلِى ، من أجْلِى ؛ فأنا الآن أَرتع وأطفِر ، وأُقوى هَذِهِ البُقْعَةَ مِنِّى وأُقفِر ، وكَمْ مِثلِها فارقتُها وهى تَصْفِر ؛ وإن يكُنْ نظرًا لِنَفسِك ، وحَذَرًا من حَبْسِك ، فتناوَلْ فُضالَةَ الخَبِيص ؛ وَطِبْ نفسًا عن القميص ؛ حتَّى تأمَن المُسْتَعْدِىَ والمُعْدِى ، وَيتمهَّدَ لكَ المقامُ بَعْدِى ؛ وإلا فالمفرّ المفرّ ؛ قبل أن تُسْحَبَ وتُجَرّ : ثم عَمَدَ لاستخراج ما فى البيوت ، من الأكياس والتّخوت . وَجَعل يَسْتَخْلِص خالصةَ كلّ مخزون ، ونخبةَ كلّ مَذْرُوعٍ وَموزون ؛ حتى غادر ما ألغاه فخّه ، كعظمٍ استُخرج مُخّهُ .

* * *

صَيُّور : آمال ورجوع ، أى ما يصير إليه أمره . عدوى عَرّه ، أى انتقال

ضرره ، والعرّ: الجرب ، والعَدْوَى انتقال المرض إلى الصحيح، ومعناه عند العرب: إذا كان الجَرَب بواحدة من الإبل سرى فى غيرها ، وفى الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عَدْوَى ولا طيَرَة ولا صَفَر ولا هامة ، ولا يورِد مُمرِض على مُصِحّ » . فقال أعرابى : يارسول الله ، فما بال الإبل التى تكون فى الرمل ، كأنّها الظباء فيجىء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجرب بها كلّهَا ؟ وقال : فمن أعدى الأوّل . وقال النابغة :

فلا تتركَنّى بالوعيــــد كأننى إلى الناس مطلىّ به القار أجْرَبَ [1]

فأراد أنّه خاف أن يؤخذ بذنب السَّروجىّ . شَعاعا : متفرقة فى كلّ جهة، يقال نفسٌ شَعاع ، أى تفرقت هِمّتها ، ورأىٌ شَعاع ، أى متفرّق . والفرائص : جمع فريصة ، وهى بَضْعة عند الكبِد تُرْعد عند الفزع ، قال مرؤ القيس :

* وتُرْعدُ منهنّ الكُلَى والفريصُ *

ارتياعا : فزعا . استطارة فرَق : انتشار فزعى . واستشاطة : التهاب واحتراقٍ . المُرمض : المحرِق ، وهو من لَفْظ الرَّمْضاء : والرَّوْع : الفزع . المُومض : الذى يَدَع صاحبه مبهوتاً شاخص البصر من شدته ، وأومضت المرأة بعينها إذا برقت . الأجَل ، بالتحريك : التأخير؟ وبتسكينها الجناية يقول: إن تفكّرت فى تأخيرى من الهرب بسبب جنايتى ، فالآن أجمع أموالهم وأفرّ، قال الفنجديهىّ : إن يكن فكرك فى أجْلى، أى فى جنايتى، يقال : أجَلَ الرَّجل عليهم شرًّا يأجَل ويأجل أجِلا أى جناية . وهيّجه من أجْلِى أى من جرّائى . أرتع : آكل أموالهم . أطفر : أفر هاربا ، وطفر : وثب وسار مسرعاً. أفوى

(١) ديوانه ١٣ .

(٢) ط : «الفرائص» ، والبيت لامرىء القيس ، ديوانه ١٨٣ ، وقبله :

* فيشْرَبْنَ أنفاسًا وهنّ خوالفُ *

وأقفر : ، معناهما أُخْلِى موضعى ، وأقفر الرجل من أهله : انفرد عنهم وبقى وحده والدّار خالت وكذلك أقوتْ وقَوِيْت وأقفرت الأرض من الكلأُ ، ورأسه من الشعر ، وجسده من اللّحم ، وأقوى وأقفر لا يتعدّيان . تصفر : تصوت ، وهذا عجزُ بيت لتأبّط شرًّا ، وصدره :

* فأبت إلى فَهْمٍ وما كدت آيبا[1] *

تصفِر ، أى تنفخ ندما على فوتى ، والنادم على الشىء يتابع النفخ ، يقول : كمْ مثل هذه الخصلة فارقتُهَا ، وهى تصفر تَنَدُّما على مافاتها . تناولْ : خذ . فضالة : بقية . طب نفسا ، عنه ، أى لتكنْ نفسُك طيبّة على فقده ، فإنّك إذا أكلت الخبيص ، سَكِرْت فجرّدتك فصرت فى جملة مَنْ أُكِلَ ماله فتأمن بذلك . المستعدِى : هو الشاكى . والمعدِى : هو الحاكم ، ويقال : استعديت الحاكم فأعدانى ، أى استعنته فأعاننى . يتمهّد : يتوطّأ . المفرّ المفرّ : أى بادر الفرار ، وتُسحب ، هو تجرّ . الأكياس : أوعية الدراهم والدنانير . التُّخوت : أوعية الثياب . يستخلص : يختار . خالصة : خيار ، وكذلك نخبة . مذروع : مكيل بالذّراع ، يعنى الثياب . موزون : ، يعنى الجواهر وما فى معناها ممّا يباع بالوزن ، مثل العطريات وغيرها من شبهها . الفخّ : آلة للصيد يحسن أن يكنى به عن المكيدة .

* * *

فلمّا همّن ما اصطفاه ورزّم ، وشمّر عن ذِرَاعَيْهِ وتحزّم ؛ أقبل علىّ إقبال من لَبِسَ الصّفَاقة ، وخلَع الصداقة ، وقال: هل لك فى المصاحبةِ إلى البَطِيحة ، لأُزوِّجك بأخرى مَليحة. فأقسمتُ له بالذى جعله مباركاً

(١) الأغانى ١٨ : ٢١٥ ــ ساسى ، وبقيته :

* وكَمْ مثلُها فارقتُها وهِىَ تَصْفِرُ *

أينما كان ، ولم يجعله ممن خان في خان ؛ إنه لاقِبَل لى بنكاح حُرّتين، ومُعاشرةِ ضُرّتين . ثم قلت له قول المتطلّع بطباعه ، الكائل له بصاعه : قد كفتني الأولى فخرًا ، فاطلب آخر للأخرى .

فتبسّم مِن كلامى ، ودَلف لإلتزامى . فلويتُ عنه عِذارى ، وأبديت له ازْوِرَارى ، فلمّا بَصُرَ بانقباضى ، وتجلّى له إعراضى أنشد :

* * *

همّن : شدّه بالهِمْيان وهو نوع من التّكة . اصطفاه : اختاره . رزّم : جعله رُزمة ، والرّزمة فى كلام العرب : التى فيها ضُروب من الثياب وأخلاط يقال : رازّم الرجل فى أكله ، إذا اخلط بعضه ببعض ، ورازمت علَف الدّابة : خلطته ، وقد يريد به ما شدّ على وسطه من المال بهِمْيانه . الصفاقة : صلابة الوجه . خلع : أزال

البَطيحة : قرية عامرة بقرب البصرة من جهة واسط ، وبينها وبين البصرة وواسط جهة كبيرة ، تعرف بالبطاح وتتوسطها البطيحة .

معاشرة ضرتين : مصاحبة زَوْجَين . المتطبّع بطباعه : المتخلّق بخلقه . الكائل له بصاعه ، أى الذى أعطاه مِن الهزل مثل ما أعطاه . دلف : أسرع . التزامى : معانقتى وضمى له لويت : عطفت ، أى أعرضت عنه بوجهى . ازْوِرَارى : انقباضى . تجلّى : ظهَرَ . إعراضى : تركى إقبالى عليه .

* * *

يا صارفاً عَنّى المــــودّ ةَ والزّمان لَهُ صروف
ومعنِّفى فى فَضح مَنْ جاوَرْتُ تعنيفَ الْعَسُوفْ
لاتلحَنِي فيماَ أتيـــــتُ فإنّنى بهمُ عَــروفْ
ولقدْ نزلت بهمْ فلمْ أرَهُمْ يُراعون الضّيوفْ
وبَلَوْتُهُمْ فوجـــدتُهُمْ لمَّا سَبَكْتُهمُ زُيوفْ
ما فيهمُ إلاّ مخيـــــفٌ إنْ تمَكّنَ أو مُخُوفْ
لا بالصفىّ ولا الوَفىّ ولا الحفِيّ ولا العَطُوفْ
فوثبتُ فيهمْ وثبـــةَ الذّئبِ الضّرِىّ على الخروفْ
وتركتهمْ صَرْعى كأنّهمُ سُقُوا كأس الحُتوفْ
وَتحكّمتُ فيما اقتنَوْ هُ يدِى وهمْ رُغمُ الأنُوفْ

. . .

صارفا : منحنياً: المودّة: المحبّة. صروف: دفوع . معنّفى:موبخى ولائمى. فَضْح: كشف . والعسوف : الآخذ بجهالة قبل التجربة . تلحنى : تلمنى . يُراعون : يحفظون حقوقهم . بلوتُهم . خبرتهم ، ومثله سبكْتُهم . زيوف : دراهم رديئة ، يريد أنهم قوم لا خير فيهم . مخيف : مضرّ مفزع . إن تمكّن : ارتفع وكانت له مكانة . مخوف : لا يقدم عليه خوف ضرره . الصّفى الوفىّ . الصادق الود . الحفىّ : المكرم لصديقه المعتنى به . العطوف : الرحيم . الضرىّ : المعتاد الذى ضرىَ أخذ الخرفان . صرعَى : مطرحون على الأرض . والحتوف : جمع حَتْف وهو الهلاك . اقتَنوْه : اكتسبوه . رغم : إذلال .

. . .

ثمَّ انثنيت بمَغْنَمٍ حُلْو المجانِي والقُطُوفْ
وَلَطَالَمَا خلفتُ مكـــلومَ الحَشَا خَلْفِي يطوفْ
وَوَتَرتُ أرباب الأرا ئِكِ وَالدَّرانِكِ والسُّجوفْ
ولَــكَمْ بلغتُ بحيلَتِي ماليس يُبَلغُ بالسيوفْ
ووَقفت في هولٍ تُرا عُ الأسْدُ فيه من الوقُوفْ
وَلَــكَمْ سَفـكتُ وكم فتكتُ وكم هَتَـكْتُ حِمَى أَنوفْ
وكَمْ ارتـكاضٍ موبقٍ
لِي في الذّنوب وكَمْ خفوفْ
لـكِنّني أعْدَدْتُ حُسْـــنَ الظّنِ بالمولى الرءوف

. . .

انثنيت ، أى رجعت . المجانى : ما يجنَى من الثمار . والقُطوف : مايقتطف منها ، وهى جمع قُطْف وهو العنقـــود . خلّفت : تركت خلفى . مكلُوم : مجروح . الحشى : إسقاط الجوف . وترت : أخذت منهم ثأرى وحقى . أرباب الأرائك : أصحاب الأسرّة . والدرانك : البُسط . السّجوف : جمع سِجْف ، وهو الستر ، والأرائك : جمع أريكة ، والدّرانك واحدها درنُوك . الهول : الأمر المفزع . تراع : تفزع ، وفيه : متعلقه وقوف ، يريد أن الأسد تفزع أن تقف فى الهول الذى وقفتَ فيه . سفـكت : قتلت . فتـكت : عتيت . هتكت قطعت . رَحِمى : مايحمى ويمنع . أنوف : كثير الأنفة والحمية. ارتكاض: جرى واضطراب وتحرّك . موبِق : مهلك . خفوف . إسراع : الرءوف : الـكثير الرفق والرحمة .

[مما قيل فى الاعتراف بالذنوب والطمع فى رحمة الله وعفوه]

قال ابن رشيق فى معنى هذا الخروج بعد تَعْديد ذنوبه :

إذا أتى الله يوم الحشر فى ظُلَلٍ ... وجىء بالأمم الماضين والرسلِ (١)
وحاسب الخلق مَنْ أحصى بقدرته ... أنفاسهم وتوفّاهم إلى أجلِ
ولم أجد فى كتابى غير سيئة ... تسوءنى وعسى الإسلام يسلمُ لي
رجوتُ رحمةَ ربّى وهى واسعة ... ورحمة الله أرجى لى من العملِ

ولابن نُنكك:

إذا خفق اللواء علىّ يوماً ... وقد أخذ امرؤ القيس اللواء (٢)
رجوت الله لا أرجو سواهُ ... لعلّ الله يرحم من أساء

وقال ابن الزّقاق :

يا عالمَ السرّ منى ... اصفحْ بفضلِك عنِّى (٣)
منّيتُ نفسى بعفوٍ ... مولاىَ منك ومنّى
وكانَ ظنى جميلاً ... فكن إذاً عندَ ظنّى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى : « أنا عند ظنّ عبدى بى فليظنّ بى مايشاء » .

توفى رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مسرفاً على نفسه ، فلماحضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه ، فقال لهما: مايبكيكما ؟ قالا : نبكى لإسرافك على نفسك ، قال : فلا تبكيا ، فوالله ما يسرنى أن الذى بيد الله من أمرى بأيديكما . فأتى جبريل عليه السلام النبىّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) نقله صاحب التتف صفحة ٦٢ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٠ . (٣) ديوانه ٢٧٤ .

فأخبره أن فتًى توفِّيَ اليوم ، فاشهده فإنه من أهل الجنة ، فاستكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويْه عن عمله ، فقالا : ما علمنا عنده شيئاً من خير إلا أنه قال عند الموت كذا .

قال : من هاهنا أتى حُسنُ الظنّ بالله من أفضل العمل عنده .

وعن أنس رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يموتَنّ أحدكم حتى يُحسن ظنه بالله تعالى ، فإن حسنّ الظنّ ثمن الجنة » .

أبو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن الظنّ مِنْ حسن العبادة » .

وكان محمد بن نافع الواعظ صديقاً لأبى نواس ، قال : فلما بلغنى موتُه أشفقت عليه ، فرأيته فى النوم ، فقلت : أبا نواس ، فقال : لاتَ حين كِناية ! قلت : الحسن ، قال : نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر الله لى ، قلت : بأىّ شىء ؟ قال : بتوبة تبتها قبل موتى، بأبيات قلتها ، قلت : أين هى ؟ قال . عند أهلى . فسرت إلى أمّه ، فلما رأتنى أجهشت بالبكاء ، فقلت : إنى رأيت كذا ، فكأنها سَكَنَتْ ،وأخرَجت إلىّ كتبا مقطعة ، فوجدت بخطه كأنه قريب :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرةً ... فلقد علمت بأنّ عفوك أعظمُ [1]

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذِى يدعو ويرجو المجرمُ [2]

أدعوك ربّ كما أمَرت تضَرّعاً ... فإذا رددتَ يدى، فمن ذا يَرْحَمُ !

مان إليك وسيـــلة إلا الرجا ... وجميـــل ظنّى ثم أنى مسلمُ

---

(١) ديوانه ١٩٩ : ٢٠٠ . (٢) الديوان « فبمن يلوذ ويستجير المجرم » .

وإنما قال: «لات حين كناية» لأنّ العرب لاتكنى الميت إنماندعوه باسمه، قال الراجز :

وقام نسوة بجنب حُفْـرَتِي بنات أختى وبنات إخوتى

* يدعون باسمى وتناسوا كنيتى *

وقال آخر :

فقد جعلت تُدْعَى كلاب بن جعفرٍ بأسمائها لا با لـكنى لا تُجِيبُها

* * *

قال : فلمّـا انتهَى إلى هَذَا البيتِ لَجَّ فى الاستِعْبار ، وألَظَّ بالاستغفارِ ، حتَّى استَمَالَ هَوَى قلبي المنحرف ، وَرَجَوْت لَهُ ما يُرْجى للمقترِف المعترِف . ثمّ إنَّهُ غَيَّض دمعَه المُنهلّ ، وتأبَّطَ جِرابَهُ وانْسَلّ ، وقال لابنهِ : احتملِ الباقِي ، واللهُ الواقِى .

قال المخبر بهذه الحكاية : فلمّـا رأيتُ انْسِيابَ الحيّةِ والُحيَيَّة ، وانتهاءَ الدّاءِ إلى الْكيّـة ، عَلِمت أَن تَرَيُّثِي بالخان ، مجلبة للهوانِ ، فضممتُ رُحَيْلِي ، وجمعتُ للرِّحْلَةِ ذَيْلِي ، وبت ليلتِي أسرِى إلى الطِّيب ، وأحتسِبُ اللهَ عَلَى الخطيب .

* * *

قوله : لجّ فى الاستعبار، أى أكثر فى البكاء . ألظّ : ألحّ ، وألظّ به: دار عليه . استمال : استعطف وأماله إليه . المنحرف : المائل عنه. المقترف : المكتسب

الإثم ، ويقال : قرَف فلان فلاناً، إذا ألصق به عيبًا و كسبهذنباً، واقترف فلان ذنبا ، أى اكتسبه وألصقه بنفسه . المقترف : المقرّ بذنبه .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عزّ وجل ملائكة يترحّمون على المقرِّين على أنفسهم بالذّنوب » .

وروى أبو ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : «ابن آدم إنك إن يبلغ ذنبك عنان السماء ، ثم تستغفرنى أغفر لك ولا أبالى » . غيَّض : جفّف وغيّب ، من غِيض الماء إذا انتقص وجفّ . المنهلّ : السائل . تأبط : أى جعله تحت إبطه . انسلّ : خرج مُخفيا نفسه متحرزاً أن يراه أحد. انسياب : مشى لا يحسُّ به . الحيّة : ، يعنى الشيخ ، سماه حية لإذايته أهل الخان بالبنج : فجعله كسم الحية فيمن ألقته ، ويقال أيضاً فى تصغير الحية حُويّة ، وأصلها الواو لأنها من تحوّت أى تلوّتْ ، وقيل : هى من الحياة لطول عمرها . انتهاء الداء إلى الكيّة : ، مثل يضرب لانتهاء الداء إلى أقصاه ، تقول العرب : آخر الطبّ الكى ، تريد أنّ المريض يعالج بكلّ دواء فلا يوافقه فإذا عولج بالكى لم يبق بعده دواء ، وإلاّ فهو الموت ، فيريد أنه إن أقام بعدها انتهى إلى هوان وعذاب . تريُّثِى : تبطئى، وتربّث بالمكان : أطال الجلوس فيه . مجلبة ، أى سبب جلبة وسوقه رُحَيلَه : يريد متاعه وصغَّره لفقره وقلّة ما عنده ، ورحل الإنسان ماله ومتاعه فى السفر . أسرى : أمشى بالليل . الطيّب : قرية بالعراق بمقبرة واسط بينها وبين البَطيحة المتقدمة ، وسميت الطّيب لطيب هوائها وخصبها .

احتسب : أدعو وأقول : حسيبهالله ، ومجازيه على قبيح أفعاله ، والاحتساب طلب الأجر ، فمعنى أحتسبُ الله على الخطيب ، طلب إلى الله تعالى الثواب بإنكارى على الخطيب ، والله تعالى ربِّى عليه توكّلت وإليه أنيب .

المقامة الثلاثون وهي الصُّورِيَّة

حَكَى الحارث بن همّام، قال : ارتحلتُ مِن مدينة المنصور ، إلى بلدة صُور ؛ فلمّا حَصلْتُ بها ذَا رِفْعةٍ وخَفْض ، ومالكَ رفعٍ وخفض ؛ تقتُ إلى مِصْر توَقانَ السقيم إلى الأُسَاة ، والكريم إلى المواساة ؛ فرفضت عَلائِق الاستِقامة ، ونفضت علائقَ الإقامة ، واعرَوريتُ ظهرَ ابن النِّعامة ، وأجفلتُ نحوَها إجفَال النَّعامة . فلمّا دخلتُها بَعْدَ مُعاناة الأَيْن ، ومداناة الحَيْن ، كلفتُ بها كَلَفَ النَّشْوَانِ بالاصْطِبَاح ، والحيران بتنفُّس الصَّبَاح .

* * *

[ترجمة للمنصور]

قوله : مدينة المنصور ، هي بغداد، والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، استُخلف بعد أخيه السفاح ، وبويع له يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة . وهو ابنُ إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر ، وكان حاجًّا وقت وفاة السفاح، فَعقد له البيعة عمُّه موسى بن عليّ بن عبد الله بالأنبار ، وورد الخبر على المنصور في أربعة عشر يوماً .

وقد بشّر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونظر إلى عمه العباس ، فقال :

هذا عمىّ أبو الخلفاء الأربعين أجود قريش كفًّا ، ومن ولده السّفاح والمنصو -
والمهدى .

وقال المنصور : رأيتُ فى المنام كأنى فى المسجد الحرام ، فنودى : أين عبدُ الله ؟ فقمت أنا وعبد الله بن يحيي نستبق ، حتى وصلنا إلى الدرجة العليا ، فجلس هَوَ وأخذ بيدى ، فأُصعدت ، وأُدخلت الكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال . قال . فأقعدنى وأوصانى بأمّتِه ، وعممنِى ، فكان كورُها ثلاثاً وعشرين كوراً ، وقال : خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة .

وقال المنصور : الخليفة لايُصلحه إلاّ التقوى ، والسلطان لايُصْلِحُه إلا الطاعة ، والرعيّة لايُصْلحها إلاّ العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنقصُ الناسِ عقلاً مَن ظَلَم مَنْ هو دونه .

وولد المنصور فى سنة خمس وتسعين فى اليوم الذى مات فيه الحجاج ، ومات بمكة ببئر ميمون لستٍّ خَلَوْن من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة .

* * *

[ذكر مدينة صور]

صور : مدينة بالشأم ، بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخاً .

وقال شيخنا ابن جبير[1] : مدينة صُور يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تُلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدّها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ،

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ باختصار .

وجعلوها مثابةً لأمانهم . وحَصانتها ومناعتها[1] أعجب ما يحدّث به ، وذلك أنّها راجعة إلى بابيْن ، أحدُهما فى البر والثانى فى البحر ، والبحر يُحيط بها إلا من جهة واحدة ، فالبرّى يُفْضِى إليها[2] بعد ولوج ثلاث أبواب أو أربعة ، كلّها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب ، والبحرىّ يُدْخل إليه بين بُرْجين مشيّدين إلى مَرْسى له ، ليس فى البلاد أعجب منه وصفاً ، يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويُحدق به من جانب آخر جدار معقود بالجصّ ، والسفن تدخل تحت السّور وتُرمى فيه ، ويعترض من الْبُرْجين المذكورينَ سلسلة عظيمة معقودة تمنع عند اعتراضها الداخلَ والخارج ، ولا مجالَ للمراكب إلا عند إزالتها ، وعلى الباب حُرّاس ، لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم ، فشأن هذا المرسَى شأنٌ عظيم ، وعند الباب البرّى عين مَعينة ، تنحدر إليها على أدراج ، والآبار والجباب بها كثيرة ، لا تخلو دار منها ، ولا بساتين بها إنما تُجلَب لها الفواكه من أقطارها التى بالقرب منها .

ولها أعملة[3] متصلة ، والجبال بالقرب منها معمورة بالضّياع ، ومنها تجىء الثمرات إليها ، وللمسلمين الباقين بها مسجدان .

وأعلمنى أحد أشياخنا أنها أخذت من أيديهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة بعد محاصرة طويلة ، وبها كانت دار الصنعة ومنها تخرج مراكب المسلمين للغزو .

* * *

قوله : ذا رفعة ، أى عزّة ومكانة . خفض : طيب عيش ، ومعنى مالك رفع وخفض ، أى صاحب أحمال تُرْفع على الإبل فى السفر ، وتحطّ عنها للنزول ،

---

(١) ابن جبير: «ومنعتها» (٢) ابن جبير : «إليه» (٣) ابن جبير «ولها عمالة متسعة»

ويريد أنه ذو قدرة وتمكّن يخفض ويرفع من أراد . قوله : تُقْت ، أي اشتقت

[ذكر مصر]

مصر : قال الهمذاني : سميت بمصر بن هرمس بن هروس جدّ الإسكندر.
وقال أهل اللغة : المصر الحدّ فسميّت مصر لأنها حد بين المشرق والمغرب .
ابن دريد كل بلد عظيم مصر ، نحو البصرة والكوفة .

طول مصر من الشّجرتين اللتين بين أمج والعريش إلي أسوان ، وعرضها من بَرْقة إلى أيلة ، فهى مسيرة أربعين ليلة . وافتتحت كلها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، على يَدَىْ عمرو بن العاص بن وائل السهمىّ .

ولما افتتحت مصر ، أتى أهلُها إلى عمرو ، فقالوا له : أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سنّة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : ما ذاك ؟ فقالوا له : إذا كان اثنتا عشرة ليله تخلو من بئونة من أشهر العجم ، عمدنا إلى جارية بكْر بين أبويها فأرضينا أبويْها ، وحملنا عليها من الحلْى والحلل أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى ـ وهى أسماء ثلاثة أشهر للقبْط ـ لا يجرى النيل فيها لا قليلا ولا كثيرا ، حتى همّوا بالجلاء منها . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فكتب عمر بطاقة ، وكتب إلى عمرو : إنى بعثت إليك بطاقة فألقِها فى النيل . فأخذ عمرو البطاقة فإذا فيها : من عبدالله عمر أميرالمؤمنين إلى نيل مصر ، أمّا بعد ، فإن كنت إنما تجرى من قِبلك فلا تجرِ ، وإن كان الله الواحدالقهار ، هوالذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقى البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيّأ أهلُ مصر للجلاء ، فلمّا ألقى البطاقة فى النيل أصبحُوا يوم الصليب ، وقد أجراه

الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، فقطَع الله تعالى تلك ألسنة السوء من أهل مصر .

قال ابنُ جبير : ومدينة مصر كبيرة عامرة ، مختلفة الأسواق من المدن التى سارت بأوصافها الرّفاق ، وهى على شط النيل ، وعلى النيل فى مقابلتها قرية كبيرة الشأن ، كثيرة البنيان ، تعرف بالجيزة ، وتعترض بينهما جزيرة فيها مسا كنُ حِسان وعلالىّ مشرفة ، وهى مجتمع لهوِ أهل مصر ومنتزّههم ، وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل ، ولا مخرج له . وبالجزيرة جامع يُخَطب فيه .

[ذكر المقياس]

ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كلّ سنة ، وابتداؤه من شهر بئونة ، ومعْظَم انتهائه أغشت وآخرها أول أكتوبر .

والمقياس : عمود رخام مُثمَّر فى موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه إليه ، وهو مفصَّل على اثنتين وعشرين ذراعا ، وكل ذراع مفصلة على أربعة وعشرين قسما أقساماً متساوية تعرف بالأصابع ، فإذا استوى الماءُ تسع عَشرةَ ذراعاً فى الفيض ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام ، وربما كان الماء فيها كثيراً لعموم الفيْض ، والمتوسط ما استوى سبع عشرة ذراعا ، وهو أحسن ممّا زاد عليه . والذى يستحق به السلطان خراجه ست عشرة ذراعاً فصاعدا ، وعليها تُعْطَى البشارة للذى يراقب الزيادة فى كلّ يوم ، ويعلم بها مياومة ، وإن قصر عن ست عشرة فلا يجئ لذلك السلطان فى ذلك العام ، ولا خَراج إلا ما يعوّل عليه ، وبقريه الجيزة يوم الأحد سوق عظيمة يتحدث بها .

---

(١) رحلة ابن جبير ١٣ .

[ذكر الأهرام]

وعلى نحو سبعة أميال فى الصحراء التى يفضى منها إلى الإسكندرية ، الأهرامُ القديمة ، المعجزة البناء الغريبة المنظر ، المربّعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، لا سيما الاثنان منها فى سعة الواحد منهما من ركنه إلى ركنه ثلثمائة خطوة ، وست وستون خطوة محدّدة الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلفى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، ورُكّبت تركيبا بديع الإلصاق، يكاد يُعجز أهلَ الأرض نقض بنيانها .

[بعض معالم مصر]

وبمصر أيضاً المسجد المنسوب إلى عمرو بن العاص ، وبها الجبّانة المعروفة بالقرافة ، وهى من عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، وأهل البيت والصالحين والعلماء وذوى الكرامات من أهل الزّهد .

وبها قبر آسية امرأة فرعون ، وبها مساجد معمورة بالليل والنهار ، يَبِيت بها الصالحون .

وبها قبر الشافعىّ محمد بن إدريس الإمام رضى الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالًا واتساعا .

والمشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة ، حيث رأسُ سيدنا الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، هو فى تابوت من فِضّة مدفون ، قد بُنى عليه بنيان يقصر الوصف عنه ، مجلّل بأنواع الدّيباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار ، شمعا أبيضَ أكثره موضوع فى أتوار الفضة ، وحُفّ أعلاه كلّه بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبه الروضة ، يبهر الأبصار حسناً وجمالا ، وفيه من أنواع الرّخام المجزّع الغريب

الصنعة ، البديع ، الترصيع ، مالا يتخيّله المتخيّلون ، والمدخل إليها على مسجد على مثالها فى التأنق ، حيطانه كلُّها رخام ، وأغرب مافيه حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية ، ولتزاحم الناس على القبر وانكبابهم عليه وتمسّحهم به وبالكسوة التى عليه مرأى هائل .

وأخبار مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة .

* * *

الأساة : الأطباء . المواساة : أن يجعلك أسوة نفسه فى ماله فيقاسمك فيه . رفضت : تركت . علائق : أسباب تتعلّق به فتحبسه . نفضت : أزلت واطّرحت ، ونفضت ثوبى من الغبار : أزلته عنه . عوائق : موانع ، وهى ما يصرف الإنسان عن وجهه الذى يمرّ فيه ويريده . اعروريت : ركبته عريا .

ابن النعامة : الطريق ، وقيل صَدْر القدم قال عنترة :

* وابنُ النعامة عِنْد ذلكَ مَرْكَبِى (١) *

وقيل: ابن النعامة الساق ، وقيل : عِرْق فى الرِّجْل . وقيل الفرس الفارة

أجفلت : أسرعت . النعامة : واحدة النعام . معاناة : مقاساة . الأيْن: الفتور من التّعب مداناة الحيْن : مقاربة الهلاك . كلِفت بها ، أى أحببتها وولعت بها . النّشوان : السكران ، يريد أنه فرج فرحَ السكران ، إذا أصبح للشرب ، وهو الاصطباح والمهموم بالليل إذا طلع ضوء النّهار انجلى همه ، فجعل بياض الفجر . تنفّس أى انتشر فى الظلام .

---

(١) صدره : « ويكون مركبك القلوص ورحله » وهو فى اللسان — نعم ، منسوب لخزر بن لوزان .

فبينما أنا يوماً بها أطوف ، وتحتي فرسٌ قطوف ؛ إذ رأيت على جُرْدٍ من الخيل ، عُصْبَةً كمصابيح الليل ؛ فسألتُ لانتجاع النزهة ، عن العُصْبةِ والوِجهة ؛ فقيل : أمّا القومُ فشهود ، وأما المقصِدُ فإملاكٌ مشهود ؛ فحدَتْني مَيْعةُ النشاط ، على أنْ سِرْتُ مع الفُرّاط ؛ لأفوز بحلاوةِ اللُّقاطِ ، وأحوزَ حلواء السِّماط : فأفضَيْنا بعدَ مُكابَدةِ العَناء ، إلى دارٍ رفيعةِ البِناء ، وسيعةِ الفِناء ، تشهدُ لبانيها بالثراء والسَّناء . فلمَّا نزلنا عَنْ صَهَوات الخيول ، وقدَّمْنا الأقدام للدُّخول ، رأيتُ دِهْليزَها مُجلّلاً بأطمارٍ مخرَّقة ، ومُكلّلاً بخارِفَ مُعلَّقة ، وَهُناكَ شخصٌ عَلَى قطيفة ، فوق دَكّةٍ لطيفة .

* * *

قَطوف : متقارب الخطو ، كأنه يقطف خطوه ، أى يقطعه . جُرْد : مُلس ، والأجْرَد : القصير الشعر . عُصْبة : جماعة . مصابيح : سُرُج ، ويريد بها النجوم . قوله : الوجهة كالجهة ، وهو كلّ موضع استقبلتَه وقصدْتَه وتوجّهتَ إليه . إملاك : نكاح ، وأملَكَ الرجلُ إملاكا : تزوج ، وأملكه غيرُه : زوّجه . وشهدنا إملاكه ، أى عرسه .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَهِد إملاك امرىء مسلم ، فكأنّما صام يوماً فى سبيل الله واليوم بسبعمائة » . مشهود: أى محضور . حدَتْنى . ساقَتْنِي . مَيْعة : حدّة ونشاط ، والميعة أوّل الشباب ، وأوّل جَرْى الفرس ، وميعة كلّ شىء معظمه . والفرّاط : السبّاق المتقدّمون ،

الواحدفارط . اللُّقاط : ما يلتقَط من العرس مما ينثر فيه للحاضرين ، نحو الكعك والخبيص ، وما يُنثَر فيه يسمى نثراً ، وكان نثار العرب فى عرسهم التمر . أحُوز: أحصل . السّماط:السوق التى جوانبها صفّان متقابلان ، والسماط أيضاً أن يصطفّ العسكر صفّين متقابلين ، والسماط فى الطعام : أن تلصق مائدة بأخرى ، ويجلس الناس عليها صفين متقابلَين ، والسماط الصفّ منه ، ومنه سِمْط الجوهر ، ومنه الشِّعر للسّمط ، وهو الذى أبياته متصلة على أجزاء متقابلة ، وقد نبّهنا عليه فى الحادية عشرة (١) . مكابدة : مقاساة ، وهى من الكبَد كأنّ الكبِد يتعب بها . والعَنَاء : التعب . رفيعة البناء ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله فى البناء » .

قال النبى صلى الله الله عليه وسلم : « مَنْ بنى بناء فى غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرسا فى غير ظلم ولا اعتداء ؛ فإن أجره جارٍ ما انتفع به أحد من خلق الرحمن» .

وقال بعضُ الحكماء: إذ أيسر الرجل ابتلى بثلاثة أشياء : صديقه القديم يجفوه ، وامرأته يتزوّج عليها ، وداره يهدمها ويبنيها .

وعلى قوله : أما القوم فشهود، جاء فيهم حديث ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكرِموا الشهود ، فإنّ الله عز وجل يستخرج بهم الحقوق ، ويدفع بهم الظلم » .

قوله وسيعة ، أى واسعة ، والفِناء : الساحة ، وهى ما حول الدار . الثراء : كثرة المال . السناء : الشرف والرفعة . صهوات : ظهور . دِهليز : مدخل الدار ، الذى تسميه عامتنا الأسطوان ، والأسطوان عند العرب : السوارى ، واحدها أسطوانة : وأنشدأبوموسى الحامض (٢) فى نوادره وذكر الدّهاليز فقال :

---

(١) فى الجزء الثانى ص ١٧ (٢) ط « الجاحظ » تحريف .

أويت فى الدهليز مـذ أربعٍ ... ولم أكن آوى الدهاليزا[1]

خبزى من السوق وشعرى لـكم ... تلك لعمرى قسمـةٌ ضِيزَى

مجلّلاً : مغطًّى . أطمار : ثياب خلَقة . مكلّلا : محلّقا . مخارف : قفف أو نعاليق للفرباء ، يجعلون فيها ما يأخذونه من الصدقة ، والمخارف عند العرب : جمع مخرف ، وهى قُفَيفة تشبه الزّنبيل ، يُخْتَرف فيها الرّطب ، أى يُجتنى فيها . قطيفة : نوع من البسط . دَكّة : هى الدكان .

* * *

فَرَابنى عُنوان الصّحيفة ، ومَرأى هذه البِدْعة[2] الطّريفة ، ودَعَانِى التّطيّر بتلك المناحِس ، إلى أن عمدتُ لذلك الجالس ؛ فعزمت عَلَيْه بمصرِّف الأَقْدار ، ليعرّفنى مَنْ ربُّ هذه الدار ، فقال : لَيْس لَهَا مالِكٌ مُعَيَّن ، ولا صاحِبٌ مُبيّن ، إنما هِى مِصْطَبة المقيّفين والمدَرْوزِين ، ووليجةُ المُشَقْشِقين والمُجَلْوِزِين . فقلت فى نفسى : إنا لِلّه على ضَلّةِ المَسْعَى ، وإمْحَالِ المرْعَى ؛ وهَمَمْتُ فى الحالِ بالرُّجْعَى ، لـكنّى استَهْجَنْتُ العَوْدَ من فَوْرِى ، والقَهْقَرَةَ دونَ غيرى ، فولَجْتُ الدّار مُتجرِّعاً الغُصَص ، كما يَلِجُ العصفورُ القَفَص ، فإذا فيها أرائكَ مَنْقُوشة ، وَطنَافِسُ مَفرُوشَة ، ونَمارِقُ مَصْفوفة ، وسُجوفٌ مَرْصوفَة ، وقد أقبلَ المُلكُ يميسُ فى بُرْدتِهِ ، وَيتَبَهْنَسُ بَيْنَ حَفَدَتِهِ ، فحين جلَسَ كأَنَّهُ ابنُ مـاءِ السّماء ،

---

(١) فى اللسان : الدهليز ، بالكسر : مابين الدار والباب ؛ فارسى معرب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ط

نادَى منادٍ من قِبَلِ الأحماء : وحُرْمةِ ساسَان ، أستاذِ الأسْتاذِين ، وقُدْوة الشحّاذين ، لا عَقَدَ هَذَا العَقْد المُبجَّل ، فى هَذَا اليوم الأغَرِّ المحجَّل ، إلاّ الذى جال وجَابَ ، وشبَّ فى الكُدْيةِ وشاب .

* * *

رابنى : شككنى وخوّفنى . عُنْوان : دليل . الصحيفة : الكتاب ، أراد تطيّرت بتلك المخارف ، وأراد أنها دار خيبة وحرمان . وكان ابن همام فى هذه القصة طفيليًّا على ما وصف به نفسَه من الرفاهية ، وربما يتولّع أهل الظرف والأدب بمثل هذا ، فقد حكينا عن إبراهيم بن المهدىّ وإسحاق الموصلىّ مثلَ هذا فى أخبار الطفيليين على منادمتهما للخلفاء وكثرة أموالهما .

البدعة :الشيء المبدع الذى لم يفعل قبله مثله . والطريفة : الغريبة المستظرفة . التطيّر : التشاؤم . المناحس : جمع منحوس وهو الذى لا يفارقه النحس ، وأراد به المخارق والأطمار التى قدم . مصرّف الأقدار : هو الله تعالى . ربّ الدار : مالكها أو الناظر فى إصلاحها ما ذكره ممّا لا يفهم له معنى فهو بسطة المكدين . وقيل المقيفون جمع مُقيف ، وهو الذى يقفوا آثار الناس ، أى يتبعهم يطلب لهم شيئا ، ويدعو لهم . والمدروزين : المكدين ، ودروزة كلمة أعجمية معناها الكُدْية . والمُشَقْشِق : الذى يحاكى أصوات الطيور فتجتمع إليه فيصطادها. والمجلوز والجلواز : الشُرطىّ الذى يتصرّف حول السلطان .

قوله: وليجة ، أى مدخل ، والوليجة : الموضع الذى يلج الإنسان فيه ، أى يدخله أو كهف يستتر فيه . القهقرة : الرجوع إلى خلف . ضَلّة : ضلاله . المسعى : المشى

بعجلة ، أراد أنّ مشيه كان لغير فائدة . المحال : يبوسة وجفوف . فَوْرِى = حَيْنِى من قبْل أن أسكن . الغُصَص : جمْع غصّة ، وهى مايختنق بها ، وتجرّعها صعب . أرائك . سُرُر مزيّنة . طنافس : بُسُط . ونمارق : مخادّ . سجوف = سُتُور . مرصوفة : مضدومة ملتصقة ، وجعل البيت بهذه الأمتعة الكثيرة لأنه بيت عرس ، فهى تستعدّ له ، وإن كان قد رأى فى دهليزه مرقّعات تدلّ على فقر ، فإن الغرباء فى البلاد يعلّقون مُرَقّعاتهم فى دهليز الفندق ، وبيته فى غاية الرفاهية ، والدار المذكورة ، إنما كانت فُندقاً للفقراء الغرباء والمُكْدِين . والجالس فى دهليزها : خادم الفُندق ، وحين سأله عنها أخبره أنها ليس لها ربٌّ معيّن ، إنما هى دار المكدِين والمحارَفين(١) . وقيل لأحد المكدين : أتبيع مرقّعتك ؟ فقال : هل رأيتَ صائداً يبيع شبكته !

المُمْلِك : العروس . يميس : يتبختر ويتبهنس ، مثله فى المعنى . حَفَدته = خدمه وأتباعه ، ويقال : حَفَد العبد يحفِد حفداً ، إذاخدم . وفى الدعاء : «وإليك نسعى ونحفِد » ، أى نخدمك ونعمل لك ، وقال الشاعر :

حَفَد الولائدُ بينهنّ وأسلمتْ ... بأكفّهنّ أزمّة الأجمالِ(٢)

أبو عبيدة ، يقال : حفد يحفِد ، وأحفد يُحفد ، وفسّر طاوس قوله تعالى = ﴿ بنينَ وحَفَدَة ﴾(٣) ، أى خدماً ، فهو مطابق للغة ، وفسّره ابن مسعود رضى الله عنه بالأختان ، وهو مطابق لما فى المقامة ، لأن المكدين لاخدم لهم . وقال الفراء رحمه الله: الحَفَدة : جمع حافد ، ككامل وكَمَلة .

[ذكر المنذر الملقب بابن ماء السماء]

ابن السماء ، الجوهرىّ : ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدى أبو عمرو مُزيقياء ، الذى خرج من اليمن لما أحسّ بسيْل العَرِم ، وسُمّى ماء السماء ،

---

(١) المحارف : المحروم (٢) اللسان ــ حفد ، دون نسبة (٣) سورة النحل ٧٢

لأنه كان إذا أجدب قومُه مانهم ، أى كفاهم مؤنتهم ، حتى يأتيهم الخِصْب ، فكأنه خَلَفٌ من ماء السماء . وقيل لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشأم ، والعرب تُسَمّى أيضاً بنى ماء السماء ، لأنّهم يعيشون بماء السماء ، قال الأزهرىّ رحمه الله : السّماوة ماء بالبادية ، وكان اسم أمّ المنذر ماء السماء ، فسمّته العرب ابنَ ماء السماء .

وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدىّ ، وأمه ماء السماء ، وهى امرأة من النَّمِر بن قاسط ، سُميّت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى الذى اسمه قباذ بن فيروز ، خرج فى أيامه رجل يقال له مَزْدك ، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم ، وألاّ يمنع أحدٌ أخاه مايريده . فدعا قباذ المنذرَ ليدخل فى هذا المذهب ، فأنِف ، وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس ، فطرده قباذ من مملكته ، ونفاه عن الحيرة . ودعا الحارثَ بن عمرو بن حُجْر آكل المرار ، فأجابه . وكان الحارث شديد الملك ، فشدّد له ملكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدى قباذ يوماً ، فدخل عليه مَزْدك ، فلما رآها قال لقُباذ : ادفعها إلىّ لأقضى حاجتى منها . قال له قباذ : دونكها ، فوثب إليه أنوشروان ، فلم يزل يسأله أن يهب له أمَّه حتى قبّل رجليه ، فتركها له . فلما هلك قُباذ وتولّى أنوشروان ، وجلس فى مجلسه أقبل المنذر إليه ، وأذِن للناس ، فدخل عليه مَزْدك ، ودخل عليه المنذر ، فقال أنوشروان : كنت أتمنَّى أمنيتّين ، أرجو أن يكون الله تعالى قد جَمَعهما لى ، فقال مزدك : وما هما أيها الملك ؟ قال : تمنّيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف - يعنى المنذر - وأن أقتل هؤلاء الزنادقه ، فقال له مَزْدك : أو تستطيع أن تقتل الناس كلّهم ؟ فقال : إنك لها هنا يابن الزانية ! والله ماذهب نتن ريح جَوْربك من أنفى ، مذ قبّلت رجليك إلى يومى هذا ، وأمر به ، فقِتل وصُلِب . وقتل فى فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف ، وصلّبهم ، وطلب الحارث ، فخرج

هارباً بجميع مامعه ، وأخذر المنذر فى طلبهم ، فأخذ من بنى آكل المرار ثمانية وأربعين رجلا ، فضرب رقابهم وألحّ فى طلب امرئ القيس ، فلحق بالسموءل. وتمام القصة فى الثالثة والعشرين[1] .

* * *

قوله: الأحماء ، أى الأختان . ساسان : شيخ المكدين، قال الفنجديهىّ : ساسان هو أستاذ المكدين ومقدّمهم ، وواضع طرائقهم ومعلّمهم . قال أبو الفتح إسماعيل بن الفضل بن الإخشيد السراج المكدى فى كتابه : حدثنا أبو بكر البطايرنى المكدى ، حدّثنا محمد بن على بن أحمد الفقيه المكدى ، حدثنا مليك ابن صالح المكدى ، قال: سمعت طرارة المكدى ، قال : قال ساسان : ألا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قلت : بلى ، قال : هى الكدية .

وقوله:أستاذ الأستاذين ، حدّث أحمد بن الحسن، قال: كنت عند أبى الحسن ابن أبى الفضل ، فدخل رجل فذكر أنه شاعر ، فقال : الشعراء ثلاثة : شاعر وشُعرور وشعرة ، فأما الشاعر فالمفلق ، والشّعرور المستملح ، والشعرة المستثقَل لرداءة شِعره . والأستاذون ثلاثة : أستاذ فى الدين كالعلماء والفضلاء ، وأستاذ فى الدنيا كالوزراء والعمال والولاة ، وأستاذ لادين عنده يتعلّم منه ولا دنيا ينتفع بها ، كالحجام ، يسمى أستاذاً والبنّاء والملاح. وبنو ساسان : ملوك الفرس .

قُدْوة : مقدّم. الشحاذين: المكدين والشّحّاذ : الملحّ فى المسألة ، وشحذت السيف بالغَت فى صقالته . المبجّل: المعظّم ، يقال: بجّلته تبجيلا ، أى عظمته تعظيما، مأخوذ من البجيل والبَجال ، وهو الرجل الضخم ، وفى الحديث : أصبتم خيراً بجيلا ، أى كثيرا ضخماً . الأغرّ : المشهور لحسنه . المحجّل: الأبيض . شب : ترعرع ونشأ .

---

(١) انظر ص ١٧٢ ، ١٧٣ من هذا الجزء

فأعجبَ رهطَ الصهْرِ ما أشــارُو إليه ، وأذِنُوا فى إحْضَارِ المنصوصِ عليه ، فَبَرزَ حينئذٍ شيخٌ قدْ أمـالَ المَلوانِ قامتَه ، ونوّر الفَتَيان ثَغــــامَتَه ، فتباشرتِ الجمـاعَةُ بإقبالِهِ ، وتبادَرَتْ إلى استقبـالِه ، فلمّا جَلَس على زُرْبِيّته ، وسكنتِ الضوضاءُ لهَيْبتِهِ ، ازدَلَف إلى مَسْنَدِه ، ومَسَحَ سَبَلَتَهُ بيدِهِ ، ثم قال : الحمد لِلّهِ المبتدِئِ بالإفْضَال ، المبتدِعِ للنَّوال ، المتقرَّبِ إليه بالسؤال ، المؤمَّلِ لتحقيق الآمال ، الّذى شَرَع الزَّكاةَ فى الأمـــوال ، وزَجَر عن نَهْرِ السّؤّال ، ونَدَبَ إلى مواساة المضطر ، وأَمَرَ بإطْعَامِ الْقَانع والمُعترّ ، ووصفَ عباده المقرّبين ، فى كتابه المبين ، فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ والّذين فى أموالهم حقٌّ مَعْلومٌ . للسّائِل والمحرُومِ ﴾ .

أَحْمَدهُ عَلَى ما رزقَ من طُعْمَةٍ هَنِيَّة ، وأَعُوذُ بِهِ من استِمَاعِ دعْوَةٍ بلا نيّة . وأشْهَدُ ألاَّ إلهَ إلاّ اللهُ وحده لا شريكَ له ، إلهاً يجْزِى المتصدّقين والمُتَصـــدّقات ، ويمحَقُ الرِّبا وَيرْبى الصدقات . . . .

* * *

المَلَوان والفتيان : الليل والنهار . وثغامته : شَعْرته . نوّرها : بَيّضها . والثَّغام : نبت أبيض ، وهو ضرب من البُهْمَى ، منابته الجبال ، إذا يَبس ابيضّ بياضا شديدا .

أبو حنيفة : تنبت الثغامة خُيوطا طُوالا دِقاقا من أصل واحد، فإذا جفّت ابيضّت كلها ، وإذا أمحل الثغام ، كان أشدَّ بياضا ، ويشبَّه به الشيب ، قال المرار الفقعسىّ :

أعلاقَةً أمّ الولَيِّد بعــد ما أفنـان رأسك كالثّغام المُخْلِسِ (١)

وقال حسان رضى الله عنه :

إمّا تَرَىْ رأسى تغيّر لونُه شمطاً فأصبح كالثّغام المحوِلِ (٢)

والثّغام : مرعى ، وتُعْلَفه الخيل ، وقال بشر وذكر الخيل :

فباتت ليلة وأديم يومٍ على البُهْمَى يَجُزّ لها الثّغــــاما (٣)

قوله :زُرْ بيته : طِنفسته ، والجمع الزّرابى ، وقيل هى الوسائد ، وقيل الثياب الموشاة . والضّوضاء : الأصوات . ازدلف : قَرُب . مسنده : موضع إسناده . سَبلته : لحيته ، وقيل شاربه .

وهذه الخطبة التى ذكر ، ليس فيها لفظ إلا وهو يتضمّن إشارة للكُدية .

قوله : المبتدِع ، أى الفاعل له قبل أن يفعل . النّوال : العطاء . المؤمّل : المرجوّ . شرع : فرض : ونَهْرُ السؤّال ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾(٤) ، وقال ابن عمران :

---

(١) اللسان ــ ثغم : « المرار الأسدى »
(٢) ديوانه ٣١٠ .
(٣) لم أجده فى ديوانه .
(٤) سورة الضحى .

إنّ ابن آدم حين يلحِف سائلٌ ينقد من حَنَقٍ عليه فينهرُهْ
والله إن يقصده عبد ملحِفٌ بسؤالِهِ يدنيه منه ويشكُرُهْ
فسلِ إلا له ولُذْ به لا تنسَه فالله يذكُرُ عبدَه إذ يذكُرُهْ

وقال أيضاً :

سؤالنا دعـــاؤنا للجنَّهْ لهم علينـا بالقبول مِنَّهْ
مَنْ سال منهم ويك أعطينّه ولو بتمــــرة فواسينَّهْ
أو أجمِلِ الردّ لا تنهرنَّهْ وإن يـكن يُلحف فاعذرنَّهْ

* وادْع له الله وصَبّرَنَّه *

قوله : نَدَب : ، أى دَعا وحرّض . المضطر:الشديد الحاجة. القانع : المتذلل عند السؤال . والمعترّ : المتعرّض للمعروف . والمحروم : الذى لا يسأل أحداً شيئاً وهو محتاج . طُعمة هنيّة : الـكدية ، لأنّ فائدتها تحصل بلا تحمّل تـكلّف ولا مشقة . دعوة بلا نيّة : قولك للسائل : الله يعطيك ووسّع الله عليك ونحوه ، وأنشدوا فيهم :

ورجالٌ ونساءٌ وبنات وبَنُونا
وإذا يدعَى لهم يو ماً تراهم يغضبونا

وقال آخر :

ألم ترنى أبغضَتْ ليلى وذكرها كما أبغض المسكينُ دعوةَ سائِلِهْ

لأن السائل لا يطلب من المسئول الدعاء ، إنما يطلب ما يشبع الأمعاء .

ومما يُستظرف من هذا ماحَكَى الأصمعىّ . قال : مرّ بى أعرابىٌّ سائلا ، فقلت له: كيف حالك؟ قال: أسأل الناس إلحافا فيعطونى كُرْهاً ، فلا يُؤجَرون على ما يعطونى ، ولا يُبارِكُ لِى فيما آخذ ، والعمر بين ذلك فان ، والأجل قريب والأمل بعيد .

سأل أعرابى رجلا يكنى أبا عمرو عند داره ، فقال : يرزقك الله ، فعاد إليه يوماً آخر فقال بمثل ما قال أمسِ وتنحنح ، ففلتَتْ منه ضرطة ، فقال الأعرابىّ :

إن أبا عمرو لمكبوس الوسَطْ إذا سألنـاه تمطَّى وضَرَطْ
* إعطاؤه : يرزقك الله فَقطْ *

قوله: أشهد أن لا إله إلا الله ، أى أعلم وأبيّن ، ومنه : شهد الله ، أى أعلم وبيّن أنه لا إله إلاَّ هو ، ومنه : شهد الشاهد عند الحاكم ، أى بَيّن له ما عنده وأعلمه الخبر . يمحق : يزيل ويستأصل . الربا : الحرام وأصله الزيادة . ويُرْبى: يزيد ويكثر ، أى يضعفها له .

* * *

وأشْهَدُ أنّ محمداً عبدُه الرّحيم ، ورسُوله الكريم ، ابتعثه لِينْسَخَ الظُّلْمَةَ بالضّياء ، وَيِنْتَصِفَ لِلفقراءِ من الأغنياء ، فرَفَقَ صلَّى الله عليه وسلّم بالمِسْكين ، وخَفَض جناحَهُ لِلْمُستَكين ، وفَرَض الحقوقَ فى أموالِ المُثْرين ، وبَيَّن ما يَجب لِلْمُقِلّين على المكْثِرين ، صلَّى الله عليه صَلاَةً تُحظيهِ بالزُّلْفة ، وعَلَى أَصْفيائه أهلِ الصُّفة . أما بعد :

فإنّ اللهَ تعالى شرع النِّكاح لتتعفَّفُوا ، وسنَّ التّناسُل لكى تتضاعفوا ، فقال سبحانه : ﴿ يأيُّها النَّاس إنا خلقناكُمْ من ذَكَرٍ وأُنثى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائل لتَعَارفوا ﴾ . وهذا أبو الدّرَّاج ، ولاّج ابن خرّاج ، ذو الوجه الوَقَاح ، والإفْكِ الصُّراح ، والْهَرِيرِ والصِّياح ، والإبرام والإلحاح ، يخطب سَلِيطَةَ أهْلِهَا ، وشريطة بَعْلِها ؛ قَنْبس بنت أبى الْعَنْبس ، لِمَا بَلغَه من التِحافِها بإلحافها ، وإِسْرافِها فى إسْفَافِها ، وإنكماشِهاَ على معاشها ، وانتعاشها عند هِراشها . وقد بَذَل من الصَّدَاق شِلاَّقًا وعُكَّازاً ، وصِقَاعاً وكرّازاً ، فأنكحوه إنكاحَ مثلِه ، وصِلُوا حَبْلَكُمْ بحبله ، ﴿ وإنْ خفتُمْ عَيْلةً فسوْف يغنيكم اللهُ منْ فضله ﴾ .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكمْ ، وَأسألُه أن يكثر فى المصاطب نَسْلَكُمْ ، ويحرس من المعاطب شَمْلَكُمْ .

* * *

ينسخ : يزيل . المسكين : الضعيف الذليل. وخفَض جناحه: ألان جانبه ، فهو مثلٌ للإشفاق والحنان ، وأصله أنّ الطائر إنما يخفض جناحه على فراخه ، ويُلحفها به شفقة عليها ، قال الله تعالى : ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاح الذُّلِّ منَ الرَّحْمَةِ ﴾[1] . واستكان : خَضَع وذلّ ، وهو استفعل من كان ،أصله استكوْن ، نقلت حركة الواو إلى الكاف ، فانقلبت الفاء لتحركّها فى الحكم وانفتاح ماقبلها

(١) سورة الإسراء ٢٤

فهى فى الأصل كاستقام وبابه ، أو يكون افتعل من السكون لأن الخاضع يقلّل الكلام ، وأصله استكن ، فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله :

* قلت وقد جرت على الكَلْكَالِ *

أراد الكلكل ، وقال تعالى : ﴿ فما استكانوا لربِّهم وما يتضرَّعُون ﴾(١).

وأنشد أبو على :

* فمَا استكَانَ لما لاَقَى ولا خَضَعَا *

قوله : المثرين : الأغنياء . الزلفة : القربة ، يُقرَّب بها إلى الله تعالى . أصفيائه : أحبابه .

الصُّفّة : تشبه : القبلة ، والصّفّة كالسقيفة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغرباء يظعنون إليه من الجهات ، وليس عندهم شىء ، فيسكنون سقائف المسجد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّض الناس على الصّدقة عليهم ، وكان يجلس لهم ، فيعلّمهم القرآن . وخصّهم الحريرىّ بالذّكر لأنّ لهم حالة يشبهون بها المُكْدِين؛ من لباس الُخلْقان ، والعيش من صدقات الناس ؛ فهم يتأسَّوْن بأهل الصُّفة ، ويجعلونهم حجّةً على مَنْ زَجَرَهُم .

ومما يحسن أن ينشد فى هذا المعنى قول ابن عمران :

السائلون عيال الله والمال لِلّـه فابذله فيهم خابَ مَنْ لَؤُما
فجدْ على ثقةٍ بالله من خَلَفٍ يا ويح مَنْ كان للرحمن متهِماً !
واحذر من الردّ إن الله يمقته من غير عذرٍ وشؤم الشحّ قد عَلِمَا

(١) سورة المؤمنين ٧٦

الشموب : جمع شَعب ، وهو أكبر من القبيلة . الدرّاج ، كناه بذلك لكثرة حركته . ولاّج : كثير الوُلوج على الناس للكُدية . خرّاج : كثير الخروج فى طلب رزقه ، والولاّج: الخرّاج الذى يُحسن الدخول فى أموره والخروج منها ، ويقال: فلان ولاّج خرّاج ، إذا كان متصرّفا فى أموره نفّاعا لأوليائه ، ضرّارا لأعدائه . والإفك : سوء الكذب . الصُّراح : الظاهر البيّن ، يريد أنه إذا وصف حالته فى كُدْيته لا يتكلّم إلا بالكذب . الهَرير : كثرة الصياح والشرّ ، وهرير الكلب: صوته دون نُباحه من قلّة صبره على البرد . والإبرام : الإثقال والإضجار ، يريد أنه يوالِى الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصَّدَقة حتى يفتدوا منه . والإلحاح : المداومة والإكثار من السؤال .

وقدم الحطيئة المدينة فى سنة مجدبة ، فمشى أشرافها بعضُهم لبعض ، خوفاً من لسانه ، وقالوا: قدم علينا هذا الرجل ، وهو يأتى الشريف منّا ، فإن أعطاه جَهَد نفسه ، وإن حرمه هجاه ، فجمعوا له بينهم أربعمائة دينار فأتوْه ، فقالوا : هذه صلة آل فلان، وهذه صلة آل فلان، فأخذها، وظنوا أنهم قد كفوه المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول: مَنْ يحملنى على بغليْن كفاه الله كيّة النار.

السَّليطة : الحديدة اللسان ، وقد سلُطت فهى سَليطة . شريطة : موافقة بعلها ، أى زوجها ، أى جاءت على شرط زوجها ، فهى مثله فى خصالها كلّها . قَنبس : اسمها ، وهو من القبَس ، وهى الشعلة ، كأنها لحدّتها شعلة نار تحرق ما مرّت به . عنبس : من العبوس ، ونونه ونون قنبس زائدتان . التحافها : ارتداؤها والتواؤها فيه . إلحافها : إلحاحها فى السؤال . إسفافها : تساقطها على ما تجمع من الناس ، والإسفاف: التّتبّع لمداق الأمور ، والإسفاف : الدخول فى الأمر الدنىء ، وقد أسفَّ: تعرّض للأمر الدنىء . انكماشها: انحفازها واجتهادها

نتعاشها : قيامها وارتفاعها . هراشها : مشارّتها لقرابتها ، والمهارشة أصلها للكلاب ، وهى أن يترافع الكلبان ويتنابحا ، ويعضّ كل واحد صاحبه ، فجعل مدافعتها عند الشرّ لأقرانها ومضارتها كالمراش للكلاب ، ولا تكمل عندهم نجابتها ، حتى تفوق أقرانها فى الشرّ والسبّ بالقبائح وضرب الكفّ على ذلك ، وإلا فهى ناقصة . بذل : أعطى . شلاّقا : ثوب مرقع ، وليس بعربىّ ، وقيل هو شِبْه المِخْلاة ، وقيل هو خريطة تُجعل فيها كِسَر الخبز . عُكّازاً : عصا تُقرع بها الأبواب ، وتضرب بها الكلاب . صِقَاعا : خرقة بالية تجعلها على رأسها . كرّازا : إناء تعلقه فى ذراعها، تجعل فيه الصدقة. وقيل: الكرّاز إناء لشرب الماء ، وتسمّيه عامتنا الكرازة ، فكان صداق هذه المرأة ثوبا مرقّعا تلبسه للكُدْية. وخرقة بالية لرأسها وعصا تَقرع بها الأبواب ، وإناء إما أن تجعل فيه مايَدِقّ من الصدقة أو تجعل فيه ماء لشربها عند طوافها للكُدْية ، والكرّاز هو الُخرْج ، والكرّاز : كبش يَحْمِل عليه الراعى أداته . عَيْلة : فقرا . شملكم : عددكم . المعاطب : المهالك .

وخطّأ أبو محمد فى الدرة[1] من يذهب من الخواصّ بالعيْلة إلى العيال، وقال: إنما العيْلة الفقر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾[2] وتصريف الفعل منه عال يَعيل فهو عائل ، والجمع عالة ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ ووجَدَك عائلاً فأغْنَى ﴾[3] ، وفى الحديث : «لأن تدَع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » . وأما الذين يعالون فهم عيال ، واحدهم عيّل كجيّد وجياد ، وجمع عيال على عيائل كركاب وركائب، وأعال فهو معيل : كثر عياله ، وعالهم يعُولهم . وفى الحديث : « ابدأ بمن تعول » ،ومن كلام العرب : والله

(١) درة الغواص ٣٩ (٢) سوره التوبة ٢٨
(٣) سورة الضحى ٨

لقد عُلْتُ حتى علت أى صنت عيالى حتى افتقرت . وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أن لا تَعُولوا﴾[1] فمعناه ألاَّ تجوروا . وقال بعض العرب لحاكم حُكِم عليه بما لم يوافقه : والله لقد عُلتَ علىّ فى الحكم ، أى جرت ، ومَنْ فسَّر فى الآية ﴿ تعولوا ﴾ بأنّ معناه تكثُر عيالكم فقد وَهَمَ .

. . .

[رسالة للصابى فى التطفيل]

وإذْ فرغنا من تفسير هذه الخطبة الهزلية ، وقد قدّمنا أن ابن همام فى هذه المقامة طفيلىّ ، فنذكر هنا العهد الذى كتب الصابى بأمر معز الدولة لمحمّد ابن فريعة الطفيلىّ ببغداد ، وقد استخلفه على التطفيل ؛ فإن هذا العهد يوافق خطبة المقامة فى كثير من أغراضها .

وذلك عهد عهده محمد بن عبد الرحمن إلى الفضل بن النعمان ، حين استخلفه على سُنّته ، واستنابه على حياطة رسومه وسنّته ؛ من التطفيل على أهل مدينة السلام ، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، وما يجرى معها مِنْ سوادها وبياضها وأطرافها ، لما توسّمه فيه من قلة الحياء ، وشدّة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم .

وأمره أن يتوسّم اسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظه بمجهوده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، فإنّ كثيراً من الناس قد نسب صاحبه للشَرَه والنَّهم ، وحمله على الجشع والقَرَم ، فمنهم من غلط فى استدلاله ، فأساء فى مقاله ، ومنهم مَنْ شَحّ بماله ، فدفع عنه

(١) سورة النساء ٨

باحتياله ، وكلا الفريقين مذموم، وجميعهما مُليم ملوم ، ولا يتعلقان بعذر واضح، ولا يتعرّيان من لباس فاضح . وقد عُرِفت يا أخى بالتطفيل ، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل ، لأن التطفيل مشتق من الطَّفَل ، وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كَثُر استُعمل فى صدر النهار وعجزه ، وأوله وآخره ، كما قيل : القمران للشمس والقمر ، وكما قيل العمران لأبى بكر وعمر .

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بعراياه ، ويبسط الأمر بسراياه ، فإنه يظفر من إرادته بالغنيمة الباردة ، ويصل بها إلى الغريبة الشاردة . فيجد بها من ظرائف الألوان ، الملذّذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة فى الُحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحِذْق صناعتهم وجوْدة أدواتهم ، وخِصْب ناديهم ، وكثرة ذاتِ أيديهم ؛ والله يوفر من ذلك حظّنا ، ويُسَدّد نحوه لحظنا ، ويوضّح عليه دليلنا ، ويسهّل إليه سبيلنا .

وأمره أن يجتلب التّكرمة ممن يحصل منهم ودّه ، ويستدعى بالتلطف نائله ورِفْده ، وكثيراً مّا يتّفق ذلك للمداخلين ، ويتيسر للمتوصّلين .

وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ ومُدِيريها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعمهم ومشاربهم .

وأمره أن يتعهد أسواق المتسوّقين ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، أو أطعمة قد احتُشِد منها ، أتبعها إلى القصد بها ، وشيّعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلَم ميقات الدعوة ، ومَنْ يحضرها من أهل اليسار والثروة .

وأمره أن يجتنب مجامع العوامّ المقلين، ومحافل الرّعاع المقترين ، وألاّ ينقل إليها قدما ، ولا يفغر لما كلها فماً ، فإنها عصابة تجتمع على مضَض النّفوس والأحوال . وقلة الأحلام والأموال ، وفى التطفيل عليها إجحاف بها يؤلم . وإزراء بمروءة التطفيل يثلم .

وأمره أن يحوز الخِوان إذا حصل، والطعام إذا نُقل، حتى يعرف بالحَدْس والتخمين عدد الألوان فى الكثرة والقلة، وافتنانها فى الطِّيب واللذة، فيقدّر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهى عند انتهائها، فلا يفوته نصيب من كَثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظّ مِنْ دقيقها وجَليلها. ومتى أحسّ بنقلة الطعام وحجْره، أمعن فى أوّله إمعان الكيّس فى سعيه، والرشيد فى أمره، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون طرفا، ويقلّون تأدبا، ويظنّون أن المائدة تُبلِغهُم إلى آخر حاجتهم، وتنتهى بهم إلى حدّ غايتهم، فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الوامق الراغب، وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب.

وأمره أن يروضَ نفسه، ويغالط حِسّه، ويضرب عن كثير مما يلحقهُ صَفْحًا، ويطوى دونه كشحًا، ويستحسن الصَّمَم عن الفحشاء، ويغمض عن اللقمة الخشناء، وإن أتته الوكْزة فى حلقه، صبر عليها لأجل الوصول إلى حقه، وإن وقعت الصفعة فى راسه، عضّ عليها بمواقع أضراسه، وإن لقيه لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذا كان ولج الأبواب، وخالط الأصحاب، وجلس مع الحضور، واختلط بالجمهور، فلا بدّ أن يلقاه المنكِر لأمره، ويمرّ به المستغرب لوجهه، فإن كان حرّا حسنا أمسك وتذمّم، وإن كان فظًّا غليظًا همْهَم وتكلّم. وأن يستعمل مع المخاطَب له الملاينة، وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة. ليردّ غيظه ويقلّ حده، ويكفّ غَرْبه ويأمن سعيه. وأمره أن يتعهد الجوارشات المعدّة للعدد، والمقويّة للمعد، المشهيّة للطعام، المسهلة سبيل الانهضام، وأن يكون فى اتخاذها كالكاتب الذى يخطّ أقلامه، والفارس الذى يَصقُل حسامه.

وأمره إذا غشىَ أبوابَ الملوك وأهل السلطان، أن يصانع البوّابَ والحجاب، ويخدم القوّاد والكتّاب، فإذا دخل السواد الأعظم، توسط الجمع لا يتأخّر

ولا يتقدّم ، بعد أن يجمل ثيابه ، ويحسّن كلامه وجوابه ، فطعام الأمراء تُدْعَى إليه الحفلاء احتفالا ، ويُتَكَمَّل بالوفود على العموم اكتفالا .

فهذا العهد مطابق لأحوال هذه المقامة .

[بعض الخطب الهزلية]

ومما يتصل بخطبة المقامة من الخطب الهزلية ما حدّثوا :

أن رجلا خطب إلى قوم ، وجاء يخطب ، فاستفتح خطبة النكاح بحمد الله فأطال ، ثم ذكر خلق السموات والأرض واقتصر ، ثم ذكر القرون حتى ضجر مَنْ حضر ، ثم التفت إلى الخاطب فقال : ما اسمُك أعزك الله ؟ فقال : والله قد نسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالق ثلاثا إن تزوَّجتُها بهذه الخطبة . فضحك القوم وعقدوا له فى مجلس آخر .

أنكح خالد بن صفوان عبدَه أمتَه ، فقال له العبد : لو دعوت الناس فخطبت . قال : ادعهم أنت ، فدعاهم ، فلمّا اجتمعوا تكلّم خالد ، فقال : إن الله أعظمُ وأجلّ من أن يُذكر فى نكاح هذين الكلبين ، وأنا أشهدكم أنى قد زوّجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية .

خطب مُصعب بن حيّان خطبة نكاح ،فحصِر فقال : لقّنوا موتاكم « لا إله إلا الله » . فقالت له الجارية : عَجّل الله موتك ، ألهذا دعوناك !

خطب ثقيل فى تزويج فأطال ، فقام واحد من القوم ، وقال : إذا فرغ الثقيل ، بارك الله لكم ، فإن علىّ شغلا أريد المبادرة فيه .

وخطب رجل امرأة، فجعل يخطب وينعِظ، فضرب برأس ذَكَره بيده وقال: مَهْ! إليك يُساق الحديث.

* * *

فلمّا فرغ الشيخُ من خُطْبَتِه ، وأبْرَمَ لِلخَتَن عَقْدَ خِطْبتِه ، تَساقَطَ من النِّثَار ما استَغْرَق حَدَّ الإكثار ، وأغْرى الشَّحِيحَ بالإيثار . ثم نهض الشيخ يَسْحَبُ ذَلاذِله ، ويَقْدُمُ أراذِلَهُ .

قال الحارث بن همّام : فتبعتُه لأنظُرَ عُرْجَةَ القوم ، وأُكمِلَ بَهْجَةَ اليوم . فعاج بهم إلى سِماطٍ زَيّنَتْهُ طُهاتُه ، وتناصَفَتْ فى الحُسْنِ جِهاتُه . فحِينَ رَبَعَ كلُّ شخصٍ فى رِبْضَتِـهِ ، وَطَفِقَ يَرْتَعُ فِي رَوْضَتِهِ ، انْسلَلْتُ مِن الصّفّ ؛ وفرَرتُ من الزَّحف . فحانت من الشيخ لَفتَةٌ إلىّ ، ونظرَةٌ هجم بها طَرْفُهُ عَلَىّ ، فقال: إلى أيْنَ يا بُرَم ؟ هَلاَّ عاشَرْتَ مُعاشرةَ مَنْ فيهِ كرَم ! فقلت : والّذى خلقَها طِباقا ، وطَبّقها إشراقًا ، لاذقتُ لمَاقا ، ولاَ لُسْتُ رُقَاقا ، أو تخبرَنى : أيْنَ مَدَبُّ صِباك ، ومن أيْنَ مَهَبُّ صَباك ؟ فتنفّس الصُّعَداء مراراً ، وأرسل البكاء مِدْراراً ، حتّى إذا استَنْزَفَ الدَّمع ، استَنْصَتَ الجمع ، وقال لى : أرعِنِي السَّمْع .

• • •

قوله : أبرم ، أى أحكم وسدَّد . والخَتَن : ولىّ الزوجة مثل الأب والأخ وابن العم ، فهم الأختان ، وكل شىء من قبَل الزوج ، فهم الأحماء ، واحدهم حماً مثل قَفَا ، وحمو مثل أبو ، وحَمْء مهموز ، والأصهار تجمعهم .

والخِطبة : مراسلة المرأة للزواج . والنِّثار : ما نُثِر عليه من الدراهم ، وقد نثرت الشىء نثرا إذا رَميْتَ به متفرقاً ، وأصحابُ الزوج تدخلهم حميّة عند ذلك فينثر كلٌّ واحد منهم من الدراهم ما أمكنه ، فَتُجْمَع ويُشترى منها أنواع الأطعمة ، ولذلك قال : أغرى الشحيحَ بالإيثار : أى حرّضه على أن يتكرّم . واستغرق : جاوز . وحدّث ابنُ قتيبة عن أبى عثمان ، قال : مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثيرون ، فسألت بعضهم : ما جمعهم ؟ فقال : هذا سيّد الحى تزوج منا فتاةً ، فتكلّم الشيخ فقال : الحمد لله وصلّى الله على رسول الله ، أما بعد؛فإن الله جعل المناكحة ـ التى رضيها فعلا،وأنزلها وحياً ـ سبب المناسلة، وإن فلانا ذكر فلانة ، وبذل لها من الصَّداق كذا ، وقد زوّجته إياها ، وأوصيته بوصية الله فيها ، ثم قال : هاتوا نِثَاركم ، فقلبت على رءوسنا غرائر التمر .

قوله:ذلاذله، أى أطراف ثوبه ، والذلذل. مايلى الأرض من أسفل القميص، أراذله : جمع أرذل ، وهو الدنىء ، والرَّذْل والمرذَل والرّذيل : الدّون . والعُرْجة: التعريج ، ويقال :ماعليه عُرْجة ولاتعريج،أى إقامة . وبهجة الشىء : حسنه ونضارته . وعاج : مال . والسِّماط : كلّ مُسْتَوٍ على نسق، وصُفّ الناس سماط وأراد به المائدة . والطّهاة : الطبّاخون من النّاس . تناصفت : اعتدلت ، وأنصف كلّ جزء منها صاحبَه ، والتناصف : اعتدال الحسن . ربَع : جلس ، يقال: ربعت بالمكان : أقمت به ، وربعت الحجَر : رفعته باليد ، لأنظر شدتى . وربَع : وقف وتحبّس . ربْضته : موضعه الذى يقعد فيه ، والرِّبضة : القطعة

الغليظة من الثّريد . يرتع : يأكل ، وفلان يرتع ، أي هو مخصب لا يعدم شيئاً يريده . الروضة : موضع العشب ، وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام . الزّحف : الضرب والوثوب إلي الشّرّ ، وأراد أنه لما جلس كلُّ إنسان أن يأكل خشيَ هو إن جلس للأكل أن يغرم ويشّهر بأنه طفيليّ ، فيحتاج أن يتدَافع ، وأن يتواثب مع صاحب الحانوت فى ثمن ما أكل ، ففرّ من ذلك . والزحف : مشي الأعمى . لفتة : نظرة بالتواء ، كأنه يلوى عنقه فينظر ، ولفت إليه لفتا والتفت : صَرف وجهه إليه . وهجم : دَخَل عليه بغتة . بُرَم : بخيل ، وهو الذى لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المغرَم . والمعاشرة : ترك المخالفة فى الصحبة . طِباقاً : جمع طبق ، أى هى طبق فوق طبق ، يعنى السماء . وطبّقها : ملأها وعمّها ، يقال : طبّق الغيمُ تطبيقا إذا أصاب بمطره جميعَ الأرض . إشراقاً : نوراً وضوءا . لَماقا ، الأصمعى رحمه الله : هو ما يُشرب ، فإن أردت نفيه ، قلت : ما ذقت لَماقا ، وأنشد :

كبرقٍ لاح يُعجب مَنْ رآه ولا يشفى الحوائمَ من لَمَاقِ[1]

الحوائم : العطاش ، وحكى يعقوب أن اللّماق يَصْلُح فى الأكل والشرب ، قال ابن كيسان : هو الشيء اليسير من الطعام والشراب .

لُست رُقاقا : أكلت خبزا مرقّقا ، وَاللَّوْس : تتبع بقية الشيء الحلو فى فمك . ابن سيده : لاس لوْساً : تتبّع الحلاوة ، فأكلها ، وماذاقَ لوْسا ولا لواساً ، أى ذواقا ، ولا يلوس كذا ، أى لا يتناوله .

أو تخبِرنى : حتى تخبُرنى . أين مدبّ صِباك ، يريد أين ولدت فدببت صغيرا . مهبّ صَباك : مجيء ريحك ، وأراد أين بلدك . الصّعداء : التنفس بتوجّع .

---

(١) اللسان ــ لمق ، ونسبه إلى نهشل بن حرى .

وهى من فعل المهموم . استنزف الدمع : استفرغه بالبكاء حتى انقطع ، ونزف وأنزفه : أفناه بالبكاء ، واستنصت : أمرهم بالسكوت .

* * *

مَسْقَط الرَّأسِ سَروجُ وبِهَا كُنْتُ أَمُوجُ
بلدةٌ يوجَدُ فيهَا كلُّ شيء وَيرُوجُ
ورِدْها من سَلْسَبيلٍ وَصَحَارِيهَا مُرُوجُ
وبَنُوهـا ومغانيهِمْ نُجومٌ وَبُرُوجُ
حَبَّذا نَفْحَةُ رَيَّا هَا وَمرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُبَاهَا حِينَ تنجابُ الثُّلوجُ
مَنْ رآها قال مَرْسَى جَنَّةِ الدُّنيا سَروجُ
ولِمَنْ ينزَاحَ عنْهَا زَفَراتٌ ونشيجُ
مِثْلُ ما لاقيتُ مُذْزحْزَحَنِي عنْهَا الْعُلُوجُ
عَبْرَةٌ تَهْمِي وَشجْوٌ كلَّمَا قَرَ يَهِيجُ
وهمومٌ كُلَّ يومٍ خَطْبُهَا خَطْبٌ مَريج
ومساحٍ في التَّرَجِّي قَاصِرَاتُ الْخَطْوِ عُوجُ
لَيْتَ يَوْمِى حُمَّ لمَّا حُمّ لى مِنْهَا الخرُوجُ

مَسْقط الرأس ، يريد الموضع الذى سقط فيه رأسه عندما ولِدَ . أموج : أتصرّف وأتحرّك ، والمائج : المضطرب . يروج : يتعجَّل . ورِدها : ماؤها . السلسبيل . عين فى الجنة ، والسلسبيل الخمر . والمروج: المواضع الخصبة. مغانيهم:

منازلهم . والبروج : منازل القمر، وأراد أنهم فى الحسن والرفعة كالنجوم ، وأن دورهم فى العلوّ والاستواء كالبروج .

[مما قيل فى الحنين إلى الأوطان]

وسبقه الحلوانى القيروانى إلى هذا التشبيه ، فقال يتشوّق إلى القيروان بعد خرابها :

ليتَ شعرى وليت حرف تمنٍّ ... رُبّما علل الفؤاد السّقيما (١)
كيف يا قَيْروانُ حالُك لمّا ... نثر البين سلكَكِ المنظوما
كنتِ أمّ البلاد شرقاً وغرباً ... فمحا الدهر وشْيَكِ المرقوما
نحن أولادها ولكنْ عَقَقْنا (٢) ... بعد أن لم نُطِقْ بها أن نقيما
دِمَنٌ كانت البروج وكنّا ... أَنْجُماً فى قِبابها ونُجوما

وقال السرىّ يتشوق إلى الموصل وكان بحلب :

أمحلّ صَبْوتنا دعاء مشوقِ ... يَرْتاح منك إلى الهوى الموموقِ (٣)
فمتى أزورُ قباب مشرفة الذّرَا ... فأدور بين النّسر والعيّوقِ
وأرى الصّوامع فى غوارب أُكْمِها ... مثل الهوادج فى غوارب نُوقِ
محمّرة الجُدْران ينتح طيبُهَا ... فكأنّهَا مبنيّة بخَلوقِ
حُمْرًا تلوح خلالَها بيض كمَا ... فُصِّلت بالكافور بين (٤) عقيقِ
كلف تذكّر قبل ناهية النّهى ... ظلّين : ظلّ هوى وظلّ حديقِ
فتفرّقت عبَرَاته فى خدّه ... إذ لامجير له من التفريقِ

---

(١) الذخيرة ٤/١/٢٢٥ . (٢) الذخيرة : « نحن أبناؤها ولكن غنينا » .
(٣) ديوانه ١٨٦ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .
(٤) الديوان : « سمط عقيق » .

وقال الثعالبي : ما نظرت إلى الصوامع مذ برزت من نيسابور إلا ذكرت بيته ، فأرى الصوامع،واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبَراعته .

* * *

قوله : نفحة ريّاها ، أى حركة رائحتها الطيبة . مرآها البهيج : منظرها الحسن . وأزاهير رُباها: أنوار كِداها ،وهي جمع أزهار،وأزهار جمع زهر،وهو النَّورْ . تنجاب : تزَوُل.

ثم قال : سَرُوج هى الموضع الذى أرست به جنة الدنيا،أى ثبتت فيه فكأنه قال : جنة الدنيا هى سَروج . وسَروج هذه بلد بقرى وعمارات ، وهى من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة ، والجزيرة انقسمت قسمين : ديار ربيعة وديار مضر، وسَروج من كور ديار مضر،وهى ثغرية إذا كان للمسلمين قوة يملكونها، وإذا ضعفوا غلبهم الروم،عليها وهى كثيرة الثلج والبرَد.

قوله: ينزاح : يبعد . النشيج: البكاء. والزفرة : تنفّس المهموم . زحزحنى: نحّانى . تهمى : تسيل . شَجْو : حزن . قرّ : سكن . يهيج : يتحرك . خطْبها: أمرها مَريج :مختلط . مساع :مواضع تصرفه ، ويكون المسعى مصدراً بمعنى السّعى. قاصرات ، أى قصيرة ، وكذا استعمالها لأن فعلها قصُر ، واسم فاعلها فعيل مثل ظرف فهو ظريف . الخطْو : جمع خطوة . عوج: معْوجّة . يومى حمّ ، أى يوم موتى قدّر ، أراد : ليت أنى مت ولا أرى خروجى منها .

أنس رضى الله عنه قال : النبى صلى الله عليه وسلم : « لايتمنّين أحدكم الموت لضرّ نزل به ،فإن كان لا بدّ فاعلا ، فليقل :اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى : وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

جابر رضى الله عنه : أن النّبى صلى الله عليه وسلم قال « :لاتمنّوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ، وأن يرزقه الله الإنابة » .

وفى معنى وصفه سروج وبكائه عليها، قال الحصرى[1] الأعمى يتشوق إلى القيران:

أيا سقى الله أرض القيروان حياً ... كأنه عبراتى المستهلاتُ[2]

فإنَّما لذة الجنات تربتها ... مسكيّة وحصاها جوهرياتُ

أرض أريضة، أقطار مباركةٌ ... لله فيها براهينٌ وآيات

وحدّثنى الفقيه أبو عبد الله بن زرقون فى بستانه بطريانة، أيام قراءتى عليه النّوادر والكامل، وكان رحمه الله ذاكراً بالطريقة الأدبية، مع تميّزه بالطريقة الفقهيّة، فدارت بينى وبينه فى إحدى العشيات أنواع من المذاكرات فى فنون أدبيات، فاهتزّ رحمه الله، وهشّ، وأظهر السرورَ بى ـ وأنا يومئذ غلام ما بَقَل عِذَارى ـ فقال: لقد علمتَ أن بينى وبينك أخوّة، قلت: وكيف ذاك ياسيدى؟ فقال: إنى وُلدت ببلدك شَرِيش؛ فزدت بالحديث غبطة، واستزدت منه، فقال لى: ومع ذلك فثَمّ قصة مستظرفة:

اعلم أنى كنت اجتزت بَشَريش قافلاً من العَدْوة، مع الفقيه أبى بكر عبد الله بن العربىّ رحمه الله. فلما صرنا فى بطاحها، وبين كَرْماتها وجنانها، أخذ الفقيه أبو بكر يثنى عليها بكلّ لسان، على كثرة مارأى من البلدان، ويقول: إن الأشياء التى جمعت فيها لاتكاد تجتمع فى بلدة، من كثرة الزّرع والضّرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أنى ولدت بها؟ فقال لى أبو بكر: أتقول أنت الآن:

* مسقط الرأس شريشُ *

---

(١) ط: «الحضرمى» تحريف   (٢) ديوانه ٣٩

فقلت له مجيزا :

* وبها كنت أعيشُ *

فقال أبو بكر :

* بلدة يوجـــد فيها *

فقلت :

* كلّ شىء ويَرِيش *

فقال أبو بكر :

* وِرْدها من سلسبيلٍ *

فقلت :

* وصحـــاريها عريشُ *

ثم سرنا فى طريقنا على قوافى السروجية ، فرددناها شريشية ، وقطعنا بها الطريق ونحن لا نشعر ، فكانتْ أسرّ عشيّة رأيت ، بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنّه قد نيّف على الثمانين بسنتين، يحدّثنى عن ابن عربى وابن عبدون الكاتب ونُظَرائهم ، فى رياض كلّها نزهة على نهر إشبيليّة ، وهى أمامنا على بهجتها وجمالها ، مادحًا لى ولبلدى ، ليدخل علىّ بذلك المسرّة ، نسأل الله أن يبلغه غاية السرور فى دار البقاء .

* * *

قال : فلمّا بيّنَ بَلَدَهُ ، ووعَيتُ ما أَنْشدَه . أَيقَنْتُ أنَّهُ عَلاّمَتُنا أبو زيْد ، وإن كان الهرَمُ قَدْ أوثقه بقَيْدٍ . فبادَرْتُ إلى مُصافَحَتِه ، واغتنمتُ مؤا كَلَتَهُ مِنْ صَفْحَتِهِ ، وظَلْتُ مُدَةَ مقامِي بمصر أعْشُو إلي شُوَاظِهِ ، وأحْشُو صَدَفَتيّ مِنْ دُرِّ ألفاظِهِ ، إلي أن نَعَب بيننا غُراب البَيْن ، ففارقتُه مفارقة الجفنِ للعين.

* * *

قوله : وَعيت ، أى حفظت .عَلاَّمتنا : عالمنا المشهور بالعلم . أوثقَه : ربطَه وشدّه ، وقد تقدّم هذا القبيل من الهرم فى أخبارِ وأشعار حسانٍ . مصافحته : معانقته ووضع كفّي على كفّه .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « أيُّما امرىء يُصافح أخاه ليس فى صَدْرِ واحدٍ منهما على أخيه إحْنَه لم تتفرّق أيديهما حتى يغفر الله لهما ما مضى من ذنوبهما » .

الإحْنة : الحقد .

اغتنمتُ : حسبتُها غَنيمة . مؤا كلته : الأكل معه .

ابن عمر رضى الله عنهما : طعام السخىّ دماء ، وطعام الشحيح داء .

ظلْتُ ، أى دمت ، قال تعالى : ﴿ الّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ﴾[1] ، أى دُمْتَ عليه مقيماً . قال سيبويه رحمه الله : أصلُه : ظَلِلت . الليث : يقال : ظلَّ نهاره صائما . ولا تقول العرب : ظلّ إلا لكلّ عملٍ بالنّهار ، كما لا تقول:

---

(١) سورة طه آية ٩٧

بات إلاَّ للعمل باللّيل . أعْشُو : أنظر ببصرٍ ضعيف . شواظه . ناره ،والشُّواظ لهبُ النّارِ الّذى لا دخان فيه . صَدَ فَتيّ : أذُنى . نعب : صاح . البيْن :الفراق، والغُراب إذا صاح عندهم تشاءموا به ، وقد تقدَّم ذلك . مفارقة الجفن للعين ، أى مسرعا بقدر ما تفتح عينَك .

تم الجزء الثالث من كتاب شرح المقامات للشربشى ويليه الجزء الرابع وأوله شرح المقامة الحادية والثلاثين .

فهرس المقامات

فهرس الموضوعات(*)

صفحة

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة